موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف
أ.د عقيل حسين عقيل
جامعة الفاتح - كلية الآداب

الجزء الأول

وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

موسوعة الأسماء الحسنى والاستخلاف في الأرض

أ.د. عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح

كلية الآداب

طرابلس ليبيا

الشكر والتقدير

فاشكرْ جميلاً نلتَه ومُنِحْتَه   فالشّكرُ رَبْطُ تفضُّلٍ وتبرُّعِ

يسرني أن أتقدم بعظيم الشكر ووافر الامتنان للذين بذلوا جهودهم الكريمة وقدموا العون فأسهموا في تصويب الهنات التي بدت هنا وهناك ، وأخص بالذكر:

الدكتور علي محمد الصلابي

هذا العالم العلم الذي تجشم عناء قراءة الموسوعة وأبدى ملاحظاته بكل موضوعية على الجانب العلمي والعقدي فيها، فله من الله خير الجزاء ومني الشكر كله.

والشكر موصولٌ للأخوة أعضاء لجنة التصويب اللغوي وهم :

* من ليبيا:

الدكتور عثمان إبراهيم علي الذي بذل جهداً محموداً وسعى حثيثا لان تخرج الموسوعة خالية من الأخطاء على قدر ما استطاع.

* من العراق الأساتذة المحترمون:

. الدكتور علي عبد الرزاق عبد القادر.

. الدكتور وليد محمد رشيد.

. الدكتور خالد مهدي صالح.

* من مصر الدكتور المحترم: سالم عبد العزيز سالم

* من فلسطين الأستاذ المحترم: عاطف سعيد

فإلى هؤلاء وكل من خصني بعنايته ولو بدعاء أقدم شكري وتقديري.

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبعد

فإن البحث في أسماء الله الحسنى من أسس العقيدة، ومن تمام الإيمان به تعالى، فالإيمان به تعالى أصل كل أصل ومصدر كل فرع، ولكن هناك من الحُجُب التي تَحْجُبُ رؤية طريق معرفة الحق للوصول إليه ومنها: القصور في فهم أسمائه تعالى، فكيف نصل إليه دون معرفته؟ ولإسفار ما حُجِبَ وجب علينا فهم أسمائه وصفاته للوصول إلى معرفته ومعرفة مراده فينا وفي خلقه، ومنا جميعًا.

ولعل من الواجب ذكر الدافع الحقيقي لتأليف هذه الموسوعة، فقد استثار الفكر وحرك رغبة البحث ودفعنا إلى الولوج في مكامن دلالات الأسماء الحسنى نظرة في قول الله تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[١]، نظرة أثارت ركود الظن وفكت قيد الغفلة فأنطقت لسان التساؤلات ليقول:

أيتفق مطلق اليقين (جاعل) مع عموم التنكير (خليفة)؟

أيمكن أن تقوم النكرة (خليفة) مقام ماهيتها؟

أتضفي النكرة(خليفة) إيحاءً معرفيا لليقين (جاعل)؟

أيأتلف إشراق اليقين (جاعل) مع تساؤل الملائكة (أتجعل)؟

---

[١] البقرة ٣٠.

لاشك أنها تساؤلات موجبة للبحث والاستقصاء للوصول إلى قاب قوسي الحقيقة، مما استفز ملكاتنا المعرفية وحفزنا للبحث ودفعنا إلى السياحة في أمهات الكتب لصوغ هذه الموسوعة.

ونأمل أن نكون قد وفقنا من الله سبحانه وتعالى في تحقيق ما كنا نصبو إليه من توضيح الإعجاز في اختياره الله سبحانه للفظة خليفة في سياق اليقين(جاعل) من خلال ما عرضنا في الموسوعة من ملامح الخليفة المعني بالاستخلاف في الأرض، كما تَوضحَ جليا بعض ملامح الإعجاز في لفظة خليفة، ففي تنكير خليفة إثارة لعقل المؤمن وقلبه للبحث عن المعرفة والوصول إلى حقيقتها حتى تتحقق الخلافة الحق، فالخليفة يُعرف بصفاته، وصفاته لا تلتصق به إلا إذا استمدها من خالقه، وقد توصلنا بحمد الله ومن خلال البحث في الأسماء الحسنى إلى الصفات التي تفضي إلى التعريف بالخليفة وهي مبثوثة منثورة في ثنايا البحث في أسماء الله الحسنى.

ونستشعر موقنين أن التنكير مقصود لغاية إعجازية تتمثل في معادلة مفادها أن باب الاستخلاف مفتوح بالمطلق لكل العباد (عموم)، لكن الدخول مقتصر على من شاء، فهو مسألة إرادية (لا إكراه في الدين)، فالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم خصه بالقدرة على التمييز الذي يتيح الاختيار بين موقع الاستخلاف وضياع الإفساد.

ومن دلالات التنكير أن مهمة الاستخلاف عامة، فهي غير محصورة بالخليفة الأول (آدم)، وإنما هي مهمة كُلف بها آدم ومن بعده ممن يسعى للتخلق بصفات الأسماء الحسنى، فالمستهدف المجموع وليس الفرد، فمن جميل التناسب ورائع الانسياب أن تأتي اللفظة مُنكّرة لتناسب السياق المعجز.

كما أن النكرة آية من العليم سبحانه وتعالى، فهو يعلم جل شأنه أن هناك من بني آدم من سينتهج سبيل الخلافة وهناك من يتركها ليعمل بعمل الشيطان وهؤلاء لا يمكن لهم أن يتصفوا بصفات خلائفية، فالنكرة في هذا السياق تعبر عن ائتلاف مطلق بين اليقين (جاعل) والتنكير (خليفة).

وحتى نبلغ مطمحنا ألزمنا أنفسنا بالنظر تحليليا لا تفسيريا في آيات الله المنبثقة عن أسمائه في خارج النفس(الآفاق) وفي داخل النفس (الْخَلْقِ، والأخلاق) بمعنى أن ننظر في أفعال الله الكونية (في الخارج) والتكوينية في (الداخل) ولنُبصرَ لأنفسنا طريقا للحق لنجلوَ رؤيةً.. ونحدد هدفاً ..ونسلك سلوكاً، ولنبصر لجوارحنا عملاً بمنهج. لنحقق خلافةً.

ونفي بعهدٍ _ عُبَاداً لرب وعُمَّاراً لأرض _ وننظر مصيراً نرث فيه ثمرة ما أسلفنا من خلافة في الخوالي لنبقى في الخلد الذي وعدنا الله إياه.

ونقدِّم لغيرنا أنموذجا أمثل، ومثالاً أكمل، وحلاً أشمل، وصدقا في تغيير إلى ما ترنو إليه الأنفس والأرواح.

والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في أسمائه وصفاته، وكماله عين ماهيته، وماهيته غير قابلة للإدراك والغاية، فهو سبحانه يدرك ماهيته ويُدْرِكُ أنها لا تُدْرَكُ لغيره ، فهذا ما يليق بكبريائه وعدم انتهائه وقدره الذي لا يُرَامُ، فلا يُدْرِكُ ذَاتَ َه إلا ذاتُه،لأن له كمال الإدراك والإحاطة ، وهذا ما يقتضيه علمه وينتفي فيه الجهل الذي يثبت لغيره ، ففي حال غيره يستحيل الإحاطة والإدراك لما لا نهاية له، فإدراك ما لا نهاية له محال، حيث إن إدراكه سبحانه لماهيته حكمي لاستحقاقه شمول العلم وعدم الجهل بنفسه، و هذا يعني أن ماهيته لا تقبل الإدراك من غيره بوجه من الوجوه.

والله له الغنى المطلق والكمال التام، والمستوعَ َبُ من هذا الكمال ليس هو الكمال ، بمعنى أن المُستوعَ َ َبَ َ عن الموصوف يقتضي أن يكون قابلا للقسمة والعدد،وهذا في حق المخلوق لا في حق الخالق، فالاستيعاب ليس هو نفس المُسْتَوْعَبِ (في حق الله) وهذا لله وليس لسواه لأن الانقسام والتركيب في حقه سبحانه محال.

فصفاته لا يقال إنها ليست عينه وليست غير ذاته إلا من حيث ما نعقله نحن ونستوعبه من تعدد الصفات والأسماء أو ما يُتَوَهَمُ من تضاد.

فصفاتَ الله لا تدرك على حقيقتها الإلهية إطلاقا، فهو سبحانه كما وصف نفسَه في كتابه واحداً أحداً لا تَجْزُؤْه صفاتُه ولا تعدِّدُهُ أسماؤه فهو: {اللَّـهُ رَبِّـي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّـي أَحَدًا}[2] و{هُوَ اللَّـهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[3] وهو{اللَّـهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[4] و {هُوَ اللَّـهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[5] وهو كما أُمِرَ النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: {قُلْ هُوَ اللَّـهُ أَحَدٌ اللَّـهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَـهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[6] فالفاعل واحد والفعل متعدد، وتعدد الفعل لا يعني تعدد الفاعل بل يعني أحديته المطلقة، وهذا هو عين التوحيد لا التعديد .

والدليل على ذلك قوله تعالى: (له الأسماء الحسنى)، والأسماء جمع، والحسنى صفتها وهي واحدة[7]. لأن الذات واحدة وصفاتها متعددة وأصلها واحد(الله) لا إله إلا هو، فالمعروف أن الصفة تتبع الموصوف في العدد وفي هذه الحالة الموصوف جمع والصفة مفرد (الحسنى) وليست الحسنيات أو الأحاسن، لأن أسماء الله للتوحيد وليست للتعديد.

والمعاني التي نريد إثباتها في الموسوعة لابد لها من قوالب فيها تصب، وقوالبها اللغة التي لا تفي لما يراد قوله وعما يستحق المقول فيه:

إن في التَّوحيد إحكام المثاني　　　عَالِمُ التوحيدِ بُغْيَتُهُ الْمَعَانِي
والْمعَاني في أكِنَتِهَا رُمُوزٌ　　　فَالْمَباني فيه صَارَتْ كَالْأَوَانِي
كلُّ معنى كلُّ مبنى فيه يَفْنى　　　صارَ أعلى ما علمنا عنه داني[8]

---

[2] الكهف٣٨.

[3] سبأ ٢٧.

[4] الزمر ٤.

[5] الحشر ٢٢،٢٤ .

[6] الإخلاص١ ٤.

[7] تفسير الطبري ، ج ١٨، ص ٢٧٥.

٨ من ديوان شراب الوصل للإمام فخر الدين ص ١٩٠.

إن العلم الكلي في أسمائه وصفاته محال لأننا في دائرة البداية والنهاية ، وهو سبحانه لا تحتويه بدايات ولا تحوطه نهايات، وحاول أهل العلم توضيح قيمة أسمائه وتفسيرها، ولكن وإن حاول أهل العلم ذلك فإنما هو من باب التقريب، ليدلوا الناس على أصل المعنى، أما المعنى بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله جل جلاله؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في دعائه: "لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[٩]. فالناس حين يفسرون أسماء الله جل وعلا فإنهم يفسرون ذلك بما يقرب المعنى إلى الأفهام، أما حقيقة المعنى على كماله فإنهم لا يعونه؛ لأن ذلك من الغيب والله أعظم من كل تفكير في العظمة، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها؛ لأن ذلك من الغيب، فالله جل وعلا له الأسماء الحسنى. وتعظيم أسمائه يكون بتعظيمه كأن لا يسأل بوجه الله إلا المطالب العظيمة التي أعلاها مما خلق وهي الجنة، ولله دَرُّ القائل:

ما البداياتُ والخواتمُ ؟ سَلْنِي   أو فامْسِكْ فكلُّهنَّ ابتداءُ
عندما كان في البدءِ بدءٌ   حينها كانَ ما يكونُ انتهاءُ
فاستوى البدءُ والنهايةُ فيها   واستوى أمرها وذا الاستواءُ[١٠]

فاللغة من هذا المنطلق وعاء للمعنى وقد يكون الوعاء قادرا على استيعاب ما يوضع فيه، ولكن في حالة مثل موسوعتنا في" أسماء الله" فهل من الممكن أن تستوعب اللغة معاني أسماء الله الحسنى؟ وهل من الممكن أن تستوعب اللغة المخلوقة خالقها؟

الإجابة بالطبع معروفة ، ونحيلها إلى كل ذي عقل رشيد وفكر سديد،فلا يصح أن نقول إن الرحمن مشتق من الرحمة، لأن الرحمن خالق الرحمة، فهذا إن صحَّ عند البعض على مستوى اللفظ لا يصحُّ على مستوى المعنى، وكذلك القدوس مشتق من القدس، مع أنه من البديهي أن القدوس خالق القدس،وما يقوي ما رأيناه أن هناك من الأسماء ليست مشتقة من

---

[٩] أخرجه الترمذي، ٣٥٦٦، وابن ماجه١١٧٩.

[١٠] من ديوان شراب الوصل للإمام فخر الدين ص ٢٣٦.

اللغة إن قلنا بمبدأ الاشتقاق على مستوى اللفظ لا المعنى فالاسم الحق ، والاسم العدل، هل هما مشتقان؟!! بالطبع لا.

(وفي أَسماء الله سبحانه العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم وهو في الأَصل مصدر سُمِّي به فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ وهو أَبلغ منه لأَنه جُعِلَ المُسَمَّى نفسُه عَدْلاً)[١١]، فالعدل(الله) مصدر العدل الذي بعدله يستقيم الملك وليس (العدل) مشتق من غيره لأنه خالق ما سواه، والحق (الله) مصدر الحق وبه يقوم الحق ويزهق الباطل قال الله تعالى:{ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}[١٢]، فلا لبس إنه هو الحق المبين وكل حق عنه وليس هو من أو عن غيره تعالى الله على ذلك علوا كبيرا.

وهذا ما ورد في كتب المعاجم وتابعه من كتب في أسماء الله الحسنى، وما نعزو إليه أن كتب اللغة تتحدث عن مستوى العلاقة اللفظية، ونحن ملنا إلى العلاقة الخَلْقِيَّةِ، فرددنا اللغة إلى من علّمها، مع إجلالنا للعلماء السابقين واللاحقين والمعاصرين في اللغة.

وكما أننا لم نأخذ بما ورد في كتب المعاجم من أن أسماء الله مشتقات، فأننا لم نأخذ بحكم اللغة في وصف الأسماء والصفات بأن ما جاء منها على صيغة المبالغة للمبالغة في أداء الفعل، وكأن فعل الله يحتاج للمبالغة لنقص فيه (حاشا لله) مع يقيننا أن علماء اللغة لم يقصدوا ذلك ، ولا الذين أخذوا عنهم غير أننا نوهنا إلى ذلك من باب الأخذ بالأولى فيما يليق بأسماء الله الحسنى ، فلا يليق أن نقول الشهيد للمبالغة في الشهادة والعليم مبالغة في العلم وغير ذلك ، لأن الله له الكمال المطلق في كل ما ورد إلينا من أسمائه الحسنى ، وإن سأل سائل وما دليلك من القرآن قلنا قول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[١٣] فأفعاله بقدر ما تحتاجه المفعولات بالوجه الأكمل المطلق لأنه قد أحاط بكل شيء علما، قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

---

[11] لسان العرب ج ١١ ، ص ٤٣٠.

١٢ النور ٢٥.

١٣ الطلاق ٣.

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[14] فبلوغ علمه وإحاطة قدرته لا يجب فيهما أن يقال: إن من أسمائه مشتق للمبالغة فإن الله بالغ أمره، أي منفذ أمره وممض في خلقه ما قضاه (قد جعل الله لكل شيء قدراً) جعل لكل شيء من شدة أو رخاء أجلاً ينتهي إليه[15] ،فبلوغ أمره بأمره لا بصيغ المبالغة.

ولهذا نرى وجوب تعطيل دلالات اللغة البشرية في التعاطي مع أسماء الله الحسنى، لأن البشري لا يسري على الإلهي بأي حال من الأحوال، ومن المعروف فطريا إن الذي وضعه الخالق يسري على المخلوق ، وما وضعه المخلوق لا يسري على الخالق.

وفي خطوتنا الأولى في بحثنا في أصول الأسماء والصفات من حيث ورودها في النصوص، ولأن البحث الموسوعي في أسماء الله وصفاته الحسنى لابد له من مستند يستند عليه بالإضافة إلى ما ورد في القرآن الكريم ، فكان هذا المستند دليلا نقليا مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، اعتمدنا على ما جاء في حديث الأسماء الحسنى مرتبا عند الترمذي الوارد في (سنن الترمذي) "حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ الْجُوزَجَانِيُّ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ

---

[14] الطلاق ١٢.

[15] تفسير الخازن ، ج ٦ ،ص ١١٧.

الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ".

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَدَّثَنَا بِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ وَلَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ وَهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نَعْلَمُ فِي كَبِيرِ شَيْءٍ مِنْ الرِّوَايَاتِ لَهُ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ذِكْرَ الْأَسْمَاءِ إِلَّا فِي هَذَا الْحَدِيثِ [١٦]. كما روي الحديث في كتب الحديث الآتية:

السنن الكبرى للبيهقي[١٧]، المستدرك على الصحيحين للحاكم[١٨] ، شعب الإيمان للبيهقي[١٩]، صحيح ابن حبان[٢٠]، وورد في كتب التفاسير الآتية:

– تفسير ابن كثير – بقول ابن كثير:"وجاء تعدادها في رواية الترمذي"[٢١] .

{وَلِلَّـهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٢٢]، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر".

أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه رواه البخاري، عن أبى اليمان، عن شعيب بن أبي حمزة، عن أبي الزناد به وأخرجه الترمذي، عن الجوزجاني، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب فذكر بسنده مثله، وزاد بعد قوله: "يحب الوتر": هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل،

---

١٦ سنن الترمذي، ج ١١ ص ٤١٢.

١٧ السنن الكبرى للبيهقي، ج ١٠ ، ص ٢٧.

١٨ المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج ١ ، ص ٤٥.

١٩ شعب الإيمان للبيهقي، ج ١ ،ص ١١٣.

٢٠ صحيح ابن حبان، ج ٤ ،ص ١٠٨.

٢١ تفسير ابن كثير، ج ١ ،ص ١٢٢.

٢٢ الأعراف، ١٨٠.

السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، "إلى آخر الحديث"[٢٣].

وفي التفسير نفسه في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٢٤]، "وسرد الحافظ ابن كثير الحديث" وقال: قال الترمذي: هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق صفوان، قد رواه ابن ماجه في سننه، من طريق آخر عن موسى بن عقبة، عن الأعرج، عن أبي هريرة مرفوعا فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان.

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم[٢٥] .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك،

---

[٢٣] تفسير ابن كثير، ج ٣ ، ص ٥١٥.

[٢٤] الأعراف ١٨٠.

[٢٥] تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٥١٤.

أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا". فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: "بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها". وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: "الأحوذي في شرح الترمذي"؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم[٢٦].

و قال الشوكاني في فتح القدير في تفسيره للآية: (له الأسماء الحسنى) مبينة لاستحقاقه تعالى للأسماء الحسنى ، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح[٢٧]، فالأسماء المذكور في نص الحديث إنما تمثل الحد الأدنى من أسماء الله سبحانه وتعالى والتي تقوم فكرة تحقيق العبودية لله ، وتحقيق العبودية لله هي بالاستخلاف في الأرض.

إن الله جل جلاله هو الأول والآخر فلا يمكن أن نحصي صفاته وأسماءه لأنه قبل بدء البدء وبعد الانتهاء، فلا أحد قبله ولا أحد بعده فهو المهيمن على العدد والعاد ، فنعمه لا حصر لها، فكيف الحال بالمنعم الذي خلقها ويعلمها {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[٢٨]، فإذا كنا لا نستطيع أن نحصي نعمه فكيف نستطيع أن نحصي أسماءه؟!

وفي أثناء البحث الموسوعي في الاسم المنتقم وجدنا نفي الاسم(المنتقم) ثم نفي الحديث وورد ذلك عند الإمام ابن تيمية وكذلك عند إمام العصر في الحديث (الألباني) فضلا عن وجود الحديث واعتماده عند جلِّ المحدثين والمفسرين الذين رووا الحديث ناهيك عن كتب اللغة.

وقد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية ما نصه:

"في أسماء اللَّه تعالى (المُنْتَقِم) "هو المُبالغ في العقوبة لمن يشاء"وليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولا ته كقوله (نبئ عبادي إني أنا الغفور الرحيم، وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقوله (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقوله

---

٢٦ السابق .

[٢٧] فتح القدير، ج ٤ ص ٤٨٨.

٢٨ إبراهيم ٣٤ .

(اعلموا أن الله شديد العقاب) وقوله (إن بطش ربك لشديد، إنه هو يبديء ويعيد، وهو الغفور الودود) فبين سبحانه أن بطشه شديد، وأنه هو الغفور الودود"[٢٩].

ونفي شيخ الإسلام ابن تيمية أن يكون – المنتقم – من أسماء الله تعالى فقال: "اسم المنتقم: ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما جاء في القرآن مقيداً كقوله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) وقوله (إن الله عزيز ذو انتقام) والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه المنتقم وذكر في سياقه (البر التواب المنتقم العفو الرءوف) ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صلى الله عليه وسلم بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ولهذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي*، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياقه، ورواه غيره باختلاف في الأسماء وفي ترتيبها يبين أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وسائر من روى هذا الحديث عن أبي هريرة ثم عن الأعرج ثم عن أبي الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء، بل ذكروا قوله صلى الله عليه وسلم (إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) وهكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخاري ومسلم وغيرهما، ولكن روي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ورواه ابن ماجه وإسناده ضعيف يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وليس في عدد الأسماء عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذان الحديثان كلاهما مروي من طريق أبي هريرة وهذا مبسوط في موضعه[٣٠].

وقد ضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي[٣١] ، وكذلك في صحيح وضعيف الجامع الصغير[٣٢] ، وقال: ضعيف انظر حديث رقم: (١٩٤٥) في ضعيف الجامع.

---

[29] جامع الرسائل، ج١ ، ص٣٥٦.

*" لم يذكر الإمام من هم أهل المعرفة"!!

*بالرغم من إننا ذكرنا من الكتب المشهورة قبل الإمام بن تيمية.!!

[30] جامع الرسائل ، ج ١ ، ص ٣٥٦.

٣١ ينظر صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٨٧.

وهنا كانت وقفة بحثية في إثبات الاسم (المنتقم) ثم بعد ذلك لإثبات الحديث.

فقد اعتمدنا في إثبات الاسم (المنتقم) وفي تقوية الحديث بالسير على نهج أئمتنا من السلف الصالح متعلمين منهم مقتدين بهم راجين النفع والهداية فإن أصبنا فلله الحمد وإن كانت الأخرى فنسأل الله المغفرة.

أولا من حيث المعنى:

الاسم (المنتقم) لله يخلو من معاني الشر ودلالاته فالانتقام من المجرمين خير، لأن عدم الانتقام منهم في حد ذاته شر، وقس على ذلك (المانع الضار) فالله بمنعه لفعل الشر هو عين الخير، ولا منع بالمطلق إلا له وإن توهم البعض إن صفة المنع شر فهذا من حيث الفهم السلبي لها، أما بالمفهوم الإيجابي فنرى أن المنع الإيجابي دحرٌ لأعداء الله ومنعٌ لأوليائه ،فالله منع أعداءه من أداء فعل يسيء لأوليائه، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}[٣٣] ، وقد يتوهم أعداء الله أنهم يمتنعون بما لديهم من عقاب الله لهم، وهذا غاية الوهم ومنتهاه لأنه المانع المطلق الذي لا تمنعه موانع ولا يرد أمرَه حصونٌ، ومنْعُه لعزة من يواليه ولذلة من يعاديه، وفي هذا وذاك حكمة بالغة تدفع الخلائق لتسبحه وتنزهه لأنه العزيز بمنعه الحكيم بفعله الذي لا يمنع من منعه أولياءه مانع، ولا يدفعُ منعَهُ لأعدائه عن أذى المؤمنين دافع، فسبحان العزيز الحكيم المانع القائل في كتابه: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[٣٤] .

---

٣٢ ينظر صحيح وضعيف الجامع الصغير، ١١٢٠٢.

٣٣ الفيل١ . ٥ .

٣٤ الحشر ١، ٢ .

والله (شديد العقاب) بمن يحرم حلاله ويحلل حرامه، وإلّا فكيف يكون مصير الكافرين المفسدين؟ لا يكون إلا بعقابهم بما يليق بما فعلوه من جرائم، وأليق عقاب لهم جهنم التي أعدها الله للكاذبين المفسدين المجرمين فيقول أعز قائل: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ}[٣٥] ويقول تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ}[٣٦]، فشديد العقاب صفة من الصفات التي يصلح بها المجتمع إذ لو لم يكن الله شديد العقاب لفعل كل إنسان من مفاسد دون أدنى خوف، لهذا –على الجانب الإنساني– وضعت القوانين الصارمة التي تقوم بردع المفسدين وعقابهم دون أن يقول أحدٌ لماذا وضعتم هذا القانون المبالغ في الشدة؟ لأن الإجابة ستكون (للصالح العام في الأمة أو الجماعة التي وضعت هذا القانون)، فما بالنا بالصالح العام للبشر والحجر والشجر على الأرض، أضف إلى ذلك المخلوقات جواً وبحراً.

ومن المعاني التي لابد من توجيه النظر إليها بالشكل الموجب قوله تعالى: (وإن بطش ربك لشديد)، (ويمكرون ويمكر الله)، فبطش الله شديد بالمفسدين الضالين حتى تتهيأ الظروف المناسبة لخلافة الله على الأرض وتعميرها، وهذا المعنى يتفق مع (شديد العقاب)، وكذلك قوله تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)[٣٧] فمكره تعالى خير لدحض مكر الكفار الذين أرادوا حبس النبي، أو قتله، أو طرده، فلمنع مفاسدهم الماكرة كان لابد من مكر بالخير لنصرة الخير على الشر.

مع التأكيد على إننا لا نقول إن من أسمائه تعالى: الماكر لما ورد في الآية السابقة أو الباني، والمسوي والمغطش، والمخرج، والداحي لقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

---

٣٥ العنكبوت ٦٨.

٣٦ الزمر ٣٢.

٣٧ الأنفال ٣٠.

وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}[٣٨] ، ولا نقول بغير ذلك مما لم يرد به دليل نقلي، أو مما لا يرتضيه العقل الباحث عن الأسماء الحسان لله سبحانه وتعالى.

ثانيا من حيث الدليل النقلي:

لما بحثنا في كتب الصحاح وجدنا الاسم (المنتقم) مذكورا عند غير واحد من رجال جمع الحديث ومن هؤلاء الترمذي[٣٩] (الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ) وعند البيهقي في سننه.[٤٠]، (البر التواب المنتقم العفو)، وقد أنصف الحاكم في مستدركه هذا الحديث الذي أُخذ عليه تفرد الوليد بن مسلم مع طول الحديث وذكره للاسم- المنتقم- مع عدم ذكره في أحاديث أخرى فقال ما نصه:

"هذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه، والعلة فيه عندهما أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله، وذَكَرَ الأسامي فيه ولم يذكرها غيره، وليس هذا بعلة فإني لا أعلم اختلافا بين أئمة الحديث أن الوليد بن مسلم أوثق وأحفظ وأعلم وأجل من أبي اليمان وبشر بن شعيب وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب، ثم نظرنا فوجدنا الحديث قد رواه عبد العزيز بن الحصين، عن أيوب السختياني وهشام بن حسان جميعا، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم بطوله"[٤١]. وقد ورد عند البيهقي في كتابه شعب الإيمان في أكثر من موضع[٤٢]، ونؤكد على ما جاء في باب أسامي صفات الذات بقوله:"ومنها المنتقم ويختص بعقاب الناكثين"[٤٣]، وفي صحيح ابن حبان "المنتقم، العفو"[٤٤].

---

٣٨ النازعات٣٢٢٨.

٣٩ ينظر سنن الترمذي، ج ١١، ص ٤١٢.

٤٠ ينظر سنن البيهقي، ج ١٠ ،ص ٢٧.

٤١ ، المستدرك للحاكم، ج ١ ، ص ٤٥.

٤٢ ، شعب الإيمان، ١١١٣.

٤٣ ، المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٥.

٤٤ ، صحيح ابن حبان، ٤١٠٨.

فإذا كان الوليد بن مسلم متهما، فكيف أورد البخاري في صحيحه ثمانية عشر حديثا في سندها الوليد بن مسلم. وفي صحيح مسلم تسعة وثلاثون حديثا في سندها الوليد بن مسلم، وعلى الإجمال فقد أورد الموطأ ومسند أحمد والصحاح الستة له ثلاثمائة وسبعة أحاديث.

ومما تقدّم نحن نعتمد هذا الحديث في ترتيب أسماء الله الحسنى حسب ما ورد في ترتيب الأسماء.

إذا فعدد الأسماء الحسنى التي وردت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم تسعة وتسعون اسما وإن اختلفت الروايات في بعض الأسماء، غير أن الإجماع على العدد متفق عليه إذا أخذنا كل رواية على حدة، فعندما تُضم هذه الروايات إلى بعضها مع حذف المكرر من كل رواية، فإن العدد يصل إلى أكثر من مائة وعشرين اسما، ولكن جميع الروايات اتفقت على العدد تسعة وتسعين، وهذا يعني أن عدة العدد هو قطب الرحى الذي تدور حوله الأسماء وتقوم عليه، لأن الله سبحانه وتعالى كل شيء عنده بحسبان، وعندما حدد الرسول عليه الصلاة والسلام عدد الأسماء وأكّد عليها، فإن المقصود هو حصر العدد إضافة إلى خصوصية الاسم في الفعل المراد لقوله عليه الصلاة والسلام: "لله تسعة وتسعون اسما، مائة إلا واحدا لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر"[٤٥] (والحفظ القيام بأفعالها والتصرف فيها على ما جاء في الشرع) وهذا تأكيد على خصوصية العدد وقيمته عندما ذكر التسعة والتسعين، ثم أكّد على أنها مائة إلا واحدا، وعلى هذا وإن اعتمدنا نحن رواية بعينها فهو لا ينافي بقية الروايات وإن اختلفت بعض الأسماء فيما بينها من رواية لأخرى لأن القصد هو حصر العدد وسنبرهن على ذلك من الأدلة النقلية والعقلية.

فالأدلة النقلية جاء بها الكتاب والسنة النبوية، فالله سبحانه وتعالى ذكر أسماءه الحسنى في القرآن الكريم وجعلها مطلقة غير مقيدة، ومجملة غير مفصلة حيث قال الله تعالى: {وَلِلَّـهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٤٦] فكل اسم حسن هو من أسماء الله تعالى، شأنها في ذلك شأن كثير مما

---

[٤٥] صحيح البخاري، ٢٠٢٨.

[٤٦] الأعراف ١٨٠.

جاء في القرآن الكريم مجملا، كالصوم والصلاة والحج والزكاة، التي فصلها رسول الله عليه الصلاة والسلام.

والدليل النقلي الآخر: أن الأسماء مطلقة بصفة الفعل ومقيدة بخصوصية العدد هو قوله صلى الله عليه وسلم: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك"[٤٧] فنحن لا نستطيع أن نحصر أسماءه جل جلاله، ولكننا نستطيع أن نقول إنها أسماء وجمال وجلال وكمال، وتتقسم على ثلاثة أقسام:

الأول:

وهو ما علّمه الله لأحد من خلقه، أي لأحد دون أحد، وهنا تكمن خصوصية الاسم مع العدد بما يناسب قدرة التحمل العقلية والنفسية على المتحمل للفعل المراد إنفاذه في الإرادة، فسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام نبي من عند الله تعالى يقول للعبد الصالح: {هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[٤٨]، فالعبد الصالح بما أوتي من علم، هو مدرك أن موسى عليه الصلاة والسلام لا يستطيع صبرا على ما سيراه من أفعاله وتصرفاته، وهذا يعني أن العبد الصالح يتحرك ويعمل عن معرفة بينما لا تزال هذه المعرفة بالنسبة ليسدنا موسى عليه الصلاة والسلام غيباً، وهذا يعني وجود أسماء مختصة بأفعال معينة تتحصر ضمن العدد في خصوصية حاملها والقدرة على التصرف بها.

الثاني:

وهو الذي أنزله الله في القرآن الكريم هي القاعدة التي يُؤسس عليها العلم بأسماء الله الحسنى وحفظها وهي سبعة وثمانون اسماً، ثم أن هناك اثنا عشر اسما أطلقنا عليها المتممات التي ليست بأعيانها، أي أنها تختلف من رواية إلى أخرى. وهذه الأسماء الاثنا عشر المتممة للقاعدة التي يؤسس عليها، هي التي تحمل الخصوصية التي يعلّمها الله تعالى لأحد دون

---

[٤٧] مسند أحمد ٨٦٣.

[٤٨] الكهف ٦٦.

آخر، ذلك أن القدرات العقلية والطاقات التحمّلية في الإدراك والاستيعاب متفاوتة من شخص لآخر، وليس بالضرورة أن تكون المتممات هي اثنا عشر بأعيانها، ففي رواية يكون فيها الدائم العالم القائم الصادق من هذه الاثني عشر ، وفي رواية أخرى يكون فيها مثل السيد الراشد الجميل، وفي رواية ثالثة لا هذه ولا تلك، مثل الحنان المنان ذو الطول ذو المعارج، وجميعها جاءتنا عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم.

والذي نراه أن اختلاف بعض الأسماء من رواية إلى أخرى يندرج تحت خصوصية الأسماء بما يناسب المخلوق في احتمال الصفة أو الاسم من أجل الفعل المكلف به لإنفاذ إرادة المشيئة، في فعل معين يختص به اسم معين في شخص معين هيّأه الخالق بقدرات تحتمل الاسم وتناسب الفعل.

الثالث:

الأسماء التي استأثر بها سبحانه وتعالى في علم الغيب ولم يُطْلِعْ عليها أحدا، أو يُعلِّم بعضا منها لبعض خلقه لخارقة من الخوارق، أو أنه استأثر بها لليوم الآخر بما يناسب الحياة الآخرة لما ثبت في الأدلة النقلية من الكتاب والسنة أن الحياة الآخرة لا تخضع للقوانين الطبيعية، فاستئثاره بها لأمور خارجة عن العادة وتدخل في مجال الخوارق والمعجزات التي لا نستطيع تحملها في حياتنا الدنيا، أما في حياة غير حياتنا الدنيا، كالبرزخ والبعث والنشور ثم الحساب والخلود، تنتفي الخوارق والمعجزات لأننا نقف على حقائق كنا نؤمن بها ولا ندركها لأنها في عالم الغيب الذي فيه الاستئثار بأسماء تختص بالغيب.

فإن كان الله تعالى يرزق العباد باسم الرزاق، وبالمغيث يغيثهم، فبأي اسم يطوي السماء حيث قال تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}[٤٩]، وبأي اسم يزلزل الساعة فقد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ}.[٥٠] من هنا نستطيع أن نقول إنّ لله أسماء حسنى كثيرة توزعت على الدنيا والآخرة لم نقف عليها وإنما وقفنا على معانيها

---

[٤٩] الأنبياء ١٠٤.

[٥٠] الحج ١.

من خلال النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة فصفات مثل الإنزال والبثّ والاستقرار والاستقلال والإرساء والإظلام لا ينطبق عليها أي اسم من الأسماء التي وردت في جميع روايات حديث الأسماء، كونها لا تخص المخلوقين مع وجود أدلة لها .

أمّا خصوصية العدد فيكمن سر أسماء الله الحسنى في خصوصية العدد المحدد مع ما ذكر من الأسماء التي لا يعلمها إلا الله، والتزام العدد هو بمثابة درء تعارض العقل مع النقل مما جاء من الزيادة على العدد المخصوص.

ولقائل أن يقول: ما دليلك على خصوصية العدد دون كثرة الأسماء؟

فنقول: الشرع، فإن قام دليل من الشرع درأ ما يتعارض مع العقل، وسوف نعمد إلى كتاب الله تعالى ونأخذ أدلة ونقيس عليها.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}[٥١]، والقرآن الكريم افتتح بالبسملة التي عدد حروفها تسعة عشر حرفا، وأول ما قال أهل العلم في ذلك أن المؤمن يدفع عنه بكل حرف منها، ملكا من ملائكة جهنم فيكون من الناجين بإذن الله.

وأما من جهة ثانية، فإن العدد تسعة عشر أو مضاعفاته له شأن عجيب في القرآن الكريم نستطيع من خلاله أن نقف على خصوصية العدد وإن جهلنا السر في ذلك.

إن تعيين العدد وحصره إنما هو سر من الأسرار الإلهية سواء ما ورد حصره في القرآن الكريم أو الأسماء الحسنى أو التسابيح والأذكار التي وردت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، فهي جميعها معينة ومحصورة برقم محدد دون زيادة أو نقصان للوصول إلى النتيجة التي حُددت من أجلها، وكذلك عدد الصلوات في اليوم والليلة وعدد الركعات فهي محددة بعدد محدد لها من الخصوصية التي لا يعلمها إلا الله، والصيام في الفرض أيام معدودات محددة بعدد قيده الرسول صلى الله عليه وسلم تنفيذا لأمر ربه قال الله تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ

---

[٥١] المدثر ٣٠.

خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٥٢]، وكذلك الحج فالطواف محدد بعدد والسعي بعدد، وقس على ذلك، فالعدد إمّا حدده الله أو بينه النبي صلى الله عليه وسلم، وإلّا فليقل لنا قائل من أين عرفنا عدد كل صلاة من المفروضة؟ الإجابة من النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي نفذّ وطبّق في حيز العدد المخصوص والذي أجمعت عليه الأمة ولم تختلف فيه من بعده، أما النوافل فمتروكة لمن أراد أن يزيد أو ينقص على قدر طاقته من صلاة وصيام وعمرة وصدقة وغير ذلك.

فالأسماء التسعة والتسعون حددها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث، والأسماء الأخرى يمكن الوصول إليها من خلال النص القرآني دون إلحاد في أسمائه تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٥٣]، ومعنى الإلحاد في أسماء اللَّه عزَّ وجلَّ: أنْ يسمُّوا اللاَّتَ نظيرَ اسم اللَّه تعالى؛ قاله ابن عباس ، والعُزَّى نظيرَ العزيزِ؛ قاله مجاهد، ويسمُّون اللَّه أباً ، ويسمُّون أوثانهم أرْباباً [٥٤]. وفي هذا العصر من ينسب اسما لله ليس له أصل في الكتاب ولا السنة، أعاذنا الله من هذا وذاك. ولهذا فإن القاعدة هي سبع وثمانون التي جاءت في القرآن الكريم، ويبنى عليها اثنا عشر لخصوصية العدد بصرف النظر عمّا ذكرنا من تباين في الروايات (فهو تباين تنوع لا اختلاف)، وإن أي زيادة لا تكون تعطيلا، أو نقصاً، أو تشويها، فهي تسعة وتسعون اسما.
إن خصوصية تحمّل الصفات من أسماء الله الحسنى والتصرف بها بالنسبة للمخلوقين إنما تنسجم مع القدرات المؤهِلة للمخلوق في احتمالها عندما يتم له الكشف عنها، بدليل أن أولي العزم من الرسل هم خمسة فقط (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)[٥٥].

[52] البقرة ١٨٣ ،١٨٤.

[53] الأعراف،١٨٠.

[54] تفسير الثعالبي، ج ٢ ، ص ٨٢.

[55] الأحقاف٣٠.

وقد استأثر الله تعالى بقسم من الأسماء الحسنى لا يعلمها إلا هو، واستئثاره هذا لسبب أراده عز وجل في أمر يظهره عندما يريد، فيلهم من عباده من هو أهل ليطلعه على اسم من أسمائه تجري به مشيئته على يد من شاء له.

لهذه الأسباب التي ذكرناها نعتقد بخصوصية ما لأناس مخصوصين يتصفون بصفات مخصوصة في تحمل صفة مخصوصة من تلك الأسماء لإنفاذ الإرادة، مع التأكيد على أن العقل وحده لا يكفي للوقوف على حقيقة علم الإلهيات لترسيخ قناعة معينة في أمر ما، غير أن طريق العقل هو المدخل إلى الإيمان الذي يتجاوز العقل وصولا إلى المسلمات عن طريق الحكمة التي تسلم بالخوارق، إذ أن المعجزات تتجاوز العقل في قدراته الإدراكية.

إن الله جل جلاله هو الأول والآخر، وهذا يدل على أنه أحاط بالأزل والأبد، لأنه تعالى قبل البدء و بعد الانتهاء، فالأزل و الأبد بالنسبة لنا هو غير متناه، والذات الإلهية أحاطت بهما وهيمنت عليهما، فمن هنا يكون اسم المهيمن قد استوعبت كل الأسماء الحسنى، ولأن الله تعالى هيمن على الأزل والأبد وتصرف بهما وفق مشيئته فبالضرورة ترتبط الأسماء الحسنى بعلاقة احتواء الواحد للكل والكل للواحد ودون انفكاك. وبالتالي فكونه الأول بلا بداية أزلاً والآخر بلا نهاية أبداً وقد هيمن عليهما فهو مهيمن على ما انحصر بينهما وجوباً، وعملية الحصر هذه تؤدي بالنتيجة إلى الإحصاء، فطالما أنه حصرها فقد أحصاها ضرورة، إذاً فهو المحصي.

وبين اسمي المهيمن والمحصي (خارج الزمان والمكان) تعددت أسماء وصفات الله الحسنى، فإن قَدّم (الرحمن الرحيم الملك القدوس) فهو من باب كرم الله ورحمته عز وجل. ونحن في كلامنا هذا لم نخالف أسس العقيدة في سبر أغوار البحث في الأسماء الحسنى متمسكين بأصول التوحيد وقواعد الاستنباط، معتمدين الدليل النقلي الذي جاء به الشارع، واستنبطنا منه دليلاً عقلياً يدعم رأينا فيما نذهب إليه بالصفات النسبية للخليفة.

ونرى ضرورة توضيح نقطة هامة للقارئ الكريم عندما يدخل في صلب هذا البحث وهي: أن ينحي الزمن جانباً بالنسبة للذات الإلهية لأن الله تعالى هو المهيمن والمحصي والخالق والرزاق والقابض والباسط والمحيّ والمميت والنافع والضار في آنٍ معاً خارج الزمان والمكان.

ومن هذه الأسماء توالت النعم على الخلق، إنما هي ناتجة عن فعل أو صفة، وهذه النعم منها ما هو مادي ملموس كالأموال والأولاد والمتاع، ومنها ما هو شعور إدراكي ينتاب النفس الإنسانية مثل الإيمان والأمن والفرح، ومنها ما هو قيم جمالية وأخلاقية، وكل فعل لله نعمة، فالانتقام نعمة مفضية إلى الخير لأنها صادرة عن المنتقم الذي لا تدل أسماؤه إلا على الخير وعلى الموجب بالمطلق، فالانتقام نعمة على من تقع عليه من المؤمنين ومن غير المؤمنين، فهو للمؤمن تزكية من ذنب لأجل مغفرة بعد توبة وندم فهو موجب، وهو لغير المؤمن موجب لأنه يفضي بالنهاية إلى إدراك الحقيقة ثم الإيمان بالله الذي قد يؤدي به إلى الفوز بمغفرة الله وبرحمته بعد أن يمر بمراحل هي:

١- لحظة القبض: في هذه اللحظة حيث لا يزال غير المؤمن على قيد الحياة تبدأ أولى خطوات الإدراك ، حيث يشعر أن الوعد الذي كذّب به من قبل قد تحقق فيطلب مزيدا من الوقت للتراجع عن الإنكار كما يذكرنا قول الحق سبحانه وتعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ}[٥٦].

٢- لحظة الندم والأمل، وفيها يترسخ الإدراك بحقيقة الله وصدق وعده فيقوى الإيمان بالله وتبدأ عبارات الندم كما يخبر عنهم مولاهم الحق: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ}[٥٧]، فهم إلى جانب ندمهم موقنون آملون في الله الذي أدركوا صدق وعده لأن يعيدهم ليعملوا الخير والصالح من الأعمال.

---

٥٦ المؤمنون ٩٩ ،١٠٠.

٥٧ السجدة ١٢.

٣-   لحظة الإيجاب، وفيها يحصل الإدراك التام والمطلق بالله سبحانه وتعالى فيبدأ رجاء العارف برحمة الله وعطفه يتصاعد من أفواه جحدت ربها، {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}[٥٨].

فالنتيجة إذا لفعل الانتقام خير حيث ترسخ الإدراك والإيمان بالله سبحانه وتعالى في نفوس تملكها الشك في غابر أيامها، وليس أدل على هذا من صورة فرعون وقد حل به الانتقام ، يقول المنتقم سبحانه وتعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٥٩].

ومن هنا تعاظمت النعم من حيث الكم والعدد فخرجت عن الحصر والإحصاء، وطالما أننا لا نستطيع أن نحصي نعمه تعالى التي هي أصلاً صادرة عن صفة ذات أو صفة فعل من الأسماء الحسنى، فبالضرورة أن أسماء الله الحسنى لا يعلمها إلا هو من حيث الكثرة والعدد، وبالتالي فإن المخلوق أعجز من أن يحصي أسماء الخالق.

وينبغي أن يكون واضحاً للقارئ الكريم أننا بشر من خلق الله نفكر على قدر ما أوتينا من عقل، والذي هو عبارة عن سلسلة من الأفكار، كما أن الإرادة عبارة عن سلسلة الأفعال الصادرة عنا، وبين سلسلة الأفكار وسلسلة الأفعال تكون ملكات العقل الخمس محدودة، وهي الإدراك والحافظة والاستنتاج والذاكرة والإرادة.

وبما أن الإدراك متفاوت بين الخلق من جانب، وكذلك المدركات منها ما هو مدرك ومنها ما هو غير مدرك وبعضها محال من جانب آخر، بسبب حدود الملكات المتناهية، وبما أن الإدراك محدود، فبالضرورة ستكون المدركات محدودة، وهذا ينسحب على بقية ملكات العقل من الحفظ والاستنتاج والتذكر والإرادة. فنحن لا نحصي من نعمه تعالى إلا بقدر عقولنا، مما يترتب على ذلك أننا لا نحصي من أسمائه إلا بقدر هذه العقول، ويكفينا من ذلك أدلة الخلق وأدلة العناية مما جاء في القران الكريم ونأخذ مثلا واحدا جمع الدليلين في قوله تعالى: {إِنَّ

---

٥٨ الأعراف ٥٠.

٥٩ يونس ٩٠.

فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٦٠]، هذه الآية وحدها دليل خلق وعناية ورعاية وتدبير، وهو كثير في القران الكريم، وكذلك قوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[٦١]، وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً}[٦٢]، هذه الأدلة تتضمن كل ما عداها من أدلة قديمة كانت أم حديثة رغم اختلاف أساليب التعبير والتسميات بحسب اختلاف البيئة والزمان، ففي صورتها السهلة البسيطة يدل الأثر على المؤثر، وفي صورتها الكلامية اللفظية كل حادث لابد له من مُحدِث، وفي صورتها الفلسفية القديمة الممكن والواجب، وفي صورتها الفلسفية الحديثة شعور الوجدان أو فكرة الكمال. ونحن نستغني عن كل هذا بقوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}[٦٣]، فلم يقل (سوى) ولم يقل (غير) حتى لا يُتوهم أن هناك إله سواه، فقد جاءت (إلا) أداةُ حصر للإلوهية في ذات الله ونفيّها عمن سواه، صورة منطقية في منتهى القناعة من حيث تصوير الخلق والعناية به وتدبير أموره، على تفاوت هذا الخلق من ناطق وجامد ونامٍ، وكذلك اختلافه في الحجم والشكل والصورة، وفي الأخلاق والطبع والفطرة، فلو كان إله مع الله (لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) من هنا نقول أن وحدة الصنع وشمول العناية وحكمة التدبير دليل على وحدانية الإلوهية، وهذا يعني أن اسما من أسماء الله الحسنى يشمل أكثر من صفة، فالرحمن رحيم، والرحيم لطيف، واللطيف خبير، والخبير معين، والمعين رؤوف، والرءوف حفيظ، والحفيظ عليم، والعليم محيط، والمحيط محصٍ، والمحصي مبديء، والمبديء معيد وهكذا، فلو تأملت الذات التي جمعت هذه الأسماء لوقفت على

---

٦٠ البقرة ١٦٤.

٦١ الروم ١٩.

٦٢ الروم ٢١.

٦٣ الأنبياء ٢٣.

التداخل العجيب بين أسمائها وصفاتها بحيث أن الصفة الواحدة تتداخل مع غيرها بشكل لا يسمح انفكاك بعضها عن بعض، ولا يطغى بعضها على بعض، لأنها تصدر عن ذات واحدة، وهذا دليل على وحدانية الله ومصداق قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٦٤] وهذا هو المضمون الامتدادي الذي يشمل جميع أسماء الله تعالى وصفاته بدءاً من لفظ الجلالة الذي هو اسم علم للذات الإلهية ومن ثَمّ ينتهي إليه.

وبهذا نخلص إلى مصداق قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}[٦٥] فبالضرورة أنكم لا تحصون صفات الذات الإلهية التي صدرت عنها تلك النعم.

وأما أن كل صفات الله تعالى قد تضمنها القرآن الكريم فهذا أمر فيه نظر وتدقيق، حيث أن الله تعالى استأثر بقسم من هذه الأسماء في علم الغيب لا نعلمه كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كان عليه الصلاة والسلام عَلِمَ أن الله تعالى استأثر في علم الغيب بأسماء حجبها عن خلقه في الحياة الدنيا وأخبرنا بهذا الاستئثار، فنحن نأخذ بما آتانا رسول الله عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[٦٦]، لأن ما أخبر به الرسول هو الحق في نفسه، لا يختلف باختلاف عقائد البشر وأحوالهم، ولا يتغير بتقادم الزمان، فهو الحق الذي لا يقبل النقيض، ولهذا كل ما عارضه فهو باطل.

إذ من المعلوم أن الأمة أجمعت على ما جاء به الشرع من دلائل الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وكل ما عارض الشرع فالعقل يعلم فساده وإن كان معقولا، فالكفر والإيمان من

---

٦٤ الحشر ٢٢ . ٢٤.

٦٥ إبراهيم ٣٤.

٦٦ الحشر ٧.

المعقولات، والعقل يظهر فساد الكفر وصلاح الإيمان بأدلة عقلية على هذه المعقولات، وفوق ذلك إن ما جاءنا من أسماء الله الحسنى هو منقول بالتواتر كحروف القرآن والصلوات وما إلى ذلك من الأقوال والأعمال عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، أي الألفاظ والأفعال، فلكل لفظ معنى ولكل فعل مقصد، فجاءت ألفاظه وأفعاله، ومعاني ألفاظه ومقاصد أفعاله متواترة عند الأمة، منها ما هو عام مشهور بين الناس كالعبادات ، ومنها ما هو خاص بأهل الذكر كالعقائد والإلهيات، فإن كان مجهولا للعامة فهو معلوم للخاصة بالتواتر.

لقد ثبت أن الاعتماد على العقل وحده للوصول إلى حقائق علم الإلهيات لم يجدِ نفعا، بدليل أن المتكلمين من أهل الرأي والنظر، والفلاسفة الذين يعمدون إلى المنطق والبرهان في سياق الأدلة، لم يزعم أحد منهم أنه اتصل بالذات الإلهية أو تم له الكشف، والسبب في ذلك أن هذا الطريق مدخله اليقينيات عن طريق القلب، وجميع هؤلاء اتخذوا العقل سبيلا إلى مبتغاهم فعجزوا.

وننبه إلى أن موسوعتنا في أسماء الله الحسنى توجه لأصناف عدة منهم علماء الدين والفلاسفة وطلاب العلم وخاصة المسلمين وعامتهم وأهل الفكر والرأي وأهل الديانات الأخرى، فمن وجد شيئا أغلق عليه، فهو لغيره لا ينكره حتى يتبين مخرجا لنفسه أو مدخلا يلج منه إلينا، فمعاني الأسماء الحسنى منها ما يعود على الله، ومنها ما يعود على الخلق ، ونعلم أن الكلمة تأتي بمعنى حقيقي ومجازي أو تنصرف إلى دلالة أخرى لا علاقة لها بما نبحثه.

إن البحث العقلي في علم الإلهيات وما وراء الطبيعة، أمر طبيعي للمفكرين الذين نشئوا في بيئة خالية من الدليل النقلي، أما بالنسبة للبيئة التي وجد فيها النص دليلا نقليا، فإن البحث العقلي والضرورات العقلية تقوم على خدمة النص الإلهي بالبراهين العقلية لدرء معارضة العقل للنقل، وهذا ما سلمت به العقول الحكيمة.

وأما عن علاقة الإنسان بأسماء الله الحسنى واستخلافه في الأرض دون غيره، فإن الله تعالى خلق خلقه واختص من بين هذا الخلق الإنسان ليستخلفه في الأرض، لذلك خلقه في أحسن تقويم.

وقد يتساءل البعض لماذا الإنسانُ دون غيره من المخلوقات؟ وما علاقة أسماء الله الحسنى بذلك؟وللإجابة على هذا السؤال نقول:

إن الله خلق الملائكة من نور، فالملائكة لم يُخْتَلَفْ في أصل خلقها، وليس يخفى على أحد من نعمة الله في خلق الملائكة لتبليغ الوحي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أجل هداية الناس، وليسوا مقتصرين في أفعالهم على ذلك القدر، وطبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضية والسماوية وحملة العرش، وكلٌّ مكلف بعمل مخصوص لا يتعداه ولا يطلب منه غيره، فمنهم أهل التسبيح ومنهم الحفظة ومنهم الكتبة ومنهم ما لا يعلم تكليفه إلا الله. أي إنه خلق الملائكة الغيبيين ليباشروا مهمة غيبية محددة في الحياة.

و خلق الجانّ من مارج من نار، والجان الذي هو من المارج لا استقرار له، كما أن المارج لا يستقر.

وأما الإنسان اختلف خلقه على أربعة أنواع من الخلق فخلق آدم لا يشبه خلق حواء وخلق حواء لا يشبه خلق سائر بني آدم وخلق عيسى عليه الصلاة والسلام لا يشبه خلق أحد مما ذكر، وإن كانت أنواع الخلق تعود إلى أصل واحد،والأصل الذي منه خلق الإنسان وهو التراب والماء والنار والهواء، وذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه الصلاة والسلام ونبَّه على أنه جعله إنساناً في سبع مراحل، وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة، فقال في موضع خَلَقَه من تراب إشارة إلى المبدأ الأول، وفي آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء، وفي آخر من حمأٍ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء أدنى تغير، وفي آخر من طين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة، وفي آخر من صلصال من حمإٍ مسنون إشارة إلى يبسه وسماع صلصلة منه، وفي آخر من صلصال كالفخار، وهو الذي قد أُصلح بأَثر من النار فصار كالزخرف، وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من النارية وعلى هذا المعنى دلَّ بقوله: (خلق الإنسان من صلصال كالفخَّار). فنبه على أن الإنسان فيه من القوة النارية بقدر

ما في الفخار من أثر النار. ثم نبه الله على تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه فقال: (إني خالق بشراً من طين فإذا سوَّيتُه ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). فهذه سبع مراحل نبّه عليها بقوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ}[٦٧].

ثم دلَّ على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى: (وعلَّم آدم الأسماءَ كلَّها) ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالةً بعد حالة، فنبه على أنه جعلهم أناساً في سبع مراحل، وأشار إلى ما جعل له من قوة العقل والفكر والنطق ولإرادة.

ولم يذكر في غير نشأة الإنسان قط تسوية ولا تعديلا،لأن التسوية والتعديل لا يكونان معا إلا للإنسان، ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر، ثم قال له بعد التسوية والتعديل: (كن) فكان الإنسان .

وبسبب اختلاف خلق الإنسان عن الجن والملائكة بما يحمل من العناصر المتباينة تميّز بهذه التقلبات والأهواء والتغايرات بين الرضا والغضب والحزن والفرح والقناعة والطمع والإيمان والكفر والحزم والتردد والكرم والبخل والشجاعة والجبن والخوف والحرص وما إلى ذلك من التناقضات التي يحملها بين جوانحه، إذ أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يواجهك بموقف يختلف عن سابقه وعن لاحقه في لحظة واحدة بموجب هذه التناقضات، فكل خصيصة من هذه الخصائص النفسية تحتاج إلى نوع من العلاج في موقف ما لا يجدي معها غيره أبدا.

ولما كان الإنسان يحمل هذه التغايرات التي أودعها الله به، فقد جعله مفكرا عاقلا مختارا،وجاءت الأسماء الحسنى على ما نعتقد بهذا التعدد وفق اختصاص الاسم لمواجهة موقف أو نيل طلب أو إنفاذ أمر شاءه الله بإرادته، فكانت السبعة والثمانون اسما هي القاعدة

---

٦٧ المؤمنون ١١، ١٤ .

التي يبنى عليها اثنا عشر اسما مضافا إليها الاسم المختص بالفعل المراد إنفاذه فتصبح تسعة وتسعين اسما.

إن حقيقة فهم الأسماء الحسنى تؤدى إلى ربط تأثير دلالاتها بالأخلاق الإنسانية وبالحضارات على مستوى البشرية جمعاء.

ولمعرفة حقيقة هذا الأثر يجب بادئ ذي بدء أن نُقر بحقيقة مفادها أن الله سبحانه وتعالى رب العالمين جميعا فهو الخالق لكل ذات، ولأنه خالق كل ذات فهذا يفضي إلى نتيجة هي أنه سبحانه أثر في كل ذات، لاسيما الإنسان الذي تتجلى في صورة خلقه وأخلاقه أعظم آيات الخالق عز وجل، وقبل الشروع في بيان أثر أسمائه الحسنى في الأخلاق الإنسانية نذكّر ببعض الثوابت وهي:

١- الله رب العالمين بالمطلق، {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}[٦٨].

٢-الله سبحانه خالق كل شيء، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[٦٩].

٣-الله أحسن خلق المخلوقات جميعا، {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}[٧٠].

٤- الله خص الإنسان بحسن التقويم، {قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٧١].

وهذه الثوابت تفضي ولاشك إلى حقيقة وجود الله سبحانه وتعالى في يقين كل ذات آمنت أم كفرت، فالمؤمن يؤمن بوجود الله، والكافر ينفي وجود موجود، ولو لم يكن موجودا لما احتاج الكافر إلى نفي وجوده تنزه سبحانه عما ينفون ويشركون.

من هنا نقول أن أسماء الله الحسنى التي لا تدل إلا على الخير والموجب بالمطلق لابد لها أن تكون قد أثرت في صيرورة الأخلاق الإنسانية وتشكلها في هيئة المثل العليا.

---

٦٨ الشعراء ٢٣،٢٤.

٦٩ الزمر ٦٢.

٧٠ السجدة ٧.

٧١ التين ٤.

فقد قامت المجتمعات الإنسانية على أخلاق الفضيلة والخير وبلغت أرقى مستويات تطورها عندما نهجت مسارا تطبيقيا لمضامين الخير التي تدل عليه الأسماء الحسنى أكمل دلالة، حتى وإن لم تتخرط في عبادة الواحد الأحد، وانهارت هذه المجتمعات عندما اختارت ترك الفضائل والعمل بالرذائل.

فكلما اختارت المجتمعات مضامين الخير والفضيلة المجسدة في أسماء الخالق عز وجل ارتقت، وليس أدل على ذلك من حركة التحول من الهمجية إلى المدنية المتحضرة، فالمدنية في الحقيقة هي انتهاج واضح لمعاني الخير والفضيلة التي لا تدل عليها إلا الأسماء الحسنى التي تشع بالخير والفضائل لتنير طريق الإنسانية جمعاء.

والفرد في منظومة المجتمع المتحضر يتصرف في إطار دلالات الأسماء الحسنى بشكل إرادي ولا إرادي، بشكل إرادي عند المؤمن لأنها قائمة في وعيه فهو دائم التحري لمعانيها وشديد الحرص على العمل بمضامينها، وعند غير المؤمن الخاضع للمجتمع بشكل لا إرادي إلا إذا اختار عدم الانتماء إلا لذاته، وعند ذاك يصبح حالة شاذة لا يقاس عليها.

فسلوك الفرد في أي مجتمع ينطلق من الوعي الجمعي لأنه لا يمكن للفرد إنشاء كيان مستقل بقيم فردية، فالأفراد يخضعون لنظم المجتمع.

وفي قراءة شاملة لاختيارات المجتمعات الإنسانية لنظمها نجد أثر الأسماء الحسنى واضح وجلي في مسيرة هذه المجتمعات، فالعدل مثلا نظام اختارته المجتمعات الإنسانية في كل بقاع الأرض وباتفاق جمعي في الوعي واللاوعي، في الوعي من خلال النظم التي أقرتها المجتمعات، وفي اللاوعي من خلال تشكل صورة مشوهة وقبيحة للظلم، هنا نسأل ما هو مصدر هذا العدل؟ أليس اسم الله العدل، وهذا مثال لبقية واسعة من القيم الأخلاقية التي تسود المجتمعات الإنسانية وتدل عليها أكمل دلالة أسماء الله الحسنى.

إن قراءة في ماهية الأخلاق الإنسانية وطبيعة استمدادها للقيم وتوحدها في المجتمعات المختلفة تاريخيا وفكريا وعقديا تؤدي إلى نتيجة مؤداها أن مصدر هذه القيم واحد، ولاشك أنها الأسماء الحسنى .

فقد توحدت اختيارات الإنسان في مرحلته المدنية بانتقاء قيم الفضيلة لأنه أدرك من خلال التأمل في مبدأه ومنتهاه ومصيره وسعادته وشقاه وعلاقته بمن حوله وبالكون صلاحيتها للقيام بأمر إعمار الأرض، ولو تأملنا طبيعة الاختيار لوجدناه متطابق عمليا مع مضامين الأسماء الحسنى، مطلقا أحيانا ونسبيا أحيانا أخرى وذلك عائد إلى طبيعة المجتمعات ونوع عقائدها والى الفهم التام لمضامين الخير التي تدل عليها الأسماء الحسنى، فنحن لا يمكن أن نبحث عن تطبيق المضامين في مجتمع مستغلق، بل نجدها في كل مجتمع اختار الانفتاح في البحث عن مضامين الخير والفضيلة.

وقد أثرت الأسماء الحسنى في الأخلاق الإنسانية بطريقين أساسيين الأول إيماني وتطبيقي، وذلك بجعل مضامين الأسماء حاضر في وجدان المؤمن وفي لحظة التطبيق في آن واحد وهذا يمكن تلمسه في المجتمعات المؤمنة بالله سبحانه وتعالى والواعية بأسمائه وصفاته، والثاني تطبيقي وذلك في المجتمعات غير المؤمنة، فأي نظرة فاحصة إلى مسيرة هذه المجتمعات تدلك بلا شك إلى تأثير الأسماء الحسنى فيها من خلال النهج الذي تنهجه في تسير شؤون حياتها بتحري قيم العدل والحق والرحمة والمساواة لأنها الأصلح لها في تسير شؤون حياتها، فطبيعة الاختيار لم يكن خياراً تفضيلاً وإنما خيارا حتميا تبعاً لتجربة متحققة، فمضامين الأسماء الحسنى هي وحدها تصلح للقيام بأمر تسير الحياة وأمر الأعمار ومن ثم الاستخلاف لما فيها من الفضائل والخير والموجب بالمطلق.

نخلص إلى القول أن أسماء الله الحسنى أثرت في مسيرة الأخلاق الإنسانية وذلك لسببين رئيسيين هما، الأول حتمية الاختيار وذلك يرجع إلى مضامين الأسماء الحسنى فلا خيار تفضيلي يمكن أن يدفع بالبعض إلى اختيار مؤثر آخر يكون مورداً ننهل منه قيمنا في كل العصور، والثاني الانجذاب السلوكي لمفاهيم الأسماء الحسنى لما فيها من كمال، وهي بالتالي قادرة على منحنا القيم التي نحتاج إليها في تحقيق الخلافة على الأرض.

ولا يشك الباحث العاقل فضلاً عن الباحث العالم أن في هذا الكون محاور ثابتة وأسس راسخة ومبادئ قائمة استعصى على سائر البشر سبل البحث العلمي في الوصول إلى حقيقة

ماهيتها عن طريق التجربة والمشاهدة على مر الأزمنة والعصور،ولم يستطع أيّ من البشر إلحاق النسخ بها أو إدخال أي تعديل عليها، حتى تكوّن في هذا الاتجاه منهج من الاستقراء التام أصبح دليلا بديهيا لدى الجميع، على أنها نواميس ثابتة راسخة ليس من شأنها أن تتطور أو تتبدل، تلك هي فطرة الله التي فطر عليها خلقه.

قال الله تعالى في محكم التنزيل: { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[٧٢]

وفطرة الله تعالى التي فطر عليها الناس والكون هي التوحيد الذي هو رأس العقل ومدار الخير في الدنيا والآخرة، بالرغم مما أوجد فيها من الخير والشر.

وقد يتساءل: لماذا شاءت إرادة الله تعالى أن يجعل هذه الحياة الدنيا مزيجا من الخير والشر والإنعام والحرمان والصحة والآلام والأفراح والأحزان، وقد كان قادراً على أن يجعلها مزدانة بأسباب اللذة والسرور والصحة والعافية وحدها صافية عن الأكدار والآلام.

بل لماذا كلّف الإنسان بحمل هذه الأثقال والأعباء كلها، حتى أصبح يعيش مهيضاً حائراً تحت وطأتها، ولم يكن مستحيلاً على الله تعالى أن يحمّله نعمة العقل دون أن يربط به ذيولاً من النتائج المؤلمة. بل لماذا كانت المعرفة مقرونة بنكد الحياة ومصائبها؟

نقول: إن إرادة الله تعالى شاءت أن يكون الإنسان من أعظم مظاهر إلوهيته سبحانه وتعالى، وأبين لسان ناطق بسر الوجود كله. والشكل الذي شاءت حكمة الله أن يظهر فيه ذلك كله، هو عمارة الأرض باستخلافه فيها، من خلال الاتصاف النسبي للإنسان بالأخلاق التي أمر بها سبحانه وتعالى والمتمثلة في أسمائه الحسنى جل جلاله.

ثم إن قوام مشقات الحياة التي تقوم بإعمار الأرض، وتنهض التكاليف الإلهية على أساسها، هما أمران اثنان:مغريات يراد من الإنسان الصمود لها والصبر عليها، وخيرات يراد منه الشكر عليها والكف عن الاستغراق فيها. وكلاهما يدخل تحت قاسم مشترك من مشقات الابتلاء والامتحان والاختبار لمقياس التخلق بأخلاق الله في هذه الحياة وشدائدها.فقد قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ

---

٧٢ الروم ٣٠.

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}٧٣، فليس معنى الشكر ما قد يظنه البعض من تحريك اللسان بالحمد والثناء، وإنما إضافة إلى ذلك، بل وقبل ذلك أيضا، هو أن يسخر الإنسان جميع ما أنعم الله به عليه لما قد خلق من أجله، أي أن لا يستعمل شيئاً من تلك النعم في أمر غير مشروع نهى الله عنه عباده، وليس هذا فقط بل عليه أن يستخدمه في سبيل المبدأ الذي خلق من أجله (الاستخلاف)، فإن لم يفعل ذلك وانحرف في الاستفادة من تلك النعم عن هذا الصراط الذي ألزمه الله به انقلبت النعمة كلها وبالاً وشقاء عليه فيما بعد.

وعرض الدنيا وكل ما فيها من مظاهر الغنى والترف والزخرف والفنون والمفاخر الدنيوية المختلفة هي من المباحات للمؤمن وغير المؤمن. فقد يمنحها الله تعالى عباده الصالحين وأعداءه الجاحدين، وإنما العبرة بتلك الحالة التي إذا ارتقى إليها العبد، وجعل من كل ما تطوله يداه من الدنيا وأسبابها سلماً لبلوغ مرضاة الله عز وجل وذلك بإتباع أوامر الله والامتناع عن مناهيه، لأنه تخلق بأخلاق الله تعالى واتصف بالصفات الحسان فجُعل خليفة.

والعبد الذي وصل إلى هذه الحال هو سعيد وإن رأيته يعاني . فيما تظن ـ ألواناً من المصائب والمآسي، وهو قوي وإن رأيته . في وهمك ـ ضعيفاً لا يملك ما يخيف منه أحداً أو يدفع عنه عدواً، وهو غني وإن تبدّى لك في ظاهر حاله أنه فقير مهين.

و على هذه المبادئ والقيم والأخلاق المستمدة من صفات أسماء الله الحسنى يمتد الأمر على ذلك في إعمار الأرض لمن استمسك بتلك القيم، فتساق إليه الدنيا، ويخضعها لحكم الله ومنهج دينه وسلطان شريعته، دون أن تتعلق منه بنفس أو تسيطر له على فؤاد.

فإذا اختلف الأمر وتراخت القيم، وتسلل حب الدنيا إلى قلوب البشر، انطلقوا يتنافسون فيها، ويتباهون بزخرفها، ويضعونها من حياتهم في موضع الصدارة من الاهتمام، تقلصت القوة من حياتهم، ونزعت الرهبة التي كانت تخيف الآخرين منهم، فيتفرق أمرهم بعد تآلف ويتشتت جمعهم بعد اتحاد.فما علاقة ذلك في بناء الحضارات وانهيارها؟

---

٧٣ الملك ١، ٢.

إن جملة القيم الأخلاقية تنضوي تحت مسميين اثنين هما: الخير والشر، فما كان من باب الخير يندرج في القيم الأخلاقية السامية، وما كان من باب الشر فهو من القيم الأخلاقية المتدنية، وعلى هذا تنقسم إلى ما هو أخلاقي وغير أخلاقي، والأخلاقي هو ما ألفته النفس الإنسانية واطمأنت إليها وإن لم تفعله، وغير أخلاقي هو ما أنفت منها وإن فعلته، وهذه فطرة الإنسان التي جُبل عليها بصرف النظر عن سلوكه وممارساته.

ويبقى أمر مهم لا بدّ من الإشارة إليه في عملية البناء الحضاري لأي مجتمع، ألا وهو الذات، فلابد لأي تجمع إنساني يتطلع إلى بناء حضارة من الاهتداء إلى الذات، وتحقيق مقومات هذه الذات، وطبيعي أننا لا نعني الذات البشرية التي تتكون من مقومات الإنسانية العامة التي يتساوى فيها الناس جميعاً. وإنما نعني المقومات الفكرية والاعتقادية، ومن ثم السلوكية التي تنسج الذات الحضارية وتورث لدى التمسك بها كل ما يمكن تملكه من مقومات الاستمرار، وهذه المقومات بالنسبة لنا تتمثل في أصول اعتقادية تشرح لنا حقيقة الكون والإنسان والحياة، وتملأ بذلك ساحة الفراغ الفكري والنفسي، من خلال هذه الأصول، ثم إن وحدة الاعتقاد لابد لها أن تثمر وحدة السلوك المنسجم مع واقع كل من الكون والإنسان والحياة، والتخلق والتحلي بصفات الأسماء الحسنى يحقق هذه العلاقة بشكل متوازن يفضي بالنتيجة إلى الغاية المرجوة في تحقيق خلافة الإنسان.

إن الله تعالى الذي أراد للإنسان أن يكون خليفة له في الأرض أوضح له السبل وبين له المقاصد وسخر له الأدوات والوسائل وفق فطرته وجبلته التي خلقه عليها، من أجل إنجاز ما هو مكلف به من الخلافة والإعمار فشرع له قانون الخير حيث قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}[٧٤] فهذه جوامع قوانين الحق والعدل، دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر،فهو منهج الله وشريعته إلى خلقه من أجل الوصول إلى السعادة، ونقصد بالسعادة: الموائمة بين متطلبات الدنيا ومرجوات الآخرة وصولاً إلى التحلي بما أمر الله به ، والتخلي عما نهى الله عنه، فإذا ترفع الإنسان عن

---

٧٤ آل عمران ١٠٤.

هذه الأخلاق المتدنية، أصبح عمله مجردا عن التنافس خالصا لله، وبذلك يخلق بصفات الأسماء الحسنى التي أمر بها الخالق عز وجل من الحق والعدل والرحمة واللطف وما إلى ذلك. وطالما أن الإنسان وصل إلى هذه المرحلة واستمسك بهذه الخلاق، فقد وصل إلى البناء الفكري الحضاري، فالحضارة أصبحت لديه وجود قوة، وهي مجموعة العوامل المعنوية (قيم أخلاقية سامية) والمادية (الأشياء الحسية) التي تنتج حضارة وتخرجها إلى وجود الفعل.

ونحن عندما نتكلم عن الحضارة وفق منهجنا، نقصد الحضارة التي تنتج عن أثر اتصاف الخليفة بالأسماء الحسنى وفق هذه الأسس، ولا نعني بها التجمعات العمرانية المجردة عن أثر الروحانيات، تلك التي تصل إلى أوج عظمتها من التقدم في الصناعة والزراعة والعمران والخدمات، ومباهج الحياة المادية من الترف والبذخ، ولكن كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: {وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}[٧٥]، فهذا هو الأساس القويم في الوصول إلى حضارة يكون نتاجها المدنية الإنسانية التي يكون أثر الأسماء الحسنى أساسها والخلافة غايتها.

وبصرف النظر عن الأسباب التي ساقها ابن خلدون في مقدمته، والتي تركزت في جملتها على القضايا المادية ومجموعة من القيم العلمية في (الصنائع) تنتج العمران والمأكل والمشرب والملبس وهو الأساس العام لأي حضارة إنسانية.

غير أن هذه الأسباب والأسس التي تقوم عليها الحضارات، هي نفسها مدعاة لانهيارها وأُفولها حال فقدان التوازن الناتج عن فائض الحاجة الذي يؤدي إلى البذخ والترف واللهو، بحيث تُهمل الأساسيات وينصب الاهتمام على القشور (الكماليات) من التباهي والتفاخر الناتج عن الشعور بالعظمة والكمال وفائض الحاجة، فتبدأ عملية الانحدار فالأُفول ثم التلاشي.

وأما الذي نراه، أن النظر في الوجود المطلق مما هو وراء الحس من الروحانيات، وهو التحلي بصفات الأسماء الحسنى، يعطي الحضارة التي تتمسك بهذه الخصائص، أسسا قوية

---

٧٥ القصص ٧٧.

في الاستمرار أكثر من غيرها، ونقول أكثر من غيرها احترازا، لأنه لا يمكن لأيّة حضارة أن تستمر إلى ما لا نهاية، ولكن تبقى القضية نسبية، إذ أن الأجيال المتعاقبة لا تبقى على أخلاق أسلافها. وبتبدل الأخلاق تتبدل القيم، وإذا تبدلت القيم تغيرت العلاقات وأصبحت النظرة إليها نظرة جديدة، وبالتالي يصبح التعامل معها وفق المفهوم الجديد مما يؤدي إلى رفض الماضي على أنه قيم بالية، ويتوجه الاندفاع للتعلق بما هو جديد.

ولاشك أن تعدد الأسماء والصفات مثير لمكامن الفكر وهو يسبر أغوار الحقيقة الباحثة عن ماهية الذات ، وموجبات تعدد أسمائها وصفاتها، فقد أنكر البعض وجود التعدد أصلا مخافة شبهة الإشراك ، وذهبوا في ذلك مذاهب متعددة منها :

١- إن تعدد الصفات يعني تعدد الذات، وكان الذي زين لهم ذلك الحرص على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن العدد والكثرة فكان نزغة من نزغات الشيطان وإلا فمن يقول إن تعدد الصفات تدل على تعدد الذات أيا كانت تلك الصفات[٧٦].

٢- إن الصفة عين الموصوف، وإن كل صفة عين الصفة الأخرى وهذا موجب للتعدد، وهذه مكابرة في المعقولات ، فإن من المعلوم بضرورة العقل، والحس أن الصفة غير الموصوف ، وأن كل صفة غير الصفة الأخرى فالعلم غير العالم، والقدرة غير القادر، والكلام غير المتكلم، كما أن العلم والقدرة، والكلام صفات متغايرة.

قولهم : "إن إثبات صفات متغايرة مغايرة للموصوف يستلزم التعدد قول باطل مخالف للمعقول، والمحسوس فإنه لا يلزم من تعدد الصفات تعدد الموصوف فها هو الإنسان الواحد يوصف بأنه حي، سميع بصير، عاقل، متكلم إلى غير ذلك من صفاته ولا يلزم من ذلك تعدد ذاته"[٧٧].

---

٧٦ محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، ١٣٦.

٧٧ ابن عثيمين، المجلي شرح القواعد المثلي من شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسنى، ص١٠٧.

قولهم : "في الأسماء إن إثباتها يستلزم أن يكون متصفاً بمعنى الاسم فيقتضي أن يكون إثباتها تشبيهاً" جوابه: أن المعاني التي تلزم من إثبات الأسماء صفات لائقة بالله تعالى غير مستحيلة عليه، والمشاركة في الاسم أو الصفة لا تستلزم تماثل المسميات والموصوفات[٧٨].

وقد ردّ كثير من العلماء على هذه التناقضات الفكرية ، وتناولوها بالنقد والتحليل، فالإنكار يرفضه العقل ولا ندري ماذا يقولون في أنفسهم؟ فالواحدُ منهم يوصفُ بأنه عالمٌ، وغنيٌّ، وصانعٌ، وتاجرٌ. والواحدُ منهم له عِدَّةُ صفاتٍ، هل معنى ذلك أن يكونَ عِدَّةَ أشخاصٍ ؟؟!!. هذه مكابرةٌ للعقولِ؛ فلا يلزمُ من تعددِ الأسماءِ والصفاتِ تعدُّدَ الآلهةِ، ولهذا لمَّا قال المشركون من قبلُ لَمَّا سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (يا رحمن، يا رحيم) قالوا: هذا يزعم أنه يعبدُ إلهًا واحدًا، وهو يدعو آلهةً متعددةً، فأنزل الله – سبحانه وتعالى – قوله: {قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى}[٧٩]، فأسماء الله كثيرة، وهي تُدلُّ على كمالِه وعظمتِه سبحانه وتعالى ولا تدلُّ على تعدُّدِ الآلهةِ – كما يقولون–، بل تدلُّ على العظمة و الكمالِ لله وحده[٨٠].

"إن وصف الله تعالى بصفات الإثبات أدل على الكمال من وصفه بصفات النفي، لأن الإثبات أمر وجودي يقتضي تنوع الكمالات في حقه، وأما النفي فأمر عدمي لا يقتضي كمالاً إلا إذا تضمن إثباتاً وهؤلاء النفاة لا يقولون بنفي يقتضي الإثبات"[٨١] .

ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى"أن اتصاف الذات بالصفات اللازمة لها توحيدٌ في الحقيقة"[٨٢].

---

٧٨ المرجع السابق ١٠٧.

٧٩ الإسراء ١١٠.

٨٠ المناهج والفرق ، ص ٢٣٢..

٨١ ابن عثيمين، المجلي شرح القواعد المثلي من شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسنى، ص١٠٧.

٨٢ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الرسالة التدمرية، ص ١١٨.

أما الذاتُ المجرَّدةُ التي ليس لها صفاتٌ فهذهِ لا وجودَ لها، مستحيلٌ وليس لـه صفاتٌ، أبدًا، ولو على الأقل صفة الوجود[٨٣].

وربما يمكن لنا أن نناقش قضية تعدد الأسماء والصفات من جانب عقلي لمعرفة حقيقة التعدد وموجباتـه للذات الواحدة، أولا يجب البحث في ماهية الذات، ولابد لهذا النمط المعرفي من سلسلة افتراضات هي:

هل الذات جزء لكل؟

هل الذات كل لأجزاء؟

هل الذات مطلق؟

لمناقشة الافتراض الأول نقول لا يمكن أن تكون الذات جزءاً لكل لأن ذلك يقتضي وجود كلٍّ يتجزأ منـه بفعل إرادي أو لا إرادي و بزمن استغراقي يتمخض لا محالـة عن وجود أجزاء مكملة.

والذات منتفٍ عنها هذا، فلا توالد أوجدها ولا أوجد لها، { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}[٨٤]، فالإيجاد (لم يولد) معناه حدوث وإقرار بأسبقية سواه عز وجل، والتوالد (لم يلد) معناه الاشتراك في الصفة والحكم والفعل وهو ما ذهب إليه أصحاب الثالوث، {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}[٨٥].

وهذا ادعاء مج لا يقبله العقل لان الاشتراك يوجب أن تكون الأجراء المكونة للكل بذات القدرة على الإتيان بفعل واحد في برهة واحدة وبجودة متطابقة كليةً، وهذا وهم وقع فيه أصحاب هذا الادعاء لأن الله سبحانه وتعالى يفوق عيسى عليه الصلاة والسلام بالمطلق، ويعجز عيسى

---

٨٣ كتب المناهج والفرق، ص ٢٣٢.

٨٤ الإخلاص ٣.

٨٥ النساء ١٧١ .

عن أن يكون بعض ذات الله بالمطلق وهو ما أقر به لسانه صلى الله عليه وسلم كما يخبرنا العليم عز وجل فيقول: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٨٦] ولذا فإن الخالق لا يقارن بالمخلوق وذلك لانعدام التماثل، وهذا مرتبط بخلق عيسى صلى الله عليه وسلم فهو يمرض ويجوع ويغضب ويهلع ويضعف ثم بعد ذلك هو يموت، فمن أين جاء الاشتراك مع الله في صفة أو حكم أو فعل؟.

فالذات ليست جزءاً وهذه الأسماء والصفات لم تكن أسماءَ وصفاتٍ لأجزائها.

فهل تكون كلا لأجزاء كما في الافتراض الثاني؟

هذا غير ممكن أيضا لأن الكل قابل للتجزئة بكل حال من الأحوال ، مما يفضي إلى وجود أجزاء متحدة للتكوين، وهو يستلزم وجود قوة رابطة للأجزاء وكل ذلك محتاج ولابد من استغراق الزمن للتكون والاتحاد، ثم بعد ذلك يتوجب اتفاق الأجزاء، وهو أمر مستحيل كما يخبرنا الخبير عز وجل: {أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}[٨٧] .

بقي الفرض الثالث (المطلق) وهو يليق بوصف الذات لأن المطلق يدل على الماهية بلا قيد[٨٨]، أي ينتفي عن الوصف بالمطلق البداية والنهاية، والزمن واستغراقه، كما أن المطلق لا يحتويه الحيز وهو محتويه.

---

٨٦ المائدة ١١٦،١١٧.

٨٧ الأنبياء ٢١ . ٢٤.

٨٨ محمد عبد الرءوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص ١٦٦٣.

والمطلق يوجب اتصاف الذات بإطلاقية الفعل، فإذا كان الفعل مطلقاً تعددت الأسماء والصفات الدالة على الذات ومختلف فعلها.

فما هي طبيعة التعدد ؟ وما هو تفسيره؟

للإجابة نقف عند حقائق التعدد وهي:

١- إن هذه الأسماء والصفات لا تدل على متعدد لمختلف، فكل هذه الأسماء والصفات تدل على ذات واحدة هي ذات الله سبحانه وتعالى، وقد أكسبها تعددية الصفة الفعل المختص المطلق، وهو الفعل الذي لا يمكن لمخلوق الإتيان به بالمطلق ، فكل الصفات يقابلها فعل مخصوص مطلق للذات، فلو قلت الكريم صفة لله دل ذلك على كرم مطلق لم يرتق إلى مرتبة فعله أحد وإن سعى لأن فعل الإكرام منه سبحانه عام ودائم فهو مطلق، بينما إكرام البشر للبشر منقطع فلا يليق أن يكون الإطلاق وصفا له لانقطاعه.

ومن أمثلة ذلك المعجزات فقد دلت المعجزات الإلهية على الفعل المطلق المخصوص به وحده جل في علاه وهي كثيرة أكبر من قدرتنا على الإحصاء ولكن نذكر خلق السموات والأرض وخلق الإنسان فهما يكفيان العاقل لبيان مفهوم الفعل المخصوص المطلق.

والمعجزات هي فعل مختص على وجهين:

الأول: الأداء.

والثاني: التفرد.

وفعل الله معجزة بالنسبة لنا وليس بالنسبة للفاعل، لأنه صاحب الفعل.

وعليه فإن امتلاك الذات للفعل المختص المطلق أكسبها عديد الأسماء والصفات التي تدل عليها وعلى فعلها، فهي متعدد لواحد.

٢- لا تدل الأسماء الحسنى على الترادف، لأن الترادف يعني التكرار ويقبل الاستغناء ويسمح بالاستبدال، وهو بعيد كل البعد عن حقيقة الذات وطبيعة فعلها ، فالرحمن والرحيم والرءوف تدل على محتوى متقارب غير متطابق بفعل المضمون الامتلائي لدلالاتها، ولو كانت متطابقة لكانت عبارة عن مترادفات تعاني من الخواء المضموني تنزه في علاه عن

ذلك، وكان هذا الأمر من أحد أهداف هذه الموسوعة حيث سيتجلى للقارئ الدلالات الخاصة لكل اسم وصفة بما يميز بين كل منها.

٣- وهي لا تدل على التضاد، فحين نقرأ في الأسماء والصفات (المانع والمعطي، النافع والضار، والمنتقم والرؤوف) نعلم أنه لا تضاد في هذه الأسماء والصفات لأن الضد يوجب التناقض والله منزه عنه جل شأنه.

فكيف نفسرها؟

نقول: إن هذه الصفات حق ومن حق ولحق، فالنافع هو الذي يفعل ما ينفع المخلوقات بالإيجاب والسلب فهو بالحياة ينفع وبالموت ينفع ، وكذلك الضار بفعل الضرر يضر وينفع وهذا هو التوازن الحاصل في الصفة الواحدة بما يمنع التناقض في داخلها، وكذلك الأمر بالنسبة للصفات المتعددة حيث ترتبط بعلاقة التئام لا علاقة انفصام تفضي بها إلى التضاد لأنها دالة على ذات واحدة غايتها الحق وإحقاقه فإذا توحدت الغاية انتفى التناقض بالفعل.

فالضد إذا مصطلح لا يتسع دلاليا لاحتواء أسماء الله وصفاته، ذلك أن مطلقية الصفة المفردة يمنحها الاتساع الدلالي المعبر عن تنوع أجزاء الفعل واختلاف طرق أدائه.

فكل اسم من أسماء الله الحسنى هو كمال في ذاته، مكتفٍ بدلالاته لبيان المضامين والصفات التي يشع بها الاسم الحسن، فاسم الله كمال بذاته لا يحتاج إلى ما يتم به معناه، فلا موجب لذكر اسم النافع عندما يذكر اسم الضار، لان في كل من الضار والنافع دلالاته التي تؤدي معناه بشكل تام، فمسألة الاقتران الشرطي لاسم بآخر فيها من الإيحاء بحاجة الاسم إلى غيره لبيان معناه وهي إشارة غير مباشرة إلى وجود نقص من نوع ما في اسم وآخر(حاشا لله)، ونعتقد أن هذا أمر لا يليق بالأسماء الحسنى، فقد ذهب الإمام الجليل ابن تيمية إلى شرط اقتران اسم باسم في الذكر والدعاء فقال: "إذا ذكر باسمه الخاص قرن بالخير كقوله في أسمائه الحسنى الضار النافع المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل فجمع

بين الأسمين لما فيه من العموم والشمول الدال على وحدانيته وأنه وحده يفعل جميع هذه الأشياء ولهذا لا يدعى بأحد الاسمين كالضار والنافع والخافض والرافع بل يذكران جميعا"[٨٩].

ثم يفصل القول مدللا على ذلك بقوله: "وكذلك الأسماء التي فيها ذكر الشر*، لا تذكر إلا مقرونة، كقولنا: "الضار النافع، المعطى المانع، المعز المذل" أو مقيدة، كقوله: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}[٩٠]، وكل ما خلقه ـ مما فيه شر جزئي إضافي ـ ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك، مثل إرسال موسى إلى فرعون، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه، وذلك شر بالإضافة إليهم، لكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة، والاعتبار بقصة فرعون ـ ما هو خير عام، فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به، كما قال تعالى: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}[٩١]، وقال تعالى بعد ذكر قصته: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى}[٩٢]، وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم، شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب، وهم الذين كذبوه، وأهلكهم اللّه تعالى بسببه، ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء"[٩٣].

وتابعه كثير من المحدثين في عرضهم للأسماء الحسنى باقتران شرطي ، فهم يتحدثون عن اسم المعز واسم المذل في آن واحد، كأنهم يقولون أنه لا يمكن الحديث عن اسم المعز دون اسم المذل، ونعتقد أن هذا غير دقيق فكل اسم من الأسماء الحسنى له كمال الدلالة الذي يوضح معانيه ويبرز الصفة الأكمل له والصفات الحسان الأُخر، وكل اسم مستقل بإظهار صفة محددة يدل عليها أكثر من صفة أخرى وإن تضمن ذات الاسم عديد الصفات لكن تبقى

---

٨٩ منهاج السنة النبوية ابن تيمية، ٥٤١٠.

* ناقشنا قضية الخير المطلق في أسماء الله الحسنى في عرضنا لاسم المنتقم ودلالاته في المقدمة وفي متن الموسوعة.

٩٠ السجدة ٢٢.

٩١ الزخرف ٥٥.

٩٢ النازعات ٢٦.

٩٣ مجموع فتاوى ابن تيمية ، ص ٢٢٣.

هناك في كل اسم صفة أساسية يدل عليها، فاسم الرحمن يدل على مطلق الرحمة بشكل أساسي ويحمل في دلالاته صفات أخرى كالرأفة واللطف والمغفرة والرزق وغير ذلك مما يليق بالله وبأسمائه الحسنى.

وهذا دفعنا إلى الكتابة عن كل اسم من الأسماء الحسنى بشكل مستقل، مستهدين ومؤمنين بما توصلنا إليه من حجج واضحة في مناقشة قضية الاقتران الشرطي للأسماء.

٤- تدل على الفعل الظاهر، فالأسماء والصفات تدلنا على الفعل الظاهر له سبحانه وتعالى فتقول رزاق لأنه يرزق من يشاء وهو فعل ظاهر ، وتقول التواب لأنه أخبر عن نفسه بذلك فقال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٩٤]، فإذا وضح الفعل غاب الترميز فكانت معرفتنا بهذه الأسماء والصفات وإيماننا بها للظهور أو الإخبار، أما الفعل الباطن فنحن لا ندرك كنهه، بل نعرف الفعل البين الظاهر ونؤمن بالقدرة على الإتيان بالفعل الباطن لأننا نعرف أن من أسمائه سبحانه وتعالى (الباطن) فوجب على ذلك وجود فعل باطن لا نعرفه اختص به سبحانه وتعالى لنفسه أو لمن اصطفى من خلقه، وهو ما أخبر عنه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فقال : "اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ، ابْنُ عَبْدِكَ ، ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمِكَ، نَافِذٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ غَمِّي".

٥- ذات مضمون امتدادي، سبق القول بالمطلقية وتم تأكيد ذلك فيما سبق، والمطلقية تعني الامتداد اللامنتهي، فكل صفة من الصفات ذات مضمون امتدادي، وعلمنا به ينتهي في لحظة انتهاء القدرة، أما لحظة التجاوز إلى المساحة المحجبة عنا فمقرونة بإرادة الذات.

وبعد هذا العرض يبدو جليا أن التعدد مصدره تعدد فعل ذات واحدة مما قابل ذلك أسماء وصفات تدل على فعل الذات الواحدة وصفاتها.

---

٩٤ البقرة ١٦٠.

وقد قمنا بعملية إحصاء استدلالي لهذه الأسماء والصفات في القران الكريم نهدف من خلاله إلقاء الضوء على أنماط ورودها، وهي كالآتي:

أولاً: الذكر نصاً، ورد في القران الكريم خمسة وخمسون اسماً من أسمائه الحسان بالنص، هي(الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصوّر الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم السميع البصير اللطيف الخبير العظيم الغفور العلي الكبير الكريم الرقيب الحكيم الودود المجيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد الحي القيوم الواحد الصمد القادر الأول الآخر الظاهر الباطن المتعال البر التوّاب مالك الملك ذو الجلال والإكرام الغني الوارث) ويظهر اسم (الله) بما يفوق كل الأسماء الأخرى فقد ورد في ألفين وسبع وخمسين آية كريمة تلاه اسم العليم ثم الرحيم ثم الحكيم ثم العزيز ثم الغفور ثم الرحمن ثم السميع فالبصير والخبير وهكذا تأتي بقية الأسماء متفاوتة في عدد مرات الذكر في آيات القران الكريم.

ثانياً: الذكر الدلالي، أي أن يرد في آيات القران الكريم ما يدل على الاسم وهو على نمطين:

١- الدلالة بالفعل، وذلك بأن تتضمن الآيات الفعل الدال على الاسم بشكل مباشر، مثل اسم المعز والمذل، فعندما نقرأ قول الله سبحانه وتعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٩٥]، لاشك نعرف أن من أسماء الله الحسان اسم المعز واسم المذل، وهذا ينطبق على ستة عشر اسماً هي (القابض، الباسط ، المعز، المذل، الحكم، الباعث، المؤخر، المحصي، المبديء، المعيد، المحيي، المميت، المقسط، الهادي، الباقي).

٢- الدلالة بالصفة، وذلك بأن يُعرف الاسم من خلال ذكر الصفة الدالة عليه، وهي ستة عشر اسماً هي (الشكور، الحفيظ، المقيت، الحسيب، المجيب، الواسع، الشهيد، المقتدر، الحليم، العفو، المنتقم، الرءوف، الجامع، النور، الوالي، البديع).

---

٩٥ آل عمران ٢٦.

وبهذا يكون العدد المذكور في القرآن هو سبعة وثمانون اسماً، أما تتمتها فلم يذكر في القرآن وإنما ذكر بنص حديث الترمذي الذي اعتمدناه في الموسوعة، وهي (الخافض، العدل، الجليل، الواجد، الماجد، المقدّم، المغني، المانع، الضار، النافع، الرشيد، الصبور)

بقي أن نثير فيك سؤالاً حتمياً أيها القارئ مفاده، ما الفرق بين الاسم والصفة؟ وما هي أسماء الله جل في علاه؟ وما هي صفاته؟

لابد للإجابة على هذا السؤال من تقرير حقائق لا يمكن إغفالها لكي يتحصل المعلوم غير المدرك وهي:

أولا: إن ذات الله لها أسماء ولها صفات، وهي غير متطابقة في دلالتها، فالاسم دال على الذات، والصفة دالة على بعض أحوالها[٩٦]، ولو كان الاسم والصفة بذات المعنى لأمكن الاستغناء عن أحدها والاكتفاء بالآخر، وسيكون الاسم بالتأكيد باقياً لان الله اختاره فقال عز وجل: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٩٧].

ثانيا: ذكر الله جل وعلا في كتابه الحق أن له أسماء حسنى في كل الآيات المحكمات التي ذكّرنا فيها سبحانه وتعالى بأسمائه على سبيل الجمع (الأسماء)، وعلى سبيل الإفراد (اسم)، وهي على النحو الآتي:

أولاً : ذكر الأسماء الحسنى بصيغة الجمع دلالة قاطعة على تعددها:

- {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٩٨] .

- {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}[٩٩] .

- {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[١٠٠].

---

٩٦ التعريفات ، الشريف الجرجاني، ص ١٤٣.

٩٧ طه ٨.

٩٨ الأعراف ١٨٠

٩٩ الإسراء ١١٠.

- {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١٠١].

ثانياً: ذكر الاسم بدلالة المفرد تذكيرا وتعليماً بسبل دعوته سبحانه وتعالى، فأولى الذكر والدعاء ما كان بأسمائه:

- {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[١٠٢] .
- {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا}[١٠٣] .
- {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}[١٠٤] .
- {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}[١٠٥] .
- {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[١٠٦] .

وفي مقابل ذلك لم تذكر الصفات ولا في آية واحدة بالنص، مما يوجب أن تُعرف بالتأويل.

ثالثاً: إن ما تعارف عليه البعض من وصف الأسماء بأنها صفات مخالف لقول الله سبحانه وتعالى ، فربما توهم البعض بأن الرحمن صفة لله ، وهو غير ذلك بنص الرحمن جل شأنه ، يقول عز من قائل : {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[١٠٧]، فالرحمن اسمه جل في علاه كما تدل الآية وهي حجة قاطعة لكل اجتهاد، وليس صفة من صفاته وإن غلبت عليه صفة الرحمة فاصطبغ بها.

إذا عرفنا هذا فكيف نفرق بين الأسماء والصفات؟

---

١٠٠ طه ٨.

١٠١ الحشر ٢٤.

١٠٢ الرحمن ٧٨.

١٠٣ المزمل ٨.

١٠٤ الإنسان ٢٥.

١٠٥ الأعلى ١.

١٠٦ الواقعة ٧٤.

١٠٧ الإسراء ١١٠.

اعلم أن "الاسم هو ما دل على معنى في نفسه دلالة مجردة عن الإقتران"[١٠٨]، وهو كل كلمة دلت على معنى في نفسها ولم تقترن بزمن[١٠٩]، أما الصفة فهي المشتق للدلالة على معنى[١١٠]، وهي ما دل على بعض أحوال الذات[١١١]، فأنت حين تقول عن إنسان أنه كريم فأنت لا تقصد بهذه الصفة كل أحوال الذات، لان الصفة عبرت عن بعض أحوال الذات، فهو إلى جانب كرمه شجاع وهو أيضا صادق وغير ذلك، فالصفة لا تعبر عن كل أحوال الذات ، فإذا عرفنا هذا وجب القول بأن الاسم غير الصفة (ولله المثل الأعلى).

فما هي أسماء الله وما هي صفاته؟

لاشك أن أسماء الله هي ما أخبر عنها هو سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالنص فقال: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١١٢]، ثم ما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم "الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الْأَوَّلُ الْآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ" وقد سبق تناول الحديث بإسهاب.

ويمكن ملاحظة أن الأسماء في النص القرآني وفي متن الحديث جاءت بذات المبني اللفظي أي على سبيل اقتران الـ (أل) في كل الأسماء، ونعتقد أن أل هذه من أصل الاسم وليس

---

١٠٨ المفصل في صنعة الإعراب ، الزمخشري، ص ١١ .

١٠٩ شرح متن الاجرومية، ص ١٢٢.

١١٠ المذكِّرَات النَّحْوِيَّةْ شَرْح الأَلْفِيَّةْ الدّكتور عبدالرَّحمن بن عبدالرَّحمن شُمَيْلَة الأَهدل، ص ١٤٥.

١١١ التعريفات، ص ١٤٣.

١١٢ الحشر ٢٢ . ٢٤.

مضافة إليه لان الله سبحانه وتعالى معرفة لا يحتاج إلى من يعرفه أو إلى ما يكسب اسمه صفة المعرفة، عليه نجزم أنها ليست أداة تعريف وإنما هي من أصل الاسم واليك الدليل، (هُوَ اللَّهُ) فحاول إذا كنت تعتقد أنها مزيدة للتعريف يمكن الاستغناء عنها أن تستغني عنها في اسم (الله)، فإذا عجزت فاعلم أن ما ينطبق على اسم الله ينطبق على بقية أسمائه الحسنى.

أما إذا قيل هكذا قواعد اللغة! نقول إن قواعد اللغة لا تنطبق على أسماء الله لأنها هي الأصل فهو الذي علّم اللغة، والبشر هم الذين وضعوا قواعد لها فعلمه مطلق، وأحكام البشر نسبية، وقد عالجنا هذا الموضوع في قضية اشتقاق أسماء الله فرددنا كل قول يقول أن اسم الله مشتق وقلنا أنه أصل وكل ما بعده مشتق منه، ولو أخذنا بما يقول علماء اللغة الأجلاء وطبقناه على الأسماء الحسان لوقعنا في محظور خطير فهم يقولون: الشيء لا تعرفه نفسه، لأنه لو كان بنفسه، لما احتيج إلى تعريفه بـ(أل) أو بالإضافة[١١٣]، فهل يمكن لعاقل أن يطبق هذا الحكم على أسماء الله وصفاته؟! وهل يليق بالذات الإلهية أن تكون نكرة تحتاج إلى ما يعرفها؟!

وذهب بعض الكوفيين إلى جعل الألف واللام في اسم الله تعالى جاءتا للتفخيم والتعظيم. نُقل عن سيبويه، أن الألف واللام في هذا الاسم الشريف للتعظيم كما تقدم عن بعض الكوفيين[١١٤].

هنا لنسأل أصحاب العقول أيهما أقوى في تعظيم الله الاسم المقترن بـ(أل) أم ما جاء بدونه؟ والإجابة بالتأكيد ستكون ما نسبه الله سبحانه إليه من أسماء في الآيات الكريمة أو في أحاديث الرسول الأكرم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وكلها معرف لا تحتاج إلى ما يعرفها فالألف واللام من أصل الاسم.

---

١١٣ المحكم والمحيط الأعظم المؤلف ابن سيده، ص ١١١٨ .

١١٤ الجنى الداني في حروف المعاني ، ابن أُمّ قَاسِم المرادي، ص ١٣٣.

ولهذا اختارنا أن ندعو الله في هذه الموسوعة بأسمائه الحسنى بنصها الذي ورد في القران الكريم وفي الحديث الشريف، إيمانا منا بأن الواجب أن ندعو الله بأسمائه كما أمرنا (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)، ولم نخالف في ذلك حتى قواعد اللغة، فقد أجمع عدد من علماء اللغة على جواز الجمع بين يا وأل من غير الضرورة[١١٥]، والكوفيون يجيزون الجمع بين يا و أل مطلقا[١١٦]، عليه دعونا بالأسماء الحسنى ونعتقد أن من الأولى أن ندعو الله بها لأنها أسماءه الدالة عليه هو، أما الصفات فإنها تدل على بعض أحوال الذات، من هنا تأتي أولوية الدعاء بأسماء الله الحسنى لا بصفاته، ومثل ذلك القسم فهل الأولى أن تقسم باسم الله أم بصفته؟

أما ما جاء من هذه الأسماء بدون الألف واللام مثل (رحمن ورحيم وقادر وحي وقيوم ولطيف وواحد ..)، فنعتقد أنها هي الصفات التي تضمنتها أسماؤه، فالصفات إذا متضمَنة في الأسماء، فرحمن صفة تضمنها اسم الرحمن ودل عليها وكذا بقيتها، وليس أدل على ذلك من قوله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[١١٧]، فلطيف صفة من صفات الله أما القوي والعزيز فهما من أسمائه الحسان جل في علاه وهو ما يوضحه السياق في الآية بشكل جلي، والى ذلك ذهب صاحب كتاب القائد إلى العقائد في شرح صفة واحد فقال:" و أما اسم الله تعالى (الواحد) فلفظ (واحد) يراد به في اللغة ما يقابل المتعدد ومن تتبع مواقعه في القرآن وغيره من الكلام العربي الفصيح وجده يأتي وصفاً لموصوف ويكون هناك شيء محكوم عليه بالموصوف مع وصفه ، فعدم التعدد يكون للمحكوم عليه باعتبار الموصوف"[١١٨]، وهكذا بقية الصفات (رحيم كريم عظيم بديع مصور) وغيرها من الصفات الحسان

كما يمكن الاستدلال عقليا على كونها صفات وليست أسماء، فكلها توصف في الحكم اللغوي بأنها (نكرات) لأنها بدون أل التعريف إذا اعتقد البعض أن أل في الأسماء الحسنى هي

---

١١٥ النحو الوافي ، عباس حسن، ج٤ ، ص٣٦ .

١١٦ السابق، ج٤، ص٣٤.

١١٧ الشورى ١٩.

١١٨ القائد إلى العقائد، عبد الرحمن المعلمي اليماني، ص ١١٣٦.

للتعريف، وفي قواعد اللغة "محال وصف النكرة بالمعرفة"[١١٩]. وهذا يتعارض إلى حد الانتفاء مع حقيقة الذات التي تدل عليها لأنها ذات معرفة لا تنكير لها، فحكم التنكير والتعريف لا ينطبق على الأسماء الحسنى ولا على الصفات لأنها كلها معارف ودالة على معرفة، ولأنه محالٌ أن يكون الشيء الواحد معرفة ونكرة في حالٍ واحدة[١٢٠]. تنبلج حقيقة قاطعة مفادها أن أل في الأسماء من أصل الاسم وهي لا تؤثر فيه فتكسبه التعريف ، كما إن سلبها لا يكسب صفة التنكير.

من هنا وجب أن تكون هذه ليست بأسماء للذات المعرفة، فماذا يليق بها؟ يليق أن نطلق عليها صفات تدل عليها أسماء، فرحمن صفة يدل عليها اسم الرحمن، ورحيم كذلك وهكذا بقية الصفات.

فالصفة تدل على بعض أحوال الذات[١٢١]، ورحمن تدل على الرحمة، وهي بعض أحوال الذات ، أما الرحمن فاسمه الذي يدل عليه سبحانه وتعالى أي على مطلق الذات وليس من حجة نحتج بها على قولنا هذا أبلج من قول الله سبحانه: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[١٢٢]. فلو كان لطيف اسم لجاء مقترنا بأل كبقية الأسماء في الآية (الله، القوي، العزيز) دون إخلال، فيمكن لك أن تقول أن (الله اللطيف بعباده يرزق من يشاء) ويستقيم المعنى ولكن الغاية التي يريدها عز وجل غير ذلك، فهو يريد أن يعرفنا بصفاته كما يذكرنا بأسمائه، فلطيف في سياق هذه الآية صفة تناسب لطف الرزق الذي مصدره اللطيف، وقس على ذلك بقية ما جاء من صفات.

عليه فإن أسماء الله الحسنى هي ما نص عليه سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز، ثم ما دلنا عليه الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، ثم ما اجتهدت في معرفته عقول المؤمنين واطمأنت إليه قلوبهم.

---

١١٩ المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١١١٨.

١٢٠ اللباب علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله، ص١١٥٧.

١٢١ التعريفات ١٤٣.

١٢٢ الشورى ١٩.

أما صفاته فتدلنا عليها أسماؤه، فاسم الكريم يدلنا على صفته (كريم) واسم العزيز يدلنا على صفته فهو عزيز وهكذا.

وهذا (بفضل الله) ما توصلنا إليه من خلال بحثنا في أسماء الله الحسنى الكثيرة والمقيدة بحصر العدد لمناسبة طبائع الإنسان.

ويجب أن ننوه إلى إننا قد اعتمدنا القرآن الكريم مصدرا رئيسا في بحثنا في الأسماء الحسنى لأنه المصدر الأول في الوصول إلى الحقيقة متذكرين آيات الله سبحانه وتعالى التي تدعونا إلى اتخاذ كتابه العزيز مصدرا رئيسا، ولنقف مع الآيات المحكمات التي يقول فيها جل من قائل:

- {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[١٢٣].
- {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[١٢٤] .
- {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آَيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[١٢٥] .
- {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[١٢٦].
- {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}[١٢٧].

فهل بعد هذه الآيات حجة على وجوب تقديم هذا الكتاب الحكيم على أي مصدر أو مرجع مهما علا شأنه وارتقى علمه؟!

من هنا اتخذنا القرآن الكريم مصدرا رئيسا لنا ثم ما توافر في كتب الحديث وشروحه، ومما تجدر الإشارة إليه أن الاستشهاد بالحديث الشريف أتى (في الغالب الأعم) بعد الاستشهاد والاحتجاج بالآية الكريمة ثم ينساق الحديث في سياق العرض المتوافق مع الآية.

---

١٢٣ محمد ٢٤.

١٢٤ النساء ٨٢.

١٢٥ ص ٢٩.

١٢٦ النحل ٨٩.

١٢٧ الفرقان ٣٣.

ثم عمدنا إلى كتب تفاسير القرآن الكريم، وراجعنا ما كتب عن أسماء الله الحسنى في كافة العصور في المصادر المتوفرة بقدر الإمكان، فوجدنا أن ما كتب لم يكن موسوعيا وغير متخصص أحيانا وهذا ما دفعنا لأن نخوض غمار هذا البحر الواسع الذي استغرق ما يزيد على خمس سنوات.

وقد لاحظنا من خلال البحث في أسماء الله أنها مبثوثة في كل القرآن الكريم فلا تكاد آية تخلو من اسم لله أو تدل على اسم من أسمائه، لذا فلا يمكن استثناء أية غير متصلة باسم من أسمائه أو صفة من صفاته تعالى، وقد توصلنا من خلال البحث أن اسم الله تدل عليه جميع آيات القرآن الكريم وإن لم تتضمنه نصاً، بمعنى أن كل اسم من الأسماء الحسنى موجود بكل ما نفكر فيه في دلالات الآيات الكريمة، فلا نقرأ آية من الكتاب الحكيم إلا ونجد رابطا واضحاً من نوع ما بين الاسم الذي نبحث فيه وبين ما جاء في الآية الكريمة ، فكلام الله لابد أن يدل عليه.

وقد بذلنا جهدا نعتقد إنه موضوعي دون تحيز أو انحراف، ولم نتخذ موقفا سلبيا من أي فرقة أو اتجاه إسلامي طالما يتوافق مع أساسيات الملة من توحيد لله وإقرار برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويتجه إلى القبلة ويعتمد القرآن الكريم وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم أصلا لعقيدته، ومع ذلك فالكمال لله.

وقد ورد مصطلح الخليفة في موسوعتنا ولكننا لم نحصره في معنى تقليدي ، فلم نقصد به حاكما أو أميرا أو خليفة أو رئيسا أو زعيما أو شيخا بعينه ، بل توسعنا في ذلك لنجعله في النوع الإنساني الذي خلقه الله وأسكنه الأرض ليعبد الله واحدا أحدا ويعمّر وينشر الخير لا ليفسد فيها ويسفك الدماء، وهذا الإنسان الخليفة هو الذي يتفاعل مع أسماء الله فهما بوعي وعملا بمنهج وإرادة بعقيدة تنطلق من أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له فيتحرر من عبادة المال والرأي والهوى والطمع فيما ليس له، فيصلح بالمال ما مال ، وبالرأي ما ورى، ويبتعد عمن هوى فهوى وعمن طمع فغوى.

ومن هذا المنطلق كانت الموسوعة دعوة للتوحيد، توحيد لله بالرأي المقنع والدليل الثابت الذي لا يرقى إليه شك ، وتوحيد للعنصر الإنساني على معنى سام ينطلق من التحرر ليفك قيودا ما زالت تكبل العقول والعقائد ولكي يلتصق بالله ربا ويتفاعل مع أوامره ونواهيه في بوتقة من الإيمان فينصهر نفسا وعقلا وقلبا، لتخرج نفسه راضية بما تعمل ، وعقله معتقدا بما يحمل، وقلبه مطمئنا بما يأمل.

وهذه الموسوعة تنطلق من أنه لا تفرقة ولا تحزب ولا هجوم على أحد فنحن أمة واحدة ولنا رب واحد نؤمن بالرسل جميعا نهدف إلى الإصلاح في شتى مجالاته مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}[١٢٨]، وهو أمر دفعنا إلى اتخاذ منهج الصلاة والتسليم على نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى كل أنبياء الله ورسله دون استثناء مستهدين بكلام رسولنا الأكرم صلوات الله وسلامه عليه الذي يقول: "صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني"[١٢٩].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "أكثروا من الصلاة على موسى فما رأيت أحدا من الأنبياء أحوط على أمتي منه"[١٣٠].

والله الموفق وهو يهدي إلى سواء السبيل.

---

١٢٨ الأنبياء٩٢.

١٢٩ شعب الإيمان للبيهقي ١١٤٢، وينظر مصنف عبد الرزاق ٢٢١٦، وجامع الأحاديث ١٤١١.

١٣٠ جامع الأحاديث للسيوطي ٥٣٧٤.

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[١٣١].

نزلت هذه السورة الكريمة لتجيب عن سؤال الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بعدما سألوه عن إلهه من يكون فنزلت هذه السورة المباركة على الرسول الكريم صلى الله عليه

[١٣١] الإخلاص، ١ . ٤.

وسلم، تأمره بقراءتها وقولها إجابة لمن قدّم السؤال: (من إلهك يا محمد؟). رواه أحمد والترمذي عن أبي بن كعب[١٣٢].

لذا كان سؤالهم عن الإله، وهذا لسان حالهم، حيث أنهم يؤمنون بالإلهة، التي هي من اختياراتهم كالشمس والقمر والنجوم والنار، أو من أيديهم الصانعة لها كالأصنام، ولأن لسان حالهم وإيمانهم هو وجود الإله القريب لمشاهداتهم وحواسهم. لذا لم يرتق تفكيرهم إلى الله المجرد من المشاهدة المادية كما كانوا هم يعتقدون. فكانت الإجابة قل لهم يا محمد أنه (أنا الله) الذي لا مثيل له مما يعتقدون ويتوقعون أو لا يتوقعون.

وبما أنه الواحد الذي لا يماثله شيء.

إذن الواحد الذي لا يماثله شيء لا يمكن أن يشتق من شيء.

والقاعدة تقول لا يشتق شيء من شيء إلا وهو على حالة من التماثل معه. ولذا من يقبل بأن اسم الله مشتق من اسم إله فعليه أن يقبل بالتماثل مع المشتق منه، وإذا قبل بذلك يجد نفسه على غير قاعدة.

ولأن الإله مخلوق (القمر والنجوم والشمس والنار والأصنام وغيرها مما اتخذ آلهة من دون الله). ولأن الله هو الخالق. إذن كيف يؤمن الإنسان باشتقاق الخالق من المخلوق!!.

ولذلك لا أحد يتماثل مع الله عز وجل، فالذي لم يكن له كفؤا أحد، لا يماثله أحد في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. وعلينا أن نتبيّن الفرق بين الاسم والمسمى، فالاسم اسم الله، والمسمى الآخر (الإله مسمى)، و (أسماؤنا مسميات)، أما الله فلم يسمه أحد، حتى يقال عنه المسمى، فاسمه عز وجل في ذاته. {إنه أنا الله العزيز الحكيم}[١٣٣]. إذن بما أنه قال تعالى: (أنا الله) والله لا يماثله شيء في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. إذن (لا إله إلا الله). إي لا إله من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحق العبادة غيره، فالذي سُمي بالإله يقول الله ليس هو أنا ولهذا قال تعالى: (لا إله إلا الله) أي لا إله غيري، وبالتالي من

---

[١٣٢] مواهب الجليل من تفسير البيضاوي. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص ٨٢٦.

[١٣٣] الشعراء ، ٩.

تعتقدون بأنه أنا فهو ليس كذلك (لا إله إلا الله) ولهذا نهى الله العباد عن اختيار آلهة من دونه، حيث لا وجود لمن تعتقدون بأنه إله غيري، فأنا الله. أما أولئك الذين اتخذتموهم من دوني فهم ليس أنا، وهذه تحمل في مضمونها حكم وجوبي لتركهم، ومن لم يترك هذا الأمر ويتخلى عنه سيكون مشركا، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[١٣٤] ولهذا لا يعد الإله من أسماء الله الحسنى، بل الإله مسمى من قبل البشر وبالتالي جاء الخطاب على لسان حال الذين أطلقوا هذا المسمى (المعبود) الذي يقبل التعدد. ولذلك فالله هو الواحد الأحد الذي تتعدد صفاته التي بها يُسمى وهو لا يتعدد. وهنا يتضح الفرق بين اسم الله وبين بقية أسمائه التي يتصف بها ويحق لنا أن نسميه بها ما يجعله المسمى بصفاته الحسنى.

أما الله تعالى فهو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدد فيه الصفات التي يتضمنها ويحتويها في أسمائه الحسنى، والتي إن نعدها لا نحصيها، {وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصُوها}[١٣٥] وهذا لا يعني أن نعمة الله غير محصية، بل تعني أن قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدها، مع أنّ الله أحصى كل شيء وعده عدَّ {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}[١٣٦].

إذن بالنسبة لله كل شيء مسجل إحصاءً وتعدادا، أما بالنسبة لنا نحن بني الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من يستطيع أن يحصوا ما تراه العين أو يُحسُّ به وما لا تراه العين ولا يُحسُّ به مع أنه موجود من حولنا وعلى مقربة منا، وكذلك يمتد إلى ما يبعد عنّا إلى مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى.

ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هو الله الذي لا إله إلا هو}[١٣٧].

لا إله نفي، لاعتقاد ظني في إله يفيد ويضر، أو يقرّب من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحدانية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين ألهوه باختياراتهم أو لرغباتهم وحسب

---

[١٣٤] طه، ٨.

[١٣٥] إبراهيم، ٣٤.

[١٣٦] مريم، ٩٣ . ٩٥.

[١٣٧] الحشر، ٢٢.

ظنونهم. ولذا فإن اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أما اسم الله تعالى فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقاداتهم في الآلهة حتى يتبين لهم المعنى المرشد إليه وهو الله.

إذن لا إله إلا الله، تعني أنَّ الإله ليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله. إذن لا يُمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاقات اسم الله). الإله مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أما اسم الجلالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقا لقوله تعالى في سورة الشعراء: {أنا الله} ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى. فلو سلمنا بأنه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلم أيضا في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له.

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدل على ذاته، ومجموع صفاته الحُسنى. وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (ألَه) التي تعني التحيّر في وعدم الاهتداء إلى، ويقال أنه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحب الشديد، الذي قد يؤدي إلى ذهاب العقل من التعقل. ويقال أنه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله وألوهة وألاهة) وهذه تدل على أن الإله هو المعبود بحق أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور الشورى[١٣٨]. ولذلك يتم الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه ابوبكر ابن العربي أن اسم الله غير مشتق؛ لان الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمَّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنى"[١٣٩]. ولأن الإله تؤلهه اختيارات بشر، لذا يرتبط الإله بالبشر لأنه منهم، أما الله تعالى فلم يؤلهه أحد، بل ألهى ذاته، حيث {ليس كمثله شيء}.

---

[١٣٨] مجدي منصور الشورى ، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم، ١٩٩٩م، ص ٢٩.

[١٣٩] المرجع السابق، ص ٣٠.

وبما أن ليس كمثله شيء. إذن لماذا المقارنات والاشتقاقات من آخرٍ لا يساويه في شيء؟. وهل الله في حاجة لأن يُعرِّف بغيره؟. الذي يُعرّف بغيره يمكن أن يكون نكرة، والله تعالى لم يكن ولن يكون نكره. ولهذا يُعرّف الله جل جلاله بذاته العلية. وهو ليس بناقص حتى يُعرَّف بآخر ليستدل عليه. ولهذا فالله تعالى يُستدل به لا يُستدل عليه بآخر.

وعليه فإن قوله تعالى (لا إله إلا أله) تنفي الألوهية عن غير الله وتثبتها لله وحده دون غيره. ولأن الإله ما دون الله عز وجل، حيث لم يبلغ الكمال كما هو الله تعالى، لذا فإن الآلهة التي هي من دون الله صفتها القصور، أما الله تعالى فصفته الكمال، ولهذا فإن الإله هو الدون (الأقل)، والله هو (الأعلى)، {واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً}[١٤٠] ولأننا نعلم أن العزة لله فكان من الواجب علينا أن نقول لا عزة لآلهة من دون الله ولهذا يقول تعالى: {فإن العزة لله}[١٤١]. إذن الكفار الذين يعتقدون في أن العزة للآلهة كان اعتقادهم في غير محله. حيث محل العزة لله جلَّ وعلا.

ولأن للزمان حُجّة، فلا ينبغي أن نغفل عن تقديمها، في التساؤل التالي:

هل الله سابق على المسمى أم المسمى سابق على وجود الله تعالى؟.

بالنسبة لله فالزمن مخلوق منه، أما بالنسبة للإله فهو المخلوق في الزمن.

بما أن الله هو الأول والآخر وهو الخالق لكل شيء، إذن كل المخلوقات هي بفعل الفاعل وهو الله الخالق تعالى.

وبما أنها من فعله أو بفعله عز وجل، إذن بطبيعة الحال يترتب وجودها على وجوده تعالى. ولهذا فالمسمى الإله هو مسمى بشري. أما اسم الله تعالى فلم يكن مسمى بشري ولا من بقية المخلوقات. وذلك وفقا للقاعدة التي تنص أن وراء كل مخلوق خالق. ولأن الآلهة اختلقها البشر ليعبدوها من دون الله، لذا فهي لم تكن بخالقة، والفرق كبير بين خالق عظيم وبين مخلوق يفتقر للعظمة، {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون}[١٤٢]. العابد

---

[١٤٠] مريم، ٨١.

[١٤١] النساء ١٣٩.

[١٤٢] النحل، ٢٠.

مخلوق من عند الله والمخلوق (البشر) الذي بعضه يعبد بعض من المخلوقات التي هي الأخرى من عند الله، ويعبد البعض الآخر منهم ما خلقوا بأيديهم (كالأصنام التي يصنعونها بأيديهم).

وعليه يقول تعالى: {ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل بها الله من سلطان}[١٤٣]. في هذه الآية الكريمة النص صريح على أن أسماء الآلهة التي اتخذها بعض البشر للعبادة هي التي سُميت من قِبلهم وليس هي التي تستوجب العبادة، فالذي يستوجب العبادة الذي خلق كل شيء بما فيها ما اختاره البعض إلها له.

الذين اتخذوا آلهة لهم من دون الله هم الذين يعتقدون أنها ستقربهم إلى الله زلفى، {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}[١٤٤]. فالناس تبحث عن المنزلة الرفيعة وهم يعتقدون أن ما يعبدون من دون الله هو القادر على تقريبهم من هذه المنزلة، في حين لو أنهم تساءلوا: آلا يكون من صنعناه بأيدينا هو تحت سيطرتنا، وأن ما يظهر ويغيب أو يشرق ويغرب، هو الآخر تحت سيطرة غير سيطرتنا؟. وبما أنه غير مسيطر على ثباته ووجوده آلا يكون تحت سيطرة من هو أكثر منه ومنا مقدرة وقوة؟. ومن يا ترى هذا الذي يتحكم في أمرنا وأمرهم؟. آلا يكون هو الأولى بالعبادة؟.

لو تساءل الإنسان، لوجد الإجابة، أو كانت له الإجابة مباشرة بلا وسطاء يتخذهم ليقربوه لله زلفى. إنه الله جل جلاله الذي جعل في الأرض خليفة، خلقها فسواها فعدلها في إي صورة ما شاء ركبها، إنه الإنسان الواعي المؤمن بخالقه تعالى. ولأنه الله الذي لا شريك له في المُلك كان له الخليفة، ولهذا ليس من باب المقارنة ولكن للتوضيح فقط، يتضح أمر من يخلق ومن يُخلَق، فالمخلوق سيضل هو المخلوق إلى النهاية، ولن يستطيع أن يترك له خليفة، فالقمر لم ولن يترك له خليفة، والشمس هي الأخرى لم ولن تترك لها خليفة، والأصنام التي اتخذها البعض من الكافرين آلهة لهم لم ولن تترك من بعدها خليفة. وهكذا الإنسان لم ولن يترك له

---

[١٤٣] يوسف، ٤٠.

[١٤٤] الزمر، ٣.

خليفة من أمره، بل الإنسان يخلف بعضه البعض كغيره من الكائنات الأخرى بأمر التكاثر الذي صدره الله لخلقه.

وعليه: من يستطيع أن يترك خليفة، فهو أحق بالعبادة، ولهذا الإنسان الذي ميزه الله بأحسن تقويم هو المؤهل قبل غيره بالإيمان والعبادة لله تعالى. {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون}[١٤٥]. هنا يقصد آدم وجنسه حيث اعلم الله تعالى الملائكة بالقرار (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قُضى الأمر في هذه القضية وهو استخلاف آدم وجنسه لعمارة هذا الكون، حتى ترتب عليها أمر آخر في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[١٤٦]. وطاعة لأمر الله عز وجل سجد الملائكة لآدم لا لعبادته ولكن لعبادة الله الذي أصدر لهم أمر السجود، ولذا فكان سجودهم طاعة لله تعالى، وكانت المعصية ممن لم يطع الأمر وهو إبليس أعوذ بالله منه.

إنَّ سجود الملائكة لآدم يوم أن استخلفه الله تعالى على إدارة الشؤون الإنسانية في الكون يُعد التقدير الأوفر لمن خُلق في أحسن تقويم. إنه اليوم الذي تحدد فيه من يكون الخليفة على الكون، ولذلك لمَّا أنبأهم آدم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم اعترافا به، وتقديرا له، واعتذارا عما قالوه فيه.

وقد يتساءل البعض: هل آدم وجنسه هم خلفاء الله على الكون؟.

بالتأكيد لا، الله واحد أحد لا يخلفه أحد.

إذن آدم وجنسه خليفة من؟.

آدم وجنسه استخلفهم الله في الكون، أي تركهم يُنظمون شؤون حياتهم فيه، ولم يتركهم ليحلوا محله، فهذا الأمر استغفر الله ليس من مهام الخلافة التي كلَّفهم بها الله تعالى.

---

[١٤٥] البقرة، ٣٠ .

[١٤٦] البقرة ، ٣٤.

ولهذا لا يمكن أن يخلف الله أحد في ذاته، بل الله استخلفهم أحد، في تنظيم حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والإنسانية.

ولأن الله حي قيوم إذن لا محل في أن يحل المستخلف محل من كلفه بالاستخلاف. فالإنسان يمكن أن يكلف أحد من بني جنسه في استخلافه، أن يحل محله في غيابه، ولكن الحي القيوم {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم}[١٤٧] لن يغيب حتى يخلفه أحد، ولكنه صاحب القوة وعلام الغيوب قد استخلف آدم عليه الصلاة والسلام وأنبأه بما لم تعلم الملائكة حتى كانت المعجزة التي انتهت بالسجود لآدم عرفانا به وبما قدّره الله تعالى له من أسرار.

ولذا جاءت في لسان العرب المحيط كلمة "خلائف في الأرض بمعنى يخلف بعضكم بعضا"[١٤٨]، حيث ينتهي السابقون ويأتي من بعدهم اللاحقون. "فالخَلَفُ كل من يجيء بعد من مضى"[١٤٩]. ومن هنا يتضح الفرق بين الخَلَفُ وبين الاستخلاف، فالخلف يتعاقب من ورأى بعضه البعض، أما الاستخلاف هو تمكين من يود أن يكون خليفة في مهمته التي تناط به حتى يؤديها.

وفي حديث أبن عباس "أن أعرابيا سأل أبا بكر، رضي الله عنه، فقال له: أنت خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: لا، قال: فما أنتَ؟ قال: أنا الخليفة بعده"[١٥٠].

ماذا تعني إجابة سيدنا أبا بكر رضي الله عنه؟.

تعني أنه لا يمكن أن يخلف أحد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالرسول لا يخلفه إلا رسول، وهكذا خلف عيسى موسى عليهما الصلاة والسلام، وهكذا خلفهما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. الرسول لا يخلفه إلا رسول، ولهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم

---

[١٤٧] البقرة، ٢٥٥ .

[١٤٨] لسان العرب المحيط، العلامة ابن منظور. بيروت: دار لسان العرب، المجلد الأول، ص ٨٨٣.

[١٤٩] المصدر السابق، ص ٨٨٤.

[١٥٠] المصدر السابق، ص ٨٨٥.

الأنبياء والمرسلين. {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}[١٥١]. إذن لا نبي من بعده، ولهذا لا يمكن أن يحل محله أحد. ولكن بطبيعة الحال سيخلفه من بعده من يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام. ليقوم بدوره تجاهها ولكنه لا يمكن أن يقوم بدور رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالرسول يصطفيه الله تعالى، وتكون له رسالة من عند الله تعالى، وله تكليف في حدود المستهدف بالرسالة، خاصة كانت أم عامة (للناس كافة) كما هي رسالة خاتم النبيين عليهم جميعا الصلاة والسلام. وفي مقابل ذلك الخلفاء من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يصطفيهم الله تعالى، ولم تكن لهم رسالة، وليس لهم تكليف من السماء. ولهذا لا يخلف الرسول إلا رسول من عند الله. وما أمر صحابة رسول الله رضوان الله عليهم إلا أمر صحبة على كلمة سواء (لا إله إلا الله محمدا رسول الله). ولذا خلف الصحابة بعضهم بعضاً ولم يخلف أحد منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولهذا فالخلافة توالي عبر الزمان والمكان مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}[١٥٢] وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ}[١٥٣]. هنا جاءت الخلافة عامة للمؤمن وغير المؤمن، أما في الآية {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}[١٥٤]. هنا الوعد مقصور على الذين امنوا وفي هذه الآية يوجّه الكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، والذين امنوا، ليجعلنهم خلفاء متصرفين في شؤون الحياة البشرية بما أمر الله تعالى، أي أن الرسالة سيبلغ مداها إلى أن تعمّ المعمورة، لتكون عليها الخلافة الإلهية، وأعني ما يريده الله أن يكون على الأرض، فسيكون على أيدي المؤمنين به الطائعين لأمره، وفي هذا استثناء من الخلافة، حيث استثنى الله غير المؤمنين من الخلافة بقوله {وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا

---

١٥١ الأحزاب ، ٣٣.

١٥٢ الأعراف، ، ٦٩.

١٥٣ الأعراف، ٧٤.

١٥٤ النور، ٥٥.

الصالحات ليستخلفنهم في الأرض} قال: (الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات) وهذا يدل على أمور ثلاثة:

الأول: استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف.

ثانيا: تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم.

ثالثا: تخصيص الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهنا يتضح التميّز بين من آمن ولم يعمل عملا صالحا، وبين من آمن وعمل عملا صالحا.

ولهذا سيُبدّل الله تعالى خوف المؤمنين من الأعداء أمنا، وبما أن هذا الأمر وعدُ من الذي وعده الحق، وهو لا يخلف وعده. إذن فاليُرمى الخوف في غيابات الجب ولنعمل صالحا حتى نكون من المستخلفين في الأرض.

ومن الآية السابقة يتضح أمر الخليفة بأنه ليس الإنسان المطلق، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحا. وهذا لا ينفي الوجود والعيش على الأرض للكل دون استثناء بل يعني أن مستقبل الأرض سيكون بين أيدي آمنة، وليس بين أيدي عابثة، ولهذا لا إكراه في الدين، بل في الدين الحُجَّة التي تحمل في مضامينها الحقيقة التي تتطلب مؤمنين بها حتى يتمكنوا من تسويقها بقواعد ما يجب، دون إكراه للآخرين. ولذا فإن أمر الخلافة يتعلق بصناعة المستقبل. وهذا المستقبل لن يتحقق إلا بما يتركه الإنسان من أثر طيب في القول والفعل والسلوك. فعندما استخلف موسى أخاه هارون عليهما الصلاة والسلام عندما استخلفه في قومه لم يكن موسى صلى الله عيه وسلم قد أنهى رسالته، بل لأنه سيكون في مهمة إلهية، والإلهية هنا لا تعني الاشتقاق من إله بل مدد من عند الله، أي انتساب المهمة الموسوية إلى الله تعالى. ولهذا فإن الإلهية صفة من صفات الله تعالى، والإلهية نسبة إلى إله.

ولأن قول الله حق، لذا لا يمكن أن يكون إلها، فالآلهة التي اتخذوها لتقربهم لله زلفى، هي غير قادرة على القول، حقا أو حتى باطلا. ولهذا فهي قاصرة عن القول، ولأنها كذلك: أيكون اتخذها آلهة مناسبا للعبادة أو حتى للتقريب زلفى؟.

ولو سلمنا بأن اسم الله تعالى هو اسم الإله، فلنسلم أيضا بأن اسمه يُجمع. ولأنه لم يكن كذلك فيجمع اسم الإله على آلهة، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام هو الله. ولهذا في الجمع التعدد، وفي اسم الله تعالى الوحدانية.

في عقول الخلق الذين يسبِّحون بحمد الله وشكره، لا وجود في أذهانهم لآلهة، بل الوجود لله تعالى، وهذا يدل على انتزاع الظنون الباطلة من عقولهم، وامتلائها باليقين. ولهذا كان للطير منطقا وكان للنملة لغة لتسبح جميعها بسم لله تعالى دون أن تتخذ آلهة من دونه. وهنا يحدث الاستغراب، طائر ونملة ومخلوقات متعددة لم تصل إلى الرقي الذي عليه خلق الإنسان، لم تتخذ آلهة من دونه، ويتخذ البعض من بني الإنسان ما دون ذلك من دون الله تعالى!. لقد اتخذها الإنسان أنه كان عجولا {وكان الإنسان عجولا}[155]. ولهذا جاءت السور القرآنية التي تتضمن في آياتها العظام، أن لا يكون الإنسان عجولا. قال تعالى: {فبما رحمت من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر}[156]. فاللين في هذه الآية الكريمة لا يتم إلا بمقدرة على الاستيعاب فحيث من يخالفك أو يعصيك أمرا قد يجعلك في حالة عدم توازن وقد يؤدي بك إلى اتخاذ مواقف استعجاليه مما يجعلك على أخطاء لا يحمد عقباها، ولهذا الاستعجال يُضيع الصوابَ. ومع أن المشورة تحتاج إلى وقت أطول إلا أنها تؤدي إلى قرار أصوب، ولهذا لا داعي لأن تكون أيها الإنسان عجولا. وإن قبلت بذلك فأنت لن تكون خليفة في الأرض، التي في حاجة لمن يَعمُرها، وليس في حاجة لمن يسفك فيها الدماء ويهلكها. ونحن المؤمنون جميعا نحمد الله تعالى على نعمه التي أنعم بها علينا حتى لا نُسهِم في إهلاك الأرض وهتك العرض وسفك الدماء بغير حق. ونحن بالمشاورة نكون خير خليفة، وبدونها لن نتمكن من بلوغ الخليفة. ولهذا أكد الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[157].

---

١٥٥ الإسراء، ١١.

١٥٦ الشورى ، ١٥٩.

١٥٧ الشورى، ٣٧ . ٣٨.

أكد في مجمل هاتين الآيتين وما سبقهما وما لحقهما من آيات عظام في سورة الشورى على الامتناع والابتعاد عن ارتكاب السلوكيات والأفعال الناقصة ما ظهر منها وما بطن، والإقدام على كل ما من شأنه أن يرضي الله تعالى، لأجل أن يصبح الإنسان خليفة منه تعالى على الأرض.

ومع أن أمر الخليفة قد صدر من الله عز وجل للمؤمنين الذين يعملوا الصالحات، إلا أنه من باب التقدير للخليفة أن يكون قد أدرك هذه المسؤولية حتى يَقدِمَ على حملها بإرادة. ولذلك لمّا يدخل الإيمان في القلوب تتم سيطرة الإنسان على الأرض ويُتوج عليها خليفة. {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٥٨]. هذه الآية الكريمة نزلت في نفر من بني أسد، الذين قدموا إلى المدينة في سنة جذبة وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا بمؤمنين فقد أعلنوا إسلامهم لغاية في أنفسهم وهي الحصول على الصدقات، ولأنهم لم يؤمنوا بثقة ورسوخ، لذا فهؤلاء ومن هم على شاكلتهم يعدوا مسلمين حيث نطقهم وقولهم بالشهادتين دون الإقدام على أداء بقية الواجبات وخاصة مجاهدة النفس في سبيل الله عز وجل. (ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم) وحتى يأتي الوقت الذي يدخل فيه الإيمان قلوب المسلمين حينها يكون الاستخلاف سيد الموقف، وحينها يعرف المسلمون أنفسهم بأنهم على الحق مؤمنون.

ولأن القضية الأساسية في الدين تكمن في قوله تعالى: {وإلهُكُم إلهٌ واحِدٌ لا إله إلا هُوَ الرحمنُ الرحيم}[١٥٩]، لذا جاء نفي أن يكون أو يتخذ من غير الله إلها، ولهذا فكلمة إلهكم تعود على الله تعالى، حيث (إلهكم) جاءت مطلقة، ولأنه لا مطلق إلا الله أو ما يأتي منه تعالى، لذا تعود (إلهكم) عليه دون غيره، حيث لا وجود لمطلق سواه. ولهذا يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة {وإلهُكُم إلهٌ واحِدٌ لا إله إلا هُوَ الرحمنُ الرحيم} "إن الله لا ينفى ويقول (لا إله إلا هُوَ) إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير الله ولشركاء معه،

---

[١٥٨] الحجرات، ١٤.

[١٥٩] البقرة، ١٦٣.

إن القرآن ينفي ذلك ويقول (لا إله إلا هُوَ الرحمن الرحيم) وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو منعم عليه"[١٦٠] وفي هذه الآية الكريمة خاطب الله تعالى من يتخذوا آلهة غيره أو يفكروا أن يتخذوها باللغة المعرفية التي سادت بينهم، اللغة التي تعترف بوجود الآلهة من دونه، وحتى يبدأ معهم من حيث هم خاطبهم بإلهكم، لعلهم يفطنوا من غفلتهم ويتساءلوا: ما هذا الأمر؟ ألا ما نحن عليه ليس بآلهة؟ أم أن في القضية أمر يتطلب التعرُّف عليه؟. ولهذا بدأ الله معهم من حيث هم لغرض أن ينقلهم إلى ما يحب أن يكونوا عليه.

وعليه يتضح الفرق بين من تؤلهه العباد، وبين الذي تألهه العباد. فالتأله يدل على عشق وتعلق المخلوق بالخالق، والتأليه يدل على من يوضع في مكانا أكبر منه، أو ينظر إليه كذلك وهو عن غير حق. حيث تأليه البعض لبعض الحكام وكأنهم لم يكونوا من العباد. وهؤلاء كمثل من جعل له النار إلها أو أختار له القمر أو الشمس إلها، هذه تدل على التأليه، أما التعلق بالله تعالى فهو تأله أي تعلق متين بالواحد الأحد. وفي هذا الأمر يقول ابن تيمية "أنّ الله هو من تألهه العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له، وهو الذي تألهه القلوب"[١٦١].

فالله سبحانه هو الاسم الأعظم الذي سمى به نفسه حين قال تعالى: {إني أنا الله}[١٦٢]. في هذه الآية الكريمة تحديد قاطع بأن المسميات التي خاطب بها العباد لتتخلوا عمن هم دونه من آلهة ليس هي بأسمائه، ولهذا اسم الله لا يتعدد برغم تعدد صفاته التي بها يوصف أو يسمى.

فالله اسم مطلق للبقاء، وما دونه أسماء فانية، لا يكتب لها البقاء، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[١٦٣]. ولأن الأسماء والأجسام التي لا تبقى لا تليق أن تكون

---

[١٦٠] تفسير الشعراوي، القاهرة: أخبار اليوم، المجلد الثاني، ص ٦٨٢.

[١٦١] منهج الإمام ابن قيم الجوزية، في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٢٦٨.

[١٦٢] القصص، ٣٠.

[١٦٣] الرحمن، ٢٧.

معبودات جاء قوله تعالى: {فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلم أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكوننَّ من القوم الضالين فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلمّا أفلت قتل يا قوم إني بريء مما تشركون}[١٦٤]. ولأن كل ما نشاهده بأعيننا ليس له صفة البقاء والاستمرارية وله صفة التبدل، لذا جميعها لا تليق بأن يتم اختيارها آلهة، ولذا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يقبل بأن تكون النجوم أو القمر أو الشمس آلهة تستحق العبادة حيث فقدانها لصفة الديمومة والبقاء بدون تبدل. ولأنه لا بقاء إلا لله تعالى، لذا فلم يكن مثله شيء، ولهذا فهو الذي يستحق العبادة.

وقد يتساءل البعض: لِماذا جعل الله على الأرض خليفة؟.

ليُريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق من الباطل، ويكونوا الخليفة التي يُطمئن لها وتُصلح الأرض ولا تفسد فيها وتسفك الدماء، وتعلم أن الحق من عند الله تعالى فتزداد تعبدا له دون غيره. {سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}[١٦٥] ولهذا يُريهم الله من فضله ونعمه عليهم بداية من أنفسهم وما خُلقوا عليه وما يحيطهم عن القرب والبعد حتى السماء، ولهذا من حق الخليفة أن يبحث وينهل من العلم في الأرض وفي الآفاق حتى يزداد يقينا بنعمه وفضله الواسع. ولذا يقول تعالى: {ثمّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون}[١٦٦]. إذن جعل الله الخلائف على الأرض لينظر كيف يعملون، هل سيعملون خيرا أم سيعملون شرا، بعد أن بين لهم كل شيء تفصيلا. فهل سيكونون على وحدانيته وطاعته، أم أنهم سيكونون على معصية وكفر. ولأن الخلائف تتوالى عبر الزمن حيث سابقون ولاحقون، حتى كانت آخر الخلائف بعد القرون التي هلكت. والتي

---

[١٦٤] الأنعام، ، ٧٦ ـ ٧٨.

[١٦٥] فصلت، ، ٥٣.

[١٦٦] يونس، ١٤.

فيها يقول القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن "كل من جاء من بعد من مضى فهو خليفة، أي جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة"[١٦٧].

وبناء على تفسير السيد القرطبي، إذن لا خليفة إلا وسابق عليها. وفي هذا الشأن قد يكون استخلاف الإنسان على الأرض على أنقاض السابقين له، {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا}[١٦٨] هذه الآية دليل إثبات على أنّ أناس كانوا من قبل، وقد انتهوا، وجيء بخلق من بعدهم، وأولئك كانوا على حضارة راقية في البناء والأعمار حتى وُصِفوا بأنهم أكثر قوة من الذين خلفوهم.

ولأنه الله الذي لم يشتق اسمه وفعله وصفاته من أحد، جعل في الأرض خليفة، ولأن الآخر إله فلم ولن يستطيع أن يترك له خليفة. فالشمس هي الشمس على ما خُلقت أو فُطرت عليه، فمن يتخذها إلها فليتخذها، ولكن لن تترك له خليفة. وذلك لأنها غير قادرة على ذلك، فالقادر وحده الله تعالى. وهكذا حال أي إلهٍ يمكن أن يُتخذ كما سبق وأن أُتخذت القمر والنار والأصنام المتعددة آلهة، فهي جميعها لا تستطيع أن تترك خليفة.

فالذي يترك خليفة في الأرض خلقا هو الله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}[١٦٩]. الله الذي بدأ الخلق مما لم نعرف، ويستمر به إلى نهاية ما لن نعرف، فبداية الخلق منه ونهايته إليه، ولذا لن يكون هناك دور لمن لا يؤخر أو يُقدم في الأمر شيء، الدور والمُلك لله الواحد القهار. ولأن الله هو الخالق، وكل ما غيره مخلوق، فهل من الأفضل للخلافة التي تركها الله لخلقه أن تتخذه معبودا وتخلص له الدين، أم أن تتخذ من هو مخلوق مثلها إلها؟. وهل من اللائق بنا نحن بني الإنسان أن نعبد الله الذي ليس كمثله شيء؟ أم

---

[١٦٧] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي، المجلد السابع، ص ١٥٨.

[١٦٨] الروم، ، ٩.

[١٦٩] الروم، ، ١٢، ١٣.

نعبد غيره من الذين هم في أحسن تقويم أو من الأقل منهم تقويم؟. تكمن الإجابة على هذه الأسئلة في قوله عز وجل: {أمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه}[١٧٠].

وقد يتساءل البعض: ما هذا الشيء الذي استخلفنا الله فيه؟. الخيرات والنعم التي انعم الله بها على الذين من قبلنا، وعلينا، وعلى الذين سيأتون. لقد خلق الله النعم والخيرات سابقة على خلقنا، حيث خلق آدم في الجنة، أي خلقه في وسط النعيم، وإلا لو لم يخلق الله النعيم سابق علينا هل يمكن لنا أن نحيا ونعيش من غير مصدر رزق؟. ولهذا أمر الله عباده بأن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه من خيرات.

وحتى لو كان فينا ضعف، وعرفنا هذه الحقيقة أن الله خلق النعم سابقة على خلقنا وهي من أجلنا، من أجل أن نعيش دون عوز أو فاقة، آلا يكفي هذا الأمر لأن يجعلنا نقول بإرادتنا (لا إله إلا الله).

بناء على ما تقدم فإن الخليفة ليس له بدا إلا أن يقول: {ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير}[١٧١] ولأن الأمر بيد لله. لذا لا شريك له. (لا إله إلا أنله) {يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)[١٧٢].

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يكن له صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريك في الملك ولا له ند، والصلاة والسلام على من لم يعبد سواه ولم يجعل سواه ضد، وعلى من سار على نهجه ونجا يوم الجد.

اسم الله هو المستحق للعبادة؛ لأنه هو المتصف بصفات الكمال والجلال، ولذا على الخليفة أن يحسن عبادة ربه، وأن يحسن التوكل عليه، وحقيقة التوكل على الله جل جلاله: أن يعلم العبد أن هذا الملكوت إنما هو بيد الله جل وعلا يصرفه كيف يشاء، فيفوض الخليفة الأمر إليه، ويلتجئ بقلبه في تحقيق مطلوبه وفي الهرب مما يسوءه، ويلتجئ في ذلك ويعتصم بالله جل جلاله وحده، فينزل حاجته بالله، ويفوض أمره إلى الله، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به

---

[١٧٠] الحديد، ، ٧.

[١٧١] المائدة، ١٨.

[١٧٢] الحديد، ، ٢.

من حيث التوكل عليه، فحقيقة التوكل في الشرع تجمع تفويض الأمر إلى الله جل جلاله، وذلك بفعل الأسباب، فالإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها الخلفاء المتوكلون على الله، بل إن نفس التوكل على الله جل وعلا سبب من الأسباب؛ لأن التوكل حقيقته في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة، وهي تفويض الأمر إليه، والالتجاء إليه، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره، ولا شيء إلا بما قدره وأذن به كونا، ثم فعل السبب الذي أوجب الله جل وعلا فعله أو أمر بفعله، فترك فعل الأسباب ينافي حقيقة التوكل، كما أن الاعتماد على السبب وترك تفويض الأمر إلى الله جل وعلا ينافي حقيقة التوكل، فالمتوكل هو من عمل السبب، وفوض الأمر إلى الله جل وعلا في الانتفاع بالسبب، وفي حدوث المسبب من ذلك السبب، وفي توفيق الله وإعانته فإنه لا حول ولا قوة إلا به جل وعلا، فالتوكل عبادة قلبية محضة؛ ولهذا كان إفراد الله جل وعلا بها واجبا، وكان صرفها لغير الله جل وعلا شركا"[١٧٣]، قال تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[١٧٤].

ولذلك على الخليفة أن يعتقد أن الله جل جلاله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سبحانه جل جلاله، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[١٧٥]، رتّب الحسب (وهو الكفاية) على التوكل عليه، وهذا فضيلة التوكل، وفضيلة المتوكلين عليه، ومن هنا اختلف العلماء في أيهما يغلب: الخوف أم الرجاء؟ هل يغلب العبد جانب الرجاء أو يغلب جانب الخوف؟ في الحقيقة أن ذلك على حالين:

. الأولى: إذا كان الخليفة في حال الصحة والسلامة فإنه إما أن يكون الخليفة مسددا مسارعا في الخيرات، فهذا ينبغي أن يتساوى في قلبه الخوف والرجاء، فيخاف ويرجو؛ لأنه من المسارعين في الخيرات، وإذا كان في حال الصحة والسلامة وكان من أهل العصيان، فالواجب عليه أن يغلب جانب الخوف حتى ينكف عن المعصية.

---

[١٧٣] التمهيد لشرح كتاب التوحيد،ج٢،ص٢٧،ص ٢٨.

[١٧٤] يونس٨٤.

[١٧٥] الطلاق٣.

ـ الحال الثانية: إذا كان في حال المرض المخوف فإنه يجب عليه أن يعظم جانب الرجاء على الخوف، فيقوم في قلبه الرجاء والخوف ولكن يكون رجاؤه أعظم من خوفه، وذلك لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "لا يمت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه تعالى"[١٧٦]، وذلك من جهة رجائه في الله جل جلاله؛ ومن هنا اختلفت كلمات أهل العلم، فتجد بعضهم قال: يجب أن يتساوى الخوف والرجاء، وبعضهم قال: يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، وبعضهم قال: يغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، وهي أقوال متباينة في ظاهرها، ولكنها متفقة في الحقيقة[١٧٧]. ومع ذلك فمن يخاف الله يتقيه ومن يرجو الله يتقيه، وفي كلتا الحالتين كل ما من شأنه أن يزيد التقوى هو مُفضَّل عند الله تعالى، ولهذا فالخوف يؤدي إلى التجنب والابتعاد عما نهى الله عنه، والرجاء تضرع لا تمد فيه الأيدي إلا لله تعالى، وفي كلتا الحالتين يتحقق الرضا من الله الواحد القهار، ولأنه الواحد القهار فمخافته ضرورة واتقائه واجب والحمد لله رب العالمين.

ولذلك على الخليفة أن يرضى ويُسلِّم، فالرضا بالمصيبة اعتراف بكمال القدرة لله تعالى واعتراف بنقصها عند من سواه؛ ولهذا يختلط على كثيرين الفرق بين الرضا والصبر، فالصبر على المصائب واجب من الواجبات؛ لأن فيه ترك السخط على قضاء الله وقدره، والرضا له جهتان:

ـ الجهة الأولى: راجعة إلى فعل الله جل وعلا، فيرضى بقدر الله الذي هو فعله، ويرضى بفعل الله، ويرضى بحكمة الله، ويرضى بما قسم الله جل وعلا، وهذا الرضا بفعل الله جل جلاله واجب من الواجبات، وتركه محرم ومناف لكمال العقيدة.

ـ والجهة الثانية: الرضا بالمقضي، أي بالمصيبة في نفسها، فهذا مقبول، وليس واجبا على الخلفاء أن يرضوا بالمرض، وأن يرضوا بفقد الولد، وأن يرضوا بفقد المال، لكن هذا مقبول وهو رتبة الخاصة من خلفائه، لكن الرضا بفعل الله جل وعلا بمعنى الرضا بقضاء الله من

---

[١٧٦] أخرجه مسلم رقم:٧٢٢٩ .

[١٧٧] التمهيد لشرح كتاب التوحيد،ج٢،ص٤١.

حيث هو واجب، أما الرضا بالمقضي فإنه في دائرة القبول حيث لا مجال للرفض فالأمر واقع بالفعل (كن) الذي لا يملكه إلا هو جل جلاله، وأمره لا مرد له سبحانه ما أعظم شأنه، إنه ربي، رب العالمين عز وجل.

وفي معرفة اسمه (الله) جملة من الفوائد والثمرات التي يجنيها المسلم بتحقيقه لهذا الاسم العظيم من ذلك:

– أن العبد ينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة، بل إن السعادة في الدارين متوقف الحصول عليها على الإيمان بالله، فحظ الخليفة منها بحسب حظه من إيمانه بربه وأسمائه الحسان.

– أن إيمان العبد بربه واسمه هو أعظم أسباب خوفه سبحانه وخشيته وتحقيق طاعته، فكلما كان العبد بربه أعرف كان إليه أقرب، ومنه أخشى، ولعبادته أطلب، وعن معصيته ومخالفته أبعد[١٧٨].

– أن العبد ينال بذلك طمأنينة قلبه، وراحة نفسه، وأنس خاطره، والأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[١٧٩].

– أنَّ نيل ثواب الآخرة متوقف على الإيمان بالله، فبتحقيقه وتحقيق لوازمه ينال العبد ثواب الآخرة، فيدخل جنة عرضها السماء والأرض فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وينجو من النار، وعذابها الشديد، وأعظم من ذلك كله أن يفوز برضى ربه سبحانه فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذذ يوم القيامة بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

– أن الإيمان بالله هو الذي يصحح الأعمال ويجعلها مقبولة، فبفقده لا تقبل بل ترد على صاحبها وإن كثرت وتنوعت، قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

---

[١٧٨] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة،ج١،ص١١٨.

[١٧٩] الرعد٢٨.

مِنَ الْخَاسِرِينَ}[١٨٠]، وقال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}[١٨١].

– أنَّ الإيمان بالله ملجأ الخلفاء في كل ما يلم لهم من شرور وحزن وأمن وخوف وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها، ففي السرور يلجأ الخلفاء إلى الإيمان بالله فيحمدون الله ويثنون عليه ويستعملون نعمته فيما يحب، وعند المكاره والأحزان والمخاوف يلجؤون إلى الإيمان بالله فيتسلون بإيمانهم وما يترتب عليه من الأجر والثواب، فتطمئن قلوبهم ويزداد إيمانهم وتعظم ثقتهم بربهم، وعند الطاعات والتوفيق للأعمال الصالحات يلجؤون إلى الإيمان بالله فيعترفون بنعمته عليهم، ويحرصون على تكميلها، ويسألونه الثبات عليها والتوفيق لقبولها، وعند الوقوع في شيء من المعاصي يلجؤون إلى الإيمان بالله فيبادرون إلى التوبة منها والتخلص من شرورها، فالخلفاء في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان بالله وحده[١٨٢].

– أن معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته توجب محبة الله في القلوب إذ أن أسماء الله وصفاته كاملة من كل وجه والنفوس قد جبلت على حب الكمال والفضل فإذا تحققت محبة الله في القلوب انقادت الجوارح بالأعمال وتحققت الحكمة التي خلق العبد من أجلها وهي عبادة الله.

– أن العلم بالأسماء والصفات يورث قوة اليقين بانفراد الله تعالى بتصريف شؤون الخلق وانفراده بذلك لا شريك له وهذا مما يحقق صدق التوكل على الله في جلب المصالح الدينية والدنيوية وفي ذلك فلاح العبد ونجاحه فمن توكل على الله فهو حسبه.

– إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم لكل معلوم، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا، وهي إما علم بما كونه، وإما علم بما شرعه، ومصدر الخلق

---

[١٨٠] المائدة٥.

[١٨١] الإسراء١٩، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة،ج١،ص١١٩.

[١٨٢] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة،ج١،ص١٢١.

والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فمن أحصى أسماء الله كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم[١٨٣].

فعلى الخليفة أن يعلم أن اسم (الله) جل جلاله مستغرق لكل أسمائه بما اشتملت عليه من الكمال والجلال، فيحذر غضب الجبار، فالخليفة يعلم أن اسم الله (السميع) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة السمع، وكذلك اسم الله (البصير) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة البصر، فالواجب على الخلفاء أن يعلموا أن الله جل جلاله متصف بالأسماء الحسنى وأن لا يجحدوا شيئا من أسمائه الحسان، فمن جحد شيئا من أسماء الله فهو كافر؛ لأن ذلك من صنع الكفار والمشركين، والإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بالله، وهو سبب لمعرفة الله، والعلم به، بل إن العلم بالله ومعرفة الله جل وعلا تكون بمعرفة أسمائه المستوجب دعاءه بها، وبمعرفة آثار الأسماء في ملكوت الله تعالى، وهذا شيء عظيم يتضح في قوله الله عز وجل: {وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}[١٨٤]، فنحن بحاجة ماسة لمعرفته جل جلاله وبخاصة في هذا الزمن؛ لشدة الحاجة إليه، ولا نكون كالكفار فقد وصفهم جل جلاله في سورة النحل بأنهم ينكرون نعمة الله وهم لها عارفون، وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها وهو الله جل جلاله، قال تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا}[١٨٥].

وعليه فالخليفة يعلم أن كل النعم من الله جل في علاه، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلى الله جل جلاله، وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال العقيدة، قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}[١٨٦]، فدلت الآية على أنه لا يخرج شيء من النعم أيا كان ذلك الشيء صغيرا أو كبيرا عظيما أو حقيرا لا يكون إلا من الله جل جلاله، فكل النعم

---

[١٨٣] الإسراء١٩، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة،ج١،ص١٢٢.

[١٨٤] الأعراف١٨٠.

[١٨٥] النحل٨٢.

[١٨٦] النحل٥٤،٥٣.

صغرت أو عظمت هي من الله جل جلاله وحده، وأما الخلفاء فإنما هم أسباب تأتي النعم إليهم وتأتي على أيديهم، وأسباب في إيصال النعمة إلى الناس، فمن كان سببا في معالجتك، أو سببا في نجاحك في مادة، أو نحو ذلك لا يدل على أنه هو ولي النعمة، أو هو الذي أنعم، فإن ولي النعمة هو الله جل وعلا، وهذا من كمال اليقين، فإن القلب الموحد يعلم أنه ما ثَم شيء في هذا الملكوت إلا والله جل وعلا هو الذي يرسله، وهو الذي يمسك ما يشاء كما قال سبحانه: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}[١٨٧]، فكل النعم من الله عز وجل، والعباد أسباب في ذلك، فالواجب إذًا أن تنسب النعمة إلى المسدي لا إلى السبب؛ لأن السبب لو أراد الله جل وعلا لأبطل كونه سببا، وهذا السبب إذا كان آدميا فقلبه بين إصبعين من أصابع الله جل وعلا لو شاء لصده عن أن يكون سببا، أو أن ينفعك بشيء، فالله تعالى هو ولي النعمة، وما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل، وذلك لأن الواجب على المسلم أن يعلق قلبه بالله جل في علاه، وهذا هو حقيقة التوحيد، ومعرفة تصرف الله جل في علاه في ملكوته[١٨٨]؛ ولذلك نجد من قوة اسم (الله) جل جلاله أن لا يستطيع أحد أن يُسمي به نفسه أو أحدا من خلقه، وكل من حاول أن يفعل ذلك قهر وغلب وأُخِذ من حيث لا يدري، بل ومن مأمنه، ومن حيث لا يحتسب، كما فعل بفرعون قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ}[١٨٩]، فأسماء الله جل وعلا يجب على الخليفة تعظيمها، وألا يسمي بها البشر، لأن هذا الفعل راجع إلى تعظيم شعائر الله جل جلاله، قال

---

[١٨٧] فاطر٢.

[١٨٨] التمهيد لشرح كتاب التوحيد،ج٢،ص١٣٧.

[١٨٩] القصص٣٨-٤٢.

سبحانه: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}[١٩٠]. فالواجب على الخليفة أن يتحرز في ألفاظه وبخاصة فيما يتصل بالله تعالى، أو بأسمائه الحسنى أو بأفعاله وإنعامه، أو بعدله وحكمته، وأن يعلم أن الله جل جلاله مطلع عليه، وأنه سبحانه هو ولي الفضل، وهو ولي الإنعام، وهو الذي يستحق أن يجل فوق كل جليل، وأن يحب فوق كل محبوب، وأن يعظم فوق كل معظم، والخليفة يعلم أنه فقير لله جل جلاله، وأنه لا مغني له إلا هو، وأن الله هو الرب المستحق على العبد أن يشكره وأن يذكره، وأن ينسب النعم إليه، والخليفة ليس مستحقاً في الدنيا بحق واجب على الله جل في علاه إلا ما أوجبه الله جل جلاله على نفسه.

وحاول أهل العلم توضيح قيمة أسمائه وتفسيرها، ولكن وإن حاول أهل العلم ذلك فإنما هو من باب التقريب، ليدلوا الناس على أصل المعنى، أما المعنى بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله جل جلاله؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في دعائه: "لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[١٩١]. فالناس حين يفسرون أسماء الله جل وعلا فإنهم يفسرون ذلك بما يقرب المعنى إلى الأفهام، أما حقيقة المعنى على كماله فإنهم لا يعونه؛ لأن ذلك من الغيب والله أعظم من كل تفكير في العظمة، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها؛ لأن ذلك من الغيب، فالله جل وعلا له الأسماء الحسنى. وتعظيم أسمائه يكون بتعظيمه كأن لا يسأل بوجه الله إلا المطالب العظيمة التي أعلاها مما خلق وهي الجنة.

ومن تعظيم الخليفة لأسمائه أن لا يجادل في كيفيتها وكنهها وحال وجودها بل يسلم في ذلك تسليما واعيا بأنها الحق المطلق الذي لا يردك بالعقول كما هو عليه، ودون الولوج في ما لا يحمد عقباه من الجدال العقيم الذي لا يليق بالخليفة ألفهيم، فكيف لعاقل أن يجادل فالله جل في علاه وهو شديد المحال، قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[١٩٢]، هذه الآية الكريمة نزلت في من جادل في الله جل جلاله بغير الحق فكانت عاقبته أن باء بغضب الله

---

[١٩٠] الحج٣٢.

[١٩١] أخرجه الترمذي٣٥٦٦، وابن ماجه١١٧٩.

[١٩٢] الرعد١٣.

تعالى في علاه فنزلت به صاعقه في يوم صائف صاف، بقي آية لغيره يدل بها على عظمة الله تعالى، وبقي برهانا لصدق رسالة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، فقوله تعالى: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) يدل على شدة القوة والكيد، فالله جل جلاله يظهر لنا بعضا من قوته وجبروته في قوله تعالى: {هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السحاب الثقال}[١٩٣]، وظهور آثار قدرةِ الله في الكون ظاهرة، والبرقُ من هذه الظواهر الكونية العجيبة، فالله جل جلاله الذي يسخّر البرقَ فيخافه بعضُ الناس خشية الضرر على نفسه أو محصوله من نزولِ المطر أو ما يترتّب عليه من الصواعق، ويطمع فيه بعضُهم رجاءَ نزول الغيث لسقي الزرع، فبعضهم يخاف وبعضُهم يطمع في الخير من ورائه، والله تعالى هو الذي ينشئ السحابَ المملوءة بالأمطار فيغيث بها الزرعَ والضرع، ويسبِّح الرعدُ بدَلالتِه على وحدانية الله بحمدِه وتقديسه، فهذا الصوتُ المدوِّي في السماوات إنما هو حمدٌ وتسبيحٌ بالقدرةٍ التي صاغت هذا النظام، ويسبِّح الملائكةُ الكرامُ من هيبته وجلالِه، ثم تتم الصورةُ الرهيبة المشمولة بالرهبة والانبهار والرعدِ والسحابِ الثقال، بإرسال الصواعق، فيُصيب الله بها من يشاء رادعا لمن يكذب أو يشرك به غيره جل جلاله.

ومع كل هذه الآيات والظواهر الكونية العجيبة يجادلُ الكفّار في شأن الله ووحدانيته وتفرُّدِه بالمُلْك، وهو سبحانه لا يغالب، فهو شديدٌ في عقوبة من طغى عليه وتمادى في كفره، روى عن ابن عمر: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ"[١٩٤]، فالمشرِكون المعاندون يجادلون في الله وينسبُون إليه شركاءَ يدْعونهم معه، ودعوةُ الله هي وحدَها الحق، وما عداها باطلٌ ذاهب، ما يدعونهم من الآلهة المزيَّفة من دونِ الله لا يَستجيبون دعاءَهم ولا يُنجِدونهم بشيء، ومثلُهم في ذلك كمَن يبسُط كفّيه ليأخذَ بهما ماءً إلى فمه، وهيهاتَ أن يحصَل على شيء منه، قال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحق والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ

---

[١٩٣] الرعد١٣.

[١٩٤] سنن الترمذي،ج ١١،ص٣٤٥.

كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعاء الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}[195]، أي في ضياعٍ وخسارة بدون فائدة.

وعظمة اسمه جل جلاله تظهر في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال}[196]، ففي الوقت الذي يتّخذ الجاحدون آلهة من دون الله، ويتوجَّهون إليها بالرّجاءِ والدعاء، نرى كلَّ من في هذا الكون يخضعُ لإرادته ويعنُون لعَظَمته من أناس وجِنّ وملائكةٍ طائعين أو كارهين، حتى ظِلالُهم خاضعةٌ لأمرِ الله ونَهْيِهِ في جميع أوقات النهار، وفي هذا تعميم لكل شيء، وتظهر قوة هذه الآية في جعلها مما يسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند سماعها أو قراءتها.

فالقارئ يجد عند قراءة قوله تعالى: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) من الرهبة والخوف من عقابه بما يظهر في ألفاظها من قوة وسطوة وجبروت في كونه تعالى في علاه شديد حالما يريد أن يهلك عدوه، فعلى الخليفة أن يظهر من الخضوع والخشوع ما يليق برضاه للفوز بجناته، واتقاء عذابه، وذلك بالذكر والشكر ليل نهار والتسبيح والتهليل، ويظهر الجدال في كيفية الذكر، فهناك من يقول: إن الشكر والذكر لا يكون إلا بذكر لفظ الجلالة (الله)؛ استنادا إلى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[197]، فلفظ (الله) في هذه الآية يأمرنا بذكر لفظه تعالى وبهذا الاسم فيكون الذكر بترديد لفظ الجلالة: الله الله الله .... ليل نهار، وهذا المعنى الحرفي لهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي أمرت بذكر الله تعالى، وهناك من يرى غير ذلك بأن الذكر لا يكون مقتصرا على تكرار لفظ الجلالة (الله) بل الذكر يكون بالقيام والصيام وترك الموبقات وعمل الصالحات ومتابعة العلوم الدينية وذكر القرآن الكريم، بل بعض الناس حرم ومنع المسبحة واستخدامها للذكر ورآها بدعة لا وجود لها في الدين ونسوا أنها لا تعبد في ذاتها بل هي وسيلة لتأدية ما أمر به الدين الحنيف

---

[195] الرعد ١٤.

[196] الرعد ١٥.

[197] الأحزاب ٤١-٤٣.

من الطاعات، وعلى كل حال فكل من يريد عبادة ربه فإن الله به عليم، وهو قريب سميع الدعاء، وكل وسيلة تقرب منه أو بها يُذكر واحداً أحداً هي وسيلة مباركة لا تؤخذ غاية في ذاتها، فليعبد الخليفة ربه سبحانه بالطريقة التي تناسبه والطريقة التي يقدر بها على تأدية فرضه وسننه ونوافله، فالأمي الذي لا يستطيع قراءة القرآن لا نمنعه من التسبيح، ونبقيه مكتوف الأيدي بحجة أن المسبحة بدعة، وإن كانت كذلك فهي حسنة ولم تغير في الدين شيئا بل تدعمه بمن هو قادر على عبادة ربه وبأخف الألفاظ وبأثقل الموازين، ويؤيد هذا قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[١٩٨]، وعلى هذا يشترط لمن يريد ذكر ربه أن يكون طاهرا ظاهرا وباطنا: وذلك بأن يطهر قلبه ونفسه من الأدران التي أساسها الطمع في جمع المال والعيال ونسيان ما خلق من أجله وله سخر ما في الكون ليقوم به التسبيح (ذكر الله في الحركة والسكون)، ومع هذا فالتسبيح لا يشترط المسبحة، بل يستوجب المسبح به وبذكره، وليعلم الخليفة أن كل ما في الكون خلق ليسبح بحمد ربه فكيف لمن خلق على أكمل وجه وكلفه بما لم يقدر أي مخلوق على حمله أن يقوم بواجبه تجاه من عرف حقيقته حق المعرفة، فالطهارة واجبة على كل من يريد أن يذكر ربه، وقد مدح الله جل جلاله الذين يتطهرون من الذنوب والخطايا بقوله تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[١٩٩] . والطهارة الداخلية تكون بالابتعاد عن كل ما هو جالب للذنوب، فالخليفة يكون مبتعدا عن وهن الدنايا والخطايا فلا يتعمد ارتكاب أو الاقتراب من الذنوب وذلك باجتراح السيئات؛ لأنه تعالى لم يجعل الذين يتقوا فعل السيئات كمن يقوم بفعلها، فقد جاء ذلك في قوله: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

---

[١٩٨] صحيح البخاري،ج٢٠،ص٢١.

[١٩٩] التوبة١٠٩،١٠٨.

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[٢٠٠]؛ ولأن الطهارة الداخلية هي التي ترتكز عليها الطهارة الخارجية فلذلك يجب على الخليفة أن يطهر نفسه وقلبه من الحسد والحقد وما ينتج عن ذلك من نميمة وغيبة وذكر الناس بما تكره أو بما ليس فيهم، فهذه الأشياء تأكل الحسنات كما تأكل النار الهشيم، وبذلك يجد الإنسان نفسه خارج الدائرة بدلا من كان من المقربين والعياذ بالله، وقد نهى جل جلاله عن ذلك نهيا صريحا واضحا وجعله كمن يأكل لحم أخيه، قال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[٢٠١]، ولما كان الخليفة طاهرا في سريرته حتما يجب أن يكون طاهرا في:

. بدنه.

. نفسه.

. فيما يفكر ويتذكر.

. وطاهرا في ثوبه، وبيته، ومركبه، وفيما يشرب ويأكل ويتذوق.

. طاهرا في ظاهره وباطنه.

طاهرا سلوكه، فيكون الخليفة مقتديا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}[٢٠٢]، وفي هذه الآيات وعند قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) بالتحديد من ينظر إليها يجدها تشتمل على الطهارة الداخلية كما تشتمل على الطهارة الخارجية، ويظهر ذلك بمجئ قوله تعالى: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) بعدها، فترك الرجز من الأشياء التي يعملها القلب وتكون بين العبد وربه، قال تعالى: (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)، فلا وجود لخليفة إذا لم يكن طاهرا في كل ما ذكر وما يجب أن يكون به طاهرا.

---

[٢٠٠] الجاثية ٢١،٢٠.

[٢٠١] الحجرات ١٢.

[٢٠٢] المدثر ١–٧.

وعليه يصفي الخليفة نفسه وقلبه مع ربه ومع خلقه بإتباع ما أمره الله تعالى والانتهاء عما نهاه عنه بتوجيه النفس والقلب التوجه الصحيح وذلك بإقامة الفروض المنصوص عليها في القرآن والسنة، فعليه:

١ – أن يقيم الشهادتين إقرارا بالقلب ونطقا باللسان وعملا بالجوارح.

٢ – أن يقيم الصلاة في أوقاتها، قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}[٢٠٣]، وقال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}[٢٠٤].

٣ . أن يؤتي الزكاة في أوقاتها: قال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}[٢٠٥]،

٤ . أن يؤدي فريضة حجه متى استطاع ذلك، وقال تعالى: {فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[٢٠٦]،

٥ . أن يصوم رمضان إيمانا واحتسابا، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٢٠٧].

---

[٢٠٣] النساء١٠٣.

[٢٠٤] المعارج٢٣.

[٢٠٥] المعارج٢٤-٢٦.

[٢٠٦] آل عمران٩٧.

[٢٠٧] البقرة١٨٥، ١٨٦.

٦ . إحقاق الحق وإزهاق الباطل ولو كره المجرمون والكافرون، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[٢٠٨].

٧ . الابتعاد عن ارتكاب الآثام: قال تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}[٢٠٩]

٨ ـ الابتعاد عن الموبقات: فالخليفة مأمور بالبعد عن السلوكيات التي تذهب به إلى جهنم والعياذ بالله، ومن هذه الموبقات:

– الإشراك بالله تعالى.

– قتل النفس البريئة: بغيا وعدوانا، أو خوفا من الفقر.

– ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن: كالزنا والسرقة، والغش وإشعال نار الفتنة.

– أكل مال اليتيم بغير حق.

– التطفيف للكيل والميزان.

– ارتكاب المظالم.

وعليه لا يوصف الله إلا بما سمى به نفسه، ولا وصف إلا بأحد ثلاثة:

– إما رؤيته، وهذه استحالة. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[٢١٠].

– أو رؤية مثيله، وهذه أيضا استحالة. قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٢١١].

---

[٢٠٨] الأنفال ٧، ٨.

[٢٠٩] النساء ، ١١١، ١١٢.

[٢١٠] الأعراف ١٤٣.

[٢١١] الشورى ١١.

– أو وصفه ممن يعرفه، وهذه بالإيمان ممكنة، ولأن الإيمان بالشيء لا يكون إلا تسليما بالشيء مباشرة أو بآية من آياته العظام، أو برسول مرسل، وفي هذا الأمر الكثير الذي به يتم الإثبات دون ظهور للشبيه أو المثيل، حيث وراء كل مخلوق خالق، ولا يمكن أن يكون المخلوق لو لم يكن الخالق سابق عليه، ولهذا فالخالق الأول مثبت بآياته العظام، وهو مصطفي الرُسُل صلوات الله عليهم مبشرين ومنذرين ومحرضين؛ ولهذا ليس أحد أعلم بالله من الله ثم رسله الذين أوحى إليهم وعلمهم فوجب لزوم طريق الوحي في أسماء الله الحسنى إذ لم نر ربنا في الدنيا فَنَصِفه وليس له مثيل من خلقه فيوصف بوصفه، تعالى ربنا وتقدس، ولذلك وجب إتباع قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[212]، وقال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[213].

ولأنه الله الواحد الأحد يحق الحق ويزهق الباطل وهو العدل الحق قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[214]، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا

---

[212] المدثر ١–٧.

[213] الحشر ٢٢ . ٢٤.

[214] الأنعام١٥١–١٥٣.

كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}[٢١٥].

وعلى الخليفة أن يعلم أنه سبحانه أجلُّ من أن يُدرِكَ كُنْهُ ذاته وصفاته، أو يحاطَ بها علمًا، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٢١٦]، وليعلم أن الواحد هو الله تعالى، وأن الأسماء مضافة له فقوله: {وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسمائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٢١٧]، أي أضافها إليه، كما قال: {فَسَبِّحْ بِاسم رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[٢١٨]. وقوله: (فَادْعُوهُ بِهَا)، أي: فادعوا الله بأسمائه، ولذا فلاسم غير المسمى، قال تعالى: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ}[٢١٩]، والمتبارك هو الله، وأن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، و(الله) عَلَمٌ على الرب تبارك وتعالى، ويقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢٢٠]، كما قال: (وللهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)، وقال تعالى: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ

---

[٢١٥] الإسراء٢٩-٣٩.

[٢١٦] الشورى١١.

[٢١٧] الأعراف١٨٠.

[٢١٨] الواقعة٧٤.

[٢١٩] الرحمن٧٨.

[٢٢٠] الحشر٢٢-٢٤.

أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماء الْحُسْنَى}[٢٢١]. وعن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسما مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[٢٢٢].

ونحن نقول الله واحد احد وأسمائه لا تحصى، وما نقدمه للقراء في هذا الجهد هو محاولة لإظهار ما استطعنا إظهاره مما عرفنا من أسمائه الحسنى التي لا تعد ولا تحصى، ومهما تعددت الأسماء فالله واحد احد سبحانه جل جلاله لا شريك له ولا مثيل ولا شبيه، وليس له صاحبة ولا ولد مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٢٢٣].

وعليه الله اسم وغيره مسمى، ومن المسمى ما هو مسمى منه جل جلاله، ومنه ما هو مسمى بالمتعرف عليه، أو المتعرف به، فالأرض مسمى منه وهكذا الشمس والقمر والليل والنهار والفجر والعصر والزمان، وكذلك مثل آدم عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٢٢٤]، وكذلك يحيى عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}[٢٢٥]، وهكذا الإنس والجن والملائكة أسماء لم تسم إلا منه جل جلاله.

إما المسمى فهو من يكون الآخر مسميا له، كما يسمي الآباء أبنائهم، أو ما يطلقونه من أسماء على صفات سلوكية أو حركية أو أخلاقية أو بيئية، وهكذا تتعدد الأسماء والصفات والله تعالى واحد احد لا يتعدد.

ولأن الله تعالى هو الاسم الأعظم، فهو الأصل لكل شيء، والمسمى دائما لاحق للشيء الذي يسمى.

وعليه قد يتساءل البعض: لماذا الله؟.

---

[٢٢١] الإسراء١١٠.

[٢٢٢] صحيح البخاري،ج٩، ص٢٦١.

[٢٢٣] الإخلاص ١ . ٤.

[٢٢٤] آل عمران ٥٩.

[٢٢٥] مريم ٧.

الله جل جلاله خالق لكل شيء، ولذا فهو يسأل ولا يسأل، مصداقا لقوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}[٢٢٦] ولأن السؤال دائما يلاحق الإجابة فالإجابة دائما سابقه على السؤال، أي لا سؤال إن لم تكن الإجابة سابقة عليه، وإلا هل يمكن للمعلمين أن يسألوا التلاميذ أو المتعلمين بشكل عام إذا لم يعلموهم أولا ثم ليسألوهم ثانيا عما تعلموا، ولذلك لا تُجرى الامتحانات والاختبارات إلا بعد تعلم ومعرفة، ولهذا تُبث المعلومات والمعارف وتعلم أولاً ليتم الاختبار عليها ثانيا ولله المثل الأعلى، وهكذا الله جل جلاله لا يسأل عباده أولا بل بدايةً نزَّل الكلم عليهم وبين لهم الحلال من الحرام وبين لهم ما يجب الإقدام عليه وما ينبغي تجنبه والابتعاد عنه، ولهذا أوجب عليهم الإصلاح في الأرض وحرَّم عليهم الإفساد فيها كما حرَّم عليهم سفك الدماء بغير حق.

وعليه لا إجابة علمية وموضوعية إلا من مصدر، ومصدر كل المعلومات هو الله الخالق المصور السميع المجيب، ولأنه المجيب فمن حقنا أن نسأل لأجل أن نعرف، ولأن كل الإجابات منه، فهو المجيب بالمطلق، ولهذا يكون المجيب جل جلاله هو الإجابة الشافية على السؤال: لماذا الله؟.

إذن لماذا الله؟.

لأنه المجيب. فلوا لم يكن مجيبا ما عرفناه وما عرفنا المعرفة التي تُعرِفُنا به، ولأن المعرفة هي التي تحتوي الإجابة وكل المعرفة من الله فلهذا عرفناه واحداً أحداً لا شريك له {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢٢٧].

ولأن الله هو المعرفة التامة والكاملة، فكانت له الأسماء الحسنى، التي يدعى بها وهو السميع المجيب، وعليه لا يَسأل (لماذا الله)؟ إلا من يعرفه، فلو لم يعرفه ما كان سائلا عنه، ولكن

---

[٢٢٦] الأنبياء ٢٣.

[٢٢٧] الحشر ٢٣، ٢٤.

البعض يعرفونه وينكرونه في الحياة الدنيا، إلا أنهم سيقولونها علنا وبصوت عالٍ في الآخرة يوم أن يطرح سؤاله جل جلاله: لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة بالإجماع (لله الواحد القهار). قال تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[228].

إذن لماذا الله؟ لأنه الخالق الذي خلق من طرح هذا السؤال (لماذا الله). سبحانه لو لم يخلقه ما كان من المتسائلين.

وهذا السؤال عندما يكون لأجل المعرفة لا عيب فيه، ولكن عندما يكون لأجل الإنكار يكون كل العيب فيه، ومع ذلك حتى الذي يريد الإنكار كيف له أن يسأل عنه لو لم يكن هو الله جل جلاله. أي انه سأل عن واجدٍ، فلو لم يكن المخلوق موجودا ما كان الواجد موضوع التساؤل، ولأنه الواحد الحق بالمطلق الذي أوجد الوجود فمن حق الموجود أن يسأل عن واجده إلى أن يعرف، وعندما يعرف يؤمن ويكون من المستخلفين فيها، وبعدها بطبيعة الحال سيكون السؤال ذاته من الخالق للمخلوق: لماذا الله؟ فتكون الإجابة لأنه الخالق المجيب مالك الملك. ولهذا يطرح السؤال: لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة لله الواحد القهار.

لماذا الله؟ سؤال يقود إلى الهداية ولا يقود إلى الضلال، فمن سأله في الدار الدنيا ليعرف، يعرف إنه الله الواحد القهار، ومن سأله فيها ليفسد فإنما يضل عليها، مصداقا لقوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[229].

إذن لماذا الله؟.

---

[228] غافر ١٦.

[229] الإسراء، ١٥ . ١٧.

لأنه الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى التي يدعى بها فيجيب سبحانه جل جلاله، فلو لم يكن واحداً أحداً ومالكا للملك والخالق المطلق ما كُنَّا وما طُرِح هذا السؤال الذي من عرفه أجاب (واحداً أحداً). ولهذا لماذا الله؟ لنسبحه واحداً أحداً لا شريك له.

وعليه لماذا الله؟.

ليعم العدل بين من خلق في الدارين، ويكون الملك والعرش له، والبعث بعد الحياة والممات وليكون الحساب والعقاب والثواب والجنة والنار بين العباد بالأعمال.

فلماذا الله؟ لندركه دون غفلة، ولنؤمن به ونقوله هو كما هو في سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٢٣٠].

ولأن الإنسان خلق عجولا مصداقا لقوله تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}[٢٣١] فقد يتساءل البعض: هل خلق الله نفسه؟ أم خلقته الطبيعة؟.

الطبيعة مخلوقة والله جل جلاله خالق، وشتان بين الخالق العظيم وبين المخلوق العجول، أما من يتساءل: هل خلق الله نفسه؟ نجيب: إنه الأول والآخر، وهو ذات، والذات تَخلُق ولا تُخلِق، والخالق سابق بالمطلق على كل سابق، ولهذا فهو الأول وغيره لاحق، إنه الأول مسبب الأسباب وخالق المخلوقات، وهو الآخر الباقي جل جلاله. ولو خلق نفسه لما كان الأول تعالى، ولو خلق نفسه لكان من مادة ولكان له المثيل والشبيه، وهو سبحانه جل جلاله ليس كمثله شيء قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ

---

[٢٣٠] الإخلاص ١ . ٤.

[٢٣١] الأنبياء ٣٧.

الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[232] سبحانه ليس كمثله شيء، ولأنه كذلك فهو الواحد القهار، والقهار هو الغالب بالقوة، ولأنه كذلك فلا يوصف بالقدم ولا بالحداثة، إنه الله خالق الزمان وجاعله قيدا على من خلق وما خلق، أما ذاته العلية فلا تحاط بالزمان الذي به يتم تحديد القديم من الحديث، إنه تعالى المحيط بالمطلق وغيره محاط بالقوة والقدرة والهيمنة والجلالة، سبحانه يُحِيط ولا يُحَاط، ويُهيمن ولا يهيمن عليه، إنه ربي الواحد الأحد الأول والآخر، ولأنه عز وجل ذات، فالذات لا مادة، ولهذا تخلوا الذات العلية من المثيل والشبيه، وبما انه ذات، والذات خالقة لا مخلوقة، إذن الذات الخالقة سابقة على الخلق، ولأنه ذات، فالذات لا يلحقها الخلق بالمطلق، أي لو لا حقها الخلق لأحاط بها، ولهذا السؤال: هل خلق الله نفسه؟ لا يطرح إلا على المستوى البشري، (الخلق) أي لا يطرح إلا قصورا في التفكير، ومن يدرك الحق يعلم أن الخالق سابق على قواعد الخلق، ولهذا يحيط ولا يحاط. ولأنه يحيط ولا يحاط، يسقط السؤال من طرحه لعدم مقدرته على الإحاطة.

وعليه القاعدة تقول: (الخالق يَخلِق ولا يُخلَق).

ولأن الله تعالى ذات، والذات لا مادة، ولا روح، فالذات لا توصف إلا بصفاتها الحسان، ولأنه جل جلاله ذات فهو فعَّال لما يُريد، ولأنه الفعَّال لِما يريد فليس كمثله شيء، وهو على كل شيء قدير، ولأنه القدير بالمطلق فهو يخلق ولم يخلق، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، سبحانه جل جلاله سبحان الله العظيم.

ولأن الله ذات خلق أول ما خلق التهيؤ، وهو التأهب لكينونة الأشياء، ولهذا فالتهيؤ مجموع المعطيات الصالحة لتنفيذ الأمر (كن) أي قبل أن يخلق الحركة والزمان خلق التأهب للحركة والزمان، ولهذا أمره نافذ ولا مرد له سبحانه جل جلاله، فقبل أن يكون القمر والشمس والأرض والسماوات العلا والطير والنبات والأسماك وكل شيء، كان كل شيء بأمره متأهب

---

[232] الشورى ١١ . ١٥.

لأن يكون متميزا بما هيَّأه الله عليه، ولهذا فالتأهب بيئة صالحة لكينونة الشيء على الخاصية والصفة.

وعليه كلما تهيأت ظروف الأشياء لأن تكون كانت بالأمر (كن) هي كما هي. ولذا كلما تهيئت ظروف البركان كان، وهكذا كلما تهيئت ظروف الزلزلة أو المطر أو الحياة أو الموت أو أي شيء كان هذا الشيء قابل للملاحظة أو المشاهدة أو الاثنين معا، والخليفة لأنه مؤمن يؤمن بأن معطيات البعث متهيئة مما يجعله في دائرة الممكن المتوقع في أي حين، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}[٢٣٣]، وقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}[٢٣٤].

وعليه كلما تهيأت ظروف المخلوق كان فعلاً ماثلا بالأمر (كن)، ولهذا ظروف كل شيء يراد له أن يكون تكون ظروفه متهيئة بالقوة والقدرة الإلهية لتكون كما يرادها الله أن تكون عليه، ولذا كل يوم يكتشف العباد الجديد من خلق الخالق، فيروسات جديدة بأمراض جديدة وعلوم متطورة ملاحقة للعلاج، ومع ذلك فلم يؤت الإنسان من العلم إلا قليلا.

---

[٢٣٣] الشورى ١٧، ١٨.

[٢٣٤] النمل ٦٥ . ٧٦.

ولأن الله تعالى هو الخالق الأعلى، فالخالق الأعلى يَخلِق ولا يُخلَق، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولهذا يسبحه الخليفة كثيرا وتسبحه المخلوقات الأخرى بما هيأت عليه، قال تعالى: {سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فَصَلَّى بلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}[٢٣٥]. فسبح اسم ربك الأعلى، تتطلب مسبح باسمه تعالى، ولهذا فعندما يقال للخليفة سبح اسم ربك الأعلى، ليس له بدا إلا يقول: (سبحان الله)، فالله هو الرب الأعلى، ولا ربَّ سواه، ولذا فسبح اسم ربك الأعلى، حدده يقينا وأذكره واحداً أحداً.

وعليه كان الأمر بتسبيحه تعالى، مما يستوجب على المسبح به بأن يقول: (سبحان الله) وذلك لأنه لا ربَّ أعلى غيره، وهكذا يكون التتابع واليقين في التسبيح باسمه تعالى.

وعودا على سورة الأعلى، نلحظ أمر التوكيد على اسمه الأعلى، (الله جل جلاله وهو الاسم الأعظم) فسبحان الله، سبحان الله، سبحان الله.

إذن استجابة للأمر المطلق، (سبح اسم ربك الأعلى) يتطلب التسبيح باسمه جل جلاله.

وهكذا قوله تعالى: (الذي خلق فسوى) يستوجب التسبيح باسمه، فالذي خلق فسوى تستوجب اعتراف المؤمن بقدرته على الخلق وهو المعجزة الكبرى، وهذه المعجزة الكبرى تستوقف الخليفة المؤمن مما يجعله في حالة تأمل ويقين بقوله سبحان الله، ولهذا قوله تعالى: (الله) سبح اسم ربك الأعلى) يستوجب التسبيح باسمه (الله) وهكذا قوله تعالى: (الذي خلق فسوى) يستوجب التسبيح باسمه تعالى (الله).

وكذلك قوله تعالى: (والذي قدَّر فهدى) فالذي قدَّر وهدى هو الله، وهو الرب الأعلى للخليفة، الذي يستوجب ذكره والتسبيح باسمه جل جلاله، ولأن الذي قدَّر فهدى هو (الله) فسبحانه

---

[٢٣٥] الأعلى ١ . ١٩ .

كيف قدَّر وكيف هدى، أي من تأمل في خلقه وهدايته لِما خلق ليس له بدا إلا أن يقول سبحان الله على ما قدّر وهدى.

(والذي أخرج المرعى)، هو الله لا إله غيره، ولهذا سبحان الله الذي أخرج المرعى، أي سبحانه الذي خلق النبات نعمة واسعة منه ليكون للحياة معنى وللطبيعة كسوة من البهاء والجمال، فسبحانه على ما خلق وسبحانه على ما أخرج مما خلق، ولذا فالذي أخرج المرعى هو الله الذي يستوجب التسبيح باسمه جل جلاله، ولهذا كيف أخرج المرعى معجزة تستوقف المؤمن لأن يذكره بقوله: (سبحان الله).

ومع ذلك ليس الغاية من قوله (سبح اسم ربك الأعلى) هو أن يذكر المسبح الله تعالى ويمجده فقط، ولكن الغاية هي التمكن من إدراك المعجزات العظام والصفات الحسان والوقوف عندها والتأمل فيها من أجل توصيل دلائل كل معجزة من المعجزات إلى الآخر المستهدف بالتبشير والهداية.

وقوله تعالى: (فجعله غثاء أحوى) أي من الذي غير حال الاخضرار في المرعى، وجعله يبسا جافا؟، وكيف غيره؟ هذه معجزة أخرى تستوجب من المؤمن التوقف ليدرك أنه الله، مما يجعل حال لسانه وقلبه معا على القول: (سبحان الله) وهو التسبيح باسمه عز وجل واحدا أحدا، ولا ربَّ أعلى منه.

وقوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)، الآية موجهة لمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي اقرأه الله فلم ينس شيئا مما أقرأه جل جلاله، ونظرا للكثرة الكثيرة لما تم استقراء محمد عليه الصلاة والسلام به، فلم ينس شيئا منه، إلا الذي لا يريده الله له، فسبحان الله على ما أراده الله وسبحان الله على مقدرة محمد على عدم النسيان، ولذلك فالمتأمل والمستقرئ لما أقرأ الله تعالى به محمداً عليه الصلاة والسلام، يجد نفسه أمام معجزة تغالبه بالحق مما يجعله على ذكر ربه (الله) بقوله: (سبحان الله).

قال تعالى: (إنه يعلم الجهر وما يخفى) أي أن ربَّك الأعلى الذي تسبحه يا محمد باسمه الأعلى هو (الله) الذي تدركه يقينا، وهو الذي خلق فسوى، ولذا فكان التسبيح تكرارا لاسمه

الأعلى (الله)، وهكذا الخليفة عندما يقرأ قوله تعالى: (إقرأ اسم ربك الأعلى) يقول: (سبحان الله) وعندما يقرأ قوله: (الذي خلق فسوى) يقول أيضا: (سبحان الله) وهكذا يستمر التسبيح باسمه كلما قرأ آية من آيات سورة (الأعلى)، ولهذا يكون التسبيح وفقا للآتي:

(سبح اسم ربك الأعلى).

سبحان الله. أي سبحان الله الذي لا إله إلا هو عز وجل.

(الذي خلق فسوى).

سبحان الله. أي سبحان الله على ما خلق وسوى.

(والذي قدَّر فهدى).

سبحان الله. أي سبحان الله على ما قدَّر وهدى.

(والذي أخرج المرعى).

سبحان الله. أي سبحان الله على إخراجه للمرعى.

(فجعله غثاء أحوى).

سبحان الله. الذي جعل الأخضر يابسا.

(سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله).

سبحان الله.

(إنه يعلم الجهر وما يخفى).

سبحان الله.

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى).

سبحان الله.

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى).

سبحان الله.

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى).

سبحان الله.

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى).
سبحان الله.
(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى).
سبحان الله.
(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى).
سبحان الله.
(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى).
سبحان الله.
(وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فَصَلَّى).
سبحان الله.
(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).
سبحان الله.
(وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).
سبحان الله.
(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى).
سبحان الله.
(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى).
سبحان الله.

وعليه فسبحان الله، تسبيح باسمه الأعلى، واعتراف بمعجزاته الكبرى التي عُدِّدت في سورة (الأعلى).

ومع ذلك فمن يسبحه كما يسبح أثناء السجود بالقول: (سبحان ربي الأعلى) فهذا لا يخرج عن كونه أن الربَ الأعلى هو الله جل جلاله، فسبحان الله ربِّي الأعلى.

وفي مقابل ذلك نزل قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسم رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[٢٣٦] ثلاث مرات، مرتين في سورة الواقعة، ومرة في سورة الحاقة، ولذا فسبح اسم ربك الأعلى، تعني: اذكره كثيرا، أي اذكر اسمه كما سمى نفسه، {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[٢٣٧]، أمَّا قوله: (فَسَبِّحْ بِاسم رَبِّكَ الْعَظِيمِ) تستوجب التسبيح بالقول: (سبحان الله العظيم). ولهذا سبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم به في كل ركوع، ومتى ما أدرك التسبيح به عز وجل، وهكذا يُسبِّح به المستخلفون فيها في كل ركعة يركعونها ومتى ما يشاؤون اتصالا به دون وسطاء، ولهذا فالتسبيح باسم الرب العظيم هو تسبيح بالله العظيم جل جلاله.

اللهم إنك أنت الله العظيم في كل مكان وحين، لا إله إلا أنت واحد أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد، سبحانك عما يصفون. نوحدك يا الله ونستغفرك ونتوب إليك، ونتوكل عليك في كل أمر، فنعم المولى ونعم النصير، تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير لا شريك لك سبحانك جل جلالك، الحمد لك على رحمتك يا الرحيم يا الله يا مالك يوم الدين، اللهم إننا إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اللهم إننا نتضرع إليك لتهدينا الصراط المستقيم صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، اللهم إننا سألك باسمك العظيم أن تعظم الإيمان في قلوبنا والطمأنينة في أنفسنا حتى نخشاك ونتقيك ونعمل صالحا ترضاه، اللهم إننا نركع ونسجد إليك واحدا أحدا لا شريك لك فلا تجعلنا راكعين ولا ساجدين لسواك، اللهم إنك الحق بك آمنا فاجعلنا للحق طائعين حتى يطاع الحق لنا.

اللهم يا الله أسألك باسمك العظيم أن تبدّل سيئاتنا حسنات وأن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ونبراس دربنا فلا نضل أبداً يا الله، اللهم سدّد خطانا إلى الخير والمعروف والإصلاح، وابعدنا عن الفساد والرذيلة، اللهم إنك اخترت لنا الإسلام دينا فلا تُمتنا إلا عليه.

---

[٢٣٦] الواقعة ٧٤.

[٢٣٧] طه، ١٤.

الرحمن

الرحمن: هو الذي "رحمته تمنع إهمال عباده"[٢٣٨].

الرحمن: "يختص بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز إطلاقه في غيره. وقال بعض أهل التفسير الرحمن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم"[٢٣٩].

[٢٣٨] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة – ج ١ ، ص ٢٠.

[٢٣٩] تفسير أسماء الله الحسنى ، ج ١ ، ص ٢٨.

قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٢٤٠] بما أنكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من أسمائه ادعوه، سواء دعوتم الله تعالى أم دعوتم الرحمن لا فرق في ذلك، فدعاؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنى. وفي جميع الحالات أنتم تدعون الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني أن الله واحد لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأي متوالية حسابية. نزلت هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بقوله (يا الله يا رحمن) فقالوا: "إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إله آخر"[٢٤١]. وكما يبدو أن لضعف اللغة أثر سالب على معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل في دعائه (يا ألله ويا رحمن) بل قال (يا لله يا رحمن) فانعدام حرف الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشك في أن المدعو هو واحد لا شريك له، ولأن الداعي يتضرع إلى ربه بالرحمة، فلا أفضل له إلا أن يدعوه بالرحمن، ولهذا قال: (يا ألله يا رحمن). وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا الله ويا رحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

ولهذا جاء قوله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}[٢٤٢] جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحق أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من يظن بوجود آلهة أخرى من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد ب(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا إله إلا هو) الذي (هو) الرحمن الرحيم. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرحمن فكلاهما واحد.

---

[٢٤٠] . الإسراء، ١١٠.

[٢٤١] . تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. محمد أحمد كنعان،بيروت: دار لبنان ودار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص ٣٧٩.

[٢٤٢] . البقرة، ، ١٦٣.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين}[٢٤٣] فما يود قوله سليمان صلى الله عليه وسلم هو: إنّ ما نود القدوم عليه معكم فيه الرحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمَّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبة والرحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرحمن الرحيم). فالرحمن اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرحمن شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرحمة، ومن وجوده استمدت الرحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأن الرحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمن سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده.

وعليه لا يمكن أن يشتق الخالق مما خَلقَ، ولكن كل شيء يشتق من خالقه. ولأن البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأن المخلوق وفقا للقاعدة يشتق صفته من خالقه، لذا يستخلف البشر خالقهم بالرحمة. فالرحمة صفة التمام بين المحبين، ولهذا فهي خاصية إنسانية تميَّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرحمة يُخلِف الرحمن في شيء من خواص الرحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه الخاصية التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

والفرق كبير بين الخليفة الكم، والخليفة الكيف: الخليفة الكم: كل من خُلق فهو خليفة عددا. وكل من آمن بما أنزل الرحمن فهو الخليفة قيميا. ومن هنا يتضح الفرق في المعنى بين الكافر الذي له الحق في الرحمة في هذه الدار الدنيا، وبين الخليفة الذي له الحق في الرحمة باستخلاف الدارين معا.

---

[٢٤٣] . النمل، ٣٠، ٣١.

فالخليفة هو من يستمد صفاته من مستخلفه، ولأن الرحمن هو الخالق، فالمخلوق ينبغي أن تكون الرحمة من صفاته وخاصيته فهو في أساسه مخلوق عليها، وهكذا كلما تمسّك الموصوف بصفته ارتبطت صفته به، وكلما تخلى عنها انسلخت منه.

ولأن الرحمن تعالى خاصيته المطلقة هي الرحمة المتضمنة في اسمه، وجنس آدم مستخلف ممن له الخاصية المطلقة (الرحمة) كما يدل على ذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآَنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ}[٢٤٤]، تتجلى في هذه الآيات دلائل عظيمة قُصد بها الخليفة ليتأمل ويعرف عن ربه الذي استخلفه في الأرض فيعمل بما يريد وينتهي عما نهى، ومن هذه الدلائل تقديم اسم الرحمن في السورة ، وعلى الخليفة أن يعي أن الله سبحانه جعل للرحمة مرتبة عظيمة فسمى نفسه باسم الرحمن وهو الاسم الذي خص به ذاته في استدعاء الدعاء بعد اسمه الأعظم (الله) فقال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٢٤٥]، هذه الآية توضح للخليفة أن كل أمر لله هو رحمة منه بالمخلوقات وبالمطلق، هنا تتجلى الدلالة العظيمة الأخرى فخلق الإنسان وتعليمه أنما هي من وجوه رحمة الله به وليس لأمر آخر، فليتصور من يشاء لو أن الإنسان لم يُخلق هل ستكون الجنة مأوى خلود له؟ هذه الرحمة المطلقة أن يُخلق لتكون له الجنة مأوى. ثم ليتساءلوا بينهم لو لم يعرف الإنسان هذا القران العظيم فهل له أن يعرف طريقا إلى الجنة؟ هنا ليفهم الخليفة وليعمل بما فهم فليجعل الرحمة شعاره ودثاره، والطريق إلى تحقيق الاستخلاف الحق متذكرا قول الرحمن جل في علاه لنبينا الأكرم : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٢٤٦].

ثم من عظيم الدلائل أن نعرف أن الرحمن اسم الله والرحمة صفته المُتضمنة فيه إلى جانب صفات أُخر ، فالرحمن عليم علّم الإنسان ما لم يعلم، والرحمن خالق فهو الذي خلق الإنسان

---

[٢٤٤] الرحمن ١-٣.

[٢٤٥] الإسراء ١١٠.

[٢٤٦] آل عمران ١٥٩.

في أحسن تقويم، وعليه وكما تنص الآية الكريمة فالاسم يتضمن صفة أساسية (رحمن) ويتسع لصفات أخرى (عليم وخالق).

ومن دلائل الآية أن الرحمة صفة مطلقة لأنها من الرحمن المطلق واليك بعضا من دلائل هذا الإطلاق:

١- النبوة رحمة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[٢٤٧]، فرحمة دلالة عموم وهي مجهولة بالنسبة لمفرد اللفظ لكن سياق الآية يدل عليها إنها النبوة التي رحم الله بها عباده، فقد كان عليه الصلاة والسلام رحمة في الدين وفي الدنيا ، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب ، فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام وميز الحلال من الحرام ، .....، وأما في الدنيا فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه[٢٤٨].

٢- الرزق رحمة، {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ}[٢٤٩]، فرحمة هنا تدل على عموم الخير من مال أو ولد أو صحة أو جاه أو غير ذلك من مطلق الخير.

٣- التثبيت على الدين رحمة ، {وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا }[٢٥٠].

٤-الهداية رحمة { رَبَّنَا ءاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً }،" أي رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء"[٢٥١].

---

[٢٤٧] الأنبياء ١٠٧.

[٢٤٨] تفسير الرازي ج١١، ص ٨٠.

[٢٤٩] يونس ٢١.

[٢٥٠] الإسراء ٨٦-٨٧.

[٢٥١] تفسير الالوسي ج١٠ص ١٦٢.

٥- الحفظ رحمة {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا }[٢٥٢] .

٦- القوة رحمة ، {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا }[٢٥٣].

٧- قوانين الأرض رحمة، {وَآَيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ }[٢٥٤].

٨-النجاة رحمة، {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ }[٢٥٥].

وهذا قليل من مطلق لا يمكن لبشر أن يحصيه ويعطيه حقه وإن أفاض ولكنها بعض مما شاء الله له أن يظهر رحمة منه بمن أراد له أن يعرف فيعلم ثم يعمل ، اللهم اجعلنا ممن يعرفون فيعلمون ثم يسر لهم العمل بما تحب وترضى يا رحمن .

، لذا فالخليفة يحمل في مكوناته شيء مِن خصائص مَن استخلفه. ولأن الرحمة كما بيّنا خاصية مطلقة وثابتة للرحمن، لذا فهي لن تكون خاصية مطلقة وثابتة للخليفة، ولهذا فهي في حالة اهتزاز بين الثبات النسبي والاهتزاز النسبي. مما يجعل البعض في سلوكهم الرحمة والبعض في سلوكهم يفتقدونها. فالذين لا يحكمون بالعدل، ويأكلون أموال الناس بينهم بالباطل، ولا يتطهّرون ولا يتصدقون ويتزكون، ولا يتوادون مع من تربطهم بهم صلة رَحِم، ولا يناصرون المظلوم ولا يَقدِمون على أعمال البر والخير والإحسان فهؤلاء يعتبرون منحرفين

---

[٢٥٢] الكهف ٨٢.

[٢٥٣] الكهف ٩٨.

[٢٥٤] يس ٤٤.

[٢٥٥] هود ٥٨.

عن القيم والفضائل التي بها يُستخلفون في الأرض. وهذا الأمر يجعلهم من تعداد الخليفة الكم، وليس من تعداد الخليفة الكيف (القيم والفضائل الإنسانية).

الرحمة لا يمكن أن تتم إلا بوجود طرفين، طرف يمتلك مسببات الرحمة، وطرف في حاجة ماسة لهذه المسببات التي تطعمه من جوع وتأمنه من خوف {الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف}[٢٥٦] الطرفان هما خالق ومخلوق، فالرحمة من الذي يمتلكها؟ (الرحمن). والذي هو في حاجة إليها (الخليفة). ولأن الخليفة استمد خاصية الرحمة من خالقه الرحمن، ولأن الخَلقَ بينهم فروق فردية من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات والمستوى الإيماني، لذا فهم يتراتبون على السلّم القيمي للرحمة من حيث درجات الاقتراب والابتعاد عن (الرحمن) قال تعالى: {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}[٢٥٧] فعمل الخير رحمة مطلقة من الله بين الناس، وعمل الشر لا مطلقة فيه بينهم. لذا تتوزع الرحمة بين الناس تناسبيا وبتماثل مع ما يُقدم من أفعال الخير كبيرة كانت أم صغيرة، ما يجعل لها أثر موجب على كفة التماثل في ميزان الحسنات. ولهذا بنو الإنسان (الخليفة) في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم لم يكونوا على حالة من المساواة على السلم القيمي للرحمة. مما يجعلهم على درجات من التفاوت من حيث الاقتراب والابتعاد من الرحمن عز وجل. ولأن الخليفة يتعرض في حياته لظروف قد تجعله في حاجة لمن يُقدم له المساعدة، نتيجة عوزه وفقره وبما هو عليه من ظروف، أو نتيجة لِما ألم به من كوارث، حتى يتمكن من النهوض ومن مغالبة الصعاب. وفي المقابل هناك من تهيأة له الظروف حتى أصبح قادر على العيش السعيد وقادر على مد يد العون للمحتاجين بدون منة، ما يجعله على الكفة التي تستطيع أن تُقدِم المساعدة، في مقابل الطرف الذي يستلمها أو يأخذها. وهذه من دلائل الرحمة بين الناس.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) جاءت سابقة على قوله (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وهذا الأمر يدل على أن الله تعالى يهب لنا الرحمة قيمة مطلقة في ذاتها، أما الشر فلم يكن كذلك

---

[٢٥٦] . قريش، ٤.

[٢٥٧] . الزلزلة، ٧، ٨.

فهو المترتب على ما تقدم أيادينا، ولهذا الرحمة المستمدة من اسمه (الرحمن) هي الصفة الفعلية السابقة في عمومها، والغضب هو الفعل اللاحق أو المترتب على ما تُقدم أيادينا مما يجعل الغضب عقاب لنا على ما قَدِمنا عليه من أفعال غير مرضية للرحمن.

اسم الرحمن عز وجل هو اسم الله، ولذا لا يعد الرحمن اسم آخر لله تعالى، بل هو اسم الله في ذاته، ولهذا فهو الاسم الذي لا يُثنى ولا يُجمع، ورحمته شاملة تسع الخلق من انس وجان وملائكة وطائر وحيوان ونبات وجماد وماء وهواء والنار التي بواسع رحمته جعلها عز وجل بردا وسلاما على إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولهذا الرحمة تعم كل شيء، وإلا لو لم تعم كل شيء ما كانت النار رحمة على إبراهيم وعقاب للكافرين، {والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار}[٢٥٨] فكما للجنة أصحاب من المؤمنين، كذلك للنار أصحابها من الكافرين، والذين كفروا هم في أساس خلقهم خليفة ترث الأرض، ولكن انسحابهم عن قيم الخليفة وتخليهم عنها لن يجعل لهم مستقبل لنيل الجزاء الأوفر كما هو حال الذين استجابوا لله وللرسول. ولهذا لا يدخل النار إلا الذي لم يحافظ على فضائل ما استخلف عليه، ومن لا يحافظ عليها سيلاحقه الخزي حتى ينال العقاب بالحق (بالنار) مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ}[٢٥٩].

ولأن الرحمن هو مصدر الرحمة، لذا فهو الذي يستحق العبادة والشكر والثناء، فمن خلقك وجعلك خليفة على الأرض التي فيها معاشك وجميع النعم التي تُشبع حاجاتك المتعددة والمتطوِّرة ألا يستحق العبادة، وإذا كان من يعمل لك خيرا تشكره كثيرا، فما بالك بالذي خلقك وجعل لك الرحمة (الرزق والنعم)، ألا يكون هو الأولى بالشكر والثناء والعبادة؟. إنّ الشكر والعبادة صلة لا تنقطع بين الرحمن وخليفته، فمن تمسّك بها تمسّك بالصلة، ومن تخلى عنها وقطعها انقطعت الصلة معه، وعندما تنقطع الصلة بمن يمدك بالخاصية والصفة تنعدم خاصيتك وصيفتك به، ولهذا عندما تنقطع صلة الخليفة بمن استخلفه يفقد صفته التي على

---

[٢٥٨] . البقرة، ٣٩.

[٢٥٩] . آل عمران ، ١٩٢.

أساسها استخلف في الأرض. ولذا لا يخلف الرحمن إلا من آمن به واستمد منه صفة الرحمة التي على أساسها خُلق على الأرض، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ}[٢٦٠] جاءت الخلافة على حالة الجمع (خلائف) وهذه تدل على خليفة سابقة وأخرى لاحقة، وهكذا تتوالى، (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فهو لم يخلقكم أيها الخلائف نسخة واحدة، بل خلقكم على حالات من الفروق الفردية، وبطبيعة الحال لو خَلق الرحمن بني الإنسان نسخة واحدة لكان أمر الخلق أهون مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٢٦١]، ولأنه هو مصدر الخلق والإعجاز، أراد لنا أن نكون غير متناسخين كورق السحب الذي يستخدم في الطباعة، ويريد لنا أن نعرف أنه القادر على كل شيء (الكل والجزء والمتجزئ من الدقيق إلى الأدق منه وإلى ما لا نهاية)، ولهذا لم يخلق الرحمن في خلقنا أثنين متماثلين ومتطابقين بالتمام حتى ولو كانا توأمين، بل جعلنا متكاملين في خلقه، فرفع بعضنا فوق بعض درجات (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) في هذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي رحمه الله: "أي أن البعض قد رُفِع، والبعض الآخر قد رُفِع عليه، فكل واحد مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه"[٢٦٢]. ولو جعل الله تعالى البشر على نسخة واحدة، في هذه الحالة لا يحتاج أحدنا للآخر، ولو لم يحتج بعضنا لبعض، ما كنَّا في حاجة للتراحم بيننا، ولهذا من مبررات نزول الرحمة أنّ البعض دائما في حاجة للبعض. ولذا فإن الرحمة لا تنزل إلا بين طرفين، مالك ومحتاج، فالمالك هو الذي بيده الخير، والمحتاج هو الذي يفتقد إليه. والمالك المطلق هو الرحمن الرحيم، ومالك الجزء أو المتجزئ، هو الذي يمتلك شيء ويفتقد لأشياء، ولهذا مالك الجزء والمتجزئ مهما امتلك من أشياء فهو في حاجة لأشياء أخرى. كالطبيب يحتاجه المريض، وإذا مرض الطبيب هو الآخر سيكون في حاجة لطبيب غيره سواء في تخصصه أو في تخصص آخر، ولذا فإن المريض

---

[٢٦٠] . الأنعام، ١٦٥.

[٢٦١] الروم ٢٧.

[٢٦٢] . تفسير الشعراوي. المجلد السابع، القاهرة: أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص ٠٠٢٩.

الواحد يحتاج إلى عدد كبير من الأطباء حيث تنوع الأمراض وتعددها، وهكذا لو كان المريض صاحب حرفة فالطبيب هو الآخر في حاجة لخدماته الحرفية، فلو كان حيّاكاً أو بناء أو سائقا أو طباخا أو حارسا فالطبيب سيكون في حاجة ماسة لخدماته، وهكذا تتنوع المهن والحرف وتتعدد مثلما تتعدد المهارات والخبرات، ليتمم البعض إشباع حاجات البعض، حيث لا كمال للخليفة، بل الكمال لمن خلق الخليفة.

يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[٢٦٣]. الزَّبُورِ هو الكتاب الذي أنزل على داود عليه الصلاة والسلام، والذكر هو التوراة، (إن الأرض يرثها عبادي الصالحون) الصالحون هم الخلفاء دون غيرهم، فغيرهم هم الذين يعيشون عليها مادة، ولا يعيشون عليها قيمة وفضيلة فالخليفة هو الذي استمد الخلافة من الله تعالى. هو الذي يستمد جميع صفاته وخاصياته من القوة التي تحتويها أسماء خالقه تعالى التي ستتضح بعونه بإتمام هذا العمل الذي نأمل أن يكون فيه حُجّة لنا لا حُجّة علينا ونأمل أن يكون فيه خيرا.

ومع أن الرحمن عز وجل خلق الإنسان من صفاته الكاملة، إلا انه لم يخلقه على صفات الكمال، فلو خلقه على حالة الكمال، فلم يعد المخلوق في حاجة لخالقه، وحينها يصبح للخالق شركاء، ولهذا خُلق الإنسان ضعيفا حتى يستمد الرحمة من القوي تعالى. وباستمداده من الرحمن رحمة يمتلك مقاليد القوة التي تجعله على الأرض خليفة.

خلافة الأرض مسؤولية وأمانة، فمن يحافظ عليها حافظ على الأمانة، ومن لم يحافظ عليها يخونها، ولذا فالأمانة قيمة طيّبة، ومن يتصف بها يقال له أمين، ومن لا يتصف بها يقال له خائن، وهكذا حال الخلافة: فمن كان مؤتمن عليها وُصِفَ بالخليفة، ومن خانها فلا يعد من الذين يتصفون بها من شيء. يقول الله تعالى: {ويجعلكم خلفاء الأرض}[٢٦٤] أي يجعلكم سادة فيها، ولأجل أن تكونوا سادة فاعملوا على مكانتكم، وإلا ستكونوا عليها بدون مكانة، أي بدون

---

[٢٦٣] . الأنبياء، ، ١٠٥.

[٢٦٤] . النمل، ٦٢.

قيمة تذكر، فالمكانة درجة من الرقي القيمي تجعل الإنسان في حالة هيبة حتى ينال الاعتراف والتقدير من الآخرين. {وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون}[٢٦٥] فمكانة الذين لا يؤمنون هي البقاء في حياتهم على الكفر حتى بلوغ العذاب الأليم، ومكانة المؤمنين هي الرفعة في الحياة الدنيا والجنَّة في الحياة العظمى. ولذا فمن يكن على حالة الرفعة حتى بلوغ الجنة هو الذي يرث الأرض ولم يخن الأمانة (الخلافة) فينل الجزاء الأوفر. {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا}[٢٦٦] الأرض التي استخلفوا عليها يقدِّرونها كأمانة حق قدرها، فلا يعبثوا فيها فسادا، بل يحافظون عليها محافظة أمانة، ولأجل ذلك يمشون عليها هونا، برقة وأدب مع رفعة وتقدير للفضل الذي استخلفوا به. {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٢٦٧] الأمانة هي الخلافة التي ليس بالأمر الهين أن تتم المحافظة عليها، ولهذا لو عرف الإنسان عاقبة تقصيره كيف تكون، ما حمل الأمانة باعتبار أنه لم يخلق على الكمال، فالإنسان فيه من القصور ما يجعله دون المستوى الذي تتم به المحافظة على الأمانة، ولهذا كان ظلوما جهولا. ولكن من يأتي الله بقلب سليم يجعله على حالة استثناء من قاعدة الجهولة مصداقا لقوله تعالى: {إلا من أتى اللهَ بقلب سليم}[٢٦٨] ولهذا فالأعمال بالنيات، فمن آمن بقلبه اهتدى، ومن لا يؤمن به فقد ضل {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها}[٢٦٩]. ولهذا إذا قيل للكافرين {أسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن}[٢٧٠] فكانت الإجابة بقوله تعالى {الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان}[٢٧١] في هذه الإجابة، قُدِم تعلّم القرآن على خلق الإنسان، لأن المخاطب له ملكة التمييز التي بها يتبين الخطأ من

---

[٢٦٥] . هود، ١٢١.

[٢٦٦] . الفرقان، ٦٣.

[٢٦٧] الأحزاب، ٧٢.

[٢٦٨] الشعراء، ٨٩.

[٢٦٩] يونس ١٠٨.

[٢٧٠] الفرقان ٦٠.

[٢٧١] الرحمن ١ . ٤.

الصواب، وبها يتبين ما يجب ويَقدِم عليه وما لا يجب ويبتعد عنه، ولأن من يراد له أن يكون خليفة في الأرض وقع في الخطيئة، نتيجة الإغراءات والإقدام على ما نهى الله عنه، مع أن له عقل يُمكِّنه من التبيُّن قبل الإقدام على الفعل، ومع أنه حُذِّر إلا أنه غَفل حتى غُرر به ووقع في الخطيئة. وحتى لا يتكرر مثل هذا الفعل، قُدِّم القرآن الذي فيه البيان الكامل والواضح لمن يريد أن يتبين ويميز بين الحلال والحرام والصواب والخطأ (ما يجب الإقدام عليه وما يجب الابتعاد عنه) حتى لا تتكرر الخطيئة. ولذا ينبغي على الخليفة أن يتبين أولا قبل أن يفعل أو يسلك ثانيا، ولهذا جاء (تعلّم القرآن) مُقدّما على (خلق الإنسان) لِما يحتويه ويتضمنه من البيان المُفصَّل حتى يتيسر للإنسان الذي ورد لا حقا في سورة الرحمن، أن يتعرف على ما يجب قبل أن يقدم على فعله.

بسورة الرحمن تتزين الأنفس وتتطهّر وإذا تبيّن الخليفة تمكَّنَ من الوقوف على ما ورد فيها من إعجاز، يُطمئن القلوب المؤمنة، وينير البصر كما هوّ ينير البصيرة، ويرشد الخليفة لدروب الحياة الطاهرة، وإلى خشية الرحمن والخشوع له عزة. ولهذا كانت سورة الرحمن عروس القرآن كما روي عن علىّ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن"[٢٧٢].

قال الله جلّ جلاله: {وقالوا اتخذ الرحمن ولداً}[٢٧٣] استغفر الله فالرحمن (لم يلد ولم يولد) ولهذا لم يكن له مثيل بالمطلق. فلوا كان له ولد صدق من قال: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٢٧٤] بمعنى قل يا محمد صلى الله عليه وسلم، بدون تردد إن كان للرحمن ولد لكنت أنا أول العابدين لله على انه لا ولد له، قلها لأنك تعرفني وتؤمن بما أنزلت، ولا تشرك بي، وقل بدون تردد: {الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار} ولذلك فمن أراد أن يؤمن فليؤمن ومن أراد أن يكفر فليكفر. {لقد

---

[٢٧٢] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. المجلد ١٧ دار الكتاب العربي ص ١٥١.

[٢٧٣] مريم ٨٨.

[٢٧٤] الزخرف ٨١ ، ٨٢.

كفر الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد}[٢٧٥]. إذن لسان حال الخليفة في خلقه لسان توحيد، وما الخروج عنه إلا ابتعاد عن قول الحق وفعل الحق. فلو كان لله ولد، لكان له بالضرورة والد، {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد}. وعليه أتساءل: كيف يؤمن الكفرة بأن الله ليس له والد، ويؤمنون في الوقت ذاته بأنّ له ولد؟. فبطبيعة الحال بما أنه لا والد له. إذن لا يمكن أن يكون له ولد. وهذا الأمر يجعله يختلف عن أمر الخليفة الذي خُلق ليتكاثر حتى النهاية، على قاعدة والد وولد.

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ}[٢٧٦] الأمة التي أنت فيها رسول هي خالفة لأمم سابقة عليها، وجاءت كلمة (كذلك) لتدل على أحوال الأمم السابقة التي هي الأخرى بَعثَ الله فيها رُسلا وكفر البعض من كل أمة بهم، ولذا لا استغراب إن كفر بعض من قومك بالرحمن، لكن عليك أن تقول الرحمن ربي لا إله إلا هو، وبلّغ به وتوكل على ربك الذي هو مرجعك في كل حين. فإنَّ تمسكك بالرحمن ربا واحدا يجعلك القدوة الحسنة لِمن آمن بك رسول ورحمة، {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[٢٧٧] أيها النبي الكريم في رسالتك البيان، والحنان فيك قدوة، يا محمد أنت رحمة، وبشائر للعباد، خاتم الأنبياء أنت، واحد رب العباد، في الشهادة، والصلاة لا إله إلا هوّ، والخليفة في ازدياد، جئتنا بالحق رحمة والسلام، فصحونا بعد غفلة، وصدقناك الكلام، لا إله إلا أنت يا رحيماً في البداية والختام. ورسولا يا محمد أنت رحمة للأنام.

ولأن محمد صلى الله عليه وسلم جاء رحمة للعالمين مصداقا لقوله تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء}[٢٧٨] لا استثناء لأحد من رحمة الله، إلا الذي يستثني نفسه منها بمعصية أمر الطاعة، فرحمته الواسعة في عمومها كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم في عمومها، ولذا

---

[٢٧٥] المائدة ٧٣.
[٢٧٦] الرعد ٣٠.
[٢٧٧] .الأنبياء ١٠٧.
[٢٧٨] .الأعراف ١٥٦.

كانت رسالته رحمة للعالمين. تستهدف الناس كافة بالرحمة، ولا تخص قوم أو مجتمع بذاته. فخليفة الله وحدة واحدة، ولهذا يستهدفها الله برحمته دون استثناء، {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[٢٧٩] النفخة هي الرحمة التي بها يخلف المخلوق مستخلفه، وهذه هي الرحمة، التي جعلت من بني آدم خلفاء على الأرض، فالنفخة هي انبعاث الحياة في النفس الإنسانية من الرحمن الرحيم. ولذا فمن استمد روحه من روح الله، يخلفه بالثبات والبقاء على روح الله، وروح الله ليس هي الأنفاس التي فيها حركة الأوكسجين شهيقا وزفيرا، بل هي الانطباع بروح الله في صلة الرحم، لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولإتباع ما أمر به وللانتهاء عما نهى عنه. ولعمارة الأرض.

فالإضافة في روحي للتشريف والتكريم، والروح جسم لطيف روحاني والدليل على ذلك قول الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٢٨٠] في الآية أخبار بثلاثة أمور:

١- أخبار بتوفيها.

٢- وإمساكها.

٣- وإرسالها.

{فالله خير حافظا وهو أرحم الرحمين}[٢٨١] بما أنّ الله تعالى هو خير حافظا. إذن هناك حافظين غيره، إلا أنهم قُصَّر عن التساوي معه في مستويات الحفظ ودرجاته. ولأنه هو الرحمن، والبشر الذين نَفخ فيهم من روحه هم خلفاؤه في الأرض، فهم بطبيعة الحال في أساس خلقهم الرحمة، ولكن لا يمكن أن يتساووا معه، بناء على القاعدة التي تقول (لا يمكن أن يستوي المخلوق مع خالقه) ولهذا قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي) ولم يقل (نفخت فيه روحي) فلو قالها لكان الخليفة متماثل بالتمام مع مستخلفه وهذه تعترض مع قاعدة المخلوق

---

[٢٧٩] . الحِجر ٢٩.

[٢٨٠] الزمر ٤٢.

[٢٨١] . يوسف ٦٤.

والخالق من حيث انعدام التساوي أو حتى الاقتراب منه. فالرحمن هو اسم الله العظيم، ولم يكن صفة له، بل الرحمة صفة استمدت من اسم الرحمن، والفرق كبير بين أن تكون الرحمة صفة وبين أن تكون مستمدة من الأصل ومترتبة عليه. فاسم الرحمن مصدر لكل رحمة، ولو لم يكن للرحمة مكوّن ما كانت، أي لو لم يكن الرحمن ما كانت الرحمة صفة مفضلة بيننا. ولذا فالرحمن هو بيت الرحمة، وليس هو الرحمة، ولهذا بَعث الرحمن لنا نحن بني الإنسان الأنبياء والرسل رحمة. وجعل لنا الليل لنسكن فيه رحمة، وجعل لنا النهار معاشُ رحمة، وجعل لنا المحبَّة والأرزاق والكثير من النعم التي لا تحصى رحمة. قال تعالى: {الرحمن على العرش استوى}[٢٨٢] استوى على العرش بواسع رحمته، وتحكّم بسيطرة تامة على كل شيء خلقه، والحمد لله الذي استوى على العرش بالرحمة حتى عمّت كل شيء، ولأنها عمّت كل شيء، فكل شيء يُسبِّح للرحمن. {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ وإن من شيء إلا يُسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[٢٨٣] كل المخلوقات تسبح لله تعالى باللغة التي هي عليها، عِرفاناً بواسع رحمته التي عمّت كل شيء، ولهذا سبقت النِعم وواسع الرعاية خلق الكائنات الحية، وإلا هل هناك من يعتقد أنَّ خلق الكائنات كان سابقا على ما يُشبع حاجاتها المتعددة والمتنوعة؟. المأكل والمشرب والمأمن كانت وفرة تامة (الجنة) في الحياة الأولي بالنسبة للجنس البشري، ثم الأرض (الكنز المُكوّر) الممتلئة في باطنها وعلى ظاهرها بمسببات الإشباع، وهذه جميعها رحمة. ولولا ذلك ما كُتبت الحياة للكائنات الحية، وإلى يومنا هذا ويوم غدٍ فمعظم الكائنات ما دون الإنسان ترتع فتشرب وتأكل وتنام تحت واسع رحمته بدون أن تُسهم في إنتاج ما يُشبع حاجاتها، فلو لم يكن الماء سابق الوجود على من هو في حالة ظمئ ما شرب وارتوى، وهكذا لو لم يكن الكلأ سابق على من به جوع ما أكل وشبع وكلها تُسبِّح بحمد الرحمن الذي على العرش استوى، وفي ذلك يقول تعالى: {فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}[٢٨٤] فمن رحمته تعالى تجدده لأحياء الأرض بما

---

[٢٨٢] . الرحمن ٥.

[٢٨٣] . الإسراء ٤٤.

[٢٨٤] . الروم ٥٠.

ينموا عليها من خيرات ومما تفيض به من باطنها من ماء، فكلما جذبت انبتت عشب وكلأ جديدا وهكذا رحمة الرحمن تتجدد، والتسبيح باسمه وحمده وشكره على رحمته ومن حول العرش لا ينقطع.

{الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم}[٢٨٥] التسبيح شكر وعرفان بمن عمَّت رحمته كل شيء، ولأن العرش محمول من قِبل المكلفين به من الملائكة العظام، قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}[٢٨٦].

ومن يستخلفه الرحمن ينبغي أن يكون أول المسبِّحين (الحامدين الشاكرين) له، ولذا فمن يخلقه الرحمن ينبغي أن يكون رحيما بنفسه وبزوجه وأبنائه، ووالديه وعلى جميع من يُسبح للرحمن تعالى. ولأن الرحمن استوى على العرش بالرحمة، وبعث الأنبياء والرسل رحمة للعباد، ولم يرسلهم لغير ذلك، لذا فإن الخليفة هو أول المستهدفين بالرحمة، ولهذا {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[٢٨٧] فالإكراه هو ما يناقض الرحمة، حيث احتوائه على المظالم والاستعباد، وعدم احترام من يراد له أن يكون خليفة للرحمن الرحيم. ولهذا فرُسل الله رحمة يُبلِّغون الناس بما يُرضي الرحمن تعالى، ويحرِّضوهم على فعل الخيرات، وينذروهم من الوقوع فيما يؤدي إلى الشرور. ويحرضوهم على إتباع الحلال والابتعاد عن الحرام. ولذا فهم رحمة، لإبلاغ العباد بما لا يعلمون، حتى لا يكونوا في غفلة من أمرهم وما يُحيط بهم وبما ينتظرهم.

رحمن على وزن فعلان، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة، والزيادة في الصفة، فكلما زادت الصفة الراحمة للخليفة كان خير خليفة، وكلما قلت قل خيره. وفي هذا الأمر يقول الله تعالى: {وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتُوا لعلّكم تُرحمون}[٢٨٨] قراءة القرآن عن تدبر بدون شك زيادة رحمة، لِمن يقرأه ولمن يستمع له وينصت، ولأن في الإنصات تتبع وانتباه عن وعي، لذا فهو يُمكّن من الوقوف على الحِكَم التي يتضمنها في الكلمات والجمل المقروءة في زمن

---

[٢٨٥] . غافر ٧.

[٢٨٦] الحاقة ١٧.

[٢٨٧] . البقرة ٢٥٦.

[٢٨٨] . الأعراف ٢٠٤.

الإنصات. ولأنها حِكم من الله تعالى، فهي ذات أثر موجب، تؤدي إلى الصحوة، بعد غفلة من الأمر، وهذه الصحوة فطنة إدراكية تجعل المستمع والمنصت لكلام الله عز وجل على حالة من التبيّن، وهذه رحمة من الرحمن الرحيم. حيث ظهور الفعل المترتب على الاستماع والإنصات للقرآن الكريم وهو الإيمان (الانتقال من حالة الخليفة الكم إلى حالة الخليفة القيم والفضائل).

إنّ الاستماع للقرآن والإنصات له ليس غاية في ذاته، بل الغاية هي بلوغ المترتب على قراءته، والاستماع له، والإنصات إليه، والمترتب على كل ذلك هو (الرحمة) التي تتحقق بالهداية، أو الوقوف على إعجازه وإظهار كنوزه من مكامنها، والانتقال من حالة الغفلة إلى حالات اليقظة، فالظالم إذا اهتدى يصبح عادلا، والكافر يصبح مؤمنا، والكاذب والمنافق وشاهد الزور يصبحوا صادقين، فالمؤمن لا يأكل إلا حلالا، ولا يسرق ولا يزنى، يقول الحق ويقدم على فعله، ولا يسلك إلا خيرا. وفي ذلك يقول الرحمن تعالى: {الم تلك آيات الكتاب الحكيم هُدى ورحمةً للمحسنين}[٢٨٩] تشير (تلك) إلى (الم) التي في ظاهرها تقرأ أحرف، وفي مضمونها تُدرك آيات إعجازية من الكتاب الحكيم تهدي للتي هي أحسن، وهي رحمة لِمن هم يُحسنون القول والفعل، وخاصة في أدائهم للصلاة وإيتائهم للزكاة وإيقانهم بالآخرة. ومع أن الرحمة مطلقة المفهوم والدلالة، إلا أنها في هذه الآيات جاءت للخاصة (للمحسنين) فإذا أعجبك فاعل خير (مُحسن)، فعليك أن تعرف أن للإحسان معايير قيمية ودرجات قياسية، تتفاوت من عملٍ صالحٍ إلى عملٍ أكثر إصلاحا منه، وهكذا بما أن بين الناس محسنين، فبالطبيعة هم يتفاوتون في درجات إحسانهم عند الله، فكلما ازددت عطاء في الأوجه الخيرة ازددت إحسانا وبركة، ولهذا إذا رأيت محسنا تأكد بأن هناك من هو أكثر إحسانا منه، ولذا فإن الرحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يَقدِمون على فعل الخيرات.

---

[٢٨٩] .لقمان ١ ـ ٣.

يقول الله تعالى: {فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون}[٢٩٠] لعلكم تُرحمون ترتبط بما هو سابق وهو الإصلاح بين الأخوة، وبما هو آتي وهو الرحمة، حيث لا يتحقق اللاحق إلا بنوعية الفعل السابق، فإن كان خيرا تكون الرحمة هي الفعل المترتب عليه، وأن كان شرا يكون العقاب هو المترتب عليه، ولأن أفعال التفضيل إصلاحية، لذا تُقدَّم أفعال الرحمة على أفعال العقاب.

الرحمة صفة تُغرس من الذات الإلهية في الذات الإنسانية، التي هي في أساس خلقها نفخة من روح الرحمن. ولهذا فالقاعدة هي: (خُلقت الأرض رحمة بالإنسان، وخُلق الإنسان رحمة عليها)، والاستثناء هو: (أن يُفسد البعض من بني الإنسان الأرض التي خُلقت رحمة به وبحاله). ولذا فالخليفة هو الذي يستخلف في الأرض لإصلاحها لا أن يُفسد فيها. ولذلك يُعد إصلاحها رحمة.

ولذا فإن الرحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يقدمون على فعل الخيرات: فالرحمة الخاصة وأقصد بها أن يتجلى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها والعبد الصالح يسعى للوصول للرحمة الخاصة، فهناك تقريب وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيرا والشر شرا وهناك شعور بأن الله يحبك، وهناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم وهذه الرحمة الخاصة تحتاج لأن يكون للعبد مع الله مودة، سهر الليالي في ذكره، غض البصر عما نهى عنه، إنفاق الأموال في الوجه الحق، احترام العلماء وحضور مجالسهم، تفقد اليتامى والفقراء والمساكين وتقديم العون لهم، فحينما تشمر للعمل الصالح وحينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المسلم. هذه الجهود المتتابعة المتراكمة الكثيرة المديدة تتوج بما يسميه العارفون بالله بتجليات الله على قلبك فتشعر بالسعادة التي لا يعادلها الدنيا وما فيها وهي من رحمة الله الخاصة وجنته في أرضه والرحمة الخاصة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال وعدم تبذيره،

---

[٢٩٠] . الحجرات ١٠.

ومعاونة الضعيف ومعاونه الأرملة وتفقد الجيران وتلاوة القرآن هذه من القنوات التي تصلك من خلالها الرحمة الخاصة.

وبناء على قاعدة الأرض رحمة للإنسان، والإنسان رحمة عليها، يستخلف البشر بعضهم بعضا أمما وشعوبا، على قاعدة عبادة الله والإحسان بالوالدين مصداقا لقوله عز وجل: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا}[٢٩١] في هذه الآية الكريمة أمَرَ رَبُك وحَكم بعبادته دون غيره، وهذه رحمة لا تجعلك تفكر في معبود آخر من دونه، وأمر بالإحسان للوالدين، حتى يتم نيل رضاهما، وهذه رحمة. وبما أنّ نيل رضاء الوالدين رحمة على الأبناء. إذن الأبناء رحمة على الوالدين، ولهذا يُستخلف البشر على أساس قاعدة الرحمة المستمدة من (الرحمن). ولذا فإن نيل رضاء الوالدين رحمة، ونيل غضبهما عذاب، فالرحمة مفاتيح خير، والغضب شواظ من نار ونحاس. قال أبو داود والترمذي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الراحمون يرحمهم الله تبارك وتعالى أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"[٢٩٢].

بناء على ما تقدم لا يسع الخليفة إلا أن يقول ما قاله الله تعالى: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}[٢٩٣]. {رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}[٢٩٤].

الرحمن من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة، واسم الرحمن لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، أما الرحيم فانه يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٩٥] وقال في صفة النبي عليه الصلاة والسلام: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ

---

[٢٩١] . الإسراء ٢٣.

[٢٩٢] المعجم الكبير للطبراني ، ج ٢٠، ص ١٠٨.

[٢٩٣] المؤمنون ١١٨.

[٢٩٤] المؤمنون ١٠٩.

[٢٩٥] النور ٥

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٢٩٦] والرحمن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين وعلى هذا قال: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[٢٩٧]، وفي ذلك تدل الآيات الكريمة على رحمة الله الواسعة في الدارين، إلا أن رحمته في الدنيا عامة (المسلم والكافر)، ورحمته في الآخرة خاصة بالمستخلفين الوارثين.

الرحمن اسم عظيم لله الأعظم على صيغة فعلان الدالة على المبالغة، وهناك علاقة قوية وتداخل في الدلالة مع الاسم الودود في قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}[٢٩٨] وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}[٢٩٩].

وحظ الخليفة من اسم الله الرحمن أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر الاستطاعة البشرية، فيكون رحيما بخلق الله، مؤيدا لأرباب الحق، ناصرا لأولياء الله، لطيفا في معاملاته لخلق الله، رفيقا بهم، مملوء القلب بالرأفة والرحمة، محبا لله ومحبا لكل من يحبهم الله، ولكل ما يحبه الله.

أكثر ما ورد اسم (الرحمن) في سورة الرحمة الكريمة، وهي سورة مريم، إذ تبتدئ هذه السورة بذكر الرحمة، يقول تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا}[٣٠٠] ثم يبدأ تردد اسم الرحمن في هذه السورة خصوصا في قصة مريم وإبراهيم عليه الصلاة والسلام،حين قالت مريم: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا}[٣٠١] كما ورد اسم الرحمن ضمن سياق قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا

---

[٢٩٦] التوبة ١٢٨

[٢٩٧] الأعراف ١٥٦

[٢٩٨] – هود ٩٠

[٢٩٩] – البروج ١٣ – ١٤

[٣٠٠] – مريم ٢

[٣٠١] – مريم ٢٦

يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا}[٣٠٢]وقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام تشكل أسلوبها وفق معيار الخير الذي يريده الله تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام صاحب شخصية اتسمت بالرضا والحلم والود حاول أن يهدي أباه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه، فكان أسلوب الحوار في هذه القصة مبني على الاحترام واللطف، وبهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه: (يا أبت) فقد كرر (يا أبت) أربع مرات، ففيها من التحبب ما ليس في (أبي) وفي ذلك دليل على سماحة نفس إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ناحية وتلطفه في إيصال دعوته من ناحية أخرى. ويستمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في خطابه مع أبيه ويسأله: {لِمَ تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا؟} والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم وأقوى. وأن يرفعها إلى مقام اسمى من مقام الإنسان، فكيف يتوجه بها إذن إلى ما هو دون الإنسان. بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضراً ولا نفعاً. إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام. وفي حوار سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أبيه الذي ينبني في كل ثنياته على جو الرحمة والاحترام من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه الكافر، وهنا يخطر لنا سؤال ما دلالة استخدام الرحمة في هذا المقطع بالذات، إذ تردد مرتين متتاليين، في قوله تعالى: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا}[٣٠٣] والملاحظ أن الآيتين تتحدثان عن المعصية والعذاب فلماذا أتى اسم (الرحمن) فيهما مع أن من الأولى أن يأتي

---

[٣٠٢] مريم ٤١ – ٤٦

[٣٠٣] – مريم ٤٤ – ٤٥

باسم فيه دلالة على العذاب أو العقوبة، إلا أن التحليل لسياق الخطاب يبين أن العذاب كان مفترضا من إبراهيم عليه الصلاة والسلام وليس متحققا، ولهذا قال: (أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ) على الظن وليس على اليقين، وغلب الظن على اليقين في هذا العذاب باستعمال لفظ (الرحمن) رأفة بأبيه وعطفا عليه، وكأنه يريد أن يقول أنه في داخله لا يتمنى أن يحدث هذا العذاب لأبيه مستعملا صيغة الرحمة للدلالة على هذه الأمنية، ذلك أن العذاب في حالة تحققه هو حرمان من رحمة الله تعالى، فضلا عن ذلك أن الجرم الكبير يحرم صاحبه من رحمة الرحمان مما يترتب عليه الوصول إلى نقطة النهاية التي يكون عندها تحقق العذاب المقدر. فكان اسم (الرحمن) إشارة دائما إلى التفكر والتروي من اجل نيل الرحمة وبخاصة في الأمور المهمة التي يكون في ارتكابها فقدان الرحمة وتحقق العذاب، أما وروده في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}[٣٠٤] فان المقام هنا يقتضي الرحمة ولا يقتضي أي شيء غيرها، فقد تحققت كل علامات القدرة وأصبح الجميع في موقف اليقين المتحقق من قدرة وعظمة وجلال الله تبارك وتعالى، فالموقف شديد وحاسم والكل يساقون إلى رب العزة، إذ يقول تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}[٣٠٥] فحين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، (فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا) أي: إلا ما يدل على الاحترام والأدب والذوق الرفيع والطاعة المتطلعة إلى نيل الرحمة، وبذلك تكون المخافتة همسا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارا لحكم الرحمن فيهم، والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، فتكون الدعوة لجميع الخلائق دون استثناء، والكل ينتظر حكم ارحم الراحمين جل جلاله، والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك

---

[٣٠٤] – النبأ ٣٨

[٣٠٥] – طه ١٠٨

جميع الخلق لما يشاهدونه، فالأمل قائم لديهم، لان مرجعياتهم عن هذا اليوم تعود إلى سياقات تتشكل جميعها من رحمة رب العالمين، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}[306] وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا}[307] وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا}[308] فالسياقات هنا كلها جاءت واسم (الرحمن) متشكل فيها مما يعطي انطباعا عن الرحمة الواسعة التي تنتظر الخلق جميعا، ومن المرجعيات التي تنم عن رحمة الله الواسعة ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"[309].

ثم يتكرر اسم (الرحمن) مرات أخرى في سياقات أخرى في هذه السورة وأغلبها سياقات يتضح فيها أسلوب التوعد والعقاب، يقول تعالى: {ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا}[310] وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا}[311] وقوله تعالى: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}[312] كما يتكرر بآيات أخرى بسياقات فيها شكل من أشكال الرحمة، يقول تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا}[313] وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}[314] وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا

---

[306] – طه ١٠٨

[307] – طه ١٠٩

[308] – الفرقان ٢٥ – ٢٦

[309] – صحيح البخاري ج ٢٢ ص ٤٣٢

[310] – مريم ٦٩

[311] – مريم ٧٥

[312] – مريم ٧٨

[313] – مريم ٨٥

[314] – مريم ٩٣

الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}[٣١٥] فما دلالة استخدام هذا التضاد الظاهر لاسم الله تعالى (الرحمن جل جلاله) بسياقات عذاب مرة وبسياقات رحمة مرة أخرى، والتأمل الدقيق للسياقات جميعا يوصل إلى نتيجة أن سياقات العذاب تنتهي في الأخير إلى شكل من أشكال الرحمة، فهو عذاب ظاهري على شكل توعد وليس عذاب متحقق، ولهذا اتبع الله تعالى كل سياق من سياقات العذاب سياقا من سياقات الرحمة أو سبقه به، إذ يقول تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا}[٣١٦].

ينقدح في الذهن سؤال جوهري عن علاقة اسم (الرحمن) بسورة الرحمن، ولماذا سميت هذه السورة (عروس القرآن) ولا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بتفحص السياقات التي شكلت مفاهيم السورة وهي مفاهيم تنتمي بمجملها إلى شمولية اسم (الرحمن)، بمعنى أن سورة الرحمن هي شرح قرآني لاسم الله تعالى وصفته العظيمة (الرحمن)، فكل أية وكل سياق في السورة يشكل مظهرا من مظاهر قدرة الرحمن، ولهذا ابتدأت السورة بلفظ (الرحمن) واستمرت من بدايتها إلى نهايتها بتعداد مظاهر (الرحمن) سواء على المستوى الدنيوي أم على المستوى الأخروي إذ في كليهما تتجلى عظمة (الرحمن)، ولهذا قيل عن الرحمن أنه رحمن الدنيا والآخرة، قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٣١٧] السورة تؤكد هذه الثنائية

---

[٣١٥] – مريم ٩٦

[٣١٦] – مريم ٨٤ – ٨٦

[٣١٧] – الرحمن ٥ – ٢٥

الرحمانية لاسم (الرحمن) فهي لا تعدد أشكال أو مظاهر الرحمة الدنيوية فقط بل أنها تتجاوز هذه المظاهر إلى مظاهر الرحمة الأخروية التي شكلتها على مستويين دلاليين، مستوى عالٍ ومستوى أعلى، أما الأول فيمثله وصف الجنة الأول الذي هو للمرتبة العليا، يقول تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَان فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}[٣١٨] بينما المرتبة الأعلى التي هي تخص الأنبياء والشهداء والصديقين فلهم جنة مختلفة، يقول تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٣١٩].

تتشكل رحمة الله تبارك وتعالى ضمن ثنائية الدنيا والآخرة مما يرتسم لها أطر تحددها وتكسبها مساحات تتوزع بحسب الإرادة الإلهية المتحققة فيها الرحمة المطلقة، وهذا يحيلنا إلى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ليرسم لنا الرحمة التي أرادها الله تبارك وتعالى لعبده وفق ترتيب أراده الله تعالى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٣٢٠] هنا تتجلى رحمة الله تبارك وتعالى من خلال تقسيمها وفق معطيات أرادها سبحانه، بدأ من الدنيا

[٣١٨] – الرحمن ٤٦ – ٦٠

[٣١٩] – الرحمن ٦٢ – ٧٧

[٣٢٠] – صحيح مسلم ج ١٣ ص ٣١١

التي تحضن مختلف المخلوقات فبالرحمة تعيش المخلوقات وتتوافق وتستمر حياتها وهذه المعيشة في الحياة صورة للرحمة التي رسمها شطر الحديث النبوي وهي متحققة وبتحققها نجد أن رحمة الله تعالى عظيمة جدا فصورها متكررة يوميا نراها ونتعجب ونسأل أنفسنا دائما ونحن نرى الأسد يلعب مع ابنه والنسر يقطع المسافات الطويلة لكي يجلب لأفراخه الطعام ويقوم هو بإطعامهم بنفسه صور تبهر العيون وتسحر العقول لماذا لا يأكل الأسد ابنه؟ لماذا لا يأكل النسر صغاره؟ هذه الأسئلة وغيرها تخرج من بوتقة واحدة مُشكّلة حزما تبحث في اتجاهات مختلفة للحصول على إجابة لهذا النظام العجيب لكنها في نهاية المطاف تجد الإجابة، وهي أن نظام هذا الكون كله يسير وفق رحمة الرحمن، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات بل أن للإنسان نصيبه الأكبر من ذلك، فتشكلات الإنسان من بداية الخلق إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها توحي بالرحمة التي أسبغها الله تعالى على خلقه، وهذه الرحمة المتحققة للجميع لا تنقطع بعد زوال الدنيا إنما تدخل منعطفا جديدا، إذ تتوسع أفاقها وتتفوق على الصورة المتخيلة لرحمة الله تعالى المرسومة من قبل عباده فمهما كانت الصورة المتخيلة لرحمة الله تعالى لا تصل إلى أي نسبة للصورة التي سوف يجدها عباد الله أمامهم يوم القيامة، إذ يقول تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[٣٢١] أما قوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}[٣٢٢] فهو يعرض الرحمة لصنفين من الخلق، كانت لهم اليد الطويلة في تكذيب الدعوة الإسلامية والوقوف بوجهها، وفي ذلك ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله تعالى، وإتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، فان أصروا على عنادهم وكفرهم فحذرهم من نقمة الله تعالى وعذابه فإن بأس الله تعالى شديد، ولا يرده شيء عن القوم المجرمين، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ

---

[٣٢١] – الأعراف ١٥٦

[٣٢٢] – الأنعام ١٤٧

قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آَخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٣٢٣].

والرحمة تتجلى بين العباد ضمن العلاقات القائمة التي رسمها الله تبارك وتعالى بين الخلق جميعا من أدم عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٣٢٤] سياق الآية هنا رسم بداية الخلق وفق تشكيل تقاربي يلملم الأجزاء المتناثرة، ويجمعها بقصد التعارف ضمن الوعي المتحقق بين الجميع، مما يؤدي إلى خلق نماذج مختلفة يتحقق من خلالها التعارف، وهي الشعوب والقبائل، وهذا التشكل للخلق يمنحهم صفات منها التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ومن هذا التقسيم الكبير للخلق يتبلور تقسيم صغير إلا أنه يمثل القاعدة الأساسية لهذا الخلق وهو الأسرة المتكونة من الزوجين، إذ يقول تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٣٢٥]. هنا صورة من صور الرحمة التي بينها الله تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فالجمع بين الرجل والمرأة آية من آيات الله تعالى الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، فهذا الارتباط بين الزوجين يحيل إلى رحمة الله تعالى التي تكون هي الأساس في بناء الأسرة، فبها يكون التعاطف والتراحم والسبب في مواصلة الحياة، وان استمرار الأسرة وبقاءها يمثل جانبا من جوانب رحمة الله تبارك وتعالى، وتتجلى صورة الرحمة في الأسرة بصورة الأمومة التي تمثل تشكلا من تشكيلات الرحمة الإلهية بدأ من الحمل، إذ يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ

---

[٣٢٣] – المائدة ٤١

[٣٢٤] – الحجرات ١٣

[٣٢٥] – الروم ٢١

الْمَصِيرُ}[٣٢٦] وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٣٢٧] هنا صورة الأمومة في كل تجليتها تطرح عدة تساؤلات مبعثها أنها رحمة من رحمات الله تبارك وتعالى، فلولا رحمة الله تعالى لما تحقق بناء الأسرة وفق هذه الصعاب التي تمر بها الأم.

ومن رحمة الله تعالى إرسال الرسل، وهذا الأمر المتحقق نتج عنه أن الخلق أجمع غيروا مسار حياتهم من الكفر إلى الإيمان وبتحقق هذا التغيير، تتغير نهاية الخلق من النار إلى الجنة، وهنا تكون الرحمة الواسعة من الرحمن الرحيم، إذ يقول تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[٣٢٨]. وإرسال الرسل يستند إلى أمر مهم جدا وهو العذاب المتحقق في حالة عدم تلبية دعوة رسل الله تبارك وتعالى، يقول تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[٣٢٩] وقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}[٣٣٠] وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}[٣٣١] هنا نجد أن السياقات كلها تحمل الخطاب إلى نهاية متوقعة وهي العذاب، ومفردة العذاب ترسم

---

[٣٢٦] – لقمان ١٤

[٣٢٧] – الأحقاف ١٥

[٣٢٨] – الإسراء ١٥

[٣٢٩] – يونس ١٥

[٣٣٠] – هود ٨٤

[٣٣١] – الزخرف ٦٤ – ٦٥

معلما دلاليا مرتبطا باليوم الآخر، وهذا اليوم تتحقق فيه كل خطابات الدنيا المختلفة من عذاب ورحمة، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحقق من خلال لفظة (سيق) التي بني فيها الخطاب للكافرين والمؤمنين، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[٣٣٢] فهنا زمر الكافرين تساق زمرة بعد زمرة إلى نار جهنم، فيستوضح الخطاب هنا رحمة الله تعالى السابقة عليهم، التي كانت أمام أعينهم وحاربوها بكل الوسائل، ووقفوا منها موقف الجبار المتغطرس، والتذكير جاء على لسان خزنة نار جهنم {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} هذا هو مقصد الرسل، اليوم تستوضح دلالته، وترى صورته المتحققة التي رسمت في الدنيا، والتذكير بالرسل ورد مرارا في القرآن الكريم، يقول تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}[٣٣٣]، وفي هذا السياق يستوضح شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عَدله ورحمته، ورضاه لعباده الخير والصّلاح، وكراهيته سوء أعمالهم، وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدايتهم إلى سبل الخير، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدّم إليهم بالإنذار والتنبيه.

أما الصورة الثانية وهي صورة الرحمة المتحققة، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٣٣٤]، وصورة الرحمة هنا نراها من بداية دخول الجنة إلى الحمد الذي ورد على لسان أهلها، فالخزنة خطابهم هنا اتسم بالطيبة والرحمة وبما يليق بالمخاطبين، فالصورتان

---

[٣٣٢] – الزمر ٧١ – ٧٢

[٣٣٣] – الأنعام ١٣٠ – ١٣١

[٣٣٤] – الزمر ٧٣ – ٧٤

المتحققتان في الجنة والنار، أي صورة النعيم وصورة العذاب، كان تحققهما مرتبط بإرسال الرسل والتصديق بالرسل، فصورة العذاب المتحققة استندت إلى عدم التصديق، قال تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِين قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} أما صورة النعيم المتحققة فقد استندت إلى التصديق برسل الله تعالى: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}، فإرسال الرسل يمثل جانبا مهما من جوانب رحمة الله تعالى للخلق، فهو باب للتنبيه وللتوجيه وللإرشاد، ورحمة الله تعالى شاملة مطلقة لا تتقيد بأي قيد بل هي مفتوحة للكل ينالها الجميع فمن صورها الرزق في الدنيا، فهو مطلق للكل لا يقتصر على المؤمن دون الكافر، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}[٣٣٥] ترتسم الرحمة هنا وفق معيار واحد يتشكل الجميع منه وهو أنهم جميعا خلق الله تعالى، والعطاء في الدنيا للكل دون قيد أو شرط في الحصول عليه من الله تعالى لأنه منحة للكل وهنا تتهافت الأسئلة التي تراود الخلق من أدم عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، كيف يتساوى الكفرة مع المؤمنين في الرزق بل ربما أن الكفرة أكثر رزقا من ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ}[٣٣٦] هذه الآية تحيل إلى صور ماضية تتكرر بين حين وأخر لتمثل رزق الله تعالى المتحقق بين خلقه، وهذا الرزق مثل رحمة الله تعالى من جانب أما الجانب الآخر فكان سببا في هلاك كثير من الأقوام، فقد مكّن الله تعالى لهم الأرض وأمدهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر قوة وعمارة في الأرض وجعل السماء تمطر عليهم بصورة متتالية، مطرا غزيرا وفجّر لهم من الأرض ينابيع وأنهارا، استدراجا لهم وإملاء، ثم

[٣٣٥] – الإسراء ٢٠، ٢١

[٣٣٦] – الأنعام ٦

أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وخطاياهم وجعل من بعد هؤلاء الهالكين أجيالا أخرى ليختبرهم، فعملوا مثل أعمال من كانوا قبلهم، وهنا الصورة تتكرر أي أن الرزق مستمر والهلاك مستمر، مما يدلل أن رحمة الله تعالى مستمرة لا تنقطع رغم الهلاك المستمر الدال على الكفر والعصيان.

وتمثل الرياح صورة من صور رحمة الله تعالى، على الرغم أنها تمثل صورة من صور العذاب المتحققة في الأرض، إذ يقول تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آَلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}[٣٣٧]. وصورة العذاب المتحققة بالريح ليست دائمة بل هي وقتية تنتهي بتحقق الهلاك المقدر، أما الجانب الأخر الذي تمثله الرياح وهو جانب الرحمة، فهو صورة دائمة من صور رحمة الله تعالى في الأرض، فهي سبب من أسباب الرزق الدائم على الأرض، والذي بسببه تستمر حياة المخلوقات جميعا، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٣٣٨] وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الماء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٣٣٩] والرياح بكل تجلياتها تمثل مظهرا من مظاهر رحمة الله تعالى بما تقوم به في هذا الكون الواسع، فحركتها في جميع الاتجاهات ترسم رحمة الله تعالى على جميع أصقاع الأرض، فضلا عن ذلك أنها تمثل رمزا من رموز رحمة الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ

---

[٣٣٧] – الأحقاف ٢٢ – ٢٥

[٣٣٨] – البقرة ١٦٤

[٣٣٩] – الأعراف ٥٧

السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}[٣٤٠] والجانب النفعي الذي تمثله الرياح مع السفن التي تجوب البحار، يمثل جانبا مهما في خدمة الخلق في مكان يعد الأصعب وهو البحر، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٣٤١].

خلق الله تعالى الخلق وفق حكمته وإرادته، فهم مختلفون في كل شيء بدءا من لون البشرة إلى أصغر دقائق الخلقة التي هم عليها، وأهم نقطة خلاف بينهم هو العقل، وهو أهم جهاز يتمتع به الإنسان، فبه يميز الأمور كلها بكل تفاصيلها ودقائقها، فيختار لنفسه الطريق الأسلم والأصوب بحسب ما يعتقده ويؤمن به، والاعتقاد إيمان لابد أن يكون عن قناعة دون إكراه، وتجلى ذلك في قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٣٤٢] فدلائل الوحدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأممُ، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعةِ، باختيارهم دون جبر ولا إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيُتْرَكون عليه أم يُكْرَهُون على الإسلام[٣٤٣].

يتزامن هنا مع سؤال النفس أسلوب الدعوة المتبع الذي يشغل حيزا كبيرا في عملية الإقناع، إذ يترتب عليه قبول الدعوة أو الصد عنها، وأسلوب الدعوة يجب أن يكون كما خطه الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٣٤٤] تجلت هنا صورة من صور الدعوة إلى الله تعالى، فالأخلاق الحسنة، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح

---

٣٤٠ – الفرقان ٤٨ – ٤٩

٣٤١ – الروم ٤٦

٣٤٢ – البقرة ٢٥٦

٣٤٣ – التحرير والتنوير ج ٢ ص ٤٣٤

٣٤٤ – أل عمران ١٥٩

والثواب الخاص، والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله[٣٤٥].

والدعوة إلى الله تعالى بطريقة لينة سمت من سمات الخليفة، وهذه الطريق لا تقتصر على الدعوة إلى الله تعالى فقط بل تكون منهجا له في الحياة، في كل تصرفاته مع جميع الخلق القاصي والداني، فهي ترسم شكلا وصورة للإسلام العظيم الذي غيَّر مسار الحياة ونقل الخلق إلى حياة جديدة تقوم على أطر معرفية تحدد العلاقة الصحيحة بين الخلق أجمعين، فضلا عن ذلك اختيار شخصية تكون هي المرجعية لهذه المعرفة متمثلة بشخصية الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[٣٤٦] وقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣٤٧].

اللهم يا الرحمن عمَّنا بواسع رحمتك في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الوارثين، الذين يكنزون الطاعة ولا يكنزون المعصية، والذين يكنزون سلامة البصر والبصيرة وسلامة البدن والروح والنفس والمُلك، اللهم يا الرحمن إننا في حاجة لرحمتك فارحمنا بكل ما يرضيك عنا، اللهم يا الرحمن قلت وقولك الحق: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماء الْحُسْنَى) اللهم بأسمائك الحسنى ندعوك أن ترحمنا في أنفسنا وأزواجنا ووالدينا وأبنائنا وإخواننا، اللهم برحمتك اكسُنَا سترة وقوة وقدرة وحكمة ومال حلال، اللهم برحمتك أحفظنا وحطنا من كل سوء وابعد عنا شرور الوسواس الخناس من الجنة والناس، إنك أنت الرحمن الرحيم فالحمد والشكر لك.

---

[٣٤٥] – السعدي ج ١ ص ١٥٤

[٣٤٦] – الأحزاب ٢١

[٣٤٧] – التوبة ١٢٨

اللهم يا الرحمن يا من أنزلت القرآن رحمة، وبعثت رسولك الكريم رحمة، وجعلت الطريق إلى الفوز بجنتك رحمة اجعلنا رحماء في أنفسنا وفيمن حولنا، يا من خلقتنا برحمة وعلمتنا الرحمة ارحمنا في الدنيا والآخرة، اللهم يا الرحمن منك الرحمة فلا رحمن سواك اجعلنا من المرحومين برحمتك والراجين والطامعين بها وأن تغلّبنا على النفس بأن تبعث فيها النقاء والصفاء لتسعى إلى الخير والإصلاح، اللهم اجعلنا من الذين وضعت الرحمة في قلوبهم فنشروها في الأرض كما أردت يا الرحمن، اللهم إليك نشكو حالنا وضعفنا فارحم ضعفنا واجعلنا نرحم الضعيف فينا يا الرحمن.

الرحيم

الرحيم "الذي وسعت رحمته كل شيء"[٣٤٨].

قال تعالى: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣٤٩] بسم الله تعني: بسم القوة والجلال الأعظم التي تحتوي في مضمونها جميع الصفات العظام لله رب العالمين، فكانت باسمه تعالى بداية العمل وإيذاناً للركوب في السفينة المعجزة التي كما قال الضحاك: "كان نوح عليه الصلاة والسلام إذا قال بسم الله مجراها جرت، وإذا قال بسم الله مرساها رست"[٣٥٠] ولأن السفينة استمدت قوتها من قوة المعجزة التي بسببها بنيت فكانت للآوين إليها رحمة من ربٍ رحيم.

وقال تعال: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم}[٣٥١] وكأن سليمان ونوح من قبله عليهما الصلاة والسلام يودان أن يقولا إذا أُريد للخليفة أن يوفّق في عملٍ أو أن يُقدَّر فعليه أن يبدأ عمله باسم من استخلفه. ولهذا صدَّرَ رسالته إلى ملكة سبأ بقوله بسم الله الرحمن الرحيم، التي ترتبت عليها إجابة ملكة سبأ بقولها {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٣٥٢] ظلمت نفسها بعبادتها لِمن لم يستخلفها، وكأنها كانت في حالة غفلة وانتبهت منها مع قول سليمان الذي نبهها إلى الله ربِّ العالمين وهذه رحمة من الرحيم الذي تصدَّر اسمه الرسالة المعنونة من سليمان باسم الله الرحمن الرحيم.

وبنظرنا إلى البسملة نلحظ أنها لم تقتصر على ذكر الله فقط، بل ربطت اسمه الأعظم باسم الرحمن الرحيم، وهذا يدل على أنه لو أُقتصِر على اسم الله تعالى فقط، فالقول جليل فيه المخافة من عظمته وقدرته وقوته وكبريائه، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ

---

[٣٤٨] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ج ١ ، ص ٤٣.

[٣٤٩] هود ٤١.

[٣٥٠] القرطبي الجامع لأحكام القرآن الجزء التاسع دار الكتاب العربي، ص ٣٧.

[٣٥١] النمل ٣٠.

[٣٥٢] النمل ٤٤.

فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[353] خوفا مما يرد على خاطر من قوَّتِه التي تَدُك الجبال جاء اسم الرحمن متزامنا مع اسم الله تعالى لكي تكون الرحمة من اسمه للترغيب والمحبة والألفة التي تجعل الخليفة في شوق للتقرب منه، وحتى لا يظن البعض بأنها مجرد قول جاء اسم الرحيم متتاليا بعد الرحمن، وذلك لإظهار الفعل من القول حتى تتم ملامسته ومعايشته شواهد دالة على واسع رحمته مصداقا لقوله تعالى: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[354]. نلحظ في هذه الآية الكريمة رحمتين من رحمته الواسعة، الرحمة الأولى أن يونس عليه الصلاة والسلام كان من المسبِّحين. والرحمة الثانية أن الله أخرجه من بطن الحوت بكل سلام. ولذا فالخليفة بطبعه الإنساني ينبغي أن يكون من المسبِّحين، ومن الغرابة أن لا يكون كذلك.

وعليه، بسم الله الرحمن الرحيم تحتوي الآتي:

١ . بسم الله: (بسم القوة الأعظم التي فيها الجلالة والهيبة التي تجعل الخليفة في حالة مخافة من عظمتها وجلالها).

٢ . بسم الرحمن: (بسم الرحمة التي تلين القلوب وتتلهف الأنفس إليها لتصبح مطمئنة حتى تؤمن بثقة وتعمل بشوق وإرادة).

٣ . بسم الرحيم: (بسم من بيده أفعال الرحمة شواهد بين أيدي الناس).

وبناء على ذلك ارتبطت الرأفة والرحمة باسمه {إنَّ الله بالناس لرءوف رحيم}[355] جاءت في هذه الآية الكريمة الرأفة مطلقة مثلما الرحمة جاءت مطلقة لكل الناس بدون استثناء، فالله عز وجل لا يمكن أن يستثني أحد من خليفته، بل الاستثناء يأتي إرادي من البعض من الناس، الذين فُتِّحت لهم أبواب الرحمة ولم يدخلوا من أبوابها. إذن الله بعنايته رحيم بالناس.

---

[353] الأعراف ١٤٣.

[354] . الصافات ١٤٤.

[355] . البقرة ١٤٣.

فالكلمة رحيم: اسم دائم بفعل دائم، فعندما يُمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنه لا ينقطع، يتبين للقراء العطاء الدائم من الاسم الرحيم الدائم، أي يتبين لهم أنَّ الأفعال تُحمل في هذه الكلمة، ما يجعل الرحمة قيمة والرحيم فاعل لهذه القيمة، والخليفة هو الذي يجعل من أقواله أفعال، {أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون}[٣٥٦] ولهذا فالعمل الناجح هو الفعل الناجح {فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}[٣٥٧]. فالخليفة هو الذي يقتدي بالعمل الصالح، أما أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، أو يفعلون الباطل فهؤلاء هم من البشر الذين لم تتجسد في أفعالهم أعمال الخير التي ترضي الله ورسوله والمؤمنون.

وعليه الخليفة من حيث الوجود الحي لا فرق فيها بين الكائنات، أما الخليفة من حيث الاقتداء بمن استخلفهم فهم أولئك الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ويقولون سبحانك ما خلقت هذا باطلا. إنها الخلافة العاقلة، التي تتذكر حتى تتعظ، وتُفكر حتى تؤمن.

إذن الخليفة هو الذي تتجسد الرحمة في أقواله وأفعاله، حتى يكون رحيما على نفسه وعلى الذين تربطه بهم علاقات الأبوة والأمومة والأخوة وذي القربى والجيرة حتى تسود الرحمة بينهم {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}[٣٥٨] فمحمد صلى الله عليه وسلم والذين معه هم الذين يؤمنون بمن استخلفهم وقبلوا أن يكونوا خلفاء بحملهم الرسالة (رسالة الخليفة) أما الذين استخلفوا ولم يقبلوا بأن يكونوا الخليفة فهم أولئك الذين كفروا جحودا ونكرانا لفضل من استخلفهم في الأرض. هؤلاء هم الذين أعطاهم المستخلف العقل فكفروا بما أعطي لهم، وهم الذين عرض عليهم الأمانة وقبلوها ثم بعد ذلك تخلوا عن حملها، وهم الذين أنعم الله عليهم بنعم لا تحصى ولم يُقدِّروها حق قدرها هؤلاء هم المعنيون بالكفرة الذين لا يمكن أن يكونوا الخليفة.

---

[٣٥٦] الأحقاف ١٤.

[٣٥٧] . فصلت ٤٦.

[٣٥٨] الفتح ٢٩.

الخليفة هو الرحيم الذي يلين قلبه ويرق لقول الحق وفعل الخير، ومساعدة المحتاج، ورعاية اليتامى، ومناصرة المغلوب ظلما، ورفع الضيم عن المضام.

وبما أن من أسماء الله تعالى وصفاته الرحيم، إذن بطبيعة الحال من يخلفه يجب أن يكون رحيما، حتى تُستخلف الرحمة بين الناس، لتعم بينهم ويتوادون بأعمال الخير. ولهذا كانت عواطفنا ترق بحالنا حتى نرق على غيرنا بإحسان، ويعطف الصغير على الكبير مثلما يعطف الكبير على الصغير وإلا هل هناك من يخلف شيء ولا يترك فيه شيئا من صفاته، ولهذا جميع الكائنات تخلف بعضها البعض بصفاتها وخصائصها، وعلم الجينات يثبت ذلك بكل وضوح.

أما الاستخلاف فهو بفعل فاعل لأسباب وأغراض مستقبلية يعلمها من أوجد الخليفة وسيلة لتحقيقها، وهذا الأمر يتطلب طرح السؤال: لماذا جعل الله في الأرض خليفة؟.

الإجابة على هذا السؤال، هي: لغاية هوّ يعلمها (يعرفها) ومن ضمن هذه الإجابة ليُعمِّر الأرض، ولهذا، إن لم يفعل ذلك لن يكون مناسبا للمكان الذي وُضِع خليفة فيه. ولأن الاختيار من الخالق عزَّ وجل فهو بطبيعة الحال يكون مناسبا الإعمار بإرادة. ولأن فعل الإعمار تركه الله للمستخلفين فعل إراديا، فكان البعض بإرادته الحرة يُسهم في إعمار الأرض، والبعض لا يُسهم في إعمارها، والبعض الآخر يُسهم في خرابها. والسبب إن الحياة الدنيا تُحفّ بين الحين والحين بالغرور الذي يجعل البعض ممن يراد له أن يكون خليفة متناسيا لأسباب استخلافه في الأرض، حتى يظن أنه بذاته قادر، ما يجعله من المُعرَّضين للفشل في أداء المهام التي من أجلها أُستخلف {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}[٣٥٩]. ولذلك كان الاستخلاف لغاية، وكان لله الفضل على من يلتزم بأسباب استخلافه، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}[٣٦٠] ولهذا من شروط الاستخلاف العمل.

---

[٣٥٩] . البقرة ١١.

[٣٦٠] . النور ٥٥.

ولكن أي عمل؟ إنه العمل الصالح بإرادة. {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٣٦١] ولذلك فإنّ العمل غير الصالح هو دليل عدم القبول بأمر الاستخلاف في الأرض. ولو لم يجعل الله تعالى أمر العمل بإرادة، لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوة، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ الله تعالى الخليفة بما يفعل السفهاء ما ترك على ظهرها من دابة {ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة}[٣٦٢]. وبما أنّ الله تعالى ترك الخليفة على أمر الإرادة فيما يتعلق به من شؤون، وأجَّل أفعال العقاب لمعظم الأفعال إلى اليوم الآخر، إذن يريد الله عز وجل أن يسود التسامح صفة بين المستخلفين، وبما أنَّ الأمر كذلك فلماذا لا يسود التسامح بين الناس فيما لا أمر قاطعا للقصاص؟.

وهكذا يُغرس التسامح بيننا قيمة، ويغفر بعضنا لبعض الخطايا اقتداء بمن استخلفنا على الأرض {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما}[٣٦٣] وبما أنّ الله غفور رحيم إذن بطبيعة الحال يجب أن يكون للخليفة صفتين من صفتي الغفور الرحيم. وإلا كيف يكون خليفة ولا يقتدي بمن استخلفه في الأرض.

والرحيم اسم لله تعالى، ولأن اسمه الرحيم، ومن صفته الرحمة، إذن لا يمكن أن يَقنُط فاعل خير أو مؤمن من رحمته. {هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأي آلاء ربكما تكذبان}[٣٦٤]. ولهذا التمسك بالأفعال الحسان هو الدليل على ممارسة الخليفة لدوره الطبيعي، أما الذين لم يَقدِموا على أداء الأفعال الحسان فهم المنحرفون عن نهج الخليفة على الأرض. ولذا أحسِن يُحسَن إليك، {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٣٦٥] التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية والعمل بها له جزاء حسنُ من قِبل الذين يُقدّم لهم كلما قدَّروه، ومن ورائه جزاء أعظم من الرحمن الرحيم، وفي مقابل ذلك إنزال الضرر بمن لا يعمل صالحا،

---

[٣٦١] فصلت ٤٦.

[٣٦٢] فاطر ٤٥.

[٣٦٣] النساء ١١٠.

[٣٦٤] الرحمن ٦٠ ، ٦١.

[٣٦٥] فصلت ٤٦.

وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متى وقع بين أيدي الناس الذين وقع عليهم منه ضرا يستوجب عقابا أو قصاصا عاجلا، والضر الأكبر يلاحق الضر الأصغر حتى يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجب ما قبلها.

وبما أن الله هو الرحمن الرحيم، إذن الرحمة آتية لا محالة. وبما أنها آتية لا محالة لكل من يتقدم لها، إذن فلماذا القنوط؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها؟. وعليه فمن يريد أن يَعُمَّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان، الإيمان بأنه المستخلف بصفات كرام فلا يسيء إليها حتى لا يسيء لنفسه وللآخرين. وعندما يكون كذلك تكون الرحمة من نصيبه، ولهذا فهي ضمان لكل مؤمن، وأمل لكل إنسان ضامر لفعل الخير.

يقول الله تعالى: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثمّ تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم}[٣٦٦] كلمتي غفور ورحيم تدل على أنه الفاعل لذلك على أرض الواقع والقادر في أي حين على فعل المغفرة والرحمة، ولهذا جاءت كلمة الرحيم مستمرة بأفعالها التي هي شواهد دالة على إظهار الحقيقة كما هي سواء كانت ذات أثرٍ سالبٍ أو أثرٍ موجبٍ. وقصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام دليل شاهد على تجسد الرحمة في الأفعال {قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا

---

[٣٦٦] . الأنعام ٥٤.

كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[٣٦٧] ولننظر لرحمة الله على أفعال السيد الخضر عليه الصلاة والسلام حتى كان بأفعاله رحيما بما هو أتي:

١ . خرق السفينة رحمة: من أجل المساكين الذين يعملون في البحر، ولو لم يعيبها الرجل الصالح الأكثر علما من سيدنا موسى عليهما الصلاة والسلام لكانت تحت حوزة الملك (قاطع الطريق برجاله المأجورين) ليأخذ كل شيءٍ غصباً.

إذن الرحمة جاءت مرتين:

أ . خرق السفينة رحمة حتى لا تفلت من أيدي المساكين العاملين في البحر وهي مصدر معيشتهم. وبمقارنة خرقها بتلفها نهائيا يكون الخرق رحمة وذلك لأنها أصبحت قابلة للإصلاح وليست قابلة للتلف.

ب . إقدام الرجل الصالح على فعل الخرق إقدام رحمة. فلولاه ما سَلِمت من الوقوع في أيدي رجال الملك ولأخذت إلى يوم يبعثون من المساكين العاملين في البحر الذين هم يقتاتون على ما يجنونه على ظهرها.

٢ . قتل الغلام رحمة: من أجل الأبوين المؤمنين حتى لا يرهقهما طغيانا وكفراً فكانت الرحمة عليهما بالتخلص ممن لو بقي حيّاً لكان سبباً في إرهاقهما طغياناً وكفراً وجاء البديل خير على الوالدين، ولدُ صالحُ، خير زكاة وأقرب رُحمة.

من هذا الأمر جاءت الرحمة مرتين:

أ . قتل الغلام في ذاته رحمة على الأبوين، باعتباره تخلص من أسباب تؤدي إلى الطغيان والكفر.

ب . الولد الصالح جاء بديلاً للولد الطالح وهذه رحمة من رحمن رحيم.

---

[٣٦٧] . الكهف من ٧٠ إلى ١٨٢.

٣ . بناء الجدار رحمة: من أجل الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح الذي ترك لهما كنزُ تحت الجدار حتى إذا بلغا أشدهما (بلغ سن حُسن التصرف) استخرجا كنزهما رحمة لهما من رحمن رحيم.

يستقرأ من وراء بناء الجدار:

أ . فعل حفظ الكنز كان رحمة وذلك حتى لا يضيع في غير محله.

ب . استخراج الكنز من قِبل الغلامين اليتيمين بعد أن يبلغا أشدهما كان رحمة لهما ورحمة عليهما.

ج . أن الأمر الذي جعل الوالد صالحا هو الذي بأسبابه كانت الرحمة متصلة مع أبنائه.

وعليه: يمكن استنباط الآتي مما قص علينا في قصة سيدنا موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام من الآيات السابقة الذكر:

١ . الاعتماد على الصبر في استقراء الأمور ومعالجتها كلما ألمت بالإنسان {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل}[٣٦٨]. ولأن الله وحده هو الذي يصطفي الرسل والأنبياء من عباده ليجعلهم قدوة ومثالا للخليفة الذي يود له أن يكون في الأرض، لذا كانت الرحمة حيث قصّ الله علينا من قصص أُولي العزم حتى يقتدي بأقوالهم وأفعالهم كل من يريد أن يكون خليفة لله على الأرض. وهذا لا يعني أن يكونوا بالتمام مثل الرسل والأنبياء، فالرسل والأنبياء الذين لا يمكن أن يكون غيرهم مثلهم، بل أن غيرهم بإمكانه أن يقتدي بهم قولا وفعلا وسلوكا، وهذه رحمة من الله تعالى على الخليفة.

فكلمة الخليفة لا تعني أن يحل المستخلف محل من أسخلفه، بل تعني أن يقوم بما يأمر أو يرغب أو يُفضل القيام به. ولهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحل بني الإنسان محل الله تعالى في هذا الأمر استغفر الله رب العالمين. فالبشر حتى وإن اجتمعوا لن يخلقوا ذبابا {إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له}[٣٦٩]. والعلاقة الاستخلافية بين الرسل

---

[٣٦٨] . الأحقاف ٣٥.

[٣٦٩] . الحج ٧٣.

والأنبياء وبين من بُعثوا لهم هي علاقة سلف وخلف، وعلاقة قدوة حسنة، ولهذا لا يمكن أن يكون الخلف نسخة طبق الأصل من السلف (نتيجة للفروق الفردية) ولذا قال تعالى: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة} إذن لو كان الخلف نسخة من سلف لكان المؤمنون نسخة من الرسل وهذا الأمر ليس هينا، إلا على الصالحين. ما جعل الخلف المشار إليهم في الآية السابقة هم الذين أضاعوا الصلاة بدل أن يستمروا بها ويحافظوا عليها كما هي عليه عند السلف الصالح.

٢ . الرحمة الكبرى على الغلامين (أصحاب الكنز) أن رحمة ربي كانت عليهما مباشرة وذلك لأن الله تعالى هو الذي أراد أن يبلغ الغلامين أشدهما ولم يكن السيد الخضر الذي يود ذلك {فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك}. هذه المشيئة هي الرحمة من الله الرحمن الرحيم، فسبح باسم ربك العظيم (سبحان الله العظم).

علاقة قوية تربط قيمة الرحمة بأفعال الإحسان، ولا تقصرها على دينٍ أو جنسٍ معينٍ، بل تربط ذلك بمن يقوم بأفعال الإحسان. فعل رحمة من الخليفة يُعد إحسانا يلاقيه فعل الإحسان من الرحمن الرحيم، فقد جاء عند الترمذي من حديث ابن مسعود حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله). أفعال الإحسان قد تنال الرضاء من البشر، ولكنها لا تنال الجزاء منهم، فالجزاء بالنسبة لأفعالها لم يكن في الحياة الدنيا، ففي الحياة الدنيا يمكن أن يتم نيل الاعتراف والتقدير على ما يتم تقديمه من أفعال حسان، ولكن الأجر الكبير والأوفر سيتم نيله من الرحمن الرحيم، وهذه هيّ الرحمة فالحمد لله ربِّ العالمين، {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[٣٧٠] يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى: "الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان، الذي إذا أحسن قربت منه الرحمة"[٣٧١] ولذلك كلما اقترب الإحسان من

[٣٧٠] . الأعراف ٥٦.

[٣٧١] تفسير الشعراوي المجلد السابع ٤١٨٠.

الرحمة اقتربت الرحمة من المُحسن. والمُحسن هو المُقدِم على ممارسة وأداء أفعال الخير (الإحسان).

يقول ابن القيم رحمه الله: "هناك ثلاثة دلالات من قوله تعالى: {إنَّ رحمة الله قريب من المحسنين}.

الدلالة الأولى: دلالة بمنطوقه، عن قرب الرحمة من أهل الإحسان.

الدلالة الثانية دلالة بتعليله وإيمائه، على أنّ هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم.

والدلالة الثالثة: دلالة بمفهومه، على بُعد الرحمة من غير المحسنين.

الرحيم دائما قوي في مقابل ضعيف، وهو الذي يمتلك القوة التي بها يشتد الكرب على المكروب أو بها يُفرج عنه، {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣٧٢] نلحظ من هذه الآية الكريمة وجود خائف ومخيف، والخائف في حاجة ماسة لرحمة من مخيفه، ولأن مصدر القوة في هذه الآية هو الله فكان بالخائفين منه رءوف رحيم، وذلك لاعترافهم بقوته وإعلانهم عن مخافته بعد معرفتهم بما ألم من عقاب بالذين سبقوهم بالمعصية، ولهذا ترتب على الخوف تأجيل العقوبة وإتاحة الفرصة للإنسان ليتذكر ويُفكر حتى يأتيه اليقين رأفة به ورحمة.

قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٣٧٣] عندما يكون المسلمون هم الغالبون (المنتصرون) فإن جنح عدوهم للسلم (إن مال إليهم بسلم) فلا عيب أن يميلوا هم معه إلى كل ما من شأنه أن ينهي الحرب بينهم. وبطبيعة الحال لا يجنح للسلم إلا مغلوب بالقوة، فعندما تشتعل نار الحرب يميل الضعيف إلى عقد المصالحات أو

---

[٣٧٢] . النحل ٤٥ .٤٧.

[٣٧٣] الأنفال ٦١.

المعاهدات مع عدوه الأقوى. ولهذا نلحظ أن زمن المفاوضات بين الأقوياء يطول، وبين الضعفاء يقصر، وبين القوي والضعيف يكون بين أمرين:

الأمر الأول: أن القوي يعمل على عدم إطالة زمن التفاوض، بما أنه منتصر والفرصة مناسبة لإملاء شروطه.

والأمر الثاني: أنّ الضعيف يعمل على إطالة زمن التفاوض لأجل أن يغتنم الوقت ويعد العدة من جديد.

وعليه من يريد أن يكون الخليفة عليه أن يستمد صفة الرحمة من الرحمن ويستمد فعلها من الرحيم الذي أوجب الجنوح للسلم كلما مال الخصم أو العدو إلى إبرام صلح أو عقد مسالمة. أما الاستكبار فلا يؤدي بصاحبه إلا للهلاك، {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}[٣٧٤] الله جل جلاله هو القوة بذاته فمن يحاول أن يستكبر على القوة فلا بد أن يُهزم، ولو لم يكن رحيم لكان العقاب في حينه على كل فعل، ولأنه كذلك يؤجل العقاب عن معظم الذنوب حتى يكون للإنسان الزمن والفرص الكافية للتبيُّن من أجل التكفير عن السيئات.

جاء اسم الرحمن مصدر لكل رحمة، وجاء اسم الرحيم قائم بأفعال الرحمة، ولهذا فمن اسم الرحيم يستمد فعل الرحمة، {فانظر إلى أثار رحمت الله}[٣٧٥] يتضح من هذه الآية الكريمة، إنّ للرحمة أثر، والأثر لا يمكن أن يكون إلا بفعل من تركه، فلو لم يكن هناك فاعل ما كان هناك أثر قابل للتقصي والمعرفة. فإذا نظرنا للرياح والسحب، نتوقع سقوط المطر، وإذا سقط المطر، انبت عشبا، ما يجعل كل من الرياح والسحب والمطر ونبات العشب أثار من رحمة رحيم. وإلا هل هناك غيره قادر على القيام بهذه الأفعال نيابة عنه!. {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ

---

[٣٧٤] . فصلت ١٥.

[٣٧٥] . الروم ٥٠.

بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٣٧٦] من الآية السابقة عرفنا إنَّ البلد الميت أثر، وسقوط المطر عليها أثر، والنبات المثمر أثر، وهذه الآثار جميعها تشاهد من قبل كل ذي بصر، ولكن الأثر الأعظم هو الذي يلحظ ويدرك ولا تراه الأبصار إنه (أحياء موت البلد) الذي يتماثل مع أفعال الرحيم في إحياء الموتى. ولذا فبالملاحظة ندرك ونقارن بين الظروف التي كان عليها البلد ميتا وبين الظروف التي غيرته إلى حياة. وعليه لو لم يكن إمكانية إحياء الموتى حقيقة، ما آمن المؤمنون بيوم البعث الذي لا يمكن أن يكون إلا بقوة إحياء الموتى.

إذن كل رحيم قادر على أن يقوم بأفعال الرحمة مباشرة وبدون إنابة، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرحيم خالية من الرحمة، ولهذا كل أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة. وبما أن الأمر كذلك إذن بطبيعة الحال تكون الرحمة صفة للرحيم. وبما أنّ الرحمة صفة، إذن الاتصاف بها ممكنا، وبما أنه ممكن فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة بها وخليفة عليه.

ولارتباط الرحمة بالرحيم، نلحظ أينما وُجِدَ رحيم وجدت الرحمة، وأينما غاب رحيم غابت الرحمة. ولأن الله هو الرحمن الرحيم فإن رحمته لن تنقطع، ولهذا فالعذاب يخص والرحمة تعم {قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء}[٣٧٧]. ولأن العذاب عام والرحمة خاصة، جاءت قضايا العذاب جامعة مانعة، جامعة للذين يحق عليهم العذاب، وتستثني الذين يقومون بأفعال الرحمة. أمّا قضايا الرحمة فهي قضايا جامعة لا مانعة، جامعة لكل من هم يقومون بأفعال الرحمة (أفعال الخير) ومستوعبة لكل من يُكفِّر عن سيئاته متى ما يشاء.

وعليه لكل من العذاب والرحمة أفعال مترتبة على أفعال، ولكل من العذاب والرحمة فاعل، ولذلك لا يمكن أن يكون العذاب أو الرحمة إلا بفاعل. ولهذا فإن فاعل الرحمة هو الرحيم

---

[٣٧٦] الأعراف ٥٧.

[٣٧٧] . الأعراف ١٥٦.

الذي تتصف أفعاله بها، وفاعل العذاب هو المنتقم الذي تتصف أفعاله بها، وفي هذا وذاك فإن الله واحد هو الرحمن الرحيم وهو المنتقم من الذين يجرمون ما يجعل انتقامه منهم رحمة على المؤمنين {فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين}[٣٧٨].

وقد يتساءل البعض: كيف تترتب الأفعال على الأفعال؟.

على سبيل المثال: لو لم يقترف المنحرف جريمة ما صدر بشأنه فعل عقابي، ولذا فالعقاب فعل مترتب على الفعل ألانحرافي. ولو لم يكن يونس عليه الصلاة والسلام من المسبحين للبث في بطن الحوت إلى يوم يُبعثون، وهكذا دائما تترتب الأفعال تحت ظروف السبب والمسبب، والعلة والمعلول.

الرحمة قيمة علائقية، بها تلين القلوب وتقترب من بعضها بعضا من أجل ما يُفيد وينفع ذوي العلاقة سواء كانوا أفراد أسرة أو عشيرة أو رفاق عمل أو جيرة أو أصحاب مصلحة أو مواطنو دولة. فبدون الرحمة لا يمكن أن تتكون العلاقات بين الناس، وإذا انقطعت الرحمة انقطعت العلاقات وإذا سادت بينهم سادت العلاقات. فعلى مستوى الأسرة لا يمكن أن يحدث التفكك والرحمة سائدة بين الوالدين والأبناء وبين الأخوة جميعا، ما يجعل الرحمة شرطاً رئيساً للُّحمة والوحدة وتبادل المحبة بين الناس.

حُب الخالق لعباده رحمة، وحب العباد لخالقهم رحمة. هذا الأمر هو الذي يجعل من الرحمة بين الناس مركز لكفتي ميزان، التي لا تتمركز وتعتدل إلا بالمساواة بين الكفتين.

وعليه، إن الرحمن هو مصدر الرحمة، وأن الرحمة هي المسبب في تكوين العلاقات وقوة روابطها، وأن الرحيم هو الذي به تتم أفعال الرحمة. ولهذا جاء قوله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}[٣٧٩] بطبيعة الحال لو لم يكن الله واحداً ما كان رحمن ورحيم، وما كانت هناك رحمة، ولهذا وحدانية الله تعالى هي الرحمة الكبرى، فالحمد لله ربِّ العالمين.

وقد يتساءل البعض: لماذا الرحمة؟.

---

[٣٧٨] . الروم ٤٧.

[٣٧٩] . البقرة ١٦٣.

الرحمة ليست حاجة كما يظن البعض، بل الرحمة مشبع حاجة، ولو لم تكن مشبعة للحاجة ما كنّا جميعا نسعى لنيلها. الحاجة هي الراحة والسكينة والطمأنة، وبما أن هذه حاجات، إذن هناك أسباب تكمن ورائها، والسبب الرئيس وراء هذه الحاجات هو الألم، الذي كلما ألمّ بالإنسان كان في حاجة للراحة والسكينة، وهذه لا يمكن أن تتحقق بدون رحمة ولهذا فالرحمة جاءت لإشباع الحاجة. ولأن الإنسان خُلق ضعيفا فهو مخلوق ليسعى حتى يتمكن من الإشباع الذي يمده بالقوة، وإلا سيظل دائما في حاجة، {يُريد الله أن يُخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا}[٣٨٠] التخفيف دائما للأعباء والآلام عن من لا يستطيع وذلك لمحدودية مقدرته ودرجة تحمُّله.

وبما أنَّ الإنسان خُلق ضعيفا، إذن لا يمكن أن يكون خليفة الله تعالى، فالله تعالى القوي المتعال لا يخلفه أحد، ولهذا كان المستخلف منه في الأرض وليس الخالف له فيها أو عليها. فالله عزَّ وجل يؤلِم ولا يتألم، ويرحم ولا يُرحم، ويقدر ولا يقدر عليه، ولذا لا يخلفه أحد، ولكن بقوته جعل الخلائف من بعده قوة مستخلفة في الأرض، والخليفة لا يكون في حالة ضعف إلا إذا تأملنا في قوة الخالق المطلق جل جلاله فلا مجال للمقارنة، ويكون الإنسان ضعيفا إذا ما غلبت عليه الشهوة في غير محلها، ولهذا فهو في حاجة لأن يُرحم. ولذلك يقول تعالى: {ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما}[٣٨١] الألم واحد وكل من يحس يتألم، سواء بأثر لفظي (كلمة إهانة) أو بأثر مادي (ضربة) وسواء كان مؤمنا أو كافرا فالألم هو الألم لا فرق فيه. الفرق فيما يترتب عليه، فالمؤمنون في الآية السابقة يرجون ثواب (رحمة) من الله، وهذا ما لا يرجونه الكافرون. وما يماثل هذه الآية قوله تعالى: {إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله}[٣٨٢] يقال أنها جاءت لتبيان المعنى الدال على ما أصاب المسلمين يوم أحد من جراح وآلام، وهو بالتمام ما أصاب الكفرة يوم بدر، وتلك الأيام نداولها بين الناس، فعلى المؤمنين أن يقبلوا بيوم لنا ويوم

---

[٣٨٠] . النساء ٢٨.

[٣٨١] . النساء ١٠٤.

[٣٨٢] . آل عمران ١٤٠.

علينا إلى أن يتحقق لهم النصر بإذن الله فلا يقنطوا من رحمة الله فهي آتية لا محالة {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون} وقال تعالى: {وإن تُصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون}[٣٨٣].

إذن الرحمة أمل ينبغي أن يسعى الخليفة إلى بلوغه. ولا ينبغي له أن ييئس، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرحمة ومن هو في حاجة إليها وبين الرحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضات من استخلفه في الأرض.

الرحمة والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير والاستجابة، فلولا الأمل ما تحققت الرحمة، ولولا الرحمة ما تحقق الأمل. وعليه الرحمة في ذاتها مُعطية بلا فعل، والأمل في ذاته أيضا معطية بدون فعل، ولهذا كان وراء كل رحمة رحيم ووراء كل أمل مرحوم.

بناء على ما تقدم فإن أثر الألم يقع في دائرة الممكن (السالب والموجب) في ساعة الإنجاب يكون الألم سيدا فيها، ومع أنه ألم إلا أنه المنتظر بفارغ الصبر، حيث من بعده ولادة، التي بها تكون الفرحة وتنتشر بين ذوي العلاقات، وكذلك يوم الختان فرحة في ساعة ألم، وهكذا يكون الزواج فرحة في ساعة ألم. وفي مقابل ذلك يكون الموت راحة من ألم (شفاء دائم من داء) وحتى إن أزداد الألم في يومه ليحسبه البعض ساعة ألم في يوم حُزن، يكون البعث من بعده فرحة في يوم الفرحة. ولذا {من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون}[٣٨٤]. وبمراجعة ما سبق نُلحظ أن كل شيء رحمة فالحمد لله الرحمن الرحيم.

وهكذا تكون العلاقة بين المرض والمصاب به، ألم يجعله في حاجة للشفاء، الذي لا يمكن أن يكون بدون علاج المرض، وسيظل الألم إلى أن تزال أسبابه، ما يجعل المريض في حاجة لمقابلة الطبيب المتخصص حتى يكتشف الأسباب والعلل ويصف الدواء المقاوم للأسباب والعلل، وسيظل الألم إلى أن تزول الأسباب، وقد يتبين للطبيب أن المريض في

---

[٣٨٣] . الروم ٣٦.

[٣٨٤] . الروم ٤٤.

حاجة ماسة لإجراء عملية جراحية، التي عندما يعرف المريض أن من بعدها سيشفى فيأذن بالإقدام عليها مع معرفته التامة بما يترتب عليها من ألم قد يضاف إلى آلامه السابقة، ما يجعل إجراء العملية ساعة ألم في يوم فرحة نجاحها.

وفي مقابل ذلك فرحة الظالمين بفوزهم على المظلومين هو يوم فرحة في يوم ألم. فاليوم الذي يفرح فيه الفائز ظلما يتألم فيه المظلوم مهزوما، إلا أن المترتب على الفعلين سيكون معكوسهما بالتمام في اليوم الذي لا ينقطع (اليوم الآخر) فالظالم سيظل في يوم ألم (العقاب) والمظلوم سيظل في يوم فرحة (الإثابة) أمام عدالة الرحمن الرحيم مصداقا لقوله تعالى: {ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد}[٣٨٥].

وعند ما يجد الإنسان نفسه إراديا بين اختياري فرحة وألم، فقد يقبل بتقديم ساعة الألم على ساعة الفرحة، فالفتاة في عُرسها تجد نفسها بين أن تفارق أسرتها مؤقتا وبين أن تتزوج، فهي بطبيعة الحال ستُقَدِم يوم الألم (يوم الانفصال النسبي) الذي قد يحس به الوالدين والأخوة أو قد يحس به البعض منهم مثلما هي تحس بألم الرحيل عنهم، لتعيش أيام فرحة من بعده. وهكذا بعد الزواج إن كان فاشلا سيظل ألم إلى أن تأتي ساعة الفراق التي هي ألم لعلاج مشكلة. هذا الألم يتماثل من حيث تقريب المعنى من ألم إجراء العملية الجراحية للمريض التي من بعدها تأتي أيام الفرج فرحة.

تتعدد أفعال الرحمة بتعدد ما يُقدّم من أعمال حِسان، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[٣٨٦] فلننظر إلى هذه الآية الكريمة والكيفية التي تتعدد الرحمة فيها:

آلا تُعد صلاة الله على الخليفة رحمة.

آلا تُعد صلاة الملائكة على الخليفة رحمة.

آلا يُعد الإخراج من النار رحمة.

---

[٣٨٥] . آل عمران ١٨٢.

[٣٨٦] أ الأحزاب ٤٣.

آلا يُعد دخول النور رحمة.

آلا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة.

آلا يُعد وجود الرحمة في ذاته رحمة.

آلا يُعد اسم الرحيم الفاعل للرحمة رحمة.

بناء على هذه المعطيات خُلق الإنسان ضعيفا، ولأن الأمر كذلك فهو في حاجة لقوي وبيده الرحمة وقادر على فعلها متى ما تعلق الضعيف به وجده رحمن رحيم كريم عفو فله الحمد والشكر.

ولأن رحمة الله واسعة فهي لم تقتصر على فئة دون فئة، بل أبوابها مُفتَّحة لكل من يريد ألدخول فيها، {لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعا}[٣٨٧] فلننظر إلى هذه الآية حتى نستبين، آلا تُعد رحمة الله قد جاءت مطلقة دون أي استثناء، ومطلقة لأن تغفر الذنوب جميعا. آلا تُعد هذه الآية جامعة لكل الرحمة، وفاتحة أبوابها لكل الناس. ولأن رحمة الله واسعة لتعم الناس قال تعالى: {إن الأرض يورثها من يشاء من عباده}[٣٨٨] ويقول {الله يبسط الرزق لِمن يشاء من عباده ويقدر له}[٣٨٩]. بهذه الآيات يتم التأكيد على أن الرحمة عامة، وقضاياها جامعة لا مانعة. أمّا أنّ الله بالمؤمنين رءوف رحيم فهذه تدل على التخصيص باعتبار أن الرحمة سبقت إلى البعض الذي آمن وبالتالي كانت المترتبة على الأفعال الإيمانية مصداقا لقوله: {وكان بالمؤمنين رحيما}[٣٩٠].

الرحيم هو الله دائم الرحمة، في الدنيا والآخرة، فهو رحيم على كل من يؤمن به ولا يشرك، فالرسالات السماوية نزلت من الرحمن الرحيم على الرسل رحمة للعباد. وإنَّ نجاة نوح عليه الصلاة والسلام ومن كان معه من قومه في الفلك المشحون كانت رحمة عليهم {قال ربِّ إنّ قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في

---

[٣٨٧] الزمر ٥٣.

[٣٨٨] الأعراف ١٢٨.

[٣٨٩] . العنكبوت ٦٣.

[٣٩٠] . الأحزاب ٤٣.

الفُلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[391]. وكذلك كانت نجاة يونس عليه الصلاة والسلام رحمة {فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون}[392] وكانت نجاة لوط عليه الصلاة والسلام رحمة من رحيم {إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وإنّ لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين}[393].

الرحيم هو الذي بعزته تصبح الأقوال والأفعال آيات شواهد دالة على المقدرة في الدارين، ولذا فالرحيم هو دائم الوجود، والعطاء، والرحيم بمد الياء كما سبق أن بيّنا تحمل في مضمونها مدلولات البقاء والاستمرارية المتصلة، ولأنه رحيم جعل في الأرض خليفة، على حالة تعاقب واستمرارية من الخلائف في الحياة الدنيا. ولهذا فإن الله هو الرحيم، والخلائف هم الرحماء فيما بينهم. ومع أنهم رُحماء إلا أن الله هو أرحم الراحمين {وقل ربي أغفر وأرحم وأنت خير الراحمين}[394] وكذلك قوله {فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين}[395].

الرحمة قيمة مترتبة على فعل سابق، {عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسِعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل}[396]العذاب فعل مترتب على أفعال سابقة وإلا هل هناك من يُعذَّب دون أن يرتكب الخطايا!. وفي مقابل ذلك هل هناك من يجازى (يُرحم) إن لم يقم بالأفعال الحسان!. ولهذا كتبت الرحمة لتبقى وكتب العذاب ليزال بالتصحيح والتكفير.

---

[391] . الشعراء ١١٧ . ١٢٢.

[392] . الصافات ١٤٤.

[393] الصافات ١٣١ . ١٣٥.

[394] . المؤمنون ١١٨.

[395] يوسف ٦٤.

[396] . الأعراف ١٥٦،١٥٧.

والعلاقة القوية هي التي تربط بين ارتكاب الفعل والتكفير عنه، {من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم}[٣٩٧]في هذه الآية نلحظ الأفعال تترتب على الأفعال كما تترتب العلل والأسباب التي تظهرها. ما جعل الفعل السوء يترتب على مغريات سلبية وسابقة عليه، ومع أنها لم تُذكر في هذه الآية إلا أنها تستنبط منها، ولأنها أسباب وعلل سيئة ترتب عليها فعل سوء. ولأنه فعل سوء جاءت التوبة فعل مترتب عليه، ومع أن التوبة فعل موجب إلا أنها لا تأتي إلا من بعد فعل سالب وهذا دليل الرحمة الواسعة، ولهذا لو لم يكن الفعل السوء سابق ما جاءت الرحمة لاحقة لتصحيحه وإصلاحه، ولذلك جاء فعل الإصلاح مترتبا على فعل التوبة، المتضمنة في واسع رحمته، التي رتبت فعل المغفرة على فعل الإصلاح.

ومع أن المغفرة دائمة بديمومة الرحمة، إلا أنها لا تتحقق إلا بإرادة، إرادة من يرغبها، مصداقا لقوله تعالى: {ومن يعص الله ورسوله ويتعدَّ حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين}[٣٩٨] معصية الله تعالى فعل سالب، ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم فعل سالب مترتب على معصية الله، وكذلك تعدّي الحدود فعل سالب مترتب على فعل سالب، إدخال المتعدي بالأفعال السالبة إلى النار جاء فعل موجب. ولذا في هذه الآية ترتب الفعل الموجب على ثلاثة أفعال سالبة، وهذه رحمة. وعليه ليس دائما العقاب سالباً، فالعقاب في أساسه لاستهداف أو تحقيق موجب، ولذلك كان الفعل الموجب بالنسبة لمن هم في رحمة الله أنّ المتعدي حدود الله يجب أن يدخل النار، أمّا الفعل السالب بالنسبة لهم أن المتعدي لحدود الله يدخل معهم الجنة، ولهذا قلنا إنَّ دخول المتعدين حدود الله إلى النار فعل موجب مترتب على أفعال سالبة.

جاء اسم الرحيم فاعل للرحمة المستمدة من اسم الرحمن، ولهذا فإن الرحمة كنز من الخير الوافر، فمن أراد أن يخرج من الكنز ما يشاء فليفعل متى ما يشاء وكيفما يشاء، ومن لم يرد،

---

[٣٩٧] . الأنعام ٥٤.

[٣٩٨] . النساء ١٤.

فلا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي، {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}[٣٩٩]. ولذا فمن يرد أن يكون الخليفة للرحيم فعليه بأفعال الخير الكثيرة، لا أن يكون مانعا لها، {مناعٍ للخير معتدٍ أثيم}[٤٠٠]هذا المعتدي لم تتوفر فيه اشتراطات الخليفة، ولأنه كذلك فهو المُخلف وليس المستخلف.

وبطبيعة الحال بما أن هناك رحيم، يكون هناك من هو في حاجة لأن يُرحم، وبما أنّ الإنسان خُلق ضعيفا من حيث غرائزه ومشاعره وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات، إذن هو في حاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته. ولهذا فالرحيم لا يمكن أن يكون ضعيفا، ولا يكون منَّاعا للخير معتدٍ أثيم.

وعليه فالرحيم قوي، ومن يُرد أن يكتسب هذه الخاصية ليصبح خليفة فعليه أن يتخلّص من أسباب الضعف والوهن، حتى يمتلك مقاليد الأمور التي تمكنه من أن يكون رحيما.

الرحيم لا يمكن أن يكون خصما، ولذا من يدخل في خصام مع الناس يفقد خاصية من خاصيات الاستخلاف في الأرض. ومع أن الله جعل في الأرض خليفة إلا أنَّ الخليفة مهما امتلك من معطيات الرحمة واتصف بأفعال الرحيم، فهو في ذاته محتاج لرحيم ليحفظه من كل سوء، ولهذا قال تعالى {فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين}[٤٠١].

الرحمة، إضافة خير على من يستحقه، ولذا زيادة الخيرات بين الناس رحمة، ومن يعمل على ذلك تتجسد صفة الرحيم في أفعاله وسلوكه. ومن لا يعمل على ذلك يُعد من الذين يفتقدون لخاصية من خاصيات الخليفة. ولذا فإن أفعال الخيرات الحِسان هي أفعال رحمة، وصفات من رحمن رحيم {أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون}[٤٠٢]. وقوله تعالى: {ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات}[٤٠٣]. من الآيتين السابقتين يتضح

---

٣٩٩ . فصلت ٤٦.

٤٠٠ أ القلم ١٢.

٤٠١ . يوسف ٦٤.

٤٠٢ المؤمنون ٦١.

٤٠٣ آل عمران ١١٤.

ازدياد الرحمة بالتسابق على أعمال الخيرات، والإسراع لأداء أفعالها الحِسان، وجاءت الخيرات مطلقة لتعم كل فعل من ورائه رحمة.

ولهذا يتضمن كل اسم من أسماء الله الحسنى، أرواح فاعلة، لإحداث الاستجابة، ولذلك كلما دعوت بقلب سليم اسم من أسمائه الحسنى جاءتك الاستجابة التي بها تتغير الأحوال من سالب لموجب، أو من سيءٍ لحسن، أو من حسن لأحسن منه فالحمد لله ربِّ العالمين.

الرحيم هو العطوف على كل من هو في حاجة لرحمته، مما جعل لكل طلب استجابة قابلة للاستدعاء عند الكرب وفي كل وجوب، وكذلك عند الضرورة {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة ألداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون} من يدع الله لا يخيب له رجاء، ومن يستجيب لله لا يضل طريق الصواب. لذا جاء خلق الخليفة ليعمر الأرض، وجاء الإيمان بالخالق فعل خير مترتب على فعل الخلق والاستخلاف في الأرض، مما يجعل الاستجابة في حالة مبادلة. فالاستجابة بالإيمان بالخالق ترتب عليها استجابة الخالق لعباده الداعين له {وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}[٤٠٤].

ومن رحمة الرحيم بخلقه أنه أحسن بلطفه كل شيء بدأه وأتقن صنع كل شيء أنشأه، ودبرت الأحكام بحكمته، وصرف المحكومات بمشيئته، فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته، وعمّ في العاجل والآجل خلقه بنعمه التي أسبغها على خلقه ظاهرة وباطنة، ونشر على مَن أحبّ منهم فضله، وبسط لجميعهم عدله، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه، سبحانه وتعالى، وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه، وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم، ومنَّ عليهم ببعثه رسولاً من أنفسهم إليهم يهديهم إلى سواء السبيل، وقد كانت دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام رحمة لذريته أن يبعث الله فيه رسولا حيث قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

[٤٠٤] الشورى ٢٦ ، ٢٧.

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٤٠٥] فقد دعا الله الرحيم أن يبعث في ذريته رسولا منهم يقرأ عليهم آيات ويعلّمهم ما يوحى إليه به من كتاب وعلم نافع وشريعة محكمة، ويطهرهم من ذميم الأخلاق، إنك أنت الرحيم بعبادك فيما تفعل وما تأمر به وما تنهى عنه، وما فعل ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما دعا به ربه إلا رحمة وشفقة وقد ثبت أنه استجيب له كما جاء في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام: "إني عند الله في أم الكتاب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرجت منها نور أضاءت له قصور الشام"[٤٠٦] فهو رحمة مهداة من الرحيم يدعو إلى سبيل ربه وهو سبيل الخير والصلاح والرحمة بما أوتي من الحكمة ما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقة والأحكام والموعظة الحسنة التي تهدي إلى الصراط المستقيم، فكل كلمة فيها عظة للإنسان أو تدعوه إلى مكرمة أو تنهاه عن قبيح فهي رحمة له ورحمة به، والتزكية بحسب قوتهم العملية هي تطهيرهم من دنس الشرك وأنواع المعاصي، وهذا رأفة وشفقة من الرحيم على عباده في إجابة الدعاء من أجل رحمتهم وتراحمهم.

فان الله المقدس في ذاته، المنزه عن سمات النقص في صفاته، لم يخلق الخلق عبثا ولم يتركهم هملا، حيث أنزل لهم الرحمة التي يرحمهم بها ويتراحمون فيما بينهم بها، فقد أودع في كل مخلوقاته من بديع صنعه ولطيف آياته ومن الحكم والعبر والرأفة والشفقة والعطف ما لا يدع مجالا لأن يشك عاقل في رحمة الرحيم، بما وهب الخلق من هذه المشاعر وأثاب من يفعلها ويعمل بها. لقد غرس الرحيم رحمته في قلوب خلقه وهذا معنى أنه أنزل عليهم رحمته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة".[٤٠٧]

---

[٤٠٥]- البقرة ١٢٩

[٤٠٦] مسند الشاميين للطبراني، ج ٥، ص ١١

[٤٠٧] صحيح مسلم ، ج ١٣، ص ٣١١

فهذه الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون ويرحم بعضهم بعضا ،ويكون بينهم العفو والمغفرة فيما بدر من أحدهم للآخر، وكذلك يستعمل الله هذه الرحمة فيهم فيرحمهم بها سوى رحمته التي وسعت كل شيء وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفا بها، فهي التي يرحمهم بها زائدا على الرحمة التي خلقها لهم، ومن رحمته أيضا أن الله سبحانه وتعالى لأنه رحيم خصص ملائكة للاستغفار لمن في الأرض حيث قال تعالى: {كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٤٠٨] إن السموات مع عظمهن وتماسكهن يكدن أن يتشققن من فوقهن، خشية من الله ورهبة وخوفا، وتأثرا بعظمته وجلاله، والملائكة ينزهون الله عما لا يليق به، مثنين عليه بما هو أهله، ومع هذه العظمة وهذا الجلال المهيب، فإن الله تعالى لأنه رحيم بالعباد فقد أوعز إلى الملائكة بأن يسألوا الله المغفرة والرحمة لأهل الأرض علما منه أن كثيرا من أهل الأرض لا يستغفرون،فأذن للملائكة أن تستغفر لهم حتى لا يهلك الصالحون، وكذلك يرحمهم بأن يرزقهم جنته وقربه ووصاله، وبرحمته يأمر الملائكة بالاستغفار لبني آدم مع كثرة عصيانهم، وللكافرين الذين يرتكبون الشرك والذنوب العظام بأن لا يقطع رزقهم ولا صحتهم ويمتعهم من الدنيا وإن كان يريد أن يعذبهم فى الآخرة، فهو وحده صاحب المغفرة الشاملة والرحمة الواسعة. وهذه الرحمات التي أمسكها عنده، جعل ملائكته مستغفرين لمن في الأرض، لأن استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض بما فطرهم الرحيم عليه.فالله سبحانه وتعالى هو الرحيم المطلق بما رحم به جميع خلقه دون استثناء في الحياة الدنيا،من مؤمن وفاجر، ومسلم وكافر،وأما في الآخرة فأمرهم إلى الله الرحيم،يحكم بينهم ويحاسب كل واحد على عمله، ولذلك فقد جعل الرحمة في قلوب عباده المؤمنين، وجعلهم خلفاء يرحمون ويأمرون الناس بالتراحم، فالخليفة الذي أراده الرحيم لإعمار أرضه هو رحيم بالإضافة، يرحم نفسه من أن يودي بها إلى

---

[٤٠٨] الشورى ٣- ٥

التهلكة، ويرحم الآخرين ويأمرهم بالرحمة، فقد جاء في الحديث:"أرسلت ابنة النبي صلى الله عليه وسلم إليه إن ابنا لي قبض فأتنا فأرسل يقرئ السلام ويقول إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد يا رسول الله ما هذا فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء"[٤٠٩] أن رحمة الله تختص بمن اتصف بالرحمة ويدخل في ذلك من فيه أدنى رحمة، والراحمون يرحمهم الرحيم، لذلك وجب على الخليفة أن يكون رحيما ويتحلى بصفات الرحيم ليكون رحيما بالإضافة، فيفعل ذلك ويحمل الناس على التراحم، ذلك أن الله سبحانه وتعالى على الرغم من الحدود والشرائع والنواهي والمحرمات التي وضعها للناس،فهو يتجاوز عنهم بالرحمة والمغفرة، لأنه رحيم وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤١٠] فمن رحمته أنه أباح للناس كل حلال خلقه لهم في الأرض، ونهاهم من أن يتبعوا خطوات الشيطان، فإنْ فعلوا ذلك اهتدوا ورحموا،وإن أبوا فإنه خص المؤمنين بهدايته وبيِّن لهم الحلال والحرام، فقد أبيح لكم أن تأكلوا من لذيذ الطعام الطيب وهذا من الرحمة، وكذلك تحريم الخبيث من الرحمة أيضا، فاشكروا الله على ما أولاكم من نعمة التمكين من الطيبات وإباحتها،ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره لتتم عبادتكم له حتى يتم رحمته لكم. وإنما المحرم عليكم الميتة التي لم تذبح من الحيوان، ومن الدم المسفوح، ومثله فى التحريم لحم الخنزير، وما ذكر على ذبحه اسم غير الله من الوثن ونحوه، على أن من اضطر إلى تناول شيء من هذه المحظورات لجوعٍ لا يجد ما يدفعه غيرها أو لإكراه على

[٤٠٩] صحيح البخاري، ج ٥، ص ٣١

[٤١٠] البقرة ١٧٢- ١٧٣

أكلـه فـلا بـأس عليـه، وليتجنـب طلـب هـذه المحرمـات والرغبـة فيهـا، ولا يتجـاوز مـا يسـد الجوع.على أن من دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات غير طالب اللذة بالأكل، وغير متجاوز قدر الضرورة، فلا حرج عليه لأن الله تعالى هو أعلم بحاله وحال اضطراره، لذلك فهو غفور رحيم. ولأنـه رحيم فلا يؤاخذه على ذلك، لأنـه سبحانه وتعالى، غفور لعباده يغفر لهم ما يقعون فيه من أخطاء لا يصرون عليها،رحيم بهم حين منعهم مما يضرهم، وأباح لهم ما يحفظ حياتهم، ولا تقف رحمة الرحيم عند حدّ الإقدام على ما نـهى عنـه الله تعالى من الطعام والشراب،ولكنه تعالى يتجاوز عن كثير مما يرتكبه العباد بحقه تعالى ويرحمهم إذا أخلصوا النية في التوبة والرجوع إلى الله تعالى، فقد ذكر الله تعالى الذين تخلفوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك حيث قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٤١١] لقد تفضل الله سبحانه على نبيه، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، الذين خرجوا معه إلى الجهاد فى وقت الشدة فثبتهم وصانهم عن التخلف، من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم، حتى كادت قلوبهم تميل إلى التخلف عن الجهاد، ثم غفر اللَّه لهم هذا الهم الذي خطر بنفوسهم، إنه سبحانه كثير الرأفة بهم، عظيم الرحمة. وتفضل سبحانه بالعفو عن الرجال الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج فى غزوة تبوك – لا عن نفاق منهم – وكان أمرهم مرجأ إلى أن يبين اللَّه حكمه فيهم، فلما كانت توبتهم خالصة، وندمهم شديدا، حتى شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم على رحبها وسعتها، وضاقت عليهم نفوسهم هما وحزنا، وعلموا أنه لا ملجأ من غضب اللَّه إلا باستغفاره والرجوع إليه، حينئذ هداهم الله إلى التوبة، وعفا عنهم، ليظلوا عليها، إن الله كثير القبول لتوبة التائبين، عظيم الرحمة بعباده.

إن الرحيم بالإضافة يعلم مدى رحمة الله به، وحجم هذه الرحمة التي أنعم بها عليه وعلى عباده،لذلك فهو دائم الرحمة للآخرين بوسائل كثيرة مما وهبه الرحيم المطلق من أنواع الرحمة

---

[٤١١] التوبة ١١٨

مما أسبغ عليهم من نعم الدنيا وما وعدهم به من الرحمة في ما ينعم عليهم في الآخرة، فالنعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى ما استعملها على ما يجب وكما يجب، ويجري بها على الوجه الذي لأجله خُلق، وذلك أن الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية والرحمة الدائمة من الرحيم المطلق. فشرع الرحيم، في كل منها حكما بيَّن فيه كيف يجب أن يتناول ويتصرف فيها، لكن الناس في تناولها فريقين: فريق يتناوله على الوجه الذي جعله الله لهم فانتفعوا به حسب ما أمر الرحيم من التراحم بين الخلق في وجوه الخير لعباد الله من كفالة اليتيم والأرامل وبسط الوجه للفقراء والمساكين وما إلى ذلك من أبواب الرحمة التي يتبعها الرحيم بالإضافة ومن هم جديرون بأن يكونوا خلفاء، فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[٤١٢] فهؤلاء الذين استحقوا أن يكونوا خلفاء الرحيم بما اتصفوا به من سمات الرحمة النسبة وهم الذين وعدهم الرحيم أن يجزيهم أحسن ما عملوا، لأنه عندما مكن مكّن سلطانهم فى الأرض حافظوا على حسن صلتهم بالله وبالناس بالتواد والتراحم والعطف،وكذلك في أداء حق الرحيم عليم من العبادات، فيؤدون الصلاة على أتم وجوهها، وحق الرحمة التي زرعها في قلوبهم، فيعطون زكاة أموالهم لمستَحقيها، ويأمرون بكل ما فيه خير، وينهون عن كل ما فيه شر، وهذا من أعظم أبواب الرحمة، لأن الرحيم مكن لخليفته في الأرض من أجل إقامة العدل، وعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة،فأي رحمة للعباد من الخليفة أعظم من رحمة العدل والمساواة وإعطاء الحقوق إلى أهلها،ولذلك فالرحيم المطلق مكن للرحيم بالإضافة في الأرض وبسط له في الدنيا من أجل بسط الرحمة ونشرها،فالخليفة ومن سار على نهجه في التراحم والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، وإتباع الإحسان فقد قال الله تعالى فيهم: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}[٤١٣] فهؤلاء الذين اتبعوا أوامر الله الرحيم فيما

---

[٤١٢] الحج ٤١

[٤١٣] النحل ٣٠

شاءه من خير لعباده، والتزموا بأنهم يرحمون الآخرين هم خلفاء الله في أرضه، لأنهم كانوا يسعون إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة للناس جميعا، فكانوا بذلك من المحسنين. واللَّه الرحيم سبحانه يكافئ المحسنين بحياة طيبة فى هذه الحياة الدنيا، ويكافئهم فى الآخرة بما هو خير وأحسن مما نالوه فى الدنيا، ولنعم الدار التي يقيم فيها المتقون فى الآخرة، فهم مرحومون من الرحيم بما كانوا يرحمون. لأنهم التزموا الأوامر والنواهي بما ينشر الرحمة بين الناس، فكان ذلك في قلوبهم من الإيمان والصدق والإخلاص فى النية، فالطاعة بالمال والبدن ولين الجانب وبسط الوجه والقيام بحوائج الناس، هو من أبواب الرحمة التي أمر بها الرحيم.

وأما الفريق الثاني الذي أنعم الله عليه بنعمة المال والأمن والولد وزينة الحياة الدنيا، ولم يصرف ذلك في الوجه الذي أمر به الرحيم، وكانوا غليظي القلوب وقد نزعوا من أنفسهم الرحمة والعطف على الآخرين، وصرفوا ذلك بغير الوجه الذي يرضى الرحيم عنه، وركنوا إلى ذلك، فصار لهم نقمة وشقاوة، فتعذبوا بها عاجلاً وآجلاً وهم الموصوفون بقوله تعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}[٤١٤] إن الذين لا ترق قلوبهم، ويحرصون على ما في أيديهم، ولا ينفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاته، ولا يرحمون الآخرين، فإن الله ما أعطاهم هذا إلا ليكابدوا فى سبيله المتاعب والمشقات،لحفظه فى الحياة الدنيا، دون أن يؤجروا على ذلك، ويدركهم الموت، فيعذبون بسببها فى الآخرة .

إن الرحيم المطلق الذي استخلف الإنسان في الأرض، أمره أن يتصف بصفات الرحيم حتى يستحق أن يكون خليفة، وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلفاء والمشرع لهم أن يكون الإنسان رحيما في أفعاله وأقواله وتصرفاته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٤١٥] ففي هذا تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم على بعض،

---

[٤١٤] التوبة ٥٥

[٤١٥] صحيح مسلم ، ج ١٢، ص ٤٦٨

وحثهم على التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه، وأن يرحم بعضهم بعضا لحلاوة الإيمان لا لشيء آخر، وبالتواد التواصل الجالب للمحبة كالتهادي وبالتعاطف إعانة بعضهم بعضا في قضاء حاجات من له حاجة. وكذلك يظهر من خلال هذا التراحم أنه يدل على أن الخليفة وهو المؤمن، يسره ما يسر أخاه، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير،وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد، فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير، أو يساويه فيه لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله،وينفرد بها عنهم، والخليفة بأخلاقه ورحمته تقتضي تصرفاته وأفعاله وأقواله خلاف ذلك، وهو أن يشرك الجميع فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء وهو تمام التراحم،والخليفة من تمام صفات الرحمة التي يكمن في قلبه وجوارحه أنه مؤمن، ولولا الإيمان لم يكن رحيما، لذلك فإن الله تعالى قال: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}[٤١٦] فهو من أهل الإيمان الذين يتواصون فيما بينهم بالصبر وبالرحمة، فالخليفة ومن كان على أخلاقه، أوصى بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله وعن المعاصي وفي المصائب يتواصون بالمرحمة فيما بينهم، أي أوصى بعضهم بعضا بالرحمة على عباد الله أو بموجبات رحمته تعالى من الخيرات، والرحمة هي الشفقة لمن يستحقها من العباد يتيما أو فقيرا، والأمر بالتواصي بالصبر إشارة إلى التعظيم لأمر الله، وكذلك وتواصوا بالمرحمة إشارة إلى الشفقة على خلق الله والى التكميل بعد الكمال فان الإيمان كمال فى نفسه وكذا الصبر والمرحمة وغيرهما من الأعمال الصالحة والتواصي من باب تكميل الرحمة، فعلى سبيل المثال، إن الإطعام خصوصا وقت شدة الحاجة أفضل أنواع العفة، والإيمان أجلّ أنواع الحكمة وهو الإيمان العلمي العملي، والصبر على الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة، والتراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة.

ومن رحمة الرحيم ما أوحى الله تعالى إلى أم موسى عليه الصلاة والسلام،حين أوحى إليها أن تقذف ابنها في التابوت وتلقيه في اليم، فتابعه الرحيم برحمته منذ ولادته بالعناية والرعاية

---

[٤١٦] البلد ١٧

والرحمة حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}[٤١٧] ومن رحمة الله تعالى أن تفضل عليه بهذه الرعاية الإلهية وهو طفل رضيع لا يعرف أي شيء ولا يعرف ماذا يطلب أو ماذا يريد، ولكن الرحيم الذي قدر كل شيء له حكمته فيمن يرعى، ولمن يرحم، وإن كانت الرحمة الدنيوية عامة لجميع الخلق، إنما هناك خصوص لهذه الرحمة لبعض عباد الرحيم، وهذا تذكير لموسى عليه الصلاة والسلام بما قد منّ عليه وعلى والدته في طفولته، فقد سبق أن تفضل عليه بمنة أخرى دون سؤال منه قبل أن يعرف الكلام، حين ألهم أمه إلهاماً كريماً ما الذي يجب أن تفعله حفاظا على حياته .

لقد ألْهمها الرحيم أن تضع هذا الطفل الرضيع في التابوت، وأن تلقي به في النيل، لينجيه من فعل فرعون الذي كان يقتل كل طفل ذكر ولد في ذلك العام لا يشفع له شفيع،وكان من رحمته أن سخر الماء أن يلقي ذلك التابوت الذي يحمل هذا الطفل في شاطئ قصر فرعون وشاءت إرادة الرحيم أن يأخذ فرعون هذا التابوت الذي يحمل هذا الطفل، وفرعون هو عدو للرحيم المطلق وعدو للرحيم بالإضافة،ولكن الله أحب هذا الطفل حب رحمة وولاية، ليحبه كل من يراه، ولتربى تربية كريمة ملحوظاً برعاية الرحيم وعنايته وحفظه، ومن تمام الرحمة وسابق العناية به، حين مشت أخته ترقب أمره، فلما صار في قصر فرعون، ورأتهم يبحثون له عن مُرْضِع دلَّتهم على أمه، وبهذا فقد ردّه إليها لتفرح بحياته وعودته، ولتكف عن الحزن والبكاء، وكذلك من رحمة الرحيم به عليه الصلاة والسلام، فقد أسبغ الله تعالى على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى أمه من الأمن و الطمأنينة ما يحفظه بها وما تقر عين أمه و ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه الرحمة، ولما كبر وقتل خطأ رجلا من قوم فرعون نجّاه

---

[٤١٧] طه ٣٧- ٤١

من الغم الذي لحق به، وخلصه من شرورهم، فذهب إلى مدين ومكثت فيها سنين عدة، ثم عاد من مدين فى الموعد الذي قدره الله العليم الرحيم حيث اصطفاه للوحي وحمل الرسالة، فمن تمام رحمة الرحيم بموسى أن:" عمدت أم موسى إلى التابوت فقذفته في النيل، فانطلق الماء بالتابوت حتى توارى عنها، فجاء الشيطان فندّمها وأنساها ما كان الله عز وجل ألهمها إذ جعلته في التنور، فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً، وندمت حين جعلته في التابوت وقالت: لو ذبح ابني بين يدي كنت أكفنه وأدفنه في التراب، وكان أحب إلي وأسلى لهمي من أن ألقيه في البحر، فيأكله دواب البحر وحيتانه، ثم ذكرها الله ما أنساها الشيطان فقالت: إن الذي خلصه من النار سيحفظه في اليم، فاحتمل النيل التابوت حتى تعلق بشجرة مما يلي فرعون، فبينا فرعون في مجلسه إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج، فقال فرعون: إن هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجرة، ترفعه الأمواج وتضعه، ائتوني به. فابتدروه بالسفن من كل جانب، حتى وضعوه بين يده، فعالجوا فتح التابوت فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها، للذي أراد الله أن يكرمها، فعالجته ففتحت التابوت، فإذا هي بصبي صغير في مهده، فإذا نور بين عينيه، وقد جعل الله رزقه في البحر في إبهامه، وإذا إبهامه في فيه، يمصه لبناً، وألقى الله لموسى المحبة في قلب آسية، فلم يبق منها عضو ولا شعر ولا بشر إلا وقع فيه الاستبشار، فذلك قوله: "وألقيت عليك محبة مني، وأحبه فرعون وعطف عليه"[٤١٨].

إن رحمة الرحيم واسعة، لذلك وجب عل كل عبد مؤمن أن يطلب الرحمة من الرحيم، ذلك أن رحمة الله خير من الدنيا وما فيها وما عليها، وأل من يطلب الرحيم المطلق هو الرحيم [٤١٩]بالإضافة، لأنه من أولي الألباب وأصحاب الرأي وذلك لقوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[٤٢٠] ولأنهم علماء عاقلون يعرفون معنى رحمة الرحيم يقولون: ربنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحق بعد إذ أرشدتنا إليه،

[٤١٨] – مختصر تاريخ دمشق ٧،٤٢٨

[٤٢٠]- آل عمران ٨

وامنحنا اللهم رحمة من عندك بالتوفيق والتثبيت إنك أنت المانع المعطي، فهو متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء، فالراسخون في العلم، يطلبون من الرحيم، رحمة التثبيت على الإيمان بعدم إزاغة قلوبهم عن الحق والهدى، وكذلك طلب التوفيق للدين الصحيح والإيمان بأن يهب لهم رحمة من عنده يكون فيها التوفيق والتثبيت لما هم عليه من الإيمان، وأن يهب لهم تجاوزا عما بدر منهم بطريق الخطأ، فهو يهب المغفرة والرحمة، ولكونه وهابا فهو رحيم، والهبة من الرحيم هي العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، والوهاب في صفة الله تعالى أنه يعطي كل أحد على قدر استحقاقه وزيادة، وهذه هي من رحمة الرحيم، حيث الله تعالى يعطي الحسنة بعشر أمثالها والله يضاعف لمن يشاء فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٤٢١] فالرحيم المطلق أمر الرحيم بالإضافة بأن يرحم الآخرين ويأمرهم بالرحمة، وذلك من أجل سعادة الإنسان وأن يساعد الغني الضعيف، وأن ينصر العزيز من كان ذليلا، وان يغني الغني من يجده فقيرا، وقد وعد الرحيم من يأخذ في هذه الوجه من الخير أن يرحمه رحمة مضاعفة، لذلك فقد ضرب لهم المثل في ذلك الذين يسعون في الخيرات لنشر رحمة الرحيم، لن يكونوا أرحم من الله تعالى، فحال الذين يبذلون أموالهم فى طاعة الله ووجوه الخير، وينالون على ذلك ثواب الله المضاعف أضعافاً كثيرة، كحال من يبذر حبة فى الأرض طيبة فتنبت منها شجيرة فيها سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، وهذا تصوير لكثرة ما يعطيه الله من جزاء على الإنفاق فى الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل والرحمة وهو الغني الحميد.

إن الله سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحمة والرحماء، فقد أمر الخليفة بأن يكون رحيما لين الجانب عطوفا دمث الأخلاق، يملأ العين مهابة والقلوب محبة من رحمته على الآخرين، وهذه الرحمة التي تسكن قلب الخليفة إنما هي من الرحيم المطلق الذي وهبه إيّاها، لتحنو عليه القلوب، وتجله العقول، فتتبع المعروف الذي يأمر به، والإحسان الذي يدعو إليه

---

[٤٢١] – البقرة ٢٦١

بالحكمة والرحمة والتعاطف والتآزر فقد قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٤٢٢] فهذه رحمة من الله بك وبهم أن جعلك لهم لين الجانب بما أودع في قلبك من الرحمة، ولم تغلظ فى القول بسبب خطئهم، ولو كنت جافي المعاملة قاسى القلب، لتفرقوا من حولك، فتجاوز عن خطئهم، واطلب المغفرة لهم، واستشرهم فى الأمر متعرفاً آراءهم بما يحبون وبما لا يحبون، فإذا عقدت عزمك على أمر بعد المشاروة فامض فيه متوكلاً على الله، لأن الله رحيم يحب الرحماء.

اللهم أنت الرحيم وأمرتنا بالرحمة، فنسألك اللهم أن تجعلنا من الرحماء المرحومين، ونسألك وأنت الرحمن في السموات والأرض ورحيمهما، أن تنزل علينا وعلى والدينا وأزواجنا وذريتنا ومن علمنا ومن أحسن إلينا ومن أسأنا إليه، شآبيب رحمتك عدد القطر والندى، اللهم أجعلنا برحمتك من الرحماء الذين تلين قلوبهم، وتقشعر جلودهم رحمة للآخرين، ونسألك بالرحمة المهداة محمد صلى الله عليه وسلم أن تدخلنا في رحمتك، إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم آتينا كفلين من رحمتك، واجعل لنا نورا نمشي به، وارحمنا رحمة من عندك ننال بها رضوانك، وتدخلنا بها الفردوس الأعلى من الجنة، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم يا الرحيم أنت ربنا إنا ندعوك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا إنك لا تخلف الميعاد، {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنَّا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فانصرنا على القوم الكافرين}[٤٢٣].

اللهم يا الرحيم يسر لنا من أمرنا رشدا ولا تعسره تعسيرا، اللهم يا رحيم إنك بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ الرَّحِيمٌ فارحم عبادك المؤمنين بالهداية ولا تجعلهم على معصية، اللهم أنك الغفور الرحيم

---

[٤٢٢] آل عمران ١٥٩

[٤٢٣] البقرة ٢٨٦.

فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وتجاوز عن سيئاتنا وأهدنا إلى الحق ولا تجعلنا من المستضعفين، اللهم يا الرحيم ارحمنا بالأعمال الصالحات التي ترضيك حتى ترضى عنا.

اللهم يا الرحيم اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وهم يقولون: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

اللهم يا الرحيم يا من سبقت رحمته عقابه اجعلنا سبَّاقين إلى الخير والرحمة، اللهم اجعلنا رحماء بأنفسنا فلا نقودها إلى الهلاك، فنكون رحماء بأمانتك ومحافظين عليها، اللهم اجعل من اسمك الرحيم باب استجابة لدعائنا كما أجبت به من قبل نبيك أيوب في قولك تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[٤٢٤]، ربنا اكشف عنا الغم والهم واجعلنا ممن تستمع لدعاهم فتستجيب لهم.

اللهم إننا ندعوك باسمك الرحيم الذي يملأ الفؤاد بالأمل والرجاء فالحمد لك على رحمتك يا الرحيم.

المَلِك

المَلِك هو الذي له المُلك وله السيطرة الكاملة عليه. والمَلِك الحق، هو الملك القاهر القادر {فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو ربُّ العرش الكريم}[٤٢٥] فرب العرش الكريم هو الملك الذي لا إله إلا هو جل جلاله، والعرش الكريم هو عرش الملك المطلق جل جلاله الذي به يهيمن ويسيطر ويتولي كل أمر، ولذا فهو الغني في ذاته وصفاته ويحتاج له كل أحد وهو لا يحتاج لأحدٍ {ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين}[٤٢٦]. ألا له الخلق، تعني بما تعنيه

---

[٤٢٤] الأنبياء ٨٣، ٨٤.

[٤٢٥] . المؤمنون ١١٦.

[٤٢٦] الأعراف ٥٤.

أن ملكية الخلق والأمر تعود له وحده، والأمر جاءت مطلقة فهي تعني أي أمر، سواء الحياة أم الممات، أم البعث والثواب والعقاب، وله أمر الحركة والزمان فتبارك الله ربُّ العالمين.

فله الخلق والأمر: إنه مالكهم ومالك أمرهم، فالشعوب التي من بينها سادة وعبيد، أي المالك والمملوك هم ملك الملك الحق جل جلاله، وبناء على الآية السابقة فإن الملك الحق، هو الذي يملك المالك والمملوك، وأمر التصرف فيهم، كجزئية من مُلكٍ عام لكل ما في السماوات والأرض، ولهذا فإن المَلِك يملك الخليفة وما يمتلكه الخليفة من مال وثروة وقوة ومنافع ومغانم وعلوم ومعارف، ويملك ما لم يتمكن الخليفة من معرفته، {وسع كرسيه السماوات والأرض}[٤٢٧]. إنه المُلك الواسع الذي وسع كل شيء خلقه سواء تمكَّن الخليفة من معرفته أم لم يتمكّن، إنه عالم الغيب والشهادة إنه الرحمن الرحيم، الذي له من المُلك ما يرحم مخلوقاته دون استثناء، وله من المُلك ما يعاقب به جميع مخلوقاته بدون استثناء، وله الحمد يعاقب من يشاء ويعفو ويتوب على من يشاء من عباده إنه المَلِك الرحمن الرحيم، ولذلك وسع كرسيه السماوات والأرض، فلك الحمد ربّ لا إله إلا أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر فسبحان الله عما يشركون.

الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد وكل من مَلكَ شيئاً فإنما بتمليك الله تعالى، ولذا لا ملك إلا لله.

ولأن الملك المطلق لله تعالى وحده لا شريك له فالطاعة التامة بالمطلق إنما هي لله وحده، ولذا فاسم ملك الملوك لا يطلق إلا على الله جل جلاله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك فلا ملك إلا الله"[٤٢٨].

وعليه فحقيقة الملك، إنما تتم بالعطاء والمنع والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والعزل قال تعالى: { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٢٩].

---

[٤٢٧] . البقرة ٢٥٥.

[٤٢٨] أخرجه أحمد ج ١ ص ٤٩٢.

[٤٢٩] آل عمران ٢٦.

ولأن الأمر بيد الملك جل جلاله فهو يؤتي الحكم لمن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ولذا فهو يذل عزيزا ويشفي مريضا ويستر عورة وهكذا يداول الأيام بين الناس سبحانه جل جلاله.

ولأن المَلِك هو الذي بيده أمر المُلك {لله مُلك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لِمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير}[٤٣٠] بما أنه هو مالك المُلك الحق، إذن له الحق في أن يتصرف فيه كيفما يشاء ومتى ما يشاء، دون أي اعتراض على مشيئته. وعليه فإن المَلِك الحق هو الذي يملك ويتصرف، والتصريف هو حُسن التسيير للحركة والسكون عبر الزمن، ما جعله يخلق كل شيء بميزان {وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان}[٤٣١]هذه الآية موجهة للخليفة لكي يعدل فيما يملك بالحق، هذا ما يراد له أن يكون أما ما هو كائن فالمفسدون في الأرض كثيرون، ولو لم يكن الإفساد في الأرض ما نزلت الآيات الدالة على العدل والوزن بالقسط والتراحم بين الناس وقول الحق وفعل الحق.

فمن العدل إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، وإذا لم تحكموا فالأمر لا يتعلق بكم إلا من حيث عدم كتمان الشهادة إن كنتم شهودا.

المَلِك في الحكم البشري نسبي، فمن يقول الحق ويعدل يكون ملكا، ومن يقول زورا وبهتانا فلن يكون ملكا، فعلى سبيل المثال: إذا شهدوا شهودا أمام قاضٍ بمحكمة عدل، فمن يكتم الشهادة لن يكون ملكا ومن يقول شهادة زور لن يكون ملكا، فالملك في ذلك الموقف هو الشاهد الحق. ولذا فالمَلِك لا يقتصر فقط على من يمتلك من الثروات، بل من يريد أن يتصف بصفة المَلِك الحق، فعليه أن يقول الحق، ولا يقدم إلا على فعل الحق، أمّا من يمتلك ثروات كثيرة، ويمتلك أمر السياسة في البلاد ولا يقول الحق فلن ينال من الصفة إلا المسمى، أمّا من حيث الدلالة والمعنى سيظل فاقداً له.

---

[٤٣٠] الشورى ٤٩ ، ٥٠.

[٤٣١] الرحمن ٩.

المَلِك في الأرض هو المواطن الحق، الذي لا يُسهم في تزوير الانتخابات، ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يشهد شهادة زور، ولا يقتل النفس التي حرّم الله، ولا يعمل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يزنى ولا يكذب ولا يغش ولا يُفسد في الأرض ولا يحاجج بباطل، وهو الذي لا ينسى نصيبه من الدنيا، ويؤمن بأنه المخلوق الذي من ورائه خالق يملك الخلق والأمر {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٤٣٢]. وعليه لا يمكن أن يكون في الأرض من يملك المطلق، فالأرض ومن عليها وما فيها والسموات وكل ما خلق ملك لله تعالى، ولأنَّ الأمر كذلك فإن قانون النسبية كفيل بإثبات القصور فينا، مما يجعلنا نؤمن من غير شك بأن الكمال للمَلِك الحق وحده. وعندما نصل إلى هذه النتيجة الموضوعية، نعرف الحق ولا نقول غيره ولا نفعل غيره ما حيينا. وهذا الأمر هو الذي يُمكنًّا من أن نكون ملوكا.

المَلِك الحق هو الذي يملك المُشَاهد والمُجرد، يملك الكائنات والمادة القابلة للمشاهدة، ويملك فوق ذلك السمع والأبصار غير القابلة للمشاهدة. قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[٤٣٣] له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها أعيانها وأوصافها وأفعالها والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدرية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء وذلك يكون في دار القرار، وقال تعالى: {قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يُخرج الحيَّ من الميت ويخرج الميت من الحيَّ ومن يُدبِّر الأمر سيقولون الله فقل أفلا تتقون}[٤٣٤] وإلا هل هناك من يرى السمع والبصر؟! نحن بني الإنسان الذين خُلقنا في أحسن تقويم، لا نرى ذلك، مع أننا نرى العيون المبصرة والآذان المُنصتة، والفرق كبير بين السمع وبين الحاسة السمعية، وبين البصر والعيون المبصرة، فالحواس تشاهد ووظائفها لا يمكن أن تشاهد، ولهذا من حيث التقريب

---

[٤٣٢] . البقرة ٢٥٨.

[٤٣٣] الأعراف ٥٤.

[٤٣٤] . يونس ٣١.

فالذي يمتلك الحواس هو من خلقت له، والذي يملك السمع والأبصار هو خالقها، ولهذا فأمر مشاهدتها لم يكن على المستوى الحسي الذي عليه خُلقنا. ومن هنا بدأ القصور يُرافقنا حتى النهاية، ولذا فمن الممكن لنا أن نكون ملوكا، ولكن من الصعب علينا أن نكون ملوك الحق. فالملك الحق هو الذي لا يرافقه القصور، ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يأخذه خوف ولا طمع.

المُلكُ خير، والمَلِك مالك الخير، وجاء على رأس المُلك الخير: الحياة والممات والجنة والنار ويوم البعث العظيم. وجاء داخل الحياة والممات خيرات حِسان، وجاء داخل الجنَّة والنار خيرات كثيرة، وجاء يوم البعث خير سرمدي. وبما أنّ المَلِك هو مالك الخير، إذن هو الذي بيده المُلك، ومع أنَّ المُلك بيده، ولا تصرف فيه إلا بأمره، إلا أنه جعلنا الوارثون {إنَّ الأرض لله يُورِثُها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}[٤٣٥]. العاقبة هي الأفعال المترتبة على ما تم فعله على الأرض، فإن كان عمل خير تكون العاقبة ثواب، وإن كان عمل شر تكون العاقبة عقاب. ولأن كل فعل يترتب على فعلٍ، جاء التوريث مترتبا على وجود الخليفة، ومن هذه الآية الكريمة ندرك وجود غاية واحدة من وراء جعل الخليفة في الأرض وفعل التوريث فيها.

والسؤال الذي يُطرح مترتبا على ما سبق: كيف يكون الإنسان مَلِكا في الوقت الذي هو فيه عبدا لِمَلِكٍ؟.

في اعتقادنا إنّ عبد المَلِك الحق ملك، وعبدَ العبدِ عبدُ. وذلك لأن عبد الملك هو الذي لا يقبل أن يكون عبدا لعبدٍ، ولأنه لم يكن ولن يكون عبدا لعبدٍ، إذن فهو الملك {ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منّا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون}[٤٣٦]. من هذه الآية نلاحظ أنّ للملك رزقا حسنا (المُلك) وله حق التصرف فيه، وهذا يدل على أنّ الرزق غير الحسن لن يكون رزقا لملك، بل ربما يكون لمفسد في الأرض، وعندما يكون كذلك فبطبيعة الحال لن يكون مَلِكا {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام وإذا

---

[٤٣٥] الأعراف ١٢٨.

[٤٣٦] . النحل ٧٥.

تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يُحب الفساد وإذا قيل له أتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد}[٤٣٧].

إذن من يريد أن يكون خليفة للملك الحق، فعليه أن يكون حراً، ومُصلِحاً، أما من يقبل بأن يكون عبدا ولا يُسهم في الإصلاح فلن يكون ملكا حتى وإن استولى على مقاليد البلاد والعباد فيها بالقوة. ولذلك فالمُلك لم يكن عنوانا ومراسيم وتشريفات لإرهاب المواطنين، وتصرف في شؤونهم دون رضاهم، ولم يكن المُلك بيع كلام كما يقول البعض، وإظهار ما لم يكن بالحق باطنا، بل المُلك قول حق وفعل حق. ولهذا ينطبق مفهوم الآية السابقة على المنافقين كما هو حال الأخنس ابن شريق الثقفي، واسمه (أبىّ) كما جاء في تفسير الشعراوي الذي قال: "أنّ اسمه أبىّ ولقبه الأخنس، حيث خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش، واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين وعادت إليهم، وكان ساعة يقابل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليظهر إسلامه ويلين القول للرسول ويدَّعي أنه يحبه، وبعد أن خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بزرعٍ وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر"[٤٣٨]. إن هذا الأمر وما هو في مثله مخالف لأمر الله للخليفة حيث قال: {ولا تعثوا في الأرض مفسدين}[٤٣٩] وقال تعالى: {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون}[٤٤٠].

من هذه الآية نستنبط أنه لا طاعة من مؤمن لعاصٍ، والعاصون هم الذين بإسرافهم يُفسدون في الأرض ولا يَقدِمون على أفعال الإصلاح، فهؤلاء كيف يكونون ملوكا، وكيف يكونون هم الوارثون، وكيف يكونون خلفاء في الأرض. لذا فالقول الصريح من المستنبط لا مَلِك، ولا وارِثَ، ولا خليفة ممن يسرفون ويُفسدون في الأرض، بل المَلِك والوارث والخليفة هو: من يعمل على إصلاحها.

---

[٤٣٧] البقرة ٢٠٤، ٢٠٥.

[٤٣٨] تفسير الشعراوي المجلد الثاني أخبار اليوم قطاع الثقافة ص ٨٦٥.

[٤٣٩] . البقرة ٦٠.

[٤٤٠] الشعراء ١٥٢.

المَلِك الحق هو من لا يزول، ولا يزول ملكه، وهذا يدل على واسع الفضل، ولهذا من يُراد له أن يكون ملكا فعليه بالجُود من واسع فضله، {وقال لهم نبيهم إنَّ الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له المُلك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال قال إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم}[٤٤١] كأنه يقول الفقر فقر النفس أمّا المال فيأتي، ولهذا زاده بسطة في العلم الذي به يتعرف على مكامن المال وبه يستثمر ما يتم كشفه والتعرف عليه، وبه دائما يُنقب عن المزيد المفيد والنافع للعباد، وزاده بسطة في الجسم حتى يُظهر القوة فيه، ويظهر مقدرة الله تعالى في سند من يبعثه ملكا للإصلاح.

وقد يتساءل البعض: بما أنّ المَلِك هو من لا يزول، ولا يزول مُلكه، فكيف يجعل الله طالوت ملكا؟. الله عز وجل هو الذي بيده المُلك (بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير) ولهذا فهو فعّال لما يريد، ولأنه كذلك قال: {قُل اللهم مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتُذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}[٤٤٢]. هذه اعترافات المؤمن أمام مالك المُلك كله، فسبحانه أنه على كل شيء قدير.

والملوك في الأرض هم الذين يقع ملكهم في دائرة النسبية ولا يدخل دائرة المطلق التي يتعلق أمرها بالملك المطلق جل جلاله، ومع ذلك هناك ملوك انحرفوا عن منهج الله تعالى كفرعون وغيره وهناك ملوك استقاموا على منهج الله كداود وسليمان وذو القرنين، قال تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}[٤٤٣] فالله الملك المتعال هو الذي مكن له في الأرض وآتاه من كل شيء، ولهذا يعد ذا القرنين نموذج للحاكم الذي اظهر في حياته آثار اسم الله الملك، ومن معالم الملك والتمكين عن ذي القرنين الآتي:

---

[٤٤١] البقرة ٢٤٧.

[٤٤٢] . آل عمران ٢٦.

[٤٤٣] الكهف ٨٤.

١ . دستوره العادل: قال تعالى: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}[٤٤٤].

٢ . منهجه التربوي في إحياء الشعوب.

٣ . اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير.

٤ . أخلاقه القيادية: العبر، المهابة، الشجاعة، التوازن، كثير الشكر، العفة عن أموال الضعفاء.

٥ . المساهمة في تفجير طاقات الشعوب المستخلفة.

وبما أن الله هو المَلِك الحق، والله حي لا موت وفي مقابل ذلك خلق الحياة والموت من ملكه مصداقا لقوله تعالى: {تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور}[٤٤٥]. إذن هناك سر يتم الإعلان عنه في هذه الآية الكريمة وهو أنّ من أسرار خلق الحياة والموت، هو لأجل أن نختبر هل حقا كنا نحن الوارثين والخلفاء أم أننا يمكن أن لا نكون كذلك. فالمشيئة تود لنا أن نكون الوارثين والخلائف في الأرض حتى نورث من بعدها الجنة، ولا يمكن لنا أن ندخل الجنة ما لم نكن في حياتنا خلفاء فيما استخلفنا الله فيه في الأرض، ولهذا من لا يكون خليفة ووارث في الأرض فلن يكون له إرثا في الجنة {ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين}[٤٤٦].

المَلِك منزه، وملوك الأرض بشر معرضون للخطأ والصواب، {إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما}[٤٤٧]فالملوك هم الذين يقتدون بما أمر المَلِك الحق، ولهذا كل الذين بايعوا رسول

---

[٤٤٤] الكهف ٨٧، ٨٨.

[٤٤٥] . المُلك ١ ٢.

[٤٤٦] الأعراف ٤٣، ٤٤.

[٤٤٧] . الفتح ١٠.

الله صلى الله عليه وسلم، وأوفوا بما عاهدوا الله عليه هم ملوك، والذين نكثوا ليسوا بملوك، وهكذا كل من يريد أن يكون ملكا بإمكانه أن يكون، وكل من لا يريد فبإمكانه أيضا، {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم الله ولي الذين أمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}[٤٤٨] نلحظ من هذه الآية أن البشر غير منزهين، ولذا لا يمكن أن يكون المُلك بيد من لا يكون منزهاً.

ولأن الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم، فبإمكانه المعرفة، وبإمكانه أن يفعل خيرا، وأن لا يُفسد في الأرض، وأن يعمل على إصلاحها، ولذا فبإمكانه أن يكون ملكا لإحقاق الحق وإزهاق الباطل. ومع ذلك لن يكون الملك الحق. فسبحان الله عمّا يصفون.

وعليه فإن استعباد المَلِك الحق للعباد لأنه خالقهم ورازقهم وبما يجود به عليهم من رحمة وفضل ومغفرة، وعدل وتيسير عند كل حاجة وشدة، وحفظ من كل شر، وبما خلقه لهم من خيرات حِسان في البر والبحر والسماء، فقد جعل لهم الليل سباتا والنهار معاشاً وخلق لهم من كل الثمرات {هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون يُنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخّر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إنَّ في ذلك لآية لقوم يذَّكرون وهو الذي سخَّر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حِليةً تلبسونها وترى الفُلك مواخر فيه لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون أفمن يَخلُقُ كمن لا يَخلُق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها إنَّ الله لغفور رحيم}[٤٤٩]إنه المَلِك الحق

---

[٤٤٨] البقرة ٢٥٦.

[٤٤٩] . النحل ١٠ . ١٨.

الذي خَلقَ وأعطى والذي قدَّر فهدى، فله الحمد والشكر على كل ما أعطى ورزق من الثمرات.

إنّ الذي يعطيك من كل الثمرات ألا يستحق أن يُعبد. فبعض الناس الذين لا يجحدون إذا ما قُدّم لهم خيرا من بعض الناس الخيرين، تراهم ينظرون إليهم بعين العرفان بالجميل، وتراهم يَدعون لهم بالدعاء الصالح، وإذا ما قصدوهم في شيء وجدوهم أنصارا معهم في كل حق، وتراهم يدينون لهم بالعرفان والتقدير. فإذا كان الأمر بين الناس الذين هم في حاجة والذين يعملون الخير كلما فُتِّحت أمامهم أبوابه الواسعة، فإذا كان الأمر بينهم مؤسس على التقدير والاحترام والعرفان بالجميل والعمل على رده كلما تهيأت ظروفهم لذلك فما بالك بمن خلقك فسواك فعدلك {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك}[٤٥٠] ألا يستحق أن يُعبد ويُعترف له بالربوبية والعبودية. والعبودية هنا هي عبودية اعتراف وتقدير وشكر دائم لمَلِك دائم. ولهذا فالفرق كبير بين أن تكون عبدا لله تعالى وبين أن تكون عبدا لعبدٍ. فإن رضيت أن تكون عبدا لعبدٍ، فإنك ترضى بأن تُقدِّم له الخدمات وتقبل منه العقاب الذي لا يغنيك عن عقاب الله تعالى إذا لم تكن عبدا له دون غيره، وأن تعمل على إرضائه حتى وإن لم يكن في مرضات الله. أمَّا إذا رضيت بأن تكون عبدا لله تعالى فالله لم يستعبدك لتقدم له الخدمات فهو الغني عنك وعن خدماتك، فالذي تُقدِّم له الخدمات أنت مدانا له وهو مدين لك، أمَّا الله عز وجل فليس كذلك، فالله تعالى يبتغيك من أجل نفسك ولا يبتغيك من أجله هو، وهذا ما لا يبتغيك فيه من استعبدك، فمن استعبدك يريدك أن تخدمه، أمَّا الله فيريدك لنفسك ولا يريدك لسواك. وبما أنَّ الأمر كذلك ألا يستحق العبادة والعرفان له بالعبودية، التي كما بينَّا ليست لها علاقة بالمفهوم السائد للعبودية بين البشر. بل هي الإيمان به واحد أحد، له المُلك لا شريك له، مع الالتزام بقول الحق وفعل الحق، وأن لا تركع لأحد سواه، وأن تعمل صالحا ولا تفسد في الأرض، وهذه الأفعال جميعها لم يترتب عليها أفعال العبودية من إكراه ومذلة، وعقاب بغير حق، وتحكم وسيطرة من المالك

---

[٤٥٠] الانفطار ٦ . ٨.

وأبنائه وزوجاته حيث في معظم الأحيان يكون لمن يمتلك العبيد عدداً من الزوجات، مع القبول بالخصي إذا ما ارتأى المالك ذلك ضرورة.

المَلِك الحق هو الذي يتم التوكل عليه، فهو الذي بيده الأمر، وذلك لمقدرته وقوته وعطائه غير المحدود، وغفرانه للخطايا، وإحاطته بكل علم، إنه الله الذي لم يكن في حاجة لأحد والكل يحتاجون إليه، وهو النافع والضار وهو على كل شيء قدير، ولذا فإن الاعتماد عليه واجب وضرورة، واجب لأنه الحق، وضرورة لأن الخليفة في حاجة دائمة إليه، فلا يمكنه الاستغناء عنه في شيء، ولهذا فالاعتماد عليه هو الذي به تُحل الكُرب ويعم الفرج وتطمأن القلوب. ولذا إذا أراد الخليفة أن يكون ملكا فعليه أن يكون، إنه من الممكن وليس من المستحيل، فمن يُقدِّر ذلك فهو من حقه، ومن لم يستطع فليس من حقه. ومن يرتضي أن يكون ملكا، لا يمكن أن يقبل بالاعتماد على غيره، ولهذا من يعتمد على المحتاج لا يمكن أن يكون ملكا، ومن يعتمد على الغني سيكون ملكا، فالمَلِك بيده المُلك. ولذا ينبغي أن يكون للخليفة مُلك لفعل الخير، ولذلك عليه أن يؤمن بأن وجوده مؤقت ومُلكه مؤقت، وأن مُلك المَلِك الحق دائم بديمومة مالك الملك.

ومع أنَّ المَلِك الدائم مُلكه دائم، والمَلِك الزائل مُلكه زائل، إلا أنَّ من يريد أن يكون ملكا للحق فبإمكانه أن يكون، ذلك إن لم يدخل دوائر السوء ويرتكب المظالم. فالمَلِك الحق هو من يقول الحق، ويسلك الحق، ولا يفعل شيئا غير الحق. وإن لم يفعل ذلك فتكون مملكته هي مملكة المظالم.

ومهما فعلنا فلن تكون مملكة الخليفة متطابقة مع مملكة خالق الخليفة، فخالق الخليفة هو الرحمن الرحيم المَلِك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، مما يجعل مُلكه مُطلقا، تملؤه الرحمة، بفعل رحيم، ويُسيطر عليه ملك، وتملؤه الصفات الحِسان، ويعمُه السلام دون نقيصة والطمأنينة دون خوف، وتحيطه القوة والعزة، التي تعم الجميع بدون استثناء، وهو المُلك العظيم الذي لا يماثله شيء فسبحان الله عمّا يُشركون. ولهذا يُسبح لله ما في السماوات

والأرض {يُسبح لله ما في السماوات والأرض الملك القدوس العزيز الحكيم}[٤٥١]، وقال تعالى: {قل أعوذ برب الناس مَلِكِ الناس}[٤٥٢] فسّر القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن ما أوردناه من سورة الناس أي مالكهم ومصلح أمورهم[٤٥٣].

نعم أنه مالكهم وحافظهم، فهم يلتجئون إليه ويعودون له خوفا من كل شر، وطمعا في كل خير.

ولأن المَلِك هو مالك المُلك، مصداقا لقوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء وتنزع المُلك ممن تشاء وتعز من تشاء وتُذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتُولِج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب}[٤٥٤] ولأنه كذلك فهو المَلِك الكريم الذي دائما يعطي ما شاء لِمن يشاء دون أن يأخذ منه شيء، فالمُلك كله لله، ولهذا لم يكن العبد قادرا على أن يأتي بشيء منه ليعطيه لله، ولهذا لم يكن الله في حاجة للعبد، والعبد دائما هو في حاجة إليه. ولذا فالمَلِك الحق دائما هو المُعطي، والعبد دائما في حالة طلب وأخذ، يتوسل ويسعى ويكد ويجد ويجتهد حتى ينال الاستجابة التي بها يتم إشباع الحاجات البشرية المتطورة والمتنوعة.

وفي مقابل ذلك تجد البعض لا يكد ولا يجد، وتجده كسولا، أو سارقا، أو منحرفا عن القول الحق والسلوك الحق، مما يجعله في خانة المعتدين الآثمين. فالسارق عندما يرتكب أفعال السرقة، فبالضرورة سيسرق من مال من يمتلك رزقا، ولذا فهو السارق من رزق الله الذي منَّ به على عباده حلالا، وأمّا أن يسرق من مال مسروق أو من مال أهله فهنا حالتان مختلفتان:

الحالة الأولى: فإن سرق من مال مسروق فإنه قد أضاف جريمة أخرى وساهم مع السارق الأول بتعزيز الفساد في الأرض، إذ انه ليس من حقه كفرد أن يتصرف بما يتنافى مع الشرع.

---

٤٥١ الجمعة ١.

٤٥٢ الناس ١٢.

٤٥٣ القرطبي الجامع لأحكام القرآن مجلد رقم ٢٠ ص ٢٦٠.

٤٥٤ . آل عمران ٢٦ ، ٢٧.

ولا أن يقابل الخطأ بخطأ آخر ويكافح الجريمة بالجريمة، وإنما إذا أراد أن يصل إلى درجة الخليفة فعليه أن يأخذ بالإصلاح.

الحالة الثانية: أن السارق الذي يسرق من الناس، ووصل حدّ النصاب والشروط في بلوغ حدّ القطع من الحرز المحصن للمال وجب عليه الحد شرعا، لأن الله تعالى جعل الحدود مكفرات للذنوب ومطهرة للنفس.

أما إن كان المال المسروق من حلال أهله وهو احد الورثة فإن شبهة الوراثة تدفع عنه الحد لأن له حق في هذا المال.

ولأن الله هو مُعطي الأرزاق، وهو الذي يؤتي الحكم لِمن يشاء من عباده، لذا فعباده هم الذين يعترفون له بالفضل {تبارك الذي بيده المُلك وهو على كل شيء قدير}[٤٥٥]. وإنه لَمِن الغرابة أن يعبد البعض من لا يملك رزقا، ومن الغرابة أن يعبد البعض أيضا من لا يكون رحيما {ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون}[٤٥٦]. وفي ذلك أيضا قال تعالى: {تبارك الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له مُلك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في المُلك وخلق كل شيء فقدَّره تقديرا واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشور}[٤٥٧]. تبارك كلمة استبشار، وجاءت في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي تبارك بمعنى تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع وقيل إنّ باسمه يُتَبَرَّك ويُتَيَّمَّن[٤٥٨].

فالمَلِك الذي له مُلك السماوات والأرض، ولم يكن له ولد، ولا شريك له في المُلك، وهو خالق كل شيء، هوَّ العادل في مُلكه، فلو كان له ولد لكان لدى البعض تهمة الانحياز له، ولو كان له أب وأم لكانت التهمة أكثر انتشارا، ولهذا جاء قوله تعالى: {قل هو الله أحد الله

---

[٤٥٥] المُلك ١.

[٤٥٦] النحل ٧٣.

[٤٥٧] الفرقان ١ . ٣.

[٤٥٨] القرطبي الجامع لأحكام القرآن المجلد ٧ ص ٢٢٣.

الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد}[٤٥٩]. إنه المَلِك الذي لا ينحاز لعاطفة، الأبوة والأمومة والأخوة ولا ينحاز لأحدٍ على حساب أحد، فالآباء يُضعفهم الأبناء، وكذلك الأبناء يضعفوا أمام آبائهم وما يتعلق بهم من أمر، ولذا فإن الله لم يلد ولم يولد، مما يجعل انعدام أثر العواطف على أفعال العدل التي يتصف بها المَلِك الحق. واقتصارها على من وُرِّثَ في الأرض وجُعل فيها خليفة ولهذا جاء قوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا ألا إياه وبالوالدين إحسانا}[٤٦٠].

وعليه فإن المَلِك هو الخالق والخليفة هو المُنجِب، والفرق كبير بين خالق لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ومخلوق يُنجب، فالخالق هو المَلِك الحق، الذي لا يخلق الشيء إلا لوظيفة، ولهذا لم يخلق الأشياء هكذا عبثا. أمَّا المُنجب فليس له سُلطان على ما يُنجب، ولذا فقد ظَهَرَ ويظهر بين أبناء الأسر الكريمة من هو ليس منهم في شيء، وأيضا هناك من يظهر من أبناء الأسر غير الكريمة من يعلو به نسبهم ويشرفهم، وقصة نوح عليه الصلاة والسلام ليست ببعيدة {ونادى نوح ربه فقال ربي إنّ ابني من أهلي وإنَّ وعدك الحق وأنت احكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنَّه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إنِّي أعظك أن تكون من الجاهلين}[٤٦١]. ولذا فلو كان نوحا خالقا لكان محيطا بكل أمر، ولكان مهيمنا عليه، ولكن لأنه مخلوق مُنجب ونبي من أنبياء الله صلاة الله وسلامه عليهم، فلم تكن له هذه الخاصية، مما جعله غير مُلمٍ بأمر ابنه وحقيقة أمره، إلى أن نبهه الله بذلك. ولأن نوحاً عليه الصلاة والسلام بشر مخلوق، فكانت العاطفة تشده نحو ابنه، ولذلك لا كمال إلا للمَلِك الحق الذي لم يكن له والد ولا ولد، وله الخلق جميعا وله الحمد الكثير.

والحمد لله تعالى الذي لم يكن له شريك في الأمر، فالشريك بطبيعة الحال سيكون له رأي فيما يجري من أمر، والآراء عندما تتعدد قد لا يكون الاتفاق، وإن لم يكن، سيكون الاختلاف أو الخصام أو الصدام، وعندما يحدث ذلك يحدث الفساد، ولذا فإن الله وحده لا شريك له {وقل

---

[٤٥٩] الإخلاص ١ . ٤.

[٤٦٠] الإسراء ٢٣.

[٤٦١] . هود ٤٥ ٤٦.

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في المُلك}[٤٦٢]. في المُلك البشري الأبناء يرثون الآباء، وعند قسمة الإرث، قد تحدث المظالم في غير طاعة الله، مما يجعل الخصام يسود بين الأخوة الراغبين في الحياة الدنيا على حساب الحياة الآخرة. لذلك فالخليفة لا يمكن أن يكون نسخة مطابقة للأصل الذي استخلفه. ولأن الأمر هكذا، جاء الخليفة على حالة من التخيير والتسيير وكان الله عليما حكيما، مخيرا فيما يملك، ومسيرا فيما لا يملك. مخيرا في أن يتعلم أو أن يعمل، أو أن يبيع أو يشتري ما يشاء متى ما يشاء. ومسيرا في الحركة والزمان، {الم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله المُلك إذ قال إبراهيم ربِّي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتي بها من المغرب فبهت الذي كفر}[٤٦٣].

ولأن الحق هو اليقين، لذا فإن المَلِك الحق هو الذي لا شك فيه، ولأن الاسم الأعظم هو اسم الله الذي يحتوي جميع صفاته، فكذلك كل صفة من صفاته تحتوي الصفات الأخرى[٤٦٤].

وبما أنّ الله يحتوي جميع صفاته، وأنّ المَلِك الحق هو الله. إذن المَلِك الحق يحتوي جميع صفات الله تعالى. وهكذا بما أن الرحمن هو الله وكذلك الرحيم هو الله وأنّ الله واحد أحد. إذن فاسم الرحمن والرحيم يحتويان على جميع صفات الله تعالى. وهكذا حال كل اسم من أسمائه، بما أنه لو سألك أحد بقوله من هو القهَّار؟ أو من هو المُقيت؟ أو من هو العزيز أو مالك المُلك؟. أو من هو أي اسم من أسماء الله الحسنى، فبماذا ستجيب؟. بالتأكيد ستكون الإجابة من أي مؤمن هو الله جل جلاله. إذن كل اسم من أسماء الله الحسنى يحمل صفاته، وما الفارق إلا من حيث، أنّ اسم الله لا يوصف به أحد سواه، وبقية الصفات إذا ما استثنينا اسم الرحمن فيمكن الاتصاف بها.

---

٤٦٢ الإسراء ١١١.

٤٦٣ البقرة ٢٥٨.

٤٦٤ . على محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين. بيروت: دار المعارف الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١١٤.

عندما تأتي خصوصية اسم من أسمائه الحُسنى في قضية من القضايا أو قصة من القصص أو في إعجاز من إعجاز الله، تكون صدارة المعنى للاسم الدال على القضية المعينة أو القصة أو الإعجاز الإلهي. ففي قوله تعالى: {عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم}[٤٦٥] وقوله تعالى: {إنك أنت العزيز الحكيم}[٤٦٦] نلحظ في الآية الأولى جاء تقديم عالم الغيب والشهادة وهو الله، و (هو الرحمن الرحيم) أيضا هو الله، إلا أن إظهار اسمه تعالى بالرحمن الرحيم جاء لتقديم قيم الرحمة وفاعلها وإبرازها فيما يود إظهاره في هذه الآية، وهذا لا يعني أنه قَصر اسمه تعالى على صفة واحدة، بل هذا يعني أن للرحمة خصوصية تستوجب الإظهار وهي محاطة بالصفات الإلهية الأخرى. وكذلك في الآية الثانية ظهر اسم العزيز، وهو اسم الله تعالى لإعطاء العزة مكانة الصدارة فيما يود له أن يكون في هذه الآية، ولا يريد أن يقصر الأمر على هذه الصفة فقط، بل يريد لها أن تأخذ الخصوصية في هذا الموقف وفي غيرهِ من المواقف المتشابهة، ولهذا فهي المحاطة بقوة الصفات الأخرى لله ربِّ العالمين. وعليه لو لم يكن الرحمن الرحيم هو الله ما آمن به أحد، ولو لم يكن الغفور الودود ما عبده من أحد، ولو لم يكن المَلِك ومالك المُلك والقوي والجبار والقهار، والرءوف ما آمن به أحد، ولهذا كل الصفات تتوحد في اسم الله تعالى، وكذلك في كل صفة من صفات الله تعالى تتوحد بقية الصفات الأخر فالحمد لله ربّ العالمين. ولهذا لو راجعنا ما كتبنا عن أسماء الله الحسنى نلحظ مع أننا نُعطي خصوصية لكل اسم نتناوله بالبحث والتحليل والتفسير، إلا أننا لم نغفل عن تداخله مع بقية صفات الله تعالى. ولهذا عندما تظهر صفة الرحمة في الصدارة، تكون صفة الجبار من ورائها، وعندما تظهر صفة المُعز للصدارة تكون صفة المُذل من خلفها، وإلا هل هناك من يعتقد بأن الذي يُعزُّ لا يَقدِر على أن يُذل {تؤتي المُلك من تشاء وتنزع المُلك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذل من تشاء}[٤٦٧].

---

[٤٦٥] الحشر ٢٢.

[٤٦٦] البقرة ١٢٩.

[٤٦٧] . آل عمران ٢٦.

فالمَلِك هو القادر على أن يُعِزَّ من يشاء بملكه، والقادر على أن يُذل من يشاء بملكه، ولهذا فمن يكون طامعا في الحياة الدنيا المال يذله، ومن يكون حامدا وشاكرا فالمال يعزَّهُ. ومع ذلك فبالمال تتم المناصرة والمؤازرة والمغالبة، وبه يتم البناء والعمار، فالمال الذي به يُحق الحق هو المال الحلال، والمال الذي به تتم مغالبة الحق فهو المال الحرام.

من لا يملك لا يستحق العبادة، ولهذا تخلى المؤمنون عن عبادة الأصنام لأنهم عرفوا أنها لا تملك لهم نفعا ولا ضرا، وبما أنها لا تملك شيئا فلا تستحق أن تُعبد، ولا أن تُتخذ إلها، فالإله الذي يُعبد هو مالك الملك، وهو الغني الودود الذي يحيي ويُميت، وهو الرحمن الرحيم. ولذا فهو الفعَّال لِما يُريد مصداقا لقوله تعالى: {ذو العرش المجيد فعّال لِما يُريد}[٤٦٨].

المَلِك الحق هو الذي يملك ما خلق، أمَّا الملك الخليفة فلا يملك إلا ما أُتي له من مُلك الخالق، وهو لا يستطيع أن يتصرف في شيء خارج مُلك الخالق سبحانه وتعالى، ولذا فهو المُتصرف في كل ما يؤتي له، مما جعله صانعا وفنانا وتاجرا، ومهندسا، ومفكرا ومتذكرا، وعالما يخطط للمستقبل ويعمل من أجل بلوغه. ومع أنَّ الخليفة عالماً، إلا أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا.

فإذا نظرنا إلى المَلِك عالم الغيب والشهادة، وإلى المَلِك الخليفة نعرف الفارق الكبير بين السماوات العلى وبين الأرض وما بينهما، فالمَلِك الحق هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، إنه الذي يعرف خلقه قبل أن يعرف خلقه أنفسهم، فسبحان الله العظيم، أمَّا المخلوقات بما فيها الخليفة تولد قاصرة وعاجزة وجهولة، مما يجعلها في حاجة للعناية والرعاية، وفي حاجة لمن يُعرِّفها، فكان الله بعباده رءوفا رحيما فبعث فيهم الرسل والأنبياء مرشدين ومبشرين ومنذرين ومحرضين على قول الحق وفعل الحق فالحمد لله ربُّ العالمين {يُسبح لله ما في السماوات وما في الأرض المَلِك القدوس العزيز الحكيم هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم

---

[٤٦٨] . البروج ١٥، ١٦.

يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ظلال مبين وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم}[٤٦٩].

هذه الآيات قضاياها جامعة لا مانعة، فهي جامعة لفترات الرسل وفاتحة الأبواب للذين سيأتون من بعدهم، ولهذا فالقرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان فالحمد لله ربِّ العالمين. فالذين من قبلهم من قبل الرسل كانوا في ضلال مبين، ولمَّا جاؤوهم بالآيات العظام ليزكوهم ويعلموهم الكتاب والحكمة كانت الهداية تسود بين الناس حتى وإن كان من بينهم من لا يؤمن بذلك.

فإذا عُدنا لنعرف الفارق الكبير بين السماوات والأرض وما بينهما نعرف أنَّ الله وحده يعلم الغيب {قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمَّا أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض واعلموا ما تبدون وما كنتم تكتمون}[٤٧٠] وقال تعالى: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون}[٤٧١]. فمن المسلمات الإيمانية أنَّ الله المَلِك الحق وحده الذي يعلم علم الغيب، أمَّا الخليفة فلا علم له بعلم الغيب، ولكنه يعلم من علمه تعالى علم المستقبل، وإلا هل هناك من يظن أنّ الإنسان لا يعلم علم المستقبل!. فلو لم يعلم علم المستقبل ما حدد أهدافاً لحياته، وما رسم الخطط من أجل مستقبله، وما أدخله وليه إلى المدرسة وهو يعرف مسبقا أنَّ دخوله للمدرسة يؤهله لحياة أفضل في المستقبل، ولو لم يعلم المستقبل ما بنى مسكنا له لأجل أن يتزوج، ولولا معرفته وعلمه بالمستقبل ما وجَّه أبنائه من بعده للتخصصات المتنوعة والمتعددة. وهكذا على مستوى الدول من لا يخطط للمستقبل لا يعيش حياة أفضل في هذه الحياة الدنيا. ومن لم يعمل على صناعة المستقبل لن يجد له مكانا لائقا له ولأبنائه أو مواطنيه بين سكان القرية الصغيرة.

---

[٤٦٩] الجمعة ١ . ٣.

[٤٧٠] البقرة ٣٣.

[٤٧١] آل عمران ٤٤.

ولذا جميعنا يعلم أنَّ غدا الجمعة بما أن اليوم هو يوم الخميس، وجميعنا بإمكانه أن يعلم بالتحديد متى سيكون الخسوف في الأعوام المقبلة، ويعلم أين يكون بالتحديد فهذا علم مكنّا العليم الحكيم المَلِك الحق من الاطلاع عليه ومعرفته، فمثل هذه الأمور لا تُعد من المستحيلات وليس بعلم غيب. علم الغيب هو الذي لا نعلمه، بما أنّ اليوم الخميس إذن بطبيعة الحال سيكون غدا الجمعة وبعد غدٍ السبت، إلا أن في علم الغيب قد لا تأتي الجمعة ولا السبت من بعدها إذا أحدث عالم الغيب أمرا. وباستقراءاتنا لحركة الرياح والسحب نعلم معرفةً تامة متى سيسقط المطر وأين سيسقط قبل أن يسقط بأيام معدودات، ومع ذلك إذا أراد عالم الغيب أن يحدث أمراً فلن تأتي الرياح أو يتغير اتجاهها أو تقوم الساعة وما كُنَّا نعتقد أنه سيأتي بالضرورة فلن يأتي بالقوة.

وختاما سأطرح السؤال الذي طُرح مع إجابته في القرآن الكريم في سورة غافر ولم يُطرح بعد في مكانه وزمانه اللذين نعلم أنهما سيأتيان في المستقبل، دون أن نعلم متى، حيث أنّ أمر متى علم الساعة، وأمر الساعة علم غيب. والسؤال هو: {لِمن المُلك اليوم لله الواحد القهار}[٤٧٢]. سؤال وإجابة، بالنسبة للمؤمن هذا السؤال سؤاله وهذه الإجابة إجابته، وبالنسبة لغير المؤمن سيكون أمام هذا السؤال في وقتٍ لن يجد فيه إجابة غير هذه الإجابة الكريمة.

هذا السؤال لن يُطرح وكائن من كان غائبا، {إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكُلّهم آتيه يوم القيامة فردا إنَّ الذين أمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودّا}[٤٧٣]. أين الطغاة والجبابرة وأين الملوك من الورق، وأين الكفرة وما يملكون، وأين الجيوش والأسلحة النووية وأين كل من أعطيت له الفرصة الكاملة ولم يستجب، فهل هناك من يستطيع أن يفعل شيء، فإن يظن أنه يستطيع فليرني، ولأنه لا أحد بإمكانه أن يفعل شيء، إذن (لِمن المُلك اليوم) بطبيعة الحال لن يكون إلا (لله الواحد القهار) فالحمد لله ربِّ العالمين.

[٤٧٢] غافر ١٦، ١٧.

[٤٧٣] مريم ٩٣ . ٩٦.

وعلى الرغم مما تقدم من القول فلا بدّ من التطرق إلى الفرق بين الملك والملكوت حتى لا يلتبس الأمر على القارئ الكريم وإن كان من المسلم به أن الله تعالى هو مالكهما جميعا، إلا أن المُلْك مختص بالعالم المادي والمسيطر عليه وعلى من سيطر على جزء منه، سواء أكان هذا الجزء هو من الوهاب بسبب طاعته للملك المطلق، فكان هذا المسيطر أو المالك هو المالك بالإضافة، فهو الخليفة الذي اختاره الله تعالى لهذا الملك، أو المالك عنوة بقهر خلق الله وأخذ ما بأيديهم دون رضاهم، لذلك قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٧٤] فهذا تنزيه عما لا يليق بجلاله وكل ما فى السموات وما فى الأرض، له ملكه التام المطلق وله الثناء الجميل، وهو أيضا تام القدرة على كل شيء، وإضافة إلى ذلك فإن مسألة التسبيح في مستهل الآية أعطت الدلالة المطلقة على مُلك المُلك والملكوت من الروحانيات ومن الجسمانيات، أي ينزهه سبحانه جميع ما في السموات وما في الأرض من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه تنزيها مستمرا، وهذا لا يكون إلا للملك الذي يملك الأرواح والأبدان والأجسام والأعيان، والتسبيح نوعان: إما تسبيح إشارة وهو الذي يعطي الدلالة العامة على كل ما هو حي أو جماد بأنه مُلك لله تعالى، أو تسبيح عبارة وهو باللسان والجنان من اللفظ واليقين، ومن هنا كان له الملك الدائم الذي لا يزول وهو كمال القدرة ونفاذ الأمر، لذلك وجب حمد الحامدين له وهو الثناء بذكر الأوصاف الجميلة والأفعال الجزيلة، فله الملك وله الحمد لا لغيره، إذ أنه هو المبديء لكل شيء وهو القائم به والمهيمن عليه والمتصرف فيه كيف يشاء، وهو المُولي لأصول النعم وفروعها ولولا أنه أنعم بها على عباده لما قدر أحد على أدنى شيء منها، لذلك فهو الملك جل جلاله. فالخلق يحمدونه على نعمه وله الحمد فى الأولى والآخرة، وأما ملك غيره فاسترعاء من الملك جل جلاله وهو تسليط وتسخير منه لمن يجب أن يكون خليفة، فحمد غيره اعتداد بأن نعمة الله جرت على يديه من المَلك المالك، فللخلق ملك وحمد، ولكن من حيث الصورة لا من حيث الحقيقة بما استخلف الله في هذه الأرض من خلفاء. وأما الملكوت

---

٤٧٤ – التغابن ١

فمختص بعالم النفوس والأرواح بالإضافة إلى المُلك المادي، وعلى هذا فالمُلك جزء من الملكوت الذي هو أعظم من الملك ماديا وأفخم منه لفظيا ومعنويا، فالملكوت على هذا مبالغة في الملك، وهو الملك التام المطلق للموجودات، وفيه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكا للملك كله قادرا على كل شيء، والملكوت أيضا يضم علم الأمر الواقع المشاهد، وكذلك الغيب الخفي الذي اطّلع عليه بعض خلق الله بأمر الله كالملائكة الذين يعلمون ما لا يعلمه بقية الخلق من الجن والإنس بما أعلمهم الله به، أو الغيب المطلق الذي هو واقع في العلم ولم يقع في الواقع فاختص به سبحانه وتعالى لنفسه مثل قوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}[٤٧٥] فتخصيصه بالذكر هو لاختصاص التصرف به من الله تعالى دون واسطة، بخلاف علم الشهادة الذي هو من اختصاص الملك المطلق الذي يعلّم بعضه للملك بالإضافة وبعضه لا يعلمه، فالخليفة يعلم بعد أن تحمل الأنثى بما امتلك من وسائل مادية هل هي حامل بذكر أو أنثى أو توأم، فهذا من علم المشاهدة بالملك، وهو من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق، وأما أن هذه الطفلة أنها ستكون امرأة كاملة، وتنطبق عليها مواصفات الأنثى التي سوف تحمل وتلد، وتنجب ذكورا وإناثا، أو إناثا دون الذكور، أو ذكورا دون الإناث، أو أنها ستصبح امرأة كاملة الاستعداد للإنجاب، أو أنها ستكون عقيما، أو أنها لن تعيش أصلا لأن تصل إلى هذه المرحلة، فهذا يدخل في باب الملكوت لأنه ليس من ملك المشاهدة، وإنما هو من ملك الغيب الخاضع للملكوت، ولدفع لبس المتوهم (بما تحمل كل أنثى الآن) أي خروج فعل الحمل إلى الواقع بقوله تحمل، باستخدام الفعل المضارع هي تحمل الآن، وأنا أشاهد هذا الحمل، فأقول: ما ينبغي لهذا أن يكون هكذا، بدليل قوله تعالى على لسان نوح عليه الصلاة والسلام: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}[٤٧٦] فاستخدم الفعل المضارع على اعتبار ما سيكون مستقبلا، أي إنك إن تذرهم أحياء

---

[٤٧٥] – الرعد ٨

[٤٧٦] – نوح ٢٦–٢٧

فلن يلدوا مستقبلا إلا من سيكون فاجرا كافرا، وهذا معنى ما تحمل كل أنثى،وما تغيض الأرحام وما تزداد، فهو يعلمها قبل أن تحمل وتغيض وتزداد، لذلك دخل في علم الملكوت الذي يملكه الملك المطلق جل جلاله، لذلك جاءت الآية التالية توكيدا للتصرف في الأمرين معا بقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[٤٧٧] فهو الذي يعلم ما يغيب عن حسنا، ويعلم ما نشاهده علما مطلقا لا كما نشاهده نسبيا، فالذي نشاهده هو أعظم مما نشاهد وأعظم مما نرى، فهو سبحانه العظيم الشأن الذي يعلم كل ما في وجود ملكه، وكذلك يعلم كل ما نطلق عليه اسم الغيب وهو ما غاب عن الحس فيدخل فيه المعلومات والأسرار الخفية في الآخرة والأولى، ومن جهة أخرى فإسناد علم الغيب إلى الله تعالى إنما هو بالنسبة إلينا نحن المخلوقين، إذ لا غيب بالنسبة إلى الله تعالى، حيث يستحيل على الملك الخالق أن يغيب عنه شيء من خلقه في ملكه، وأما بالنسبة للشهادة فهو ما حضر للحس من إدراك الجوارح، فيدخل في ذلك الموجودات المدركة والعلانية الظاهرة، ولعظم ملك الملك جل جلاله فقد جمع علم الغيب والشهادة بالنسبة للمخلوقين، وذلك لعظم شأنه الذي لا يخرج عن علمه شيء بما استعلى على كل شيء بقدرته، وإحاطة علمه بالموجودات بما غاب عن حسنا وما حضر لأنه متعالٍ في صفاته متفرد في قدرته، ومن هنا تتضح صفة الملك المطلق الذي يعلم الغيب والشهادة ويتصف بالكبرياء الذي هو كمال الذات الإلهية الذي يعود إلى كمال الوجود، وكمال الوجود يدل عليه أمرين: أولهما أنه دائم أزلا وأبدا، لأن كل موجود حُدّ بجانبين فهو مقطوع، وكل مقطوع فهو ناقص، وكل ناقص في الذات فهو بالضرورة ناقص في الملك، وهذا محال على الله تعالى، فكمال الوجود هو كمال الملك، فالله تعالى هو الملك لأنه الدائم، والدائم الأزلي الأبدي الذي يستحيل عليه الزوال أو العدم فهو الملك المطلق، وثانيهما أن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود، فان كان الذي تم وجوده فى نفسه كاملا بما أوجد من موجودات ملكه فهو الملك جل جلاله، وعلى هذا فالله تعالى هو الملك الحق المبين، وإن كان هناك ملوكا من ملوك الأرض فهم داخلون في خلق الله

---

[٤٧٧] – الرعد ٩

وعبوديته شاءوا أم أبوا، لأن نواصي الخلق بيديه، يصرفها كيف يشاء، ولأن الملوك من الخلق، فالملك الحق آخذ بناصيتهم لا محالة، وعلى هذا فهم خاضعون لقانون العدل الإلهي حيث قال تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٤٧٨] فأرفع الناس منزلة عند الله في الدنيا والآخرة أتقاهم له، فهذا مقياس الكرامة في عدالة الملك الحق وإن كان يملك العفو و يملك الأشياء جميعا، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، بيده الملك والملكوت، وهو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، وبيده خزائن كل شيء {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}[٤٧٩] وما من شيء من الخير إلا عند الملك الحق خزائنه المملوءة، من حيث تهيئته وتقديمه فى وقته، وما ينزله للعباد إلا بقدر معلوم حددته حكمته فى الكون، فما من شيء من الأشياء الممكنة في تقدير الإنسان والملوك من بني الإنسان إلا وعند الله خزائنه، وهو تقريب لما يخزنه الملوك وما يحفظون فيه نفائس الأموال وهو تحدٍ لما عرف ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس، ولكن هذه الخزائن التي هي في مقدوراته تعالى إنما متعلقة بالإرادة في كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة من وصول أيديهم إليها مع كمال افتقارهم لها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لإيجادها وتكوينها بحيث متى تعلقت المشيئة بوجودها وجدت بلا تأخير، وهذا ما يفسره لنا قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٤٨٠] وهو نوع من التحدي لمن سمى نفسه ملكا، إذ يحتاج هذا الملك أو ذاك إلى العساكر والجنود والخزائن المحكمة لحفظ هذا الأموال والأرزاق خوفا عليها وصونا لها من الطامعين على الرغم من كونهم ملوكا، ولكن الملك الحق لا يخاف ولا يخشى، ولا يضل ولا ينسى،حتى أنه يرزق الجاحد والفاسق والكافر، لأنه الملك، والبشر خلقه وعباده وهو ملكهم ومليكهم فالعباد هم المحتاجون إلى الله، وشأن الله أعظم من أن يمنع عباده من الرزق كما يفعل ملوك الأرض، إذ المخلوق حقير وضيع بالنسبة إلى الملك الحق

---

[٤٧٨] – الحجرات ١٣

[٤٧٩] – الحجر ٢١

[٤٨٠] – الأعراف ١٨٨

المبين جل جلاله، ومن ناحية أخرى، فإن الملك المطلق يملك أصول الأموال والأرزاق، أما الملك بالإضافة فهو يملك فروعا من تلك الأصول، حيث أن الملك المطلق يملك أسباب الرزق ومسبباته ووسائله، من إنزال الماء وهو المطر وبث الحياة في الكائنات الحية التي تكون أسبابا لرزق الإنسان والحيوان والطير والنبات، أما الملك بالإضافة فيملك وسائل مسخرة له بعد أن تأذن بها مشيئة الملك المطلق، ولهذا فهو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده، أي في أمره وحكمه وتدبيره. فإذا كان الملك بالإضافة يهدي إلى طرق المُلك ووسائله، وملوك الأرض وسلاطينها تهب وتمنع وتعطي وتقمع، فنحن نعمد إلى ذكر ما بسببه يعطون ويهبون ويملكون، ألا وهو الماء دون غيره مما يهبه الملك المطلق جل شأنه لأنه أصل العطايا والهبات والأرزاق، بل هو أصل الحياة حيث قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}[٤٨١] فالملك المطلق جل جلاله، جعل كل شيء حي من الماء، وربط أصل عطاء الملوك بهذا الماء، إذ لولاه لما يستطيع أحد أن يعطي أو يأخذ أو يمنح، فالملك المطلق هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهذا أيضا دليل إذعان الخلق لملكه لأنه يتحكم بمقادير أرزاق خلقه وأقواتهم، أي بأسباب حياتهم لكونه الملك لقوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) حسب حاجة الخلق ووفق مشيئة الخالق في التقدير لما يعلم ما خفي عنا نحن المخلوقين وهو تحكم بدليل علم المعرفة لقدر الحاجة، لا على سبيل الإفراط والفوضى، ولا على قدر الطاعة والمعصية، وإنما على سبيل التوازن والتنظيم، وحق الخلق على الخالق بتأمين أسباب الحياة، فمن قصر في واجباته اتجاه الخالق فأمره إلى الله في الآخرة، ولأن الملك جل جلاله، ملكه ملك عدل فقد ساوى بين خلقه في الحياة الدنيا عبادهم وعبيدهم بأسباب الحياة،وعلى هذا دخل فيه الجزئي والكلي، إذ أن الخلق كلهم عبيد له، وجزء منهم، هم عباده كما قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

---

[٤٨١] – الأنبياء ٣٠

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}[٤٨٢] فهؤلاء عباد للملك داخلون ضمن عبيده ولكن لهم خاصية التميز بأنهم أدوا ما عليهم من واجب للملك الحق في الحياة الدنيا، فميزهم في الآخرة بهذه السمة عن بقية العبيد وإن كانوا من ضمنهم لقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}[٤٨٣] وهذا دليل قاطع على أن كل من فى السموات والأرض إلا سيأتي الله سبحانه يوم القيامة عبدا خاضعا لألوهيته وخاضعا لملكه، ولكونه الملك الحق المبين فقد أحاط علمه بهم جميعا وبأعمالهم، فلا يخفى عليه أحد منهم ولا شيء من أعمالهم، ولكونه الملك الخالق، فإذاً لا يستحق العبادة إلا الله الذي له ملك السماوات والأرض، لأن الإنسان يتقرب إلى الإله الذي يجلب له النفع ويدفع عنه الضر، ويصرف عنه الشر والفتن، وهذه الأمور لا يستطيعها إلا من ملك السماوات والأرض وما بينهما، قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ}[٤٨٤] وهذه دعوة تحدٍ من الملك الحق لما يزعمه الذين ادَّعوا باطلا أن لله شركاء يجلبون لهم نفعا أو يدفعون عنهم ضرا، وهذا منافٍ لمنطق الأشياء في فهم مسألة المُلك المطلق للملك الحق، إذ أن المُلك المطلق للملك الحق المبين إضافة لملكه الأشياء المادية فهو أيضا ملك إرادة ومشيئة وتقدير بعلم مسبق، فالذين يدعون شركة الله تعالى في ملكه لا يجيبون من يدعوهم، لأنهم لا يملكون مقدار ذرة في السموات ولا في الأرض، فليس لله شريك في خلق أو ملك، وليس لله من يُعينه على تدبير شئون خلقه، ولأنه سبحانه هو الملك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب، ويهين ويكرم، ويعز ويذل، فاقتضى ملكه وحكمته سبحانه أن أنزل آدم وذريته إلى دار تجري عليهم فيها أحكام الملك، ثم ينقلهم إلى دار يتمّ فيها جزاؤهم على أعمالهم كونه مليكهم، ولما كان مطلق الملك،للملك الحق وحده، كان أقبح اسم عند الله وأبغضه إليه اسم ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله عز وجل، فتسمية غيره بهذا

---

[٤٨٢] – الفرقان ٦٣

[٤٨٣] – مريم ٩٣-٩٤

[٤٨٤] – سبأ ٢٢

باطل، والله لا يحب الباطل، لأنه تكبر وتجبر، فالملك المطلق لطيف رزاق غفور رحيم، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول: أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر"[٤٨٥] وهو دليل الحق على عدم حاجته لأحد من خلقه وعلى امتداد وقت الرحمة واللطف التام إلى طلوع الفجر، فالملوك لا يعطون ويمنحون إلا أصحاب الحظوة لديهم والمقربين منهم بالتوسل والطلب، إلا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعرض على خلقه من العباد المنحة والعطاء والرحمة والمغفرة، دون حراس ولا حجّاب، ولا أسوار ولا أبواب، ودون مناسبة ولا وقت محدود، ومن لطف الله الملك المطلق في خلقه وعباده أن عطاءه وعفوه ومغفرته لم يقترن بوقت مخصوص لأناس مخصوصين في أيام خاصة كما هو حال ملوك الأرض وإنما كان طلب الحاجة من الرزق والعفو والغفران بطريقة الدعاء والاستغفار في جميع الوقت المذكور إلى إضاءة الفجر، ولكن جاء التخصيص لجميع الخلق على أن آخر الليل للصلاة والدعاء والاستغفار وطلب الحاجات وغيرها من الطاعات أفضل من أوله على العموم.

أما تجلي الملك جل جلاله يوم القيامة لخلقه فهو انتزاع كل ملك من أي مالك حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون، ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون"[٤٨٦] فهو يومئذٍ الملك. وهو الملك أزلا وأبدا. ولكن في يوم القيامة فكل ملك منزوع عن ملكه، إلا ملك السموات والأرض الواحد القهار، الملك يومئذٍ هو المالك وهو الخاص المُلك، ومعناه في حق الله تعالى أنه القادر على الإيجاد، وهي صفة يستحقها لذاته، والملك المتصف بالأمر والنهي وذلك يختص بالناطقين، ولهذا قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}[٤٨٧] ولم يقل رب الأشياء وملكها وإلهها، ورب

[٤٨٥] – صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٣٩

[٤٨٦] – صحيح مسلم، ج ١٣، ص ٣٧٣

[٤٨٧] – الناس ١– ٣

سائل يسأل لماذا قال تعالى: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[٤٨٨] فتقديره الملك في يوم الدين لله تعالى وهو الملك، وذلك لقوله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}[٤٨٩] وأما أنه خص الناس بالذكر دون المخلوقات الأخرى في قوله تعالى: (ملك الناس) لأن المخلوقات جماد ونامٍ، والنامي صامت وناطق، والناطق متكلم وغير متكلم، فأشرف جميع المتكلمين هم ثلاثة: الإنس والجن والملائكة، وكل من عداهم جائز دخوله تحت قبضتهم وتصرفهم، وإذا كان المراد بالناس في الآية هم المتكلمون فما ملكوه، هو بالضرورة في ملك من ملكهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءه رجل يشكو أباه في مالٍ نازعه إياه فقال: يا رسول الله إن لي مالا ولأبي مال قال: "أنت ومالك لأبيك"[٤٩٠] فأنت تملك المال وأبوك يملكك، فبالضرورة أبوك يملك مالك، وبما أن أبوك داخل في ملك الله الملك المطلق، فأنت ومالك وأبوك مُلكٌ لله، فكان ملك الناس في حكم ما لو قال هو ملكهم وملك كل شيء ملكوه، ولهذا كانت الآية التي قبلها رب الناس لأن: "الرب هو الله عز وجل وهو رب كل شيء أي مالكه له الربوبية على جميع الخلق لا شريك له وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك، والرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والمتمم"[٤٩١]، وملك الناس هو مالكهم ملكا تاما حاكمين أو محكومين لأنه هو خالقهم ومربيهم، ولأن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملوك لما تحت أيديهم من مماليكهم، بل بطريق الملك الكامل والتصرف الشامل والسلطان القاهر، أي أنه مطلق التصرف وأنه يملك من جميع الوجوه فلا تقاس ملكية غيره عليه ولا تضاف النعوت والأسماء إليه إلا من حيث أكمل الوجوه وأتمها من ناحية الربوبية والملك والأُلوهية، وإله الناس هو لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمور سياستهم والتولي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى جهد الملوك بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الأُلوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم إحياء وإماتة وإيجادا ورزقا وعناية

---

٤٨٨ – الفاتحة ٤

٤٨٩ – غافر ١٦

٤٩٠ – مصنف ابن أبي شيبة، ج ٨، ص ٣٩٠

٤٩١ – تاج العروس، ج ١، ص ٣٠٥

وهديا إلى أن يفضي ذلك إلى الحساب، وملك الناس من حيث الأُلوهية هو إشارة إلى حال القدرة على الإماتة مثل ما أوجد الخلق، والقدرة على البعث والنشور وصولا إلى الحساب أمام الملك الحق المبين، وأما من جهة أخرى فقوله تعالى: (ملك الناس) "داخل في معنى التحيات لله أي الملك لله، وكأنه صلى الله عليه وسلم أمرهم بأن يقولوا التحيات لله امتثالا لأمر ربه (قل أعوذ برب الناس ملك الناس) ووصفه بأنه ملك الناس يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون بمعنى القدرة فيكون صفة ذات، وأن يكون بمعنى القهر والصرف عما يريدون فيكون صفة فعل"[٤٩٢] ومن العجائب أن سورة الناس هي آخر سورة في القرآن الكريم، بمعنى انه ينتهي كل شيء ويبقى رب الناس وملك الناس وإله الناس الذي يعود إليه الأمر كله كما بدأه جل جلاله وكأنما هي هذه الخاتمة بحيث لم يبقَ إلا الرب الملك الإله مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[٤٩٣].

ولأن الله تعالى هو الملك المطلق جل شأنه، خلق الخلق وأمرهم بالعبادة والطاعة وصولا إلى مرضاته عز وجل، فكان لابد من واسطة تبلغ الخلق ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، فكان الملك المطلق أن اختار رسلا يبلغون رسالات الملك الحق المبين حيث قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٤٩٤] غير أن هذا الرسول هو الخليفة الذي استخلفه الله تعالى في أرضه، ورسالة الملك المطلق إلى الملك بالإضافة تختلف عن رسائل الملوك التي تحمل كتبها وتؤديها إلى أصحابها وتوضح لهم ما هو مطلوب منهم على وجه الجبايات وجمع الضرائب واستحواذ الأملاك وما إلى ذلك مما تطلبه الملوك من ولاتها ووكلائها في أرض ممالكهم من أشياء مادية وعينية من أموال وأرزاق وتجييش الجيوش وتسخير العمال والصناع والزراع حفظا على ممالكهم وصونا لها، إلا أن رسائل الملك المطلق إلى خلفائه تختلف كل الاختلاف عن رسائل ملوك الأرض، فهي تحمل الهداية

[٤٩٢] – فتح الباري، ج ٢٠، ص ٤٥٢

[٤٩٣] – الأنبياء ١٠٤

[٤٩٤] الجمعة ٢.

والتقوى والنصيحة والإرشاد خوفا عليهم ورحمة بهم، فهو لم يطلب منهم إلا ما فيه خيرهم وصلاحهم من خلال هذه الرسائل التي يتلوها عليهم كي تزكيهم وتعلمهم الحكمة التي تخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الهدى والإيمان، وقد تكفل لهم بأسباب حياتهم ومعايشهم وأرزاقهم حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[٤٩٥] فالله تعالى هو الملك الخلاق، فما خلق الجن والإنس إلا لشيء يعود عليه بالنفع، ألا وهي العبادة، والعبادة نفع لهم، وما يريد منهم من رزق لأنه غني عن العالمين، وما يريد أن يطعموه لأنه تعالى يُطْعِم ولا يطْعَم، فالملك وحده هو المتكفل برزق عباده، وهو ذو القوة الشديد الذي لا يعجز عن شيء، وإنما رسله تبلغ خلقه ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة. فالإرسال من الله إنما أرسلهم من كونه ملكا إلى النفوس الناطقة من عباده لكون هذه النفوس ملوكا مدبرين ما يملكون من هياكلهم الأبدان ورعايا الجوارح الظاهرة وقواهم الباطنة فما تجيء رسالة من الملك إلا بلسان من أرسل إليهم قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٤٩٦] وما أرسل الملك الحق رسولا إلا متكلما بلغة قومه الذين بعثه فيهم ليفهمهم ما أتى به، فيفقهوا عنه ويدركوه بسهولة، وليس على رسول الملك الحق هدايتهم، فالله يضل من يشاء لعدم استعداده لطلب الحق، ويهدى من يشاء لحسن استعداده له، وهو الملك القوي الذي لا يُغلب على مشيئته، والذي يضع الأمور فى مواضعها، فلا يهدي ولا يضل إلا لحكمة. فيبعث الله رسله إلى هذه النفوس الناطقة وهي التي تنفّذ في الجوارح ما تنفّذ من طاعة ومخالفة كونها مملوكة لها، ولهذا فلها قبول الرسالة والإقبال على الرسول أو الإعراض وقد يكون الرد بحسب ما أعطاها الله من الاستعداد من توفيق أو خذلان فجعل النفوس ملوكا على أبدانها وأتاها ما لم يؤت أحدا من العالمين وهو طاعة رعاياها لها فالجوارح والقوى لا تعصي لها أمرا بوجه من الوجوه لأنها متصلة بها،

---

[٤٩٥] – الذاريات ٥٦-٥٨

[٤٩٦] – إبراهيم ٤

وسائر الملوك الذين رعاياهم غير متصلين بهم قد يعصون أوامر ملوكهم كما أن من هؤلاء الملوك قد يعصون ما أمرهم بـه الملك الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله إليهم وقد يطيع، فتوجيه الرسل وبعث الله إليهم أثبت لهم كونهم ملوكا، فلما أنزلهم منزلته في الملك علمنا أنه لولا وجود مناسبة تقتضيه ما كان هذا، فإذاً المناسبة في أصل الخلقة وهي قوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}[٤٩٧] فهو ولاه وملّكه وجعله خليفة، فمنهم من خرج عليه كفرعون وأمثاله ومنهم من لم يخرج عليه، فما كانت الرسل إلا إلى ولاته، ثم أن هؤلاء الملوك من النواب وجهوا أيضا منهم إليه تعالى رسلهم يطلبون منه ما يؤيدهم به في تدبير ما ولّاهم، فأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين ومرشدين فصار المَلك مُلك المَلك المطلق لهذا السبب، فهو الذي خلقهم، وإليه مرجعهم، لذلك حباهم بالرحمة عن طريق الرسل ليبينوا لهم: {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[٤٩٨] فالذي كفر فقد خرج على الملك الحق المطلق، كما يخرج الولد من أبناء ملوك الأرض على والده، إذا ملكه يسعى في هلاكه مع إحسانه إليه وبايع على قتله لينفرد هو بالملك، ولكن ملوك الأرض العصاة لا يستطيعون أن يخرجوا عن قبضة الملك الحق المطلق، فيقعون في دائرة الملكوت فيكون الملك لله الواحد القهار.

وملوك الأرض نوعان:

نوع استولى على الملك بالقوة والبطش والجبروت يسوم الناس سوء العذاب مثل فرعون كما قال تعالى: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}[٤٩٩] فهذا النوع من الملوك لا يمكن أن يكون خليفة ولا يصلح لهذا الأمر من قريب أو بعيد، حيث طغى وتجبر وتجاوز حدّه في حق الملك المطلق وادعاء الألوهية حيث قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ

---

[٤٩٧] – الحجر ٢٩

[٤٩٨] – البقرة ٢٥٣

[٤٩٩] – البقرة ٤٩

الْكَاذِبِينَ}[500] فعندما عجز هذا الملك الذي هو فرعون عن محاجة موسى، تمادى في طغيانه بادعائه الأُلوهية، حيث خاطب قومه بأنه ليس له علم بوجود إله لهم غيره، ولذلك أمر وزيره هامان أن يصنع له برجا ويُشيد له صرحا شامخا عاليا ليصعد عليه، وينظر إلى الإله الذي يدعو إليه موسى عليه الصلاة والسلام، فمُلك القوة دائما يقوم على الظلم والبطش والاضطهاد.

النوع الثاني عادل: وهو على عكس المُلك السابق فهذا النوع أساسه العدل والرحمة ونصرة الحق، وأعلى مراتب ملوك الأرض هم الخلفاء الذين يختارهم الله تعالى لا على أساس ما يملكون من متاع الدنيا، وإنما لما يحملون من العلم والحلم والحكمة والعدل، لذلك كان تملك الملك على الخلق حاجة ضرورية لبني البشر من أجل سياسة أمورهم وتدبير شؤونهم بما يصلح أحوالهم بجلب المنافع بإعمار الأرض ودفع الأضرار بمقاتلة العدو كما جاء في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[501] وهذا يعني أن الملك الذي يتملك على القوم هو حاجة اجتماعية لأنه يجمع شملهم ويوحد كلمتهم، وهم يصدرون عن رأيه في أمورهم بالإضافة إلى أنه يكون بالنسبة لهم رمزا يلتفون حوله في النوائب والمعضلات، ولذلك فإن هؤلاء طلبوا من نبيهم فى ذلك الوقت أن يجعل عليهم حاكما يتملك عليهم و يجمع شملهم بعد تفرق ويقودهم تحت لوائه إعلاء لكمة الله واستردادا لعزتهم، فمن أجل ذلك أجابهم نبيهم إلى ما طلبوا وفق اختيار الملك المطلق،وليس وفق ما يشتهون، إذ صفات الملك بالإضافة هي أساسا مستمدة من صفات الملك المطلق بصرف النظر عن رضا البعض وعدم رضا البعض الآخر كما اعترض بنو إسرائيل على الصفات التي يحملها الملك بالإضافة حيث قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ

---

[500] – القصص ٣٨

[501] – البقرة ٢٤٦

قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٥٠٢] إن الله استجاب دعاءكم، فاختار لهم خليفة وملكا يكون حاكما عليهم، وآمرا فيهم، تنتظم به كلمتهم ويجتمع به أمرهم ويستقيم حالهم رغم اعتراض كبرائهم على اختيار الله قائلين: كيف يكون ملكا علينا ونحن أولى منه بالملك، لأنه ليس بذي نسب ولا مال، لكن اختيار الله ملكا لهم ليس وفق ما تشتهي أنفسهم، وإنما اختاره الله حاكما عليهم لتوافر صفات الخليفة والقيادة في شخص الخليفة، وهي سعة الخبرة بشئون الحرب، وسياسة الحكم مع قوة الجسم والحكمة، والملك بيد الله يعطيه من يشاء من عباده ولا يعتمد على وراثة أو مال، وفضل الله وعلمه شامل، يختار ما فيه مصالح عباده .

فالملك بالإضافة يكون وفق مشيئة الملك المطلق، فهو الذي يختاره ويمنحه من الملك ما تقتضيه الحكمة الإلهية لمصلحة الإنسان حيث قال تعالى: {فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا}[٥٠٣] ونحن هنا نرى أن الملك العظيم بعد الكتاب والحكمة الذي آتاه الله تعالى لإبراهيم وآله عليهم الصلاة والسلام هي النبوة التي كانوا بها خلفاء الله بأرضه وهم أدلاء لخلفائه عليهم بمعنى أنهم هم الملوك بالإضافة الذين يتصفون بصفات الملك المطلق، وينقلون هذه الصفات للآخرين كي يكونوا خلفاء الله في أرضه، لذلك فإن الله تعالى هو أعلم بمن يكون أهلاً لهذا المُلك، وكذلك مقدار ما يمنح الملك المطلق للملك بالإضافة وفق ما تقتضيه حكمته حيث قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٥٠٤] ففي هذه الآية الكريمة نرى الخليفة يطلب من الملك المطلق أن يخوله الملك ليكون مَلكا بالإضافة، وهذا المُلك الممنوح للخليفة وهو نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من المَلك الوهاب قد

---

[٥٠٢] – البقرة ٢٤٧

[٥٠٣] – النساء ٥٤

[٥٠٤] – ص ٣٥– ٣٩

تعدى في سلطانه وبسط نفوذه ما لم يملكه أحد من خلق الله بعده، إضافة إلى تخويله في التصرف في هذا المُلك، وذلك لأن الخليفة بعلم الله تعالى قد وصل إلى درجة اليقين الذي هو الإخلاص التام والتسليم بالقدرة والمشيئة دون مراودة شك في أن الله تعالى يفعل ما يريد متى يريد، وعلى هذا فالخليفة صاحب يقين متى توجه إلى الملك المطلق فيما تمنى كان له ذلك حقيقا بإذن الله تعالى، فقد جاء في الحديث الصحيح: "أن رجلا مصابا مُرَّ به على ابن مسعود، فقرأ في أذنه: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) حتى ختم السورة فبرأ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بماذا قرأت في أذنه ؟ فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال"[٥٠٥] ذلك أن اليقين هو الإيمان كله، فلا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل إلا بمقدار ما ينقص من يقينه، والهبة لا تطلب إلا من الملوك، وملك الملوك هو خالق الخلق، فلذلك قال: (إنك أنت الوهاب) فكانت الهيبة من العظمة في المُلك بحيث لا تمنح إلا لمن يعرف حقها ويوجهها فيما أراده الملك المطلق من الخير، فلذلك كان التفويض الإلهي بحرية التصرف للخليفة في هذا المُلك الموهوب (فأمنن أو أمسك بغير حساب) فلما علم الله تعالى_ وهو العليم_ أن الخليفة سيتصرف في هذا المُلك على الوجه الذي يرضي المَلك المطلق بما أنعم عليه من عطائه وتمليكه ملكا ما ينبغي لأحد من بعده، فقد فوضه بإعطاء من يشاء وحرمان من يشاء، ولا حساب عليه لا في المنع ولا في الإعطاء، لأن المنع والإعطاء من الخليفة كلاهما من أجل إعمار الأرض وإصلاح الخلق.

اللهم يا الملك يا رب العرش العظيم، نسألك الفردوس الأعلى من الجنة مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا يا رب العالمين، لنا ولوالدينا وذرياتنا وللمؤمنين والمسلمين، اللهم ملك السموات والأرض ومليكهما، نسألك بملكك الكبير واسمك العظيم وسلطانك القدير، وأنت المجير، أن تجيرنا من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، وأن

---

[٥٠٥] – تفسير ابن أبي حاتم، ج ٤٣ ، ص ٤٧٤

تظلنا بظلك يوم النشور، اللهم يا الملك يا الوهاب يا الغفور يا التواب، ويا رب الأرباب، نسألك أن تجعل بيننا وبين النار حجاباً، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم إنا نعوذ بسلطانك ونلوذ بإحسانك، فلا إحسان إلا وأنت جابره، ولا سلطان إلا وأنت قاهره، ولا جبار إلا وأنت داحره، عنت الوجوه لعزتك، وخشعت القلوب لهيبتك، اللهم إنا نعوذ بعفوك من انتقامك، وبرضاك من سخطك، وبغفرانك من معصيتنا، إنك أنت التواب، اللهم أنت الملك الذي لا تضره معصية خلقه، ولا تنفعه طاعتهم، فتجاوز عنا اللهم إنك أنت الملك الوهاب.

القدُّوس

أول ما سنتناول في الاسم القدوس المعنى من حيث دلالة اللغة، ثم ندلي بتصورنا موافقة أو رفضا أو تعديلا بما يتماشى مع رؤيتنا في أسماء الله وما ينبغي للحديث عنها وما يتوجب فعله ممن أراد أن يكون خليفة لله يقدسه ويعبده ويعمر الأرض التي استخلفه فيها.

القدوس: من أسماء الله تعالى. وهو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص[٥٠٦].

والتَّقْدِيسُ تنزيه اللَّه عز وجل، وهو سبحانه المتَقَدَّس القُدُّوس المُقَدَّس،

والقُدُّوس فَعُّول من القُدْس وهو الطهارة.[٥٠٧]

ولنا هنا وقفة قبل أن ننطلق مع أنوار هذا الاسم العظيم نقف وقفة أمام هذا التعريف، نعم فهو الطاهر المنزه الذي له الجمال والكمال والجلال ذاتا واسما وصفة فله الأسماء الحسنى التي لا ينبغي أن نقرنها بنقائضها مثل (المنزه عن العيوب والنقائص) فكيف يرقى إلينا أن نقرن بتعريف القدوس ولو بحسن النية (العيوب والنقائص) حتى لو كان هذا الاقتران في مثل التعريف السابق، وهو القدوس الكامل في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، ثم إن الطهارة منه وليس هو منها، والتقديس منه وليس هو منها لأنه خالق اللغة فكيف نقول القدوس من القدس، و نقول هنا لمن يقول لنا إنها اللغة واشتقاقاتها، فنقول له: إنه الله الخالق لكل شيء فلا تشتق أسماؤه من مصادر اللغة لأنه خالقها، فهو الذي خلق الطهر لأنه الطاهر فالطهر منه خلقا وله وصفا ويؤيد ذلك ما قلناه في الاسم العدل فقد سمى نفسه العدل فكيف نقول ؟!! هل نقول العدل مشتق؟ إذا كان كذلك فمن أي شيء هو مشتق؟!!!.

القدُّوس اسم من أسماء الله الحسنى، والقداسة تعني الطهارة، والتقديس يعني التطهير، {وإذ قال ربُّكَ للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفك الدماء

---

٥٠٦ القاموس الفقهي – ج ١ ، ص ٢٩٧

٥٠٧ لسان العرب، ج٦، ص١٦٨

ونحن نُسبح بحمدك ونُقدِّسُ لك قال إني أعلم ما لا تعلمون}[٥٠٨] يُفهم من هذه الآية الكريمة الاستغراب الملائكي على جعل الإنسان خليفة في الأرض، ولهذا قال الملائكة:)أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء)، جاءت هذه الآية على لسان الملائكة بأسلوب تساؤلي، استغرابي، وذلك لِما أدهشهم من مفاجئة. كيف يمكن أن يكون خليفة ليقدِّس الله تعالى ومن أعماله وأفعاله الفساد في الأرض التي يود له أن يكون خليفة فيها. وذلك لأن الملائكة يؤمنون بالإصلاح في الأرض ولا يُفسدون فيها. قال (إني أعلم ما لا تعلمون) هذه لم تكن الإجابة، بل أنها تحمل في مضمونها أنَّ هناك ما يبرر ذلك، وهو علم الغيب الذي لا تعلمه الملائكة، وهذا المبرر هو الذي يستوجب استخلاف الإنسان في الأرض. على ضوء ذلك علَّم آدم الأسماء كلها، {وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبئهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}[٥٠٩]. فالذي كان عِلمُ غيب، هو الذي أصبح معرفة تامة بعد أن تعلَّمه آدم من الله العليم الحكيم، الذي بدوره أنباء به الملائكة الذين كانوا به يجهلون، ولأن الملائكة يُسبِّحون الله ويقدسوه، فلمَّا أنبئهم به آدم (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) هذه الآية دليل مباشر للتسبيح والتقديس لله تعالى.

والتقدُّس في اللغة يعني التطهُّر. والتطهُّر يعني التخلص من الشوائب التي تعلق بما ينبغي أن يكون نظيفا. ولذا من خُلقَ أن يكون نظيفا يجب أن يحافظ على نظافته، حتى لا يتعارض مع ما يراد له أن يكون عليه من قبل خالقه. وإذا لم يحافظ على ذلك فسيجد نفسه أمام مخالفات ليس له بدا من المساءلة عليها، والمحاسبة على الأعمال والأفعال التي تستوجب تصنيف السالب مع العقاب أو العفو، والموجب مع الموجب مع الثواب والجزاء الأوفر.

---

[٥٠٨] البقرة ٣٠.

[٥٠٩] البقرة ٣١ . ٣٣.

إن تقديس الملائكة لله تعالى، دليل إثبات قوة الارتباط الروحي والتعلُّق بصفاء مع الخالق، ولهذا فالتقديس تعبُّد وعبادة، تعبُّد بما يرضي الله، وعبادة لله وحدة.

جاء في لسان العرب، قدُّوس على وزن فعول، وهو من أبنية المبالغة، ويعني الطهارة.

وفي معجم مقاييس اللغة لأبن فارس القدس البركة، والأرض المقدسة أي المباركة. ولذلك عندما يقال البيت المقدس، والأرض المقدسة، يعني بذلك الأماكن المباركة التي خصها الله تعالى بهذه الصفة. ولأنها كذلك تهوي أفئدة الناس إليها، وتلتقي فيها لتسبح الله وتقدسه، وهي تتبرك في أماكن التخصيص بالبركة. ولأجل ذلك فالذين تهوى قلوبهم لهذه الأماكن المطهرة هم الذين يسارعون في إعلان الطاعة، وإظهار أفعال التقديس في القول والفعل، ليكون المكان المقدس شاهدا عليهم إلى الأبد.

ويقول الدكتور على الصلابي: "القدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى، ثبت الكمال كله"[٥١٠]

القدُّوس، هو الدائم الذي لا يدوم مع دوامه دائم، ولذا فالقدُّوس ما ليس بمادة، وما ليس بروح، وذلك لعدم بقائهما دائمين، ولأن الأرض مكوِّن مادي والإنسان منها، لذا كان الخليفة هو المخلوق من التراب المادي، ولهذا فالمادة لا تأتي إلا بمادة، ولا يمكن أن تأتي بروح. فأمر الروح من علم ربِّي {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمرِ ربي وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[٥١١].

إذن من المسلمات أنَّ الخليفة والروح هما من مخلوقات الله تعالى، والفارق بينهما، هو إننا نعرف كيف خلق الخليفة ولم نعلم كيف خلق الروح، ولهذا نكون جازمين بقولنا أنّ القدوس تعالى لم يكن مادة ولا روح. ولأننا لم نؤت من العلم إلا قليلا فلن نعلم أمر الروح، وبما أننا لن نعرف أمر الروح، التي هي مخلوق من المخلوقات، فكيف لا يؤمن البعض بالقوة العظمى التي من وراء خلقنا وخلقها. ولماذا لا يُقدَّس الجميع من خلقهم جمعا وفرادة؟!.

---

[٥١٠] على محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين. بيروت: دار المعرفة الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١٨٨.

[٥١١] الإسراء ٨٥.

ومع أن الخليفة خُلق من صلصال من حماٍ مسنون (من مادة) إلا أنه لم يكن مجردا من الروح، فلو كان مجردا منها ما كُتِبَ مع الأحياء، {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}[٥١٢] من هذه الآية يُلحظ أن الخليفة مادة وروح، وذلك لوجود فعل اشتراطي، يستوجب السجود له بعد التسوية ونفخ الروح فيه (فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روح فقعوا له ساجدين) وهذا يدل على أن السجود ليس لآدم، بل السجود لِمن سواه ونفخ فيه من روحه (لِمن بَعَثَ فيه الحياة) الحياة التي لم تكن قابلة للملاحظة الإدراكية إلا بوجود الروح في الجسد الذي تمت تسويته. وبناء على ذلك بإمكاننا أن نميز بين الروح المخلوق المجرد من المادة، وبين الإنسان المادة الممزوجة بالروح فيها.

فالإنسان لو لم تُنفخ الروح فيه من روح الله، ما كان الخليفة، وهنا يكمن السر في اختياره، والسؤال المترتب على ذلك: هل كل من خُلق ونُفِخت فيه الروح هو مُقدِّرٍ لِمن سوَّاه ونفخ فيه من روحه؟. بالتأكيد من لا يُقدِّرَ خالقه لا يُقدَّر. والإنسان غير المُقدَّر لا يمكن أن يكون خليفة. وذلك لأن جعل الإنسان خليفة هو في أساسه تقدير من خالق لمخلوق. ولهذا فإن قاعدة التقدير هي قاعدة الاستخلاف، ومن لا يُقدِّر من خَلَقَهُ بالتقدير، يفتقد القاعدة التي على أساسها أريد له أن كون مستخلفا في الأرض. وحتى على المستوى البشري، لا خليفة ألا بشروط، كالعدل، والمساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، مع الالتزام بالدستور، والقوانين والنظم والتشريعات الصادرة ممن استخلفه، فإذا لم يتم التقيد والالتزام بكل ذلك يتم سحب الثقة، وإعلان عدم الأهلية، واختيار البديل بكل إرادة. وبما أنّ أساس العمل الطيب هو غرس الثقة، فإن أساس سحبها يترتب على ارتكاب العمل غير الطيب. فإذا كان الأمر على هذا الحال على المستوى البشري، فكيف لا يكون على مستوى القدُّوس الذي خلقك فسواك فعدلك.

---

[٥١٢] الحِجر ٢٩ . ٣١.

وبما أنَّ المُقدّس هو المنزه، فهل الذي لا يطيع خالقه يحق لنا أن نصفه بالمُنزَّه، إي هل الذي لا يحق الحق ولا يعمل عليه، ويشوه الحقائق، ويَقلِبُ أوجهها يمكن أن يوصف بالمنزَّه؟!. بالتأكد تكون الإجابة الموضوعية (بلا)، وبما أنّ الأمر كذلك فلا يمكن أن يكون الخليفة.

من يريد أن يكون الخليفة عليه باستمداد صفة النزاهة ممن استخلفه في الأرض، وإن لم يستمد النزاهة منه، فلن يخلفه في شيء، ولأن الله هو القدوس (المنزه) خلق الخليفة على النزاهة، ولهذا من لا يكون نزيها، لن يكون له في الاستخلاف من شيءٍ.

ومن آثار الإيمان بالاسم القدوس جل جلاله:

١ . تقديس الله عز وجل وتنزيهه عن النقائص وأنه موصوف بكل كمال وصفات الكمال هي ما وصف به نفسه سبحانه وتعالى في كتابه أو ما وصفه به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

٢ . وكما انه منزه عن النقائص في صفاته وأسمائه الحسنى فهو أيضا منزه عن النقائص في أقواله وأفعاله فقوله الصدق وخبره الحق، قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}[٥١٣]، وقال تعالى: {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}[٥١٤]، وفعله منزه عن النسيان والخطأ وغيرها من الآفات قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٥١٥]، أي صدقاً فيما قال وأخبر ووعد وعدل فيما حكم من أحكام. قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[٥١٦] أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يخلف شيئاً عبثا أو سفها.

---

[٥١٣] النساء ٨٧.

[٥١٤] النساء ١٢٢.

[٥١٥] الأنعام ١١٥.

[٥١٦] المؤمنون ١١٥.

٣ . كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من ذكر هذا الاسم في ركوعه وسجوده فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده: "سبوح قدوس رب الملائكة والروح"[٥١٧].

وكان يسبح الله بعد فراغه من الوتر كما جاء في حديث أبي بن كعب قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر سبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد فإن سلم قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات"[٥١٨].

٤ . وفي اسم القدوس جل جلاله قال الشاعر:

هذا ومن أوصافه القدوس ذو التنزيه بالتعظيم للرحمات.

٥ . من آثار هذا الاسم على المؤمن حرصه على أن يكون شغله الشاغل أن يطهر نفسه كي يسمح له أن يكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة وحسن أولئك رفيقا، وهذا يجعله في مجاهدة واتقاء الله تعالى.

٦ . الذي عرف اسم القدوس ومن هو؟ لن يتذلل بهذه النفس التي تقدست بمعرفة الله تعالى، فمن المستحيل أن يذل نفسه إلا لله جل جلاله، قال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}[٥١٩]، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[٥٢٠].

٧ . من آداب من عرف هذا الاسم الكريم أن تسمو همته إلى أن يطهره الله من عيوبه.

وعليه القدُّوس: اسم الله المُطلق، وجاءت مطلقية الصفة التي تتصدر هذا الاسم الكريم، من احتوائها لجميع صفات الله تعالى، فالقداسة لا تتم إلا لعظيم، والعظيم لا يُمكن أن يكون فاقدا لصفة من الصفات الحميدة، ولا فاعلٍ لصفة من الصفات الرذيلة. ولأن هذه صفات كمال،

---

[٥١٧] رواه مسلم رقم ٤٨٧.

[٥١٨] أخرجه الإمام احمد في مسنده ج ٥ ص ١٢٣.

[٥١٩] الأنبياء ٨٧.

[٥٢٠] الأنبياء ٨٨.

والكمال لله تعالى، لذا فالقدوس هو الذي يستوجب التقديس دون غيره. ومن لا يمتلك صفات الكمال فهو المنقوص، والمنقوص لا يمكن أن يُقدَّس.

ولأن القدوس هو الله الملك المتعال، فلا يتماثل في صفاته مع خلقه، فالخلق بعضهم يسعى لأن يقتدي بما أمر الله به، ولأن كل أوامر الله تشتق من أسمائه الحسنى، فالإقتداء بها هو الذي جعل الخلائف يُقدِّسون خالقهم. أمَّا التماثل في الصفات مع الخالق فليس له محل في العقول، ولهذا جاء اسم القدوس مطلق ومجرد من المادة والروح، إي أن القدوس خالق، والمادة والروح هما المخلوقتان، ولهذا مع أنّ لله تعالى صفات عديدة إلا أنه لا يوصف بها بما يماثل أوصاف المادة والروح. {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} سبحان الله ما أجمل الإعجاز في هذه الآية الكريمة، ليس كمثله شيء، جاءت مطلقة، ثم جاء من بعدها السميع البصير، الذي للكائنات المخلوقة منه حواس تمكنها من أن تنصت لتسمع، وتنظر لتبصر، مما جعل البعض يتهيئا تفكيره بوجود حاسة سمع وبصر من مادة للخالق، ولكن هل يحق لمؤمن أن يفكر في مستوي التدني العقلي عن خالقه القدوس، الذي لم يكن مادة ولا روح. ولأنه كذلك فهو القدُّوس. ولهذا عندما ترد مثل هذه الآيات لإظهار قوة الإعجاز فيها لا ينبغي إضعافها بالتفسير المادي أو الروحي، بل يجب أن يتم التأمل الذي يُمكن المتأمل من تقديس من لا يمكن وصفه بما هو قابل للمشاهدة أو الملاحظة. فهاتان الوسيلتان يتعلقان بمخلوق وليس بخالق. فعندما ما يقول تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}[٥٢١] فبيديَّ هنا لا تعني لا من قريب ولا من بعيد اليد المادة، ولا اليد الروح، بل تعني لنفسه يد تطول كل شيء متى شاء وكيف شاء وأينما شاء سبحانه جل جلاله، ولذا يده لا توصف إلا بصفاته الحسان. وهكذا حال السمع والبصر الإلهي، فالسمع والبصر مصدران للإدراك الحسي، الذي به يتم التبيُّن دون شك أو لبس أو غموض، ولهذا فالسمع والبصر ليس بمادة، ولا روح، بل هما قوة تثبيت الأشياء بأدلة قياسية. وإلا هل هناك من يرى البصر أو السمع!؟ بالتأكيد لا. وإن أحد قال أنا أرى أحدهما أو

---

[٥٢١] ص، ٧٥.

كلاهما فلنقل له أرسمهما أو صورهما إن استطعت، ونقول له إنّ القابلتين للمشاهدة هما العينين المبصرتين والأذنين المنصتتين، فالسمع لا يقاس، والبصر لا يقاس، فاللذان يقاسان هما الرؤية أو النظر والاستماع أو الإنصات.

قال تعالى: {واتينا عيس ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس}[٥٢٢] يقول القرطبي: البينات هي الحُجج والدلالات التي ذكرها الله في (آل عمران والمائدة)، وأيدناه، أي قويناه. وقال النحَّاس: سُمي جبريل روحا وأضيف إلى القدس، لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روح من غير ولادة؛ وكذلك عيس روحا لأنه مولود من غير والد ولده. وقال الحسن: القدوس هو الله، والروح هو جبريل[٥٢٣]. {قل نزَّله روح القدس من ربك بالحق ليُثبت الذين أمنوا وهدى وبشرى للمسلمين}[٥٢٤].

روح القدس، كلمتان متكونتان من روح وهو المخلوق الذي لم يلده مخلوق، والقدس وهو التنزيه من الله تعالى. ولهذا فإن روح القدس هو جبريل المنزه من الله تعالى، ولأنه المنزه من الله تعالى جاء مناصرا لعيسى عليه الصلاة والسلام الذي اصطفاه الله تعالى، وذلك لأجل تنفيذ الأمر القدّوُس.

فروح القدس، تدل مباشرة على الارتباط الوثيق بين القداسة والروح المقدسة. فالقداسة تعبُّد إيماني، وتعني الطهارة، ولهذا فالروح القدس هي الروح الطاهرة المنزهة عن الأخطاء والعاملة على تنفيذ الأمر الحق، ولذا فكانت هي المناصرة والداعمة والساندة لعيسى في كل أمر يراد له أن يسود أو أن يدمغ باطلا.

وروح جبريل قدسية لأنها مخلوقة خلقا ولم تولد ولادة من أي روح، فهي لم تكن من روح الملائكة، ولا من روح الجن ولا من روح الخليفة، إنها الروح المستمدة من القدوس مباشرة، ولهذا فهي الروح المطهرة والمنزهة التي لا تنطق إلا بالحق، ولا تفعل ما يخالف أمرا من

---

[٥٢٢] البقرة ٨٧.

[٥٢٣] القرطبي الجامع لأحكام القرآن مجلد رقم ٢ ص ٢٤.

[٥٢٤] النحل ١٠٢.

الملك القدوس، وهي التي لا تضيف ولا تنقص لما تُؤمر به، وهي التي لا يوسوس له موسوس. إنها روح القدس فالحمد لله ربِّ العالمين.

قال تعالى: {يُسبح لله ما في السماوات والأرض المَلِك القدُّوس العزيز الحكيم}[٥٢٥] تُثبت هذه الآية أن كل شيء يُسبح لله تعالى، والتسبيح: هو ذكر الحق، والتقديس هو التمسك بالحق، ولهذا دائما لا تقديس إلا لمنزه، والمنزه هو الله الملك القدوس، ولذلك فالكل يحمد الله ويشكره ويصلى إليه (يُسبِّحه) {تُسبِّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ وإن من شيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا}[٥٢٦] فلا تفقهون تسبيحهم لا تفهموه حتى وإن تمكنت حواسكم المنصتة من استماعه، وإلا هل منكم من يفهم لغة الطير، التي فُهِّمت لسليمان عليه الصلاة والسلام، وفُهم من خلالها المنطق الذي تحمله أو تؤسس عليه لغة الطير، وهل منكم من يفهم لغة النمل التي ابتسم لها سليمان عندما فهمها بكل وضوح، وهكذا بقية الكائنات التي جعل لها الله تعالى لغة مسموعة.

وبما أن كل شيء يُسبِّح بحمد الله تعالى، إذن لكل شيء لغة، ولكن جميعها لا تُفقهُ من قبل الإنسان، وكلمة لا تفقهوا، تعني لا تفهموا، ولن تبلغوا فهمها، وتتضمن عدم المقدرة السماعية أيضا، ولهذا حاسَّة السمع ليس بإمكانها أن تسمع كل شيء، وهذا لا يعني أنَّ الشيء ليس له لغة، بل بما أنه يُسبِّح فبطبيعة الحال الصوت الذي يُسبِّح به في متناول التيسير المسموع، وإلا لِمن يُسبح؟. إنه يُسبِّح للسميع، والسميع هو الذي يسمع كل شيء يُسبِّح بحمده. وأيضا بما أن كل شيء يُسبِّح بحمد الله، والله هو السميع البصير الملك القدوس، إذن لا يُخلق شيء يُسبح إلا والذي خلقه يريد أن يسمع تسبيحه، فالتسبيح يتعلق بمن يُسبِّح له، ولا يتعلق بآخر، فالإنسان عندما يُسبِّح لا يُطلب منه أن يرفع صوته، بل من المُفضل أن لا يسمعه أحد لا يتعلق الأمر به (لا يتعلق أمر التسبيح به) ونحن بنو الإنسان الذين خلقهم الله تعالى في

---

[٥٢٥] . الجمعة ١.

[٥٢٦] الإسراء ٤٤.

أحسن تقويم، لم يكن من بيننا واحد سميع، بل كلنا نستمع، والاستماع هنا، لِما يُمكن أن يتم سماعه، أمّا الذي ليس بالإمكان سماعه، فلا يتم الالتفات إليه.

وعليه، نُقدِّسك: نتمسك بك وحدك لا شريك لك، بيدك الخير، ونعترف أنك المُنزه عن النقيصة والولد، وأنك أنت المختص بالصفات المطلقة، ونحن الذين لنا الصفات النسبية، فأنت ولينا الذي يحفظنا من كل شر، فسبحانك لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم الملك القدُّوس.

القدُّوس: هو الذي لا يتأثر برغبة أو حاجة أو غريزة، مما جعله منزه عن كل ما يؤثر في القول والفعل بأثرٍ عاطفي. فأفعال العاطفة تمتد لتحتوي من بين ما تحتوي المظالم، ولأن الله هو العادل في ملكه قال تعالى: {وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما}[٥٢٧]. ولذلك يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "القدوس اسم جَمعَ كل صفات الجلال والكمال والجمال، وكل أسماء الله الحسنى، تدور مع هذه الأمور الثلاثة، فهو جل شأنه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله، وهو الجميل وهو الجليل الذي تنزه عن الشريك والمثيل"[٥٢٨].

ويقول الإمام الغزالي: "القدُّوس هو المُنزِّه عن كل وصف يدركه حس، أو يتصوره خيال، أو يسبق له وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير"[٥٢٩]. إنه الله تعالى، الذي لا يتصف إلا بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في أسمائه الحسنى. ولأن له الكمال وما دونه منقوص، لذا فهو الذي يُعبد دون غيره، وهو المُنزَّه الذي لا يقارن مع احدٍ. ولأنه هوَّ كما هوَّ، وليس هوَّ كما غيره، لذلك لا يمكن أن يسمى أحد بأسمائه ولا يتصف أحد بصفاته، إنه هو الذي لا يتطابق ولا يتماثل معه أحد في شيء، ولأنه كذلك يُسبِّح له ما في السماوات وما في الأرض سبحانه الملك القدوس، {يُسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس}[٥٣٠]

---

[٥٢٧] طه ١١١ ١١٢.

[٥٢٨] محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة: دار المنار الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ص ٢٦.

[٥٢٩] أبو حامد الغزالي المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى. بيروت: دار الكتب العلمية ص ٤٦.

[٥٣٠] الجمعة ١.

يُسبِّح له، تعني يعترف له بالوحدانية، ويُقدس لكماله وصفاته التي يتصف بها، ويُحمد ويُشكر على عطائه غير المحدود وبقائه غير المنتهي، ولذلك فهو يُ͏ُقدَّس.

التقديس يتم وفقا لحالتين:

الحالة الأولى التقديس الفطري: {تُسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنَّ وإن من شيء إلا يُسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم}[٥٣١] هذه الآية الكريمة جاءت مطلقة ولم يتم استثناء شيء من التسبيح ألحمدي لله تعالى. ولهذا مهما عددّنا وذكرنا من هذا الشيء المطلق لن نتمكن من حصره، ولذا فهي تشمل كل شيء: الطيور والأسماك والحيوانات والنباتات، والجماد والملائكة والرعد والبرق {ويُسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته}[٥٣٢].

والحالة الثانية، التقديس الواعي: {الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فَقِنا عذاب النار ربنا أنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا أننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن امنوا بربكم فأمنَّا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وأتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد}[٥٣٣]. الذين يذكرون الله قياما وقعودا هم الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، أي أن ذكرهم لله في كل حين هو الذي جعلهم يتبيَّنوا الحق من الباطل، بمعنى يُدركوا عن وعي الفارق الكبير بين ما يجب وما لا يجب، وهم الذين يَقدِمون بإرادة على تأدية ما يجب ويبتعدوا عن فعل ما لا يجب، وذلك لأنهم يعرفوا المترتب على الفعلين (المترتب الموجب والمترتب السالب).

ولأنهم يمتلكون المقدرة العقلية والحاسة العاقلة فهم الذين يميزون بعد مقارنة ويعترفون دون أدنى ظن بأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض، وبإدراكهم الواعي يؤمنون به ويقدسوه ويسبحوه في كل حين وفي أي مكان وعلى أي وضع من الأوضاع التي يكونون عليها وهم في حالة حركة أو في حالة سكون. وبذلك يعترفون بأنه

---

٥٣١ . الإسراء ٤٤.

٥٣٢ الرعد ١٣.

٥٣٣ . آل عمران ١٩١ . ١٩٤.

الحق، الذي لم يخلق شيئا باطلا. ولأنهم يعرفون ويؤمنون فهم يعلمون علم اليقين بأن من يُدخل النار فقد خُزي، أي التصقت به اللعنات التي تلاحق الذين يعرفون الحق ويغضون النظر عنه.

إنهم الذين سمعوا الصوت المنادي بالحق، فأدركوا ثم أمنوا، (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان فأمنا) بطبيعة الحال الذي ينادي بالأيمان هم الرسل قبل غيرهم، والرسالات السماوية من صحائف وألواح ومصاحف وكتب. التي بعد معرفتها عرف الواعون بها أن الله تعالى لم يخلق شيء باطلا سبحانه جلَّ شأنه.

ولأنهم عرفوا الحقيقة استطاعوا أن يميزوا بين ما كانوا عليه من كفر ومعصية، وبين ما هم عليه ألآن من إيمان، ومع أنهم أمنوا فهم يعرفون أنهم لن يقعوا في الخطيئة ثانية، إلا أنهم لا زالوا خائفين مما عملوا قبل الإيمان. فلذلك طلبوا المغفرة من الله تعالى (ربنا فأغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) في هذا الدعاء الإيماني هناك ما يتعلق بالماضي وهو الأمر المتعلق بالسيئات التي تم ارتكابها. وهناك ما يتعلق بالحاضر وهو زمن الإيمان الذي فيه يتم التيقن والتبيُّن عن وعي ومعرفة تامة. وهناك ما يتعلق بالمستقبل وهو طلب المغفرة والوفاة مع الأبرار الشرفاء، ثم المطالبة بالجنة التي وعدهم بها الله على لسان رُسله. {فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى بعضكم من بعض}[٥٣٤].

وعليه: فإن التقديس إيمان فطري وعلاقة طبيعية بين خالق ومخلوق، والوعي بالتقديس، ثبات على يقين بعد معرفة وتبيُّن تام لا محل فيه للظن.

ولنلحظ الفارق الإيماني بين ما نتذكر وبين ما نفكر فيه، {فإذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى}[٥٣٥] ما أجمل البلاغة القرآنية، (فإذا جاءت الطامة الكبرى) فإذا جاءت يعني في المستقبل دون أدنى شك ستكون القيامة، يومها أي في ذلك المستقبل سيتذكر الإنسان ذلك الماضي الذي عاشه شاهدا عليه، يومها يتذكر أي يعرف ما عَمِلَ من

٥٣٤ . آل عمران ١٢٩٥.

٥٣٥ . النازعات ٣٤، ٣٥.

عملٍ، ويعرف الحقيقة كاملة بين يديه. ولهذا فإن التذكر يرتبط بالماضي، والتفكر يرتبط بالمستقبل، ومعنى يرتبط أنَّ الحلقة الوسط التي تربط بين ماضٍ وحاضر هي الزمن الآن (الزمن الحاضر).

والسؤال الذي يطرح نفسه كما يقولون هو: لماذا التذكر؟ ولماذا التفكر؟.

التذكر للاتعاظ، الذي يُخرج المُتعظ من البقاء على ما هو عليه من أعمال منقوصة. والتفكر تأملي، لأجل معرفة الظاهر والكامن، ومعرفة الأسرار التي عليها حالات ما خلق الخالق عزَّ وجل حتى بلوغ التسليم بأنها المُعجزة التي تستوجب تقديس من كان وراء خلقها. {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت فذكِّر إنما أنت مذكِّر}[٥٣٦] بدأت هذه الآيات الكريمة بالاستغراب في قوله (أفلا ينظرون) أنه لَمِن الغرابة أن لا ينظر صاحب بصيرة إلى ما يحيط به، ومن الغرابة أن لا يفكر فيما يرى بأم عينيه، فلو رأى ما حوله عن وعي لأدرك أنه الحقيقة الدالة على إثبات الحقيقة، فلو نظر الخليفة إلى الإبل لرأى الإعجاز في خلقها وهذه حقيقة، ولو نظر إلى ما هو أكبر منها، إلى السماء لعرف الإعجاز الأكبر، ولو نظر إلى الجبال التي تُسبِّح لله لعرف السر الذي هو من وراء خلقها ومن وراء تسبيحها، ولو نظر إلى الأرض التي خُلق منها وله منها معاشه لأدرك الحقيقة.

وقد يتساءل البعض: ما هي هذه الحقيقة؟.

الحقيقة أنه وراء كل مخلوق خالق. ووراء كل ظاهر باطن، ووراء كل علة معلول، ووراء كل قدرة قادر، ووراء كل بداية نهاية، وأن أمر كل ذلك بيد الملك القدوس، الذي يملك أمر كل شيء، سبحانه أنه ربِّي. ولذلك جاء التقديس دليل عرفان بالفضل من واسع الفضل، الذي لولاه ما كُنَّا، وما كان معاشنا، ولولاه ما تذكرنا حتى اتعظنا، وما تفكرنا حتى تيقنَّا سبحانه لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم.

---

[٥٣٦] الغاشية ١٧ . ٢١.

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: "إنه المستحق للتسبيح لكمال ذاته وكمال صفاته، كمالا يستحقه تنزها له وتقديسا عمَّا ينسبه إليه الظالمون من صفات النقص، كدعوى من نسب إليه الولد والبنات والشريك"[٥٣٧].

وبناء على ما تقدم، فمن هم الذين يتذكرون ويتفكرون؟.

إنهم أولي الألباب، وهم المُقدسين لله تعالى. {أفمن يعلم أنما أُنزل إليك من ربِّك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكروا ألوا اللباب الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءُون بالحسنة السيئة أولئك لهم عُقبى الدار}[٥٣٨].

ألوا الألباب هم الذين يميزون بعد مقارنة موضوعية، بما يجب ويَقدِمون على فعله، وبين ما لا يجب ويبتعدون عنه، إنهم أصحاب الضمائر والقلوب المؤمنة. وهم كما جاء في قوله تعال هم (الذين يصلون ما أمر الله أن يوصل) والله تعالى أمر بكل معروف وأخص الصلة بين ذي القربى بدم أو نسب ومصاهرة أو عيش وانتماء على مستوى الوطن أو الأمة بكاملها أو على المستوى القيمي الإنساني وذلك لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل. وهم الذين يخشون ربهم، في قطع الرحم، أي لا يقدموا على فعل من شأنه أن يؤدي إلى قطع صلة مع ذوي الأرحام.

وجاء في تفسير القرطبي: "قول ابن عباس وسعيد ابن جُبير: فمعنى (يصلون ما أمر الله به) هو الأيمان بجميع الكتب والرسل. وفي ذلك يقول الحسن: هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم، وهناك من يقول في هذا الأمر تكون الصلة بين الإيمان والعمل الصالح"[٥٣٩].

ولهذا فهم الذين يخافون أن يُقصِّروا أو يُنقصوا من أداء المهام الإيمانية التي تستوجب عدم الكلل والملل من أدائها. وسوء الحساب هو المترتب على نتائج الأعمال السالبة، وهذا يدل

---

[٥٣٧] عمر سليمان الأشقر أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرِّفة به. عمَّن: دار النفائس الطبعة الأولى ٢٠٠٤ ص ٥٤.

[٥٣٨] الرعد ١٩ . ٢٢.

[٥٣٩] القرطبي الجامع لأحكام القرآن.دار الكتاب العربي المجلد رقم ٩ ص ٣١٠.

على الاعتراف الإيماني بالحساب، ولكن جاء الخوف مما يتوقعون من النتائج المترتبة على ذلك الحساب، ولأنهم يخافون الله في ذلك فهم أُولي الألباب الذين حضاهم الله بالمغفرة والرحمة، وذلك بما استفادوا منه بالتذكر والتفكر، حتى كانوا من المُصلين والمُنفقين مما رزقهم الله تعالى سرا وعلانية أي جهارا ونهارا دون خوف. ولذا فهم الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم وهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، حتى وصلهم اليقين بقولهم ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار.

وبما أنَّ الأمر يتعلق بأولي الألباب الذين لهم الصفات الحسان السابقة الذكر، وتلك الصفات هي المستمدة من صفات خالقهم. إذن هؤلاء هم الذين تتوفر فيهم صفات الخليفة الذي يود له أن يَعمُر الأرض ولا يُفسد فيها ولا يُسفك الدماء بغير حق. أولئك لهم عقبى الدار، أي لهم الجنة التي وعد بها الله عباده الصالحين، وعباده الصالحين هم الخلائف في الأرض الذين يُطيعونه ولا يعصون له أمرا.

قال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون}[٥٤٠] جاءت هذه الصفات الحسان منتظمة ومتلاحقة واحدة تلي الأخرى لتؤكد كل صفة الصفة التي سبقتها، وبذلك يتم التأكيد على أن الله واحد لا شريك له، ولهذا جاءت صفة الملك تأكيد على أنها صفة لله تعالى، وصفة القدوس تؤكد صفة الملك المتعال، وتلتها صفة السلام لتؤكد صفة القدوس، ثم جاءت صفة المؤمن لتؤكد صفة السلام، وصفة المهيمن تؤكد صفة المؤمن، والجبار هو صاحب الصفة السابقة وهو العزيز المؤكد لصفة المهيمن، وفي نهاية هذه الآية الكريمة جاءت صفة المتكبر لتدل على أنها صفة للجبار، وبهذا تكون جميع الصفات المتلاحقة في انتظام هي صفات لله ربِّ العالمين. ولذا فمن حق كل متتبع لِما سبق أن يقول وهو مؤمن سبحان الله عمّا يشركون.

فسبحان الله عمَّا يُشركون تحمل في مفهومها الاستغراب، أي بعد كل هذه الشواهد والمعجزات العظام، والبعض لم يؤمن بعد، فلا أدري كيف يكون حال هؤلاء ومن هم على أمثالهم. ولهذا

---

[٥٤٠] الحشر ٢٣.

يقول المؤمن المستغرب من حال هؤلاء سبحان الله عمَّا يُشركون، حتى لا تدخل نفسه في حظيرة أولئك المشركين الذين لم يؤمنوا بالواحد القهار. ولذا جاء في قول المؤمن (سبحان الله عمَّا يُشركون) اعترافا صريحا بوحدانية الله، وتعجبا واستغرابا لأولئك المشركين، مما جعل المؤمن في الوقت الذي ينفي فيه ضمنا أن يكون لله شريك يعترف صراحة بعلو المكانة الإلهية. وفي الوقت الذي يستغرب فيه شركهم، وكأنه في نفسه يتأسف أن لا يؤمنوا بوحدانية خالقهم.

فسبحان الله، تحمل في مفهومها معنى الاستغفار، وذلك بما تدل عليه من إيمان. ولهذا لا يقولها وعيا وإرادة إلا مؤمنا. لذا قال تعالى: {سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض}[٥٤١]. وقال تعالى: {أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ}[٥٤٢] قال سبحانك، تنزيه لله تعالى واستغفار له من ارتكاب أي تُهمة تؤدي إلى الشرك به، ولهذا فإن كلمة سبحانك تعني الاعتراف اليقيني بأنه المُنزَّه الذي لم يكن له كفوا أحد. وفي هذا الأمر روى البيهقي عن طلحة بن عُبيد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن تفسير سبحان الله فقال: "هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء"[٥٤٣]. وروى مُسلم في الصحيح أنّ عائشة رضي الله عنها قالت، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده "سبُّوح قدوس ربُّ الملائكة والروح"[٥٤٤] المقصود بالسبُّوح هو الذي لا عيب فيه، وهو المنزه من النقائص والمعائب. ولذلك فبذكره تطمأن القلوب وتتطهر.

والقدوس هو الممدوح بالفضائل والمحاسن والمكارم. ولهذا فإن التسبيح في مضمونه التقديس، وفي مقابل ذلك أيضا في مضمون التقديس التسبيح. وفي هذا الأمر يقول محمد حسين في كتابة شرح أسماء الله الحسنى: لقد جمع الله تبارك وتعالى بين التقديس والتسبيح في سورة

---

[٥٤١] النساء ١٧١.

[٥٤٢] المائدة ١١٦.

[٥٤٣] محمد حسين شرح أسماء الله الحسنى. الإسكندرية: المدائن للنشر والتوزيع ١٩٩٦ ص ٢٢.

[٥٤٤] المرجع السابق ص ٢٢.

الإخلاص (قل هو الله احد الله الصمد) فهذا تقديس. وقوله (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فهذا تسبيح.

وبما أن كل من السبُّوح والقدوس يحملان في مضمونهما ما يشير إليه كل منهما من دلالة ومعنى فإذن كليهما يوحدانه وينفيان الشرك عنه. ولذا فإن التقديس هو إجلال وتعظيم وتمسك إيماني بالملك القدوس. والقدوس: هو الذي لا ند ولا مضاد له، وهو الذي له صفات الكمال والتنزيه. إنه الله الرحمن الرحيم.

وإنه لمن الاستغراب أن يظن البعض ممن يراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض ظن السوء بخالقهم ومستخلفهم في الأرض. هؤلاء هم الذين قال فيهم تعالى: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[٥٤٥].

وعليه فإن الخليفة بإمكانه أن يستمد من خالقه القداسة، وذلك بتقديس خالقه دون شرك، وإذا ما بلغ هذا الأمر، فبإمكانه التزكية، ولذلك فإن التزكية ممكنة لكل من يريد أن يكون خليفة في الأرض، حتى ولو كان غير مؤمن، {هل أتاك حديث موسى إذ ناده ربه بالوادي المقدس طُوى أذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى}[٥٤٦]، ما أعظمك يا الله، أنت القادر على كل شيء وأنت القاهر فوق عبادك ومع ذلك تعطي الفرصة تلي الفرصة لِمن يُريد أن يُكفِّر عن سيئاته، ما أعظمك جل جلالك ما أعظمك.

أدع الله تعالى بقوله: {دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين}[٥٤٧].

وعليه القدوس هو الطاهر المنزه خالق القدس والتقديس ومن يقدس له، ونقول: (يقدس له) لا (يقدسه) لأنه قدوس في ذاته سبُّوحٌ قدوس رب الملائكة والروح، له الكمال والجلال والجمال.

---

[٥٤٥] الفتح ٦.

[٥٤٦] النازعات ١٥ . ١٩.

[٥٤٧] يونس ١٠.

ألم تسمع قول الله على لسن الملائكة: {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} نقدس لك ... نقدس لك....بتطهير أنفسنا.

ولم تقل الملائكة: ونحن نقدسك. لماذا ؟ الإجابة قد أسلفناها ونعيدها حبا فيك أيها القارئ، لأنه قدوس في ذاته طاهر في ذاته.

كما وصف نفسه في قوله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٥٤٨] فهذا هو القدوس مقترنا بما يليق به من أسماء وصفات حسان، وجاء في تفسيرها:"{هو الله الذي لا إله إلا هو} يعني لا خالق ولا رازق غيره،{عالم الغيب والشهادة} يعني عالم السر والعلانية ويقال الغيب ما غاب عن العباد والشهادة ما شاهدوه وعاينوه ويقال: {عالم} بما كان وبما يكون ويقال: {عالم} بأمر الآخرة وبأمر الدنيا،ثم قال تعالى: {هو الرحمن الرحيم} يعني العاطف على جميع الخلق بالرزق و {الرحيم} بالمؤمنين،ثم قال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك} يعني مالك كل شيء وهو الملك الدائم الذي لا يزول ملكه أبدا،ثم قال تعالى: {القدوس} يعني الطاهر عما وصفه الكفار ولهذا سمي بيت المقدس يعني المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب،ثم قال تعالى: {السلام} يعني يسلم عباده من ظلمه ويقال سمى نفسه سلاما لسلامته مما يلحق الخلق من العيب والنقص والفناء،ثم قال تعالى: {المؤمن} يعني يؤمن أولياؤه من عذابه ويقال: {المؤمن} أي يصدق في وعده ووعيده ويقال: {المؤمن} يعني قابل إيمان المؤمنين،ثم قال تعالى: {المهيمن} يعني الشهيد على عباده بأعمالهم ويقال: {المهيمن} يعني المويمن فقلبت الواو هاء وهو بمعنى الأمين، ثم قال تعالى: {العزيز} يعني الذي لا يعجزه شيء عما أراد ويقال {العزيز} الذي لا يوجد مثله،ثم قال تعالى: {الجبار} يعني القاهر لخلقه على ما أراده ويقال الغالب على خلقه ومعناهما واحد،ثم قال تعالى: {المتكبر} يعني المتعظم على كل

---

[٥٤٨] الحشر ٢٢ . ٢٤.

شيء ويقال: {المتكبر} الذي تكبر عن ظلم عباده، ثم قال تعالى: {سبحان الله} يعني تنزيها لله تعالى {عما يشركون} يعني عما وصفه الكفار من الشريك والولد ويقال {سبحان الله} بمعنى التعجب يعني عجبا عما وصفه الكفار من الشريك، وقوله تعالى: هو الله الخالق {يعني الخالق الخلق في أرحام النساء ويقال خالق النطف في أصلاب الآباء {المصور} للولد في أرحام الأمهات ويقال: {الخالق} يعني المقدر{البارئ} الذي يجعل الروح في الجسد ويقال: {البارئ} يعني خالق الأشياء ابتداء، ثم قال {له الأسماء الحسنى} يعني الصفات العلى ويقال: {له الأسماء الحسنى} وهي تسعة وتسعون اسما وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة،ثم قال {يسبح له ما في السماوات والأرض} يعني يخضع له ما في السموات والأرض يعني جميع الأشياء كقوله: {وإن من شيء إلا يسبح بحمده}[٥٤٩]، ثم قال تعالى: {وهو العزيز} يعني العزيز في ملكه {الحكيم} في أمره، فإن قال قائل قد قال الله تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ}[٥٥٠]، فما الحكمة في أنه نهى عباده عن مدح أنفسهم ومدح نفسه؟

وعن هذا السؤال جوابان أحدهما: إن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص وإن كان ناقصا لا يجوز له أن يمدح نفسه والله سبحانه وتعالى تام الملك والقدرة فيستوجب به المدح فمدح نفسه ليعلم عباده فيمدحوه.

وجواب آخر: إن العبد وإن كان فيه خصال الخير فتلك الخصال أفضال من الله تعالى ولم يكن ذلك بقدرة العبد فلهذا لا يجوز له أن يمدح نفسه،والله سبحانه وتعالى إنما قدرته وملكه له ليس لغيره فيستوجب فيه المدح،ومثال هذا أن الله تعالى نهى عباده أن يمنوا على أحد بالمعروف وقد منّ الله تعالى على عباده للمعنى الذي ذكرناه في المدح والله أعلم و صلى الله عليه وسلم على سيدنا محمد وآله وسلم.[٥٥١]

---

[٥٤٩] الإسراء ٤٤.

[٥٥٠] النجم ٣٢.

[٥٥١] بحر العلوم للسمرقندي ، ج ٤ ، ص ٢٧٣

وتقديس الله يكون بتقديس الإنسان لنفسه لأن الله قدوس طاهر فالتقديس يكون واقعا على النفس والروح والجسد البشري الذي يعتريه النقص والأذى الذي يلحق ما هو ضد التقديس، أمّا الله فهو قدوس بذاته، وعلى ذلك فمن أراد أن يناجي القدوس فيجب أن يقدس نفسه ليكون أهلا لمناجاته وعبادته ألا ترى يا أخي أن الصلاة لا تصح إلا بطهارة، والزكاة لا تكون إلا في مال حلال، والحج لا يكون إلا بمال حلال مع تطهير النفس من الكبر، والجسد من النجاسة، وقس على ذلك كل العبادات والمعاملات والأحكام، فستجد أن القصد منها التطهير للنفس والروح والجسد، ليكون الإنسان أهلا لأن يقدس الله القدوس الذي ينزه ويقدسه كل المخلوقات وهو في غنى عنهم قال الله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَآَخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٥٥٢] ولا تقديس إلا باتباع النبي الأمي الذي أرسله الله لتعليم البشرية كيف يقدسون أنفسهم ليكونوا أهلا لعبادة الله، واتباع النبي الأمي فضل عظيم من الله لا يوفق إليه إلا من فهم واجتهد ورضي الله عنه.

ولذا نقول: إن التعريفات اللغوية يجب أن يعاد فيها النظر مع اعترافنا بفضل السابقين علينا، ولكن في مجال البحث في أسماء الله فيجب أن نطوع اللغة التي هي خلق من خلق الله للخالق فلا نعتقد أنها توفي بالغرض المطلوب، فنسأل الله العفو والعافية والسلامة من الخطأ والزلل،وعليه فالنقص والعيب يلحق بمن يتوهم باقترانهما بتعريف له ولو على المستوى المكاني في اللغة.

---

[٥٥٢] الجمعة١ . ٥

و قيل للجنَّة حَضِيرة القُدْس، والتَقْدِيس التَّطْهِير والتَّبْريك[553] وهذا ما يؤكد رؤيتنا فالجنة هي دار الطهر المادي والمعنوي لأنها صنع الله القدوس وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وعليه فقدسية الله أعلى من أن نرصف الكلمات غثها وثمينها لنلحق به ما هو سبحانه أجل وأعلى شأنا مما نتوهم أنه صحيح.

وفي التنزيل {ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك}[554] قال الزجاج: "معنى نُقدس لك أَي نُطهِّر أَنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أَطاعك نُقَدِّسه أَي نطهِّره"[555] ومن هذا قيل للسَّطْل القَدَس لأَنه يُتَقَدَّس منه أَي يُتَطَّهر والقَدَس بالتحريك السَّطْل بلغة أَهل الحجاز لأَنه يتطهر فيه قال ومن هذا بيت المَقْدِس أَي البيت المُطَّهَّر أَي المكان الذي يُتطهَّر به من الذنوب. و القُدُّوس الطاهر، وقوله تعالى: {الملك القُدُّوس}[556] الطَّاهِر في صفة اللَّه عز وجل وقيل قَدُّوس بفتح القاف، وجاءَ في التفسير أَنه المبارك والقُدُّوس هو اللَّه عز وجل والقُدْسُ البركة والأَرض المُقَدَّسة الشام، ورُوحُ القُدُس جبريل عليه السلام وفي الحديث" إِن رُوحَ القُدُس نَفَث في رُوعِي" يعني جبريل عليه السلام لأَنه خُلِق من طهارة وقال اللَّه عز وجل في صفة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام{وأَيَّدْناه بِرُوحِ القُدُسِ}[557] هو جبريل معناه رُوحُ الطهارة أَي خُلِق من طهارة،وقول الشاعر:

لا نَومَ حتى تَهْبِطِي أَرضَ القدُسْ وتَشْرَبي من خير ماءٍ بِقُدُسْ

أَراد الأَرض المقدَّسة، وفي الحديث: "لا قُدِّستْ أُمَّة لا يُؤْخَذ لضَعِيفها من قَوِيِّها" أَي لا طُهِّرت.[558] والحديث كما ورد في الصحاح: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:"جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى قَالَ لَهُ أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِلَّا قَضَيْتَنِي فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا وَيْحَكَ تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ قَالَ إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى

---

[553] لسان العرب ، ج ٦ ، ص ١٦٨

[554] البقرة ، ٣٠

[555] لسان العرب، ج ٦، ص ١٦٩.

[556] الحشر ، ٢٣

[557] البقرة ، ٨٧

[558] لسان العرب ، ج ٦ ، ص ١٦٨

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلَّا مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقَالَ لَهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّى يَأْتِيَنَا تَمْرُنَا فَنَقْضِيَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ فَأَقْرَضَتْهُ فَقَضَى الْأَعْرَابِيَّ وَأَطْعَمَهُ فَقَالَ أَوْفَيْتَ أَوْفَى اللَّهُ لَكَ فَقَالَ أُولَئِكَ خِيَارُ النَّاسِ إِنَّهُ لَا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لَا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ"[٥٥٩]وفي رواية أخرى: عَنْ رَبِيعَةَ بن يَزِيدَ، أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَى مَسْلَمَةَ بن مَخْلَدٍ، أَنْ سَلْ عَبْدَ اللَّهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، هَلْ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:"لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا وَهُوَ غَيْرُ مُضْطَهَدٍ"، فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، فَاحْمِلْهُ إِلَيَّ عَلَى الْبَرِيدِ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: نَعَمْ، فَحَمَلَهُ عَلَى الْبَرِيدِ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَثَّبَتَ"[٥٦٠].

والشيء الطاهر هو الطيب والله طيب لا يقبل إلا طيبا و{الطيب: الأفضل من كل شئ.، كل ما يتطيب به من عطر، ونحوه.[٥٦١] كما أن الطيب هو الحلال ولاشك إنه طاهر.

فالحلال هو الطيب: وكل ما تستلذه الحواس، أو النفس، وكل ما خلا من الأذى والخبث، وفي الحديث الشريف: " جعلت لي الأرض طيبة طهورا ".

أي: نظيفة غير خبيثة*.أم ما وقفنا عليه في الصحاح فهو: قال النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا"[٥٦٢] وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" جعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجدا و أيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان "[٥٦٣]

والقدوس من الناس هو من تخلى عن الرذائل، وتحلى بالفضائل، وفي القرآن الكريم: {ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب)[٥٦٤]أي الأعمال السيئة بالأعمال الصالحة، وفي الكتاب المجيد:

---

٥٥٩ سنن ابن ماجه ، ج ٧ ، ص ٢٦٩

٥٦٠ المعجم الكبير للطبراني ، ج ١٤ ، ص ٣١٥

٥٦١ القاموس الفقهي ، ج ١ ، ص ٢٣٦

٥٦٢ صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٢١٧

٥٦٣ السنن الكبرى للبيهقي ، ج ٢ ، ص ٤٣٥

٥٦٤ النساء ، ٢

*هذا ما ورد في كتب اللغة

{يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات}[٥٦٥] أي: الحلال من الرزق.وذلك لأن الله طاهر طيب قدوس منزه عن النقائص وهو القدوس، وفي الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ "[٥٦٦]. والطيب من الكلام: أفضله، وأحسنه.والطيب من الأعمال لو بشق تمرة وفي الحديث الشريف: " اتقوا النار ولو بشق تمرة"فمن لم يجد فبكلمة طيبة " فإن الكلمة التي فيها تطييب قلب إنسان تكون سببا للنجاة من النار إذا كانت مباحة.[٥٦٧]

والتقديس للنفس بالطهارة ولله بالتسبيح لأنه طاهر فنسبحه باسمه القدوس بشرط الطهارة المادية والمعنوية.

فالتَّسبيح هو التنزيه وسبحان الله معناه تنزيهاً لله من الصاحبة والولد وقيل تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أَن يوصف .[٥٦٨]وهو سبحانه طاهر منزه لا يحتاج للولد ولا للزوجة، والاحتياج في حقه سبحانه محال.

ومن صفات الله عز وجل السُّبُّوحُ القُدُّوسُ، فالسُّبُّوح الذي يُنَزَّه عن كل سُوء والقُدُّوسُ المُبارَك وقيل الطاهر وقال ابن سيده سُبُّوحٌ قُدُّوس من صفة الله عز وجل لأَنه يُسَبَّحُ ويُقَدَّسُ[٥٦٩] .

وقدس الله تعالى ذاتي فلا العقل تتوهمه ولا العيون تبصره ولا يقف لنوره مخلوق، فأنوار وجهه المبارك مهلكة، وهى الأنوار التي أخبرنا عنها فما بالنا بالتي لم نخبر بها.

---

[٥٦٥] المائدة ، ٤

[٥٦٦] صحيح مسلم ، ج ٥ ، ص ١٩٢

[٥٦٧] القاموس الفقهي، ج ١، ٢٣٦.

[٥٦٨] السابق، ٢٣٦.

[٥٦٩] السابق، ٢٣٦.

وسُبُحاتُ وجهِ الله بضم السين والباء أَنوارُه وجلالُه وعظمته وقال جبريل عليه السلام إِن لله دون العرش سبعين حجاباً لو دنونا من أَحدها لأَحرقتنا سُبُحاتُ وجه ربنا ،قال ابن شميل: سُبُحاتُ وجهه نُورُ وجهه وفي حديث آخر حجابُه النورُ والنارُ لو كشفه لأَحْرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيءٍ أَدركه بصَرُه سُبُحاتُ وجه الله جلالُه وعظمته وهي في الأَصل جمع سُبْحة وقيل أَضواء وجهه وقيل سُبْحاتُ الوجه محاسنُه لأَنك إِذا رأَيت الحَسَنَ الوجهِ قلت سبحان الله وقيل معناه تنزيهٌ له أَي سبحان وجهه وقيل سُبْحاتُ وجهه كلام معترض بين الفعل والمفعول أَي لو كشفها لأَحرقت كل شيء أَدركه بصره فكأَنه قال لأَحرقتْ سُبُحاتُ الله كل شيء أَبصره كما تقول لو دخل المَلِكُ البلدَ لقتل والعِياذُ بالله كلَّ من فيه قال وأَقرب من هذا كله أَن المعنى لو انكشف من أَنوار الله التي تحجب العباد عنه شيء لأَهلك كلَّ من وقع عليه ذلك النورُ كما خَرَّ موسى على نبينا وعليه السلام صَعِقاً وتَقَطَّعَ الجبلُ دَكّاً لمَّا تجلى الله سبحانه وتعالى[٥٧٠].

فالتقديس تطهير للنفس حتى تليق أن تقف أمام خالقها، ومن وسائل التقديس التسبيح " وقد يكون التسبيح بمعنى الصلاة والذِّكر تقول قَّضَيْتُ سُبْحَتي، وروي أَن عمر رضي الله عنه جَلَدَ رجلين سَبَّحا بعد العصر أَي صَلَّيا، قال الأَعشى:

وسَبِّحْ على حين العَشِيَّاتِ والضُّحَى ولا تَعْبُدِ الشيطانَ واللهَ فاعْبُدا[٥٧١]

يعني الصلاة بالصَّباح والمَساء وعليه فسر قوله تعالى: (فسُبْحانَ الله حين تُمْسون وحين تُصْبحون) يأْمرهم بالصلاة في هذين الوَقتين وقال الفراء حين تمسون المغرب والعشاء وحين تصبحون صلاة الفجر وعشيّاً العصر وحين تظهرون الأُولى وقوله (وسَبِّحْ بالعَشِيِّ والإِبْكارِ) أَي وصَلِّ وقوله عز وجل (فلولا أَنه كان من المُسَبِّحين) أَراد من المصلين قبل ذلك وقيل إِنما ذلك لأَنه قال في بطن الحوت لا إِله إِلاَّ أَنت سبحانك إِني كنت من الظالمين وقوله: (يُسَبِّحُونَ الليلَ والنهارَ لا يَفْتُرونَ) يقال: إِن مَجْرَى التسبيح فيهم كمَجرى النَّفَسِ منا لا يَشْغَلُنا

---

[٥٧٠] السابق، ٢٣٧.

[٥٧١] السابق، ٢٣٨.

عن النَّفَسِ شيء وقوله: (أَلم أَقُلْ لكم لولا تُسَبِّحون) أَي تستثنون وفي الاستثناء تعظيمُ الله والإِقرارُ بأَنه لا يشاء أَحدٌ إِلاَّ أَن يشاء الله فوضع تنزيه الله موضع الاستثناء والسُّبْحةُ الدعاء وصلاةُ التطوع والنافلةُ يقال فرغ فلانٌ من سُبْحَته أَي من صلاته النافلة سمِّيت الصلاة تسبيحاً لأَن التسبيح تعظيم الله وتنزيهه من كلِّ سوء قال ابن الأَثير وإِنما خُصت النافلة بالسُّبْحة وإِن شاركتها الفريضة في معنى التسبيح لأَن التسبيحات في الفرائض نوافلُ فقيل لصلاة النافلة سُبْحة لأَنها نافلة كالتسبيحات والأَذكار في أَنها غير واجبة وقد تكرر ذكر السُّبْحة في الحديث كثيراً فمنها اجعلوا صلاتكم معهم سُبْحَةً أَي نافلة ومنها كنا إِذا نزلنا منزلاً لا نُسَبِّحُ حتى نَحُلَّ الرِّحال أَراد صلاة الضحى بمعنى أَنهم كانوا مع اهتمامهم بالصلاة لا يباشرونها حتى يَحُطُّوا الرحال ويُريحوا الجمالَ رفقاً بها وإِحساناً والسُّبْحَة التطوُّع من الذِّكر والصلاة قال ابن الأَثير وقد يطلق التسبيح على غيره من أَنواع الذكر مجازاً كالتحميد والتمجيد وغيرهما وسُبْحَةُ الله جلالُه وقيل في قوله تعالى إِن لك في النهار سَبْحاً طويلاً أَي فراغاً للنوم وقد يكون السَّبْحُ بالليل والسَّبْحُ أَيضاً النوم نفسه وقال ابن عرفة في قوله تعالى: {فَسَبِّحْ باسم ربك العظيم) أَي سبحه بأَسمائه ونزهه عن التسمية بغير ما سمَّى به نفسه قال ومن سمى الله تعالى بغير ما سمى به نفسه فهو مُلْحِدٌ في أَسمائه وكلُّ من دعاه بأَسمائه فَمُسَبِّح له بها إِذ كانت أَسماؤه مدائح له وأَوصافاً قال الله تعالى: {ولله الأَسماء الحُسْنى فادْعُوه بها) وهي صفاته التي وصف بها نفسه وكل من دعا الله بأَسمائه فقد أَطاعه ومدحه ولَحِقَه ثوابُه وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنه قال: "ما أَحدٌ أَغْيَرَ من الله ولذلك حَرَّمَ الفواحشَ وليس أَحدٌ أَحبَّ إِليه المَدْحُ من الله تعالى والسَّبْحُ أَيضاً السكون والسَّبْحُ التقَلُّبُ والانتشار في الأَرض والتَّصَرُّفُ في المعاش فكأَنه ضِدٌّ وفي حديث الوضوء: فأَدخل اصْبُعَيْه السَّبَّاحَتَيْنِ في أُذنيه" السَّبَّاحةُ والمُسَبِّحةُ الإِصبع التي تلي الإِبهام سميت بذلك لأَنها يشار بها عند التسبيح[٥٧٢].

---

[٥٧٢] لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٤٧٠

فالقدوس هو الله في ذاته وهو طاهر طيب لا يقبل إلا طيب ونرى من أثر هذا الاسم العظيم على العباد الآتي:

الطهر المعنوي:

وهو الإقرار لله بالوحدانية وللنبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة، وبتصديق جميع الأنبياء والمرسلين، ومن لم يفعل ذلك لا يكون طاهرا مقدسا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٥٧٣] فالشرك بالله نجاسة والمشرك نجس غير طاهر وإن اغتسل بماء البحار جميعها،"فالمشرك عين النجس، والنجس مصدر بمعنى النجاسة وقد وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة فيجب الاجتناب عنهم والتبري منهم وقطع مودتهم، و سمى المشرك نجسا لأن الشرك أقوى من القذر المؤدي للنجاسة فيجب تجنبه كما يجب تجنب النجاسات ولأنهم لا يتطهرون من الجنابة والحدث ولا يبتعدون عن النجاسة الحقيقية فهم معايشون لها غالبا فحكم عليهم بأنهم نجس بمعنى أصحاب نجاسة حكمية وحقيقية فى أعضائهم الظاهرة وأنهم نجس بمعنى ذوى نجاسة فى باطنهم حيث تنجسوا بالشرك والاعتقاد الباطل . ولهذا حرم عليهم دخول المسجد الحرام مصداقا لقوله تعالى: {فلا يقربوا المسجد الحرام} فلا يقربوه بسبب أنهم عين النجاسة فضلا عن أن يدخلوه فإن نهيهم عن اقترابه للمبالغة فى نهيهم عن دخوله.

فالمتخلق بالاسم القدوس طاهر معنويا لأنه تحلى بالطهر المعنوي الباطني ولب ذلك الطهر{لا إله إلا الله محمد رسول الله) والتصديق بما جاء به الأنبياء السابقون والإيمان به وفي ذلك عين الطهر والتقديس للنفس ولله وأول من فعل هذا في الأمة الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة لكل من أراد الطهر قال الله تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

---

[٥٧٣] التوبة ، ٢٨

رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٥٧٤]

وقد بدأ في سورة البقرة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقهم سبحانه وتعالى ينفقون، وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: {والمؤمنون كُلٌّ ءَامَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مّن رُّسُلِهِ} وهذا هو المراد بقوله في أول السورة {الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب}[٥٧٥] وقد هؤلاء الطاهرون الذين يتطهرون لله من الشرك والكفر، وهم متبعون للقدوة وللمثل الأعلى{وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} وقولهم يتوافق مع أمروا به في أول السورة {وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ}، فيجمعون بين التقديس المعنوي والمادي في آن واحد بقولهم {غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير} وهو ما يتوافق مع ما جاء في أول السورة {وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ}[٥٧٦] مع تضرعهم إلى ربهم في قولهم {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٥٧٧] وهو صفته الإيمانية في أول السورة التي قال الله فيها: {أولئك على هُدًى مّن رَّبّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون}[٥٧٨] وهنا قمة التقديس لله من المتقين الذين طهروا الظاهر والباطن لله حتى يكون تقديسهم له سبحانه وتعالى على الوجه الذي أراد منهم فيكونوا من المستحقين للخلافة، وينتفي سؤال الملائكة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٥٧٩] فالحقيقة أن الخليفة الذي قدر الله

---

[٥٧٤] البقرة، ٢٨٥

[٥٧٥] البقرة ، ٣

[٥٧٦] البقرة ، ٤

[٥٧٧] البقرة ، ٢٨٦

[٥٧٨] البقرة ، ٥

[٥٧٩] البقرة ، ٣٠

أن يكون في الأرض سيقدس لله وسيسبحه مع كونه مكلفا بأمانة أخرى وهي تعمير الأرض ومغالبة النفس والهوى والشيطان والدنيا وهي التي لم يتحملها أقوى المخلوقات: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٥٨٠] فالمؤمنون الذين يؤمنون بالله ربا واحدا منزها عن الشريك والزوجة والولد، ومن يدعي ذلك فهو ليس بمؤمن وإن ادعى الإيمان فهو كافر منافق لن يقبل الله منه، أما المؤمن الحق الذي يتوب إلى الله[٥٨١] الله يقبل توبته لأنه طاهر الباطن وطاهر الظاهر والله يحبه مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} فيطهره الله لأنه القدوس الطاهر الطيب جل جلاله.

والتقديس لله بالمحبة الخالصة فيكون العبد محبا لله مقبلا عليه فيحبه الله، و محبة الله لعبده حين يقبل عليه هو تقريبه لحضرته وهدايته لمحبته من غير نفع له في ذلك إذ لا تنفعه طاعة من أقبل عليه ولا تضره معصية من أدبر عنه إذ هو غنى عن الكل فالله لا تنفع طاعة ولا تضره معصية وإنما أمر بالطهر المعنوي والمادي ونهى عن غير ذلك لما يعود إلى منفعة العبد فلا يزيد في عزِّه إقبال من أقبل عليه ولا ينقص من قدره إدبار من أدبر عنه فالله القدوس الطاهر الطيب سبحانه غنى عن كل شيء، ومفتقر إليه كل شيء لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين ، فلا تنفعه أيها العبد طاعتك فيكون محتاجاً إليك تعالى الله عن ذلك ولا تضره معصيتك فيكون مقهراً بها وهو القاهر فوق عباده فإنما أمرك بالطاعة ليقربك إليه ورحمة الله قريب من المحسنين وإنما نهاك عن المعاصي لما جعل فيها من علامة البعد عن رضاه،فما أمرك الله بشيء إلا وفيه تقريب ورحمة، وما نهى الله عن شيء إلا وفيه ضرر في الدنيا قبل الآخرة، فعلى العاقل قبول ما أمر الله به لأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فلا يزيد في ملكه إقبال من أقبل عليه ولا يزيد في

---

[٥٨٠] الأحزاب ٧٢ ،٧٣

[٥٨١] البقرة ، ٢٢٢

تقدسيه لأن قدسيته أزلية قديمة ولا ينقص من تقديسه إدبار من أدبر عنه لأنه غني عن العالمين وفي الحديث القدسي، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُ فَسَلُونِي الْمَغْفِرَةَ فَأَغْفِرَ لَكُمْ وَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي بِقُدْرَتِي غَفَرْتُ لَهُ وَكُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ وَلَوْ أَنَّ حَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فَكَانُوا عَلَى قَلْبِ أَتْقَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَزِدْ فِي مُلْكِي جَنَاحُ بَعُوضَةٍ وَلَوْ اجْتَمَعُوا فَكَانُوا عَلَى قَلْبِ أَشْقَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَنْقُصْ مِنْ مُلْكِي جَنَاحُ بَعُوضَةٍ وَلَوْ أَنَّ حَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فَسَأَلَ كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ مَا نَقَصَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِشَفَةِ الْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهَا إِبْرَةً ثُمَّ نَزَعَهَا ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ عَطَائِي كَلَامٌ إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"[٥٨٢]

فالقدوس سبحانه منزه عن كل كمال لا يليق بذاته ولا نقول إنه منزه عن النقائص إذ لا تصح نسبتها إليه حتى ينزه عنها إذ لا ينفي عن الشيء إلا ما يصح إثباته له فإن نفيت مالا يصح إثباته فربما يكون ، ولذلك روي عن أمنا السيدة أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أنها قَالَتْ:"كُنْتُ نَائِمَةً إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَقَدْتُهُ مِنْ اللَّيْلِ فَلَمَسْتُهُ بِيَدِي فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ:" أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَبِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ "[٥٨٣]

ومن التقديس المادي:

الوضوء:

فالوضوء سلاح المؤمن وهو مفتاح كل عمل صالح من صلاة وحج وقراءة للقرآن على المستحب، فقال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْمَلُوا وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمْ الصَّلَاةُ وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ"[٥٨٤]وعَنْ خَالِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلَالٍ عَنْ

---

[٥٨٢] سنن ابن ماجه ، ج ١٢ ، ص ٣٠٨

[٥٨٣] موطأ مالك ، ج ٢ ، ص ١٤٩

[٥٨٤] موطأ مالك ، ج ١ ، ص ٨٦

نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ قَالَ: رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ فَتَوَضَّأَ فَقَالَ:إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ"[٥٨٥]وعن صفة الوضوء وفضله

عَنْ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِوَضُوءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ إِنَائِهِ فَغَسَلَهُمَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الْوَضُوءِ ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْثَرَ ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثًا ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ ثُمَّ غَسَلَ كُلَّ رِجْلٍ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَضَّأُ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا وَقَالَ مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[٥٨٦]

اختلف العلماء في الوضوء لقراءة القرآن فمن قائل أنه تجوز قراءة القرآن لمن هو على غير طهارة ومن قال غير ذلك، ولأنه من صفاته سبحانه القدّوس ومعناه الطاهر فينبغي للعبد إذا ناب مناب الحق في كلامه بتلاوته أن يكون مقدّسا أي طاهرا في ظاهره بالوضوء المشروع وفي باطنه بالإيمان والحضور والتدبر.

الصلاة:

ومن الأعمال المادية التي تطهر الباطن وتحتاج إلى الوضوء أو نية الطهارة في حال عدم وجود الماء " الصلاة"، قال الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[٥٨٧]

وهذا يدل على أن علم الأصول" التوحيد" مقدم على علم الفروع" العبادات" لأن التوحيد في علم الأصول والعبادة من علم الفروع وقوله تعالى: (فاعبدني) تدل على أن عبادته تعالى لازمة وذلك لأن الله هو المستحق للعبادة، وقد أمر سبحانه أولا بالتوحيد (لا إله إلا الله) ثم أمر بالعبادة ثانياً، ثم أمره بالصلاة ثالثاً فقال: (وأقم الصلاة لذكري) لذكري يعني لتذكرني

---

[٥٨٥] صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٢٣٤

[٥٨٦] صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ٢٨٥

[٥٨٧] طه . ١٤

فذكر الله أن يعبد ويصلي له ويقدس، قال الله تعالى في فضل من يقوم بالصلاة على الوجه الأكمل: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٥٨٨]

وصفات هؤلاء القديسين الطاهرين المتحققين بقدسية الاسم القدوس:

. الفلاح.

. الإيمان

. أداء الصلاة.

. الخشوع.

. الإعراض عن اللغو.

. للزكاة فاعلون.

. لفروجهم حافظون.

. لأمانتهم وعهدهم راعون.

. على صلاتهم يحافظون.

. هم الوارثون للفردوس لأنهم يقدسون أنفسهم لله .

ومن أسباب التقديس والتطهير إخراج الزكاة،واتفق العلماء على أن الزكاة تجب في ثمانية أشياء محصورة في المولدات من معدن ونبات وحيوان فالمعدن الذهب والفضة والنباتات الحنطة والشعير والتمر والحيوان الإبل والبقر والغنم هذا هو المتفق عليه وهو الصحيح عندنا وأما الزبيب ففيه خلاف،والاعتبار في ذلك أن الزكاة تجب على الإنسان في ثمانية أعضاء البصر والسمع واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب ففي كل عضو نوع من الزكاة وفي

---

[٥٨٨] المؤمنون١ . ١١

كل عضو من هذه الأعضاء صدقة واجبة يطلب الله بها العبد في الدار الآخرة وأما صدقة التطوع فعلى كل عرق في الإنسان صدقة وكل تهليلة صدقة وكذلك التحميد والتكبير فالزكاة التي في هذه الأعضاء هي حق الله تعالى الذي أوجبها على الإنسان من هذه الأعضاء الثمانية كما أوجبها في هذه الثمانية من الذهب والورق وسائر ما ذكرنا مما تجب فيه الزكاة بالاتفاق فتعين على المؤمن أداء حق الله تعالى في كل عضو فزكاة البصر ما يجب لله تعالى فيه من الحق كالغضن عن المحرّمات والنظر فيما يؤدي النظر إليه من القربة عند الله كالنظر في المصحف وفي وجه العالم وفي وجه من يسرّ بنظرك إليه من أهل وولد وأمثالهم وكالنظر إلى الكعبة وكذلك في جميع الأعضاء المكلفة في الإنسان من تصرفها فيما ينبغي وكفها عما لا ينبغي بيان وإيضاح واعلم أن هذه الأصناف قد أحاطت بمولدات الأركان كما قلنا وهي المعدن والنبات والحيوان وما ثم رابع ففرض الله الزكاة في أنواع مخصوصة من كل جنس من المولدات لطهارة الجنس فتطهر النوع بلا شك من الدعوى التي حصلت فيه من الإنسان بالملك فإن الأصل فيه الطهارة من حيث أنه ملك لله مطلقا وذلك أن الأصل الذي ظهرت عنه الأشياء من أسمائه القدوس وهو الطاهر لذاته من دنس المحدثات فلما ظهرت الأشياء في أعيانها وحصلت فيها دعاوى الملاك بالملكية طرأ عليها هذا الدنس العرضي بملك الغير لها وكفى بالحدث حدثا وهذه الأجناس لا تصرف لها في أنفسها فأوجب الله على مالكها فيها الزكاة وجعل ذلك طهارتها فعين الله فيها نصيبا يرجع إلى الله عن أمر الله لينسبها إلى مالكها الأصلي فتكتسب الطهارة فإن الزكاة إنما جعلها الله طهارة الأموال وكذلك في الاعتبار فإن هذه الأعضاء المكلفة هي طاهرة بحكم الأصل فإنها على الفطرة الأولى ولا تزول عنها تلك الطهارة والعدالة ألا تراها تشهد يوم القيامة وتقبل شهادتها لزكاتها الأصلية وعدالتها فإن الأصل في الأشياء العدالة لأنها عن أصل طاهر والجارحة طارئة قال تعالى " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا "وقال" يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم " وقال تعالى " وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا " وقال تعالى " وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم " فهذا كله إعلام من الله لنا أن كل جزء فينا

شاهد عدل زكي مرضي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في تطهير الإنسان من الجهل " من عرف نفسه عرف ربه " فبمعرفته صحت طهارته لمعرفته بربه فالحق هو القدّوس المطلق وتقديس العبد معرفته بنفسه فما طهر إلا بمعرفة نفسه [٥٨٩].

ومن تطهير النفس الصدقة التي ترد جوع الجائع وتكسو جسد الفقير الذي لا يجد ما يستر به نفسه لذا فثوابها عظيم فقد قال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ:"الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ"[٥٩٠] وصدقة السر أعظم في الأجر لقوله تعالى: {وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم}[٥٩١] وكل مقبول، إذا كانت النية صادقة، والصدقة في السر أفضل، كان يقال: إن الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار"[٥٩٢]

وعن أثر الصدقة في تطهير النفس وما يناله المتصدق من أثر طيب لها حسن الخاتمة فعن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصدقة تطفئ غضب الرب، وتدفع ميتة السوء"[٥٩٣] ومن وسائل تطهير النفس ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فعن الحارث الأشعري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات يتعلمهن، ويعلمهن بني إسرائيل، ويعمل بهن، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فكأنه أبطأ فقيل لعيسى عليه السلام مر يحيى أن يأمر بهذه الكلمات، وإلا فأمر بهن أنت، فقال عيسى ليحيى: عليهما السلام ذلك، فقال يحيى: لا تفعل فإني أخاف إن أمرت بهن أن أعذب أو يخسف الله بي الأرض، قال: فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس فامتلأ المسجد، ثم جلسوا على شرفة، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعلمكموهن وآمركم أن تعلموهن، ثم قال: أولهن أن لا تشركوا بالله شيئا فإن مثل من يشرك بالله كمثل

---

٥٨٩ الفتوحات المكية ، ج ٢ ، ص ١٨٧

* . كشف الخفاء ، ج ٢ ، ص ٢٦٢وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه وقال النجم قلت وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن عائشة سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه قال أعرفهم بنفسه.

٥٩٠ المعجم الكبير للطبراني، ج ١٩ ، ص ١٠

٥٩١ البقرة، ٢٧١

٥٩٢ تفسير ابن أبي حاتم، ج ١٠ ، ص ٣٣١

٥٩٣ شعب الإيمان للبيهقي، ج ٧ ، ص ٣٥٤

رجل اشترى عبدا فجعله في داره، فقال: هذه داري وهذا عملي، فجعل يعمل ويؤدي عمله إلى غير سيده، فأيكم يحب أن يكون له عبد كذلك، وإن الله هو الذي خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئا، وآمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا في صلاتكم فإن الله ينصب وجهه لعبده ما دام في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصدقة فإن مثل الصدقة كمثل رجل أخذه العدو فقدموه ليضربوا عنقه، فقال: ما تصنعون بضرب عنقي ؟، أنا أفدي نفسي منكم بكذا، قالوا: بلى، فافتدى نفسه منهم فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة، قال: وآمركم بالصيام فإن مثل الصيام كمثل رجل من قوم معه صرة مسك وليس مع أحد من القوم مسك غيره، فكلهم يحب أن يجد ريحه فكذلك الصيام أطيب عند الله من ريح المسك، قال: آمركم بذكر الله فإن مثل ذكر الله كمثل رجل انطلق فارا من العدو وهم يطلبونه حتى جاء إلى حصن حصين، فأفلت منهم فكذلك الشيطان لا يحترز منه إلا من ذكر الله، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا آمركم بخمس: بالجماعة، وبالسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فمن خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام حتى يراجع، ومن دعا دعوة جاهلية فإنه من جثاء جهنم، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام ؟، قال: « نعم وإن صلى وصام ولكن تسموا باسم الله الذي سماكم عباد الله المسلمين المؤمنين » و عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وإن الصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار، والصلاة نور المؤمن، والصوم جنته من النار"[٥٩٤] وعن أبي ذر قال: قلت يَا رسول الله مَا تقول فِي الصلاة. قال: تمام العمل. قلت: يَا رسول الله أسألك عن فضل الصدقة شيء عجب قلت يَا رسول الله تركت أفضل عمل فِي نفسي أو خيره قال مَا هو قلت الصوم قال خير وَلَيْسَ هناك قال يَا رسول الله وأي الصدقة وذكر كلمة قلت فإن لَمْ أقدر أفعل قال بفضل طعامك قلت فإن لَمْ أفعل قال

[٥٩٤] الإيمان لابن منده ، ج ١ ، ص ٢٦٠

بشق تمرة قلت فإن لَمْ أفعل قال بكلمة طيبة قلت فإن لَمْ أفعل قال دع الناس من الشر فإنها صدقة تصدق بِهَا عَلَى نفسك قلت فإن لَمْ أفعل قال تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً"[٥٩٥]

وما سبق قليل من كثير في معنى الاسم القدوس وأثره في عمل المؤمن المتخلق بهذا الاسم الشريف الكريم، فهو يشمل كافة الجوانب الإيجابية في حياتنا من عقائد ومعاملات وعبادات وأحكام، نرجو الله أن يوفقنا لها على الوجه الذي يريد.

اللهم يا القدوس اجعلنا ممن يقدسون قولك ويطيعونك واجعلنا من الطاهرين المقدسين، ويا القدوس طهر أعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وقلوبنا من النفاق، وأنفسنا من الشح والبخل، واختم لنا بخاتمة السعادة واجعلنا يا القدوس مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين في الفردوس الأعلى.

اللهم إننا نقدسك طاعة تامة فاجعل أقوالنا وأعمالنا مقدسة بصلاتنا وسلامنا على النبي عليه الصلاة والسلام، ومقدسة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبتجنب ما أمرتنا اجتنابه واتباع ما أمرتنا إتباعه.

---

[٥٩٥] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – ج ٢ ، ص ١١

السلام

السلام اسم من أسماء الله الحُسنى، وفي اللغة يعني "البراءة من العيوب والنقائص، ويشمل في ثناياه معاني متعددة كالسكينة والأمان والاستقرار والهدوء"[٥٩٦].

والسلام "هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله. وكذلك من اسم السلام اشتق الإسلام وهو دين الله"[٥٩٧] مصداقا لقوله تعالى {إنَّ الدين عند الله الإسلام}[٥٩٨].

ويقول الإمام ابن القيم في اسم السلام جل جلاله قولان: "أحدهما أنه مصدر وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه، والمعنى أنه ذو السلام وذو العدل على حذف المضاف، والثاني: أن المصدر بمعنى الفاعل أي السالم كما سمّيت ليلة القدر سلاما أي سالمة من كل شر، بل هي الخير لا شر فيه"[٥٩٩].

قال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو المَلِك القدُّوس السَّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر}[٦٠٠] في هذه الآية كل اسم من أسمائه الحُسنى يؤكد على الصفة التي تسبقه ويحتويها، فالمَلِك هو الله، والقدوس هو الله، والسلام هو الله، ولذا فإن جميع الأسماء الحُسنى هي الله جلا جلاله؛ ولأنها هي الله تعالى فهي بطبيعة الحال تحتوي كل صفات الكمال فيها. ولذلك فإن اسم الله تعالى يحتويها.

ومع أنَّ هذه الآية ثلاثية الأبعاد إلا أنها نزلت وحدة واحدة متماسكة بنيانا مرصوصا فالبعد الأول: {هو الله الذي لا إله إلا هو). في هذا البعد ينفى وجود إله غيره، ويتم التأكيد على أنه الله الذي لا شريك له في الأمر، إنه الله واحد أحد ولا وجود لغيره. وهذا يعني إذا كان هناك من يعتقد بوجود لغير الله تعالى فلن يجده، ولن يجد له مكانا، ولن يجد له صفات. ولذلك

---

٥٩٦ محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة . أخبار اليوم قطاع الثقافة ص ١٤٩.

٥٩٧ أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء . دار الثقافة ص ٣٧.

٥٩٨ آل عمران ١٩.

٥٩٩ مشرف على عبد الله منهج ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. الدمام . دار ابن الجوزية الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ٢٧٩.

٦٠٠ الحشر ٢٣.

كفر الذين قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٦٠١]

والبعد الثاني (المَلِك القدُّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر). هذه الأسماء جميعها هي الله الذي تم التأكيد عليه بالبعد الأول، بأنه لا إله إلا هو. وهذا يعني أن هذه الأسماء وغيرها من الأسماء الحُسنى هي غير متعددة، بل هي صفات تتعدد، أي أنها صفات لواحد لا يتعدد. ولذلك فإن القاعدة هي: تتعدد الصفات للواحد ولا يتعدد الواحد في صفاته. فالكريم عندما يكون صادقا، وعادلا، يظل هو مفردة واحدة وصفاته متعددة، ولهذا فإن الله واحد أحد وصفاته متعددة فالحمد لله الواحد المتعدد الصفات الحسان.

والبعد الثالث (سبحان الله عما يشركون) هذا البعد يؤكد بالتمام مقاصد البعدين السابقين بأن الله واحد أحد، وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر أي هو الذي له الأسماء الحُسنى، ولذلك جاء قوله تعالى (سبحان الله عمَّا يشركون) لينفي وجود الشريك ويؤكد على الواحد الأحد متعدد الصفات.

السلام: هو الكامل غير المنقوص، الدائم على البقاء حيا لا يموت، وهو الذي بذكره تطمأن القلوب.

السلام الحق هو الله تعالى، والسلام بالإضافة هو الخليفة. ولذا فإنه السلام الحق لكمال صفاته، أمَّا السلام بالإضافة (الخليفة) فيرتبط بدرجة الالتزام بما يأمر السلام الحق به. ولذلك السلام الحق جاء مطلقا بلا شروط، والسلام بالإضافة لا يتم إلا بالتزام شرطي وفقا لنص من السلام الحق، وهي (الشرعة). التي إن التزم بها قولا وفعلا كان الخليفة في الأرض، وإن لم يلتزم قولا وفعلا فلن يكون الخليفة، وذلك لنقصه عمّا يراد له أن يكون عليه من شِرعة. {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء

---

[٦٠١] المائدة ٧٣.

ويهدي إليه من يُنيب}[٦٠٢]. شرع لكم تعني بيَّن لكم كل شيء في الدين، والدين عند الله هو الإسلام، والإسلام لا يعني الرسالة المحمدية فقط، بل كل الدين من عند الله واحد، وهو الإسلام الذي كان خاتم أنبيائه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا لا نفرق بين أحدٍ من رسله {لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[٦٠٣]. وقال خير قائل: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[٦٠٤].

ومن آثار الإيمان بهذا الاسم الآتي:

١ . الله تعالى هو السلام، السالم من كل نقص وآفة وعيب وهو اسم عظيم وفي معناه قريب من القدوس جل جلاله.

٢ . الله سبحانه وتعالى هو المسلم على عباده وأوليائه في الجنة قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[٦٠٥].

٣ . الله تعالى هو المسلم على أنبيائه ورسله لإيمانهم وإحسانهم وطاعتهم التامة له وتحملهم في سبيل الطاعة الشدائد، فيؤمنهم في الآخرة فلا يخافون ولا يفزعون، قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ}[٦٠٦]، وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[٦٠٧]، وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ}[٦٠٨]، وقال تعالى: {سلام على آل ياسين}[٦٠٩]، وقال تعالى: {سلام على المرسلين}[٦١٠].

---

[٦٠٢] الشورى ١٣.

[٦٠٣] البقرة ٢٨٥.

[٦٠٤] الجاثية ١٨.

[٦٠٥] ياسين ٥٨.

[٦٠٦] الصافات ٧٩.

[٦٠٧] الصافات ١٠٩.

[٦٠٨] الصافات ١٢٠.

[٦٠٩] الصافات ١٣٠.

[٦١٠] الصافات ١٨١.

٤ . الأمر بإفشاء هذا الاسم وأنه سبب في دخول الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلوا الحنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابيتم؟. افشوا السلام بينكم"[٦١١].

. قال الشاعر:

وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان.

بناء على ما تقدم فإن السلام الحق، شرَّع شريعة تستوجب الإتباع من قبل من يراد له أن يكون الخليفة، ولهذا التزم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما التزم من قبله الرسل الذين اصطفاهم الله لِيُبلغوا رسالاته، والذين برسالاتهم اسلم المسلمون وأمنوا، حتى أصبحوا هم السلام بالإضافة. وفي مقابل ذلك كان غيرهم خوالف، ولهذا أصبح المؤمنون هم الخليفة، وأصبح غيرهم، هم الخوالف.

في سورة الحشر الآية ٢٣ سابقة الذكر جاء اسم السَّلام مرتبا في الموضع السادس، هذا الأمر جعله في وضع التأكيد على ما سبقه من صفات، ويجعله في وضع الاحتواء لِما يأتي من بعده من صفاته تعالى، وهي التي بدورها لا تأتي إلا لتؤكد على كل صفة سابقة عليها.

ولأن الله تعالى واحد أحد لا شريك له في المُلك، لذا كان السَّلام صفة ومسمى من أسمائه الحُسنى، أي لو لم يكن السلام صفة لله تعالى لفسدت الأرض، ولذلك لو لم يكن الله واحد أحد ما كان السلام قاعدة للاستقرار والطمأنينة، بمعنى لو كان . مع الاستغفار. كما يدَّعي البعض بأن الله ثالث ثلاثة لفسدت السماوات والأرض بين اختلاف وغضب الآلهة المتعددة، ولو كان في الوجود أكثر من إله واحد ما جاء اسم السلام صفة مطلقة لله تعالى الذي بسلامه كان الوجود في حالة حركة ذاتية وجميع الكواكب دوارة حول ذاتها وحول بعضها البعض، وهكذا ما بينها المجرَّات التي تُحيط كل منها في دوائر متداخلة دون أن يحدث التقاطع والاصطدام. فمع أن الأرض تدور حول نفسها في حركة دائرية وتدور حول الشمس في حركة دائرية، إلا أن ما عليها من كائنات هي في حالة استقرار وثبات وسلام وكأن

---

[٦١١] مسلم ٤٥.

الأرض ثابتة لا تتحرك برغم السرعة التي هي عليها، الأرض تدور دون توقف، ومنازلنا وأبوابها ثابتة بين المشارق والمغارب هي كما هي. ومع أن الأرض على سرعتها الكروية فنحن لم نشاهد ونلحظ أنفسنا نتقلب مع حركة دورانها الكروية، ولم يحس أحدنا بالدوران، الحركة شديدة ونومنا عميق. ولذا لولا السلام ما كُنَّا في سلام آمنين، {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذل}[٦١٢].

ولأن الله واحد أحد لا شريك له، فإن جميع صفاته صفات سلام، مما يجعلنا نقول في الرحمة السلام وفي البر الرحيم السلام، وفي العدل السلام، وفي الحق السلام، وفي الكيد السلام، وفي العزة السلام، وهكذا في كل صفة من صفات الله تعالى السلام. وهذا لا يعني إنَّ لله تعالى صفة واحدة هي صفة السلام، بل له الصفات الحسان المتعددة.

ولذا فالسَّلام هو الذي بيده أمور الحياة والممات، والبعث والثواب والعقاب، وكل أمرٍ هو بيديه. ولهذا فالمؤمن ليس لديه مجهولا يخشاه، بل كل شيء بالنسبة له معلوم، فالجنة معلومة وطرقها ممهدة معلومة، والنار معلومة والطرق المؤدية إليها معلومة، {فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرا يره}[٦١٣]. كيف يخاف المؤمن وهو ينظر بأم عينيه طريق الخير مفتوحاً أمام من يريد أن يعمل صالحا، وطريق الشر مفتوحاً أمام من يريد أن يخشى الله ويُكفِّر عن سيئاته.

إذن بدون شك السلام بالإضافة (الخليفة) هو الذي يختار بإرادة حرة طريق الجنَّة ويتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي به إلى النار. أمَّا أولئك الذين لم ينتهوا فهم الضالون الذين لن يُستخلفوا في الأرض، {وإن لم ينتهوا عمَّا يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب اليم}[٦١٤] وقوله تعالى: {كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ}[٦١٥].

وقد يتساءل البعض: لماذا الانتهاء؟.

---

[٦١٢] الإسراء ١١١.

[٦١٣] الزلزلة ٧، ٨.

[٦١٤] المائدة ٧٣.

[٦١٥] العلق ١٥.

من أجل أن يعمَّ السلام. ولذلك جميع المفسدات منهي عنها، وجميع المفسدين مطلوب منهم الانتهاء عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الفتنة، وجميع المسلمين مطلوب منهم قول الحق وفعل الحق طاعة للسَّلام الحق.

السلام أمر يعمَّ الناس ويخصّ البعض: يعم الناس باعتباره حق عام من السَّلام الحق. ويخص البعض باعتباره لن يكون إلا للذين يعملون عليه. ولهذا فالسلام قوة لا يُمكن أن يحققه الضعفاء. ولذلك فإن الذين لم ينتهوا هم الضعفاء، والذين استجابوا همّ الأقوياء. وعليه فالسلام قوة تحقيق الاستقرار والأمن والعدل {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله}[٦١٦]. وإن جنحوا للسلم تعني إن جنح الخصم أو العدو إلى القبول بإحقاق الحق فلا ينبغي المكابرة وعلى المسلم أن يقبل بذلك قبل غيره، وفي مضمون وإن جنحوا أن يكون المسلمين في حالة قوة، فالقوة هي التي تجعل العدو يجنح إلى ما يبتغيه المسلم وهو السلام.

السلام اسم لله تعالى، يحفظ من كل سوء سواء كان مصدره أنس أو جن، فبسم الله الرحمن الرحيم تفتح أبواب النجاح وتحفظ من كل شر، ولذلك فهي الآية المفتاح، التي بها يتم التمكن من الدخول إلى والخروج من. ولهذا جاءت استجابتها بالآية الحمد لله ربِّ العالمين، الدالة على ضمان النجاح للعمل الذي يؤسس على اسمه تعالى، مما يستوجب الحمد لمن كان اسمه فاتحا لكل خير وغلقا لكل شر، فالحمد لله ربِّ العالمين الحافظ من شر ما خلق {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }[٦١٧] و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}[٦١٨].

قال تعالى: {الله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}[٦١٩] قال قتادة والحسن: "السلام هو الله وداره الجنة، وسميت الجنة دار السلام لأن من دخلها سلم من

---

[٦١٦] الأنفال ٦١.

[٦١٧] الفلق ١ . ٥.

[٦١٨] الناس ١ . ٦.

[٦١٩] . يونس ٢٦، ٢٧.

الآفات"[٦٢٠]. وقال ابن عباس: "الجنان سبع: دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم"[٦٢١].

وفي كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى سميت الجنة بدار السلام، وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال: "الأول: أنها إضافة إلى مالكها السلام سبحانه.

الثاني: أنها إضافة إلى تحية أهلها، فإن تحيتهم فيها سلام.

الثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر.

والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها"[٦٢٢].

الله يدعو إلى دار السلام، فهو يدعو إلى دار الحق، ولأن الجنة لا ظالم ومظلوم فيها ولا سيد وعبد، ولا حاكم ومحكوم، ولا خائف ومخيف، ولا فقير وغني، بل أصحاب الجنة هم أصحابها الذين لهم الحق فيها، لذا فهي دار السلام وذلك لانعدام معطيات الخصام والاختلاف والصراع والاقتتال والفرقة والحسد والغيرة. إنها دار المحبة التي فيها تُشبع الحاجات. {إنَّ أصحاب الجنة اليوم في شُغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدَّعون سلامُ قولاً من ربٍّ رحيم}[٦٢٣] السلام: الحُجَّة أي لهم الحُجَّة من ربهم تعالى التي بها يتمكنوا من دخول الجنة، وها هم اليوم يعيشونها وأزواجهم حقيقة فيها يتلذذون من كل طيب، مع الوصف البديع لاستجمامهم تحت الظلال وهم على الأرائك متكئون، في سلام ولذة دائمين لا ينقطعان. وهم في هذا السلام الدائم يدخل الملائكة عليهم من كل باب. {والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}[٦٢٤] ودخول الدار كان مترتبا على أربعة رضاءات:

---

٦٢٠ القرطبي الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثامن ص ٣٢٨.

٦٢١ المصدر السابق، ص ٣٢٩.

٦٢٢ . مجدي كمنصور الشورى القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة . مكتبة العلم ١٩٩٩ ص ١١٦.

٦٢٣ ياسين ٥٨.

٦٢٤ الرعد ٢٣، ٢٤.

١ . رضاء الله على عباده الذين استخلفهم في الأرض. {ورضوان من الله والله بصير بالعباد}[٦٢٥] وقوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٦٢٦].

٢ . رضاء الرسل والأنبياء الذين كانت دار السلام استجابة بما دعوا به لله تعالى. {يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين}[٦٢٧]

٣ . رضاء الداخلين من عباده على أنفسهم بما جازاهم الله به من جنة وسلام دائم. {وناد أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربُنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذنُ بينهم أن لعنة الله على الظالمين}[٦٢٨].

٤ . رضاء الملائكة وتقديرها للصابرين، هو الذي جعلهم يدخلون عليهم من كل باب مهنئين لهم دخولهم الجنة.

فالدار كبناء يمكن أن يتصوره عقل الإنسان، وهذه الدار المتصورة بالتأكيد لن تكون هي دار السلام، فالجنة واسعة عرضها عرض السماء والأرض، وللمقارنة بين الدارين يقول الله تعالى: {أعلموا أنما الحياة الدنيا لعبُ ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حُطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضُها كعرض السماء والأرض أعدت للذين أمنوا بالله ورُسُلهِ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}[٦٢٩].

الفرق كبير بين دار دنيا (سُفلى) وبين دار جنة (عليا) فالدار الأولى مادة تعيش فيها الحسنات جنبا إلى جنب مع السيئات، (الطيب مع العفونة، والإنسان مع الديدان) إنها دار المخاوف. أما دار السلام فهي دار الجنة التي بُنيت بالفضل لا بالتراب كما هو حال دار

---

[٦٢٥] . آل عمران ١٥.

[٦٢٦] . المائدة ١١٩.

[٦٢٧] الأنفال ٦٤.

[٦٢٨] الأعراف ٤٤.

[٦٢٩] الحديد ٢٠، ٢١.

الدنيا، فالتراب عمره الزمني منتهي، أمَّا فضل الله الذي من أجله بنيت دار السلام فلا نهاية له. فدار السلام لا عداوة فيها ولا فساد ولا مظالم ولا خوف ولا جوع ولا مرض ولا ألم، ولهذا فالدار التي تخلوا من النقائص والمخاوف هي بحق دار سلام.

ولأنها دار سلام فالله يدع إليها {والله يدع إلى دار السلام}[٦٣٠] يدع الله عباده أن يعملوا صالحا في دنياهم حتى يتمكنوا من دخول دار السلام، ودعوته إليها صريحة لعلمه بما فيها من نعيم، ودعوته صريحة لأنها جزاء منه للعاملين عليها، ومع أن أبواب الجنة مُفتَّحة للجميع إلا أن بلوغها سيكون متعذرا على من لم يعمل عليها.

اللهم يا الله يا رحمن يا رحيم يا ملك يا قدوس يا سلام، متّعني برضاك في الدارين، واحفظني من شياطين الإنس والجن أجمعين، واجعلني من ورثة جنة النعيم، بك آمنت وعليك توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليك، سبحانك فالحمد لك والشكر لك لا شريك لك ربّ العرش العظيم.

ولأن السلام هو المُنزَّه من كل نقص وعيب، والمنزه من الشرك في المُلك، والمُنزّه من الوالد والولد، والمُنزَّهُ من الحاجة والعوز، وهو المالك لكل الملك، وهو الذي بيده الخير، وهو الفعَّال لِما يُريد، وهو الغفور الودود، لذا فجميع الكائنات تسبح بحمده، {يُسبح لله ما في السماوات وما في الأرض له المُلك وله الحمد وهو على كل شيء قدير هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير}[٦٣١].

التنزيه إيمان يقيني بأن الله تعالى هو الحق، وهو بالمطلق على كل شيء قدير، ولهذا فإن التنزيه براءة من النار وعبادة لأهل الجنة.

قال الله تعالى: {وضرب الله مثلا قريةً كانت آمنةً مطمئنة يأتيها رزقُها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}[٦٣٢]. ولأن الدار الدنيا مكانا لالتقاء الأضّداد، فهي معرضة لمغالبة الضدُّ على الضدِ، ولأنها كذلك ضرب الله لنا

---

٦٣٠. يونس ٢٥.

٦٣١ التغابن ١، ٢.

٦٣٢ النحل ١١٢.

الأمثال العديدة التي من بينها مثال القرية التي كانت آمنة وأهلها يعيشون السلام وكيف أصبحت شقية بعد أن كفر أهلها.

بناء على المثال الذي تضمنته الآية الكريمة السابقة نستنتج أن في الأساس القاعدي أن اختيار الله لعباده السلام أولا، ثم يترك لهم بعد ذلك ما يختارون كيفما يشاءون، فإن اعتمدوا ما اختاره لهم الله تعالى واتبعوه كانت لهم دار السلام، وإن غيروا الاختيار فلن يبلغوا إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن وأمتع وأجود مما اختاره الله لهم، فإن استبدلوا ذلك فليس لهم إلا البديل، والبديل لا حول ولا قوة إلا بالله. فالله جعل لهم قريتهم داراً آمنة مطمئنة (دار سلام) يأتها رزقها رغدا من كل مكان، رزقا وافرا ميسرا برا وبحرا، فكفروا بهذه النعم والمكارم، فأذاقهم الله لباس الجوع المُدقع والخوف الشديد بما كسبت أيديهم من أعمال وأفعال.

وعليه فالله تعالى جعل في الأرض خليفة بعد أن جعل له الرزق الرغد، حتى إن البعض يرى بأن الجنة التي كان فيها أبونا آدم عليه الصلاة والسلام هي الأرض النعيم، ولكن لعدم إتباعه أوامر الله تعالى تغير حال الأرض إلى ما هي عليه. وهذه آية لمن يريد أن يعتبر فاعتبروا يا أولي الألباب.

السلام هو الذي منه جاءت السلامة، ولذا فإن السلامة تابعة للسلام السابق عليها، فهو تعالى السابق على كل سابق، وتحتوي السلامة البراءة من كل شرٍ وسوء، ومن كل مرض وألم، ومن كل جهل وفقر، ومن كل حسد وعلة. وفي مقابل ذلك فهي القوة التي تتضمن المقدرة والاستطاعة والسيطرة والعطاء، وفي هذا الأمر يقول الأستاذ مجدي منصور الشورى: "فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى وقال على لسان أهل العلم: الله جل ثناؤه هو السلام لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء"[٦٣٣]. ويقول ابن قتيبة: "إنه الباقي الدائم الذي تفنى الخلق ولا يفنى وهو على كل شيء قدير"[٦٣٤].

---

[٦٣٣] مجدي منصور الشورى القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.القاهرة. دار العلم ١٩٩٩ ص ١١٣.

[٦٣٤] المصدر السابق ص ١١٣.

السلام في الدار الدنيا أمل، والسلام في الدار الآخرة واقع، ولهذا اتخذه البعض شعارا يناضلون من أجل إحقاقه، وقبلوا في سبيله أن يدفعوا الثمن، وثمنه المجاهدة في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ورفع راية الخليفة على الأرض تحت شعار لا إله إلا ألله محمد رسول الله.

ولأن الله جعلنا شعوبا وقبائلا تعددت رؤانا وآراؤنا، مما جعل وجهات نظرنا هي الأخرى تتعدد، ولهذا تجادلنا وتخاصمنا وتنازعنا وغلظت قلوب بعضنا على بعضٍ، حتى تقاتلنا وكل فئة منَّا تعتقد أنها على الحق ومن أجله. وهي في حقيقتها تقاتل الآخرين لتنتزع منهم السلطة، وتفرض رؤاها على حساب رؤى الآخرين. هكذا أصبحت العلاقة بين قوي يمتلك السلطة والثروة والسلاح وبين ضعيف يفتقد للإرادة التي تمكنه من ممارسة الحرية. ولهذا أصبح السلام شعار لإشعال نار الفتنة، عوضا عن إطفائها. ومن ورائها أصبحت الديمقراطية للمغالبة بدلا من تعميمها عدلا على كل من يتعلق الأمر بهم (أمر السلطة والثروة والسلاح، وأمر السلم وأمر الحرب، وأمر ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات).

ولأن تحت شعار ما سبق تُزوّر الحقائق، لذا فالسلام الحق، هو إحقاق الحق سواء في الدار الدنيا أو في الدار الآخرة، وعلى من يريد أن يكون الخليفة، عليه بقبول الآخر الذي له علاقة بالأمر المشترك، واستيعابه هو كما هو، ومشاركته والإحسان إليه، ومبادلته الحب بالمحبة، والقصاص منه إذا أراد أن يُفسد في الأرض أو يسفك فيها الدماء، والعمل معه على إحداث النقلة، التي من خلالها يتمكن من إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

في باطن الأرض تركن البراكين، وفي باطنها النار ونحن منها خُلقنا وعليها نعيش بسلام.

الشمس كتلة من النار، ونحن كل يوم ننام مع غروبها ونصحوا مع شروقها آمنين بسلام، وهكذا ينمو النبات وتتفتق الأزهار مع كل ضياء شمس.

ركبنا الطائرات وغزونا الفضاء بسلام، ولم يصيبنا إلا ما كُتب لنا. والحروب نارها لم تطف بعد والقتال والعداء والمكائد والدسائس والفتن، وهكذا بقدر ما يحيط بنا من مخاطر فنحن

آمنين برعاية من السلام. {قل لن يُصيبينا إلا ما كتب الله لنا هو مولنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون}[٦٣٥].

الخليفة هو المؤمن الذي يعرف عن أنه يقين لن يموت قبل أن يتم يومه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف الموت. وإذا مرض لا يذهب للطبيب ليعالج من الموت، بل يذهب للطبيب ليعالج من المرض، وذلك لإيمانه بأنه إذا مرض لابد أن يُشفى، {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[٦٣٦] أمَّا إذا انتهى يومه فليس له إلا أن يموت على الطاعة والشهادة وهو واثق من أنه سيُحيى من جديد {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}[٦٣٧].

وقد يتساءل البعض: عما هي مُخِلات تحقيق السلام؟ وما هي مُحقِقاته؟.

فتكون الإجابة: المُخِلات هي: ارتكاب المحرمات.

والمحققات هي: الالتزام بحدود الله، في إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "لن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده، وكيف يوصف به من لا يسلم هو من نفسه؟"[٦٣٨] يتم الاتفاق مع هذا الاقتباس الذي تتضح فيه صفة السلام بالإضافة، وهو الذي لا يلحق أحدا من بني جنسه بسوء، سواء كان هذا السوء قولا أو فعلا. ولأن البعض لم تسلم حتى أنفسهم منهم، فكيف يمكن أن يسلم منهم الآخرون. وبما أن الأمر في بعض الأحيان على مثل هذا الحال، فهل يُعتقد أن مثل هؤلاء هم المراد بهم الخليفة؟. كلا. الله بصفاته الحسنى، لا يستخلف إلا حُسناً. فمن بين الذين يراد لهم أن يكونوا الخليفة هم أولئك الذين ارتبطت أرواحهم وأنفسهم وأقوالهم وأعمالهم بالسلام، {وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا}[٦٣٩].

وقال تعالى: {والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويم أبعث حيّا}[٦٤٠].

---

[٦٣٥] التوبة ٥١.

[٦٣٦] الشعراء ٨٠.

[٦٣٧] الشعراء ٨١.

[٦٣٨] محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة . أخبار اليوم قطاع الورق ص ١٥٥.

[٦٣٩] مريم ١٥.

[٦٤٠] مريم ٣٣.

وقال تعالى: {قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا}[٦٤١].
وقال تعالى: {قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى}[٦٤٢].
وقال تعالى: {سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين}.[٦٤٣].
وقال تعالى: {وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين}[٦٤٤].
وقال تعالى: {وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم}[٦٤٥].
وقال تعالى: {وتركنا عليه في الآخرين سلام على موسى وهارون}[٦٤٦] .
وقال تعالى: {وتركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين}[٦٤٧].
وقال تعالى: {وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين}[٦٤٨].

هؤلاء ومن هم على أمثالهم من الصالحين والذين تبعوهم بالإيمان هم الذين يراد بهم الله تعالى أن يكونوا الخلفاء في الأرض، هؤلاء هم أصحاب رسالات السلام الذين يراد لهم أن يعمروا الأرض ولا يُفسدوا فيها ولا يُسفكوا الدماء، وأن يُسبِّحوا بحمد الله ويقدسوه. ولهذا نزل قوله عزَّ وجل: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون قل أمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أتي موسى وعيسى والنَّبيُّون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}.

السلام مصدر للسلامة، والسلامة مصدر للإسلام، أي خلق السَّلام جل جلاله السلامة أولا، ثم اشتق منها الدين الذي أرتضى وأسلم له من في السماوات والأرض، طوعا اختياريا، وكرها حيث جعل الخلق مُسيَّرين بالقوة في كل ما ليس لهم سلطا عليه، كالحركة والزمان وما يترتب

[٦٤١] مريم ٤٧.
[٦٤٢] النمل ٥٩.
[٦٤٣] القصص ٥٥.
[٦٤٤] الصافات ٧٩.
[٦٤٥] الصافات ١٠٩.
[٦٤٦] الصافات ١٢٠.
[٦٤٧] الصافات ١٣٠.
[٦٤٨] الصافات ١٨١.

عليهما من فعل ورد فعل. ولذا فإن الإسلام يعني أنه الحق، ولهذا عندما يكون الإسلام قول حق وفعل حق، ألا يكون السلام هو المصدر لكل سلام.

وقد يتساءل البعض: كيف يكون هو السلام جل جلاله، الذي جعل في الأرض خليفة، واصطفى منهم الأنبياء والرسل، وجعل فيهم الصالحين والأبرار، ولم يعمَّ السلام الأرض التي أراد لهم أن يكونوا الخلفاء فيها؟.

تكمن حقيقة هذا التساؤل في الآية السابقة وبالتحديد فيما يتعلق (بالطوع والكره)، وما يحملانه من معنى (الاختيار والتسيير). فبطبيعة الحال الإنسان الذي يريده الله خليفة له في الأرض هو الذي بإرادته الحرة وعن وعي ويقين يستمد صفاته من صفات خالقه، أي لا يمكن أن يكون الإنسان حرا ما لم يعرف حقيقة أمره، من هو؟ ومن خلقه؟ وكيف خلقه؟. ولماذا خلقه؟. وما العلاقة التي ينبغي أن يكون عليها مع من خلقه؟.

المخيَّر هو الذي يتمكَّن من الإجابة بإرادة على الأسئلة السابقة بعد معرفة تامة ووعي يقيني، هذا الوعي هو الذي يجعله مُدركا لما يجب ولما لا يجب، وبمعرفته هذه يستطيع أن يقرر ما ينبغي الأقدام عليه، وما يجب تجنبه، وما ينبغي الابتعاد عنه. وبناء على ذلك تترتب أفعال الإثابة وأفعال المعاقبة، وما بين الاثنين فهو المخيَّر.

والمُكره (المُجبر) هو الذي لم طرح على نفسه هذه الأسئلة، وإن طُرحت عليه فقد يتجنب الغوص فيها، وقد يدَّعي أن هذه الأسئلة لا تخرج إجاباتها عن الطبيعة. وفي هذه الحالة يلحظ عليه الغفلة عن التساؤل: بما أن الطبيعة مخلوقة وليست بخالقة ألا يكون من ورائها خالق؟. وإلا هل يمكن أن تكون الأشياء لو لم يكن من ورائها من يصدر الأمر لخلقها ويقوم به؟. ومع أنه الجاحد والناكر لذلك إلا أنه لن يستطيع أن يغير أمرا من ألأمور التي عليها خُلقت الطبيعة، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ

لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦٤٩].

القاعدة الطبيعية: (وراء كل مخلوق خالق)، قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٦٥٠].

وبما أنَّ الطبيعة مخلوقة، إذن لابد وأن يكون من ورائها خالق.

والقاعدة الثانية: (الخالق خير من المخلوق)، قال تعالى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٦٥١].

وبما أنَّ الخالق أفضل من المخلوق وخيرا منه، إذن ألا يكون وجوبا أن يتم التعرف على الخالق، والاستماع إلى ما يقوله، وجعله المصدر لكل شيء بدلا من الطبيعة التي هي أقل شأنٍ. نحن بني الإنسان الذين خلقهم الله في أحسن تقويم وجعلهم السلام بالإضافة والخليفة في الأرض، قد صنعنا بأيدينا القلم والمسطرة، لأجل أن نكون على الصراط المستقيم كما يريدنا خالقنا أن نكون عليه، ومع أننا عرفنا القلم والمسطرة إلا أننا حِدنا عن القلم والمسطرة حتى اعوججنا، ومع ذلك بعضنا يعرف أنه المعوجَّ عندما ينظر إلى اعوجاج ظله ويتظاهر بإصلاحه دون أن يفكر في تصحح اعوجاج ظهره، ولذا لن يستقيم الظل والعود أعوج.

وعليه لقد صنعنا المقعد والتلفاز والطائرة والصاروخ، وجميع وسائل المواصلات وصنعنا بأيدينا أدوات كثيرة لتوفر لنا الراحة والاستجمام، ومع ذلك نحن الصَّانعون أفضل من كل ما صنعنا، وفقا للقاعدة (الخالق خير من المخلوق).

---

[٦٤٩] البقرة ٢٥٨، ٢٥٩.

[٦٥٠] الطور ٣٥ ـ ٤٣.

[٦٥١] الروم ٢٧.

نحن الذين صنعنا الجرة من الفُخَّار، ونحن بإرادتنا إذا أردنا كسرها كسرناها، وإذا أردنا تجبيرها جبّرناها، وإذا أردنا البديل الأفضل استطعنا والحمد لله ربِّ العالمين. ولأن العلاقة نسبة وتناسب، فكما نحن نفعل بالجرة وبما خلقنا، هكذا خالقنا يفعل بنا وبما خلق متى ما يشاء وكيفما يشاء، ولأننا نعي ذلك فليس لنا إلا أن نقول اللهم يا الله بيدك الخير فارحمنا يا رحمن يا رحيم ولا حول ولا قوة إلا بك سبحانك ما أعظم شأنك نقدِّسُك ولا نُشرِك بك.

قال تعالى: {إنَّ الدين عند الله الإسلام}[٦٥٢]. أي أن الدين عند الله هو الاعتراف بالحق، والتسليم به، ويبدأ الحق بوجودنا الذي لو لم يكن حق ما كنَّا، والأرض التي نحن عليها لو لم تكن حق ما كنَّا نحن عليها، وإلا نحن الآن أين نكون؟. ولو لم تكن الكواكب حقيقة ماثلة أمام أبصارنا ما رأيناها، ولو لم يكن الخوف فينا ما حسينا به، ولو لم يكن الموت حقا ما سلمنا أمرنا إليه، ولو لم يكن الدين حق ما اصطفى الله الرسل والأنبياء وكنّا من المتعظين. ولهذا أصبحت السلامة للخليفة مطلب حق من كل سوء، ونجاة من العذاب، ومن النار والعار، ومن الفاقة والحاجة، ومن النقيصة والعيب، ولهذا فهي المشتقة من السلام الذي هو سلام من كل نقص، ومن الخطيئة، ومن الوالد والوالدة والولد والسلامة من الشريك. ولذا فالسلامة بالنسبة للخليفة هي: البراءة والنجاة والسترة والأمن والطمأنينة والمخافة من العذاب. والسلام جلَّ جلاله معناه "هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله"[٦٥٣].

قال تعالى: {تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما}[٦٥٤]. السلام عنوان عام لكل من يريد أن يكون مسلما، وخاص بالذين أسلموا وجههم لله تعالى. ولذا في أساس السلام التعميم دون التخصيص، وبالإرادة يكون التخصيص سابق على التعميم.

السلام اسم لله تعالى، ومصدرا للسلامة، ومبعثا للإسلام، وشعارا للمسالمة، وتحية للمسلمين، ومفتاح آمان لأهل الجنة {أدخلوها بسلام آمنين}[٦٥٥]. أي أدخلوا الجنة وأنتم مطمأنون فلن

---

[٦٥٢] آل عمران ١٩.

[٦٥٣] أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء . دار الثقافة ص ٣٧.

[٦٥٤] الأحزاب ٤٤.

يصاحبكم بعد اليوم حزنا ولا خوفا ولا ألم ولا مخمصة ولا يرهقكم ذلا. فادخلوها بسلام آمنين تحمل في مدلولها مصاحبة السلام للداخلين إلى الجنة، أي أدخلوها بقوة السلام جل جلاله فهي لكم وانتم إليها. اللهم اجعلنا من الداخلين إليها بسلام آمنين.

قال تعالى: {وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفُتِحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين}[٦٥٦].

السلام في هذه الآية سلام استقبال لأهل الجنة، فخزنة الجنة هم الذين قالوا السلام على أهلها، وذلك وفقا للقاعدة: (السلام المطلق لغة أهل الجنة) ولذا فإن الجنة مملوءة بالسلام الكامل، ولا حيز للفراغ في غير ذلك.

وتتضمن الآيتان السابقتان مدلولا قيميا يربط دخول الجنة بالسلام مع من ورثوا الأرض، ولهذا فكانت الوراثة مرتين:

الأولى ورثة الأرض بقول الحق وفعل الحق فيها، أي بأقوال وأفعال الخير في الحياة الدنيا.

والثانية: بالجزاء الأوفر لِمن فعل الخير في حياته الدنيا. ولذا فمن يريد أن يكون من ورثة جنت النعيم فعليه بأفعال الخير في الحياة الدنيا.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[٦٥٧]. فأفشوا السلام بينكم أي تمسكوا بالقاعدة وهي: (مطلقية السلام) وهي كما سبق أن بينا أن السلام جاء للعامة ولا تخصيص فيه، وعلى ذلك يترتب أمران:

---

[٦٥٥] الحجر ٤٦.

[٦٥٦] الزمر ٧٣ ، ٧٤.

[٦٥٧] صحيح مسلم مجلد ١ ص ٥٣.

الأمر الأول: بما أن القاعدة السلام عام، إذن كل من يريد أن يعمل عليه فهو في دائرة الممكن، وهذا الأمر هو الذي يجعله وكأنه في دائرة التخصيص. وفي ذلك قال تعالى: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة}[٦٥٨]

الأمر الثاني: وفقا لقاعدة مطلقية السلام، فالاستثناء لا يلحق أحدا إلا إذا هذا الأحد استثناء نفسه من الأخذ بمعطيات السلام. وفي ذلك قال تعالى: {وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما}[٦٥٩].

السلام صفة سرمدية أخص بها الله ذاته العلية، التي لم يكن من بين صفاتها ما يؤدي إلى ظلمٍ، ولهذا وصف نفسه بالسلام والعدل، وبما أنه لا وجود لأي صفة من صفات الظلم في ذاته، لذا فالسلام هو الصفة الباقية بين الراغبين فيها وصفة دائمة لأصحاب الجنة. {وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}[٦٦٠].

قال الأمام الغزالي: "السلام هو الذي تسلم ذاته من العيوب، وصفاته من النقص، وأفعاله من الشر، حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه صادرة منه، وقال: لقد فهمت أن أفعاله تعالى سالمة من الشر"[٦٦١] ولأن أفعاله سالمة من الشر فهو لم يظلم أحداً، ولأن الظلم لم يكن صفة من صفاتها جاء السلام والعدل صفتين مطلقتين فالحمد لله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام.

ولأنه السلام الحق، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن ينصرف من صلاته أستغفر ثلاثة مرات ثم قال: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"[٦٦٢].

---

[٦٥٨] الأنعام ٥٤.

[٦٥٩] النساء ١٧٣.

[٦٦٠] النحل ١١٨.

[٦٦١] صحيح مسلم مجلد ٢ ص ٩٤.

[٦٦٢] المصدر السابق ص ٩٤.

ولأن السلام في أساسه المطلقية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم أنت السلام ومنك السلام، ولم يقل أنت السلام ومنك السلامة، ولذا فهو استمد مضمون الشيء كما هو عليه، ولم يستمد ما يُشتق منه. وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالرسالة الخاتمة للناس كافة. ولأنه في مخاطبة مع الله تعالى، فقال له أنت السلام جل جلاله. ومنك السلام في اعتقادي أنها تدل على الدين. ولهذا فإن الدين الحق هو عند الله الإسلام {إنَّ الدين عند الله الإسلام}[٦٦٣] وقال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم اصطفاه الله تعالى، وكلَّفه بالرسالة الخاتمة للناس كافة، فبعد أن عرف مهمته الإلهية، عرف أن مهمته هي السلام أي (إحقاق الحق وإزهاق الباطل). ولذا فمن خلال قوله (أنت السلام ومنك السلام) عرفنا أنه المُلم بالأمر الذي أُنزل عليه والذي فهمناه من خلال المخاطبة منك السلام بأنه يعني الدين الخاتمة للناس كافة.

وعليه فإن السَّلام في الدار الدنيا يرتكز على الآتي:

١ . التوحيد وعدم الشرك به تعالى: ولأن الله واحد أحد، إذن لماذا الادعاء بأنه ثالث ثلاثة؟ ألا يُعد هذا القول هو إشعال نار فتنة؟. ولأنه كذلك فإنه المُخِلَّ بمحققات السلام. ولذا قال تعالى: {وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون}[٦٦٤]

٢ . الإيمان بأنبيائه ورسله دون أن نفرِّق بينهم: {لا نفرق بين أحد من رُسُله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[٦٦٥] وقال تعالى: {إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}[٦٦٦] اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد صلاة تامة تجمع الصلاة والتسليم على جميع أنبيائك ورسلك من أقصصت علينا ومن لم تقصص. لذا لو لم يكن التفريق بين رُسُله ما كان الاختلاف بين الذين بُعث فيهم الأنبياء والرسل، ولو

---

[٦٦٣] آل عمران ١٩.

[٦٦٤] آل عمران ١٧.

[٦٦٥] البقرة ٢٨٥.

[٦٦٦] الأحزاب ٥٦.

كان الإيمان بهم لكان السلام هو القيمة السائدة بين الناس، ولم يكن السلام ثالث ثلاثة كما يدع الجاهلون.

٣ . التسليم بأوامره ونواهيه: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}[٦٦٧] فلو كان التسليم بالحق ما كان الاختلاف سائدا بين مؤمن وكافر، فسيادة الخلاف بين من يراد لهم أن يكونوا هم خلفاء في الأرض هو الذي أوجد الفساد فيها بدلا من سيادة السلام بين من يتعلق الأمر بهم.

٤ . طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرً}[٦٦٨] السلام يبدأ أول ما يبدأ بسيادة المحبة بين أفراد الأسرة، التي فيها تُقدّر الزيجة والأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذي القربى، وعندما تتعدم هذه القيم أو تضعف يحل الشقاق والانفصال والطلاق محلها، وهذه الأمور هي التي تجعل السلام نسبيا بين المستخلفين في الأرض الذين منهم من غفل عنه ومنه من يتغافل مما جعلهم من الظالمين لأنفسهم ولذي العلاقة بهم.

٥ . العمل على إحقاق الحق وقوله ومناصرة أصحابه: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم}[٦٦٩] وقوله تعالى: {وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر}[٦٧٠]. إن انعدام قول الحق وفعل الحق هو الذي جعل الشقاق والفراق بين من ينبغي أن تكون بينهم المحبة والوحدة.

---

[٦٦٧] الحشر ٧.

[٦٦٨] الإسراء ٢٣ ، ٢٤.

[٦٦٩] آل عمران ١٠٤، ١٠٥.

[٦٧٠] الأنفال ٧٢.

٦ . تجنب النواهي: {إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم}[٦٧١] وقوله تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}[٦٧٢] وقوله تعالى: {فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور}[٦٧٣] وقوله تعالى: {يا أيها الذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم}[٦٧٤] القرب من المفسدات فعل تخريبي، وغير إنساني، ويؤدي إلى الضرر، وهذه أسباب لتفشي الفساد على حساب سيادة السلام بين الناس. ولهذا لا يمكن أن يسود السلام إلا بتجنب ما نهى عنه الله تعالى.

٧ . الابتعاد عن المحرمات: {إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار}[٦٧٥] وقوله تعالى: {قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين أمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفصل الآيات لقوم يعلمون قُل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطان وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}[٦٧٦]. كل المحرمات التي حرمها الله تعالى هي التي فيها تكمن العلل المفسدة لتحقيق السلام، ولذلك الالتزام بما أمر الله بالإقدام عليه حلالا طيبا، أو بتحريمه قطعا هو الذي يحقق السلام بين بني آدم عليه الصلاة والسلام.

٨ . العدل بين المحتكمين: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}[٦٧٧] قال إذا حكمتم بين الناس، ولم يقل إذا حكمتم الناس، فالفرق كبير بين حُكم الناس، وبين الحكم بينهم عدلا فيما هم فيه يختلفون، فإذا ارتضوا الناس من يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون فيجب أن يحكم بينهم من اختاروه حكما عدلا، وإذا انحاز لطائفة أو فئة أو جماعة، فإنه سيكون من الذين يوقدون نار الفتن وله عذاب أليم من ربِّ العالمين.

---

[٦٧١] النساء ٣١.

[٦٧٢] النحل ٣٦.

٢٧٦ الحج ٣٠

[٦٧٤] الحجرات ١٢.

[٦٧٥] المائدة ٧٢.

[٦٧٦] الأعراف ٣٢، ٣٣.

[٦٧٧] . النساء ٥٨.

أمَّا أولئك الذين يحكمون الناس فهؤلاء لا تعنيهم هذه الآية في شيء، ولم يجد نصا يستوجب حكمهم للناس.

إنَّ الذين يعتقدون في تفسيرات البعض فهذه التفسيرات لم تكن مطلقة، فقوله تعالى: {يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا}[٦٧٨]. الطاعة جاءت طاعتين:

أ. طاعة مطلقة لله والرسول.

ب. طاعة نسبية لأولي الأمر من الذين يتعلق الأمر بهم. ولهذا قال تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) ولهذا تم استثناء أولي الأمر منكم.

وأولي الأمر منكم، لم يكونوا هم أولي أمرنا، ولذلك لم يقل عزَّ وجل أولي أمركم، بل قال أولي الأمر منكم. ويقصد بذلك الذين تختاروهم لأن يسيروا أموركم التي تتعلق بممارسة حقوقكم وتأدية واجباتكم، وحمْل مسؤوليتكم، ولذا فإن أولي الأمر منكم هم الذين يتم اختيارهم إراديا من قبل الذين يتعلق الأمر بهم، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أو خارجية، أو أمر سلم أو حرب، أو ما كان متعلقا بالحاجات ومشبعاتها المحققة للسلام لهم ولمن تربطه بهم علاقة.

والسبب الداعي لطاعة أولي الأمر منكم، واجبة فيما يتعلق بالتزامهم بالأمر الموكل إليهم، ولا طاعة لهم إن خالفوا الأمر الذي يستوجب طاعته من قبل الذي قرر واختار من يرى أنه مناسبا لأن يتولى المسؤوليات الجسام المتعلقة بهذا الأمر.

٩ . المعاملة بالمثل: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إنَّ الله يحب المحسنين}[٦٧٩] وقال تعالى: {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها}[٦٨٠].

---

[٦٧٨] النساء ٥٩.

[٦٧٩] البقرة ١٩٤، ١٩٥.

[٦٨٠] النساء ٨٦.

المعاملة بالمثل أو المعاملة بما هو أفضل تؤدي إلى نيل الاحترام والتقدير من قبل المعنيين بالأمر إن كانوا يعتبرون، وكذلك من قبل المحايدين الذين ليس لهم في الانحياز.

١٠ . العفو عند المقدرة: {وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم}[٦٨١] وقوله تعالى: {وإن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم}[٦٨٢]. العفو والصفح والغفران تُعد قيم رحمة بين الناس، وهي التي كلما سادت بينهم ساد السلام. وكلما انعدمت حل محلها الطغيان والفساد وسفك الدماء بغير حق. ولذلك فمن يريد العفو والصفح والمغفرة من الله تعالى فعليه بها مع من تستوجب في الدار الدنيا، وعليه بالعمل على تعميم الفضل وتقديمه لمن هم في حاجة إليه.

ولو لم يكن السلام صفة من صفات الله تعالى لكانت الشقاوة فينا إلى يوم يبعثون، فالحمد له تعالى الذي جعل في أنفسنا الرحمة، وجعل بيننا المحبة والألفة {يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائلا لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم}[٦٨٣].

قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا}[٦٨٤]. جاء الكيد في هاتين الآيتين الكريمتين على صفتين:

الصفة الأولى للفساد في الأرض. ولذا فهي تتعلق بكيد البعض من أهل مكة لإطفاء نوره تعالى، وهذا كيد ضعيف أمام كيد القوي.

الصفة الثانية للسلام في الأرض، هي كيد الله تعالى لكيد الكفرة من أهل مكة الذي به يريد الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ولهذا فكيد الكفرة يتمركز على ما يقوموا به من عراقيل في سبيل منع إعلاء كلمة الحق، من خصومات وصدامات وتزوير للحقائق مع المسلمين في فجر الإسلام. أمّا كيد الله فكان لكيد الكفرة الذي به يتم إبطال كل ما من شأنه أن يعيق تقدم

---

[٦٨١] التغابن ١٤.

[٦٨٢] البقرة ٢٣٧.

[٦٨٣] الحُجُرات ١٣.

[٦٨٤] الطارق ١٥، ١٦.

انتشار الإسلام وفي هذا الأمر قال الله تعالى: {ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون}[685].

وبناء على ما تقدم فإننا نتفق مع ما قاله الدكتور الصلابي في تماثل السلام والقدّوس وذلك بتضمنهما للكمال المطلق "القدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى، ثبت الكمال كله"[686] وصدق الله تعالى وهو خير قائل: {فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام}[687].

وقوله تعالى: {وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين}[688].

وعليه السلام اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته، وهو من الأسماء التي تعود إلى تنزيه الخالق سبحانه عن مشابهة الحوادث، وهي: (السلام، القدوس، الغني، الصمد،الأول، الآخر، الباقي) ف (السلام) ذو السلامة من كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله فهو سالم سبحانه من كل مالا يجتمع عقلا مع معنى الإلوهية والربوبية، كمشابهة الحوادث ومعلوم أن كل ماعدا الله تعالى ناقص في ذاته وصفاته وأفعاله، لذا: فلا يمكن أن يكون بينه وبين الله تعالى مشابهة حقيقية، ولو في وجه من الوجوه، أو جزء من الأجزاء، ومخالفة الحوادث معناها: أن الله تعالى ليس مماثلا لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقا، فهي عبارة عن سلب الجرمية، والعرضية، والكلية، والجزئية، ولوازمها عنه تعالى فلازم الجرمية هو التحيز، ولازم العرضية هو القيام بالغير، ولازم الكلية هو الكبر، ولازم الجزئية هو الصغر. وضدها المماثلة للحوادث.

أما الدليل العقلي على ذلك فهو:

---

[685] التوبة ٣٢.

[686] على محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين. بيروت . دار المعرفة الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١٨٨.

[687] الأنعام ١٢٥.

[688] الصافات ١٨٢.

١ . انه تعالى لو لم يكن مخالفا للحوادث لكان مماثلا لها، ولو كان مماثلا للحوادث لكان حادثا مثلها، ولو كان حادثا لاحتاج إلى محدث، ومحدث يحتاج إلى محدث وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل فتثبت مخالفته للحوادث.

٢ . كل من وجب له القدم، استحال عليه العدم، ولا شيء من الحوادث يستحيل عليه العدم، فلا شيء منها بقديم فثبتت المخالفة.

قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٦٨٩] فالله تعالى لا يشبهه ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.[٦٩٠]

اسم الله تعالى (السلام) يحمل في ثنياته كل ما ينزه الله تبارك وتعالى، ويفرد له صفات الكمال، فكل صفة سلاما مما يضاد كمالها. فمن خلال الثنائيات المتحققة للبشر يتبين من خلالها خاصية اسم (السلام) كثنائية الحياة والموت والعلم وعدمه والصدق والكذب والعدل والظلم وغيرها من الثنائيات، هذه الثنائيات وغيرها خلقها الله تبارك وتعالى وجعلها تشكلا من تشكلات خلقه، لتمثل دلالة تشير إلى قدرته وعظمته.

فمن بين هذه الثنائيات:

الموت – الحياة:

تحدث النص القرآني عنها في مختلف المجالات الفكرية، ومن خلال أشكال تعبيرية متنوعة. فالله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، يقول تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[٦٩١]، والله تعالى بحكم إلوهيته للكون كله وخلقه للحياة

---

[٦٨٩] – الشورى ١١

[٦٩٠] – أصول الدين الإسلامي د رشدي عليان ود قحطان عبد الرحمن الدوري ج ١ ص ١٠٦ – ١٠٧

[٦٩١] – الملك ٢

والموت، هو الذي بيده وهب الحياة وعدمها بالموت، يقول تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا}[٦٩٢] ولا أحد من خلق الله تعالى يملك قدرة الإحياء والإماتة، يقول تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}[٦٩٣] فكل السياقات التي وردت تشير إلى أن خالق الحياة والموت هو الله تعالى، إذ يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٦٩٤] فالموت هو النهاية الطبيعية لكل حي، فالخالق هو المالك لهما في الوقت نفسه، فضلا عن ذلك أن ثنائية الحياة والموت تنزه الله تعالى عن الموت وتثبت له صفة الحياة، إذ يقول تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ}[٦٩٥] كلكم لا بد أن يموت فهي النهاية الحتمية لكل البشر فليس هنا أحد خالد،يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[٦٩٦] فالآية هنا جاءت في إثبات البعث، فجمعت الآية الموت والحياة والنشر. وكلها تقلبات كل واحدة تحيل على الأخرى للوصول إلى يوم القيامة المتحققة فيه صورة الخلود الدائم لله تعالى، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٦٩٧] والسؤال هنا يرد ومعه الإجابة، والإجابة هي من الله تعالى، وليس هناك من أحد مجيب لان الجميع أموات فلا يصدر عنهم شيء. وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[٦٩٨] هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ

---

[٦٩٢] – النجم ٤٤

[٦٩٣] – الفرقان ٣

[٦٩٤] – أل عمران ١٨٥

[٦٩٥] – الزمر ٣٠ – ٣١

[٦٩٦] – الأنبياء ٣٤ ، ٣٥

[٦٩٧] – غافر ١٦

[٦٩٨] – الزمر ٣٠

عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}[٦٩٩] فسياقات الموت كلها تشير إلى ثبات صفة الحي لله تعالى، فضلا عن ذلك أن القران الكريم صور لنا صورتين متقابلتين للموت، إحداهما تمثل موتا للمؤمنين بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، حينها يكون الموت أجمل من الحياة الدنيا، إذ يقول تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}[٧٠٠] فالموت وإن كان هنا قتلا فهو حياة أخرى لا نعلم حقيقتها، لذا قال تعالى في موضع آخر: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}[٧٠١] أي أنها حياة خاصة لذا قال – عند ربهم – تأكيدا على أنها غير حياتنا الدنيا. وليس هناك من سبيل للوصول إلى الحياة الأخرى عند الله تعالى إلا بالموت، الذي يعني في ظاهره الفناء وفي دلالاته القرآنية الخلود والبقاء، ولهذا مَنّ الله تعالى به على عباده كما مَنّ بالحياة والرزق، فقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٧٠٢].

أما غير المؤمنين فقد رسم لنا القرآن الكريم صورة مخيفة لموتهم وما يلقونه في هذا الموت من عذاب وشدائد، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}[٧٠٣] والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين {أي المشركين) مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب. الظالمون في غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب – والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج وكله مما يضفي على المشهد ظلالاً مكروبة، تأخذ بالخناق من

[٦٩٩] – أل عمران ١٤٤

[٧٠٠] – البقرة ١٥٤

[٧٠١] – أل عمران ١٦٩

[٧٠٢] – الروم ٤٠

[٧٠٣] – الأنعام ٩٣

الهول والكآبة والضيق![704] هذا الموت هو الذي هدد به القرآن المشركين والكافرين من العرب، لأنهم كانوا يرهبونه وما فكرة الطلل البالي إلا تعبير دقيق عن إدراك مفهوم الموت لديهم من خلال متغيرات الزمان والمكان. قال تعالى مشخصا الموت: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[705]. إن القرآن يضفي سمة الحياة على الموت فيجعله كائنا حيا يفر منه الظالمون ظنا منهم أنهم ناجون منه، فيصدمهم القرآن بالحقيقة الواقعة أنه – ملاقيكم – أينما كنتم !!!

العلم وعدمه:

هذه الثنائية ارتسمت بدايتها من خلق أدم عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[706] فسياق الآية ارتكز على (أعلم) التي رسمت صورة العلم المطلق لله تعالى الذي لا يصل إليه أحد مهما كانت منزلته حتى الرسول عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[707] فضلا عن ذلك أن من الخطابات التي وردت على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام تحيل إلى بيان علم الله الواسع الذي لا يعرفه أحد إلا الله تعالى، يقول تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}[708] وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[709] ويتجلى علم الله في الإتقان العجيب، والإحكام الغريب، في هذا الكون الكبير، كما أن ما يجري فيه

---

٧٠٤ – في ظلال القرآن، ج ٣ ، ص ١٠٠

٧٠٥ – الجمعة ٨

٧٠٦ – البقرة ٣٠

٧٠٧ – الأعراف ١٨٨

٧٠٨ – الأنعام ٥٠

٧٠٩ – يونس ٤٩

بالتسلسل والتتابع، يجري وفق تنظيم رائع لارتجال فيه، ولا مصادفة، والنظرة إلى النفس الإنسانية نجد فيها قابلية للعلم والمعرفة، وهي مخلوقة من ضعف، عرفنا أن صفة العلم فيها من صفات الكمال، وأن صفة الجهل وعدم المعرفة من صفات النقص. والخالق العظيم الذي أتقن خلق الكون وأحكمه، وخلق هذا الإنسان القابل للعلم والمعرفة، لابد أن يكون هو بذاته عليما خبيرا، لا تخفى عليه خافيه، ولذلك صدر عنه هذا الإتقان البديع، والإحكام الكامل، والدقة البالغة، في كل مخلوق من مخلوقاته، يقول تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}[٧١٠]. والله تعالى وصف نفسه في القران الكريم بأنه عليم خبير، وبأنه محيط بكل شيء علما، إذ يقول عز وجل: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٧١١] وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٧١٢] كما ارتسمت إحاطة الله تعالى بالعلم في آية الكرسي، وهي آية عظيمة، اشتملت على عشر جمل مستقلة، يقول تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٧١٣] ففي قوله تعالى: {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ} أي لاَ يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى شَيءٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلاَّ مَا عَلَّمَهُ اللهُ، وَأَطْلَعَهُ عَلَيهِ، وَأَذِنَ لَهُ بِهِ . وَلا يُعرف إِذْنُهُ تَعَالَى إِلاَّ بِوَحْيٍ مِنْهُ.

العدل – الظلم:

---

٧١٠ – النمل ٦٥ ، ٦٦

٧١١ – الأنعام ٥٩

٧١٢ – سبأ ٣

٧١٣ – البقرة ٢٥٥

العدل في اللغة أنه ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم وهو ضِدُّ الجَوْر، و في أسماء الله سبحانه العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم[٧١٤] وورد في القران الكريم بصيغ الأمر الدالة على وجوب تحققه، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٧١٥] يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، وهنا الإحالة تكون إلى العلم فلا يكون هناك عدل دون وجود معرفة واضحة بأحكام الله تعالى التي أرادها لعباده، فالمعرفة واجبة كي يتحقق العدل المطلوب. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٧١٦] فالعدل المتحقق يكون أولا في ذات المسلم يقول تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٧١٧] فضلا عن ذلك يكون أيضا مع بقية الخلق،يقول تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٧١٨] .

أما يوم القيامة فهو بطبيعة الحال يمثل عملية حساب للكل دون تفريق، وأن الإنسان لا بد أن يأخذ جزاءه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، لتجزى كل نفس بما تسعى، ويتحقق العدل الإلهي، قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[٧١٩] وتتجلى العدالة الإلهية يوم القيامة بالفصل بين الخلائق، فالمحاسبة تكون من قبل الله تعالى،يقول تعالى:

---

٧١٤ – لسان العرب، ج ١١ ص، ٤٣٠

٧١٥ – النساء ٥٨

٧١٦ – النحل ٩٠

٧١٧ – البقرة ١٩٥

٧١٨ – الأنعام ١٥٢

٧١٩ – الزلزلة ٧ ، ٨

{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٧٢٠].

السياق هنا يستعرض عدالة الله تعالى للخلق أجمعين، والله تعالى يضع الموازين العادلة، التي توزن بها الحسنات والسيئات، فلا ظلم بينهم سواء أكانت النفس مؤمنة أم كافرة، فلا تنقص الحسنات ولا تزاد السيئات، كلا حسب عمله واستحقاقه، (وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) يعني بذلك نفسه الكريمة فكفى به حاسبا أي عالما بأعمال العباد حافظا لها مثبتا لها في الكتاب عالما بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها موصلا للعمال جزاءها، فكل عمل وكل كلام مدون أمام الكل، يجدونه أمامهم، إذ يقول تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[٧٢١] فضلا عن ذلك أن المحاسبة يوم القيامة تطلب من الإنسان نفسه، مما يحيل ذلك على العدالة المطلقة لرب العالمين، يقول تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[٧٢٢].

حقيقية لفظ السلام:

قال ابن القيم: حقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها فمن ذلك، قولك: سلمك الله وسلم فلان من الشر. ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم اللهم سلم[٧٢٣]. ومنه سلم الشيء لفلان. أي: خلص له وحده، فخلص من ضرر الشركة فيها، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا

---

٧٢٠ – الأنبياء ٤٧

٧٢١ – الكهف ٤٩

٧٢٢ – الإسراء ١٣ ، ١٤

٧٢٣ – صحيح البخاري جزء من الحديث، ج ٢٠ ، ص ٢٣٨

لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[٧٢٤] أي: خالصا له وحده لا يملكه معه غيره.

ومنه السلم ضد الحرب، قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٧٢٥] لان كل من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الأخر ولهذا يبنى منه على المفاعلة. فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل. وحقيقته الذي قد سلم لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخلفات. بل وهو المستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته. فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته.

ومنه أخذ الإسلام فانه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك فسلم لربه، وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون؛ ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم والمخلص الخالص لربه والمؤمن به.

ودور الخليفة في تجليات اسم (السلام) إفشاء السلام بين عباد الله، فهو من الخصال الحميدة، فمن خلال استذكار أهم الأحداث التي كان للسلام فيها حضور واضح نذكر قول الله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}[٧٢٦] إن طريقة السلام هنا جاءت في حالة حركة من الملائكة، فما أجدر أن يأتي سلامهم بصورة تنبئ بالفعلية التي تعكس الحركة! أما سلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقد جاء مبتدأ محذوف الخبر، فهو بالصورة الاسمية التي توحي بالثبات الذي هو فيه أثناء دخولهم عليه. فضلا عن ذلك أن

---

[٧٢٤] – الزمر ٢٩

[٧٢٥] – الأنفال ٦١

[٧٢٦] – هود ٦٩ – ٧١

الرّفع فيه تناسي معنى الفعل فهو أدلّ على الدّوام والثّبات. ولذلك خالف بينهما للدّلالة على أنّ إبراهيم عليه الصلاة والسّلام ردّ السّلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادة في الإكرام[٧٢٧].
للحديث عن اسم الله تعالى (السلام) يحيلنا إلى قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وتحديدا في قوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آَلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}[٧٢٨] إن اقتراح قتل إبراهيم عليه الصلاة والسلام جاء عارضا لكن الإصرار كان على تحريقه، رغم أن القتل لا يحتاج من الجهد ما يحتاج إليه التحريق! ولكن لماذا بنى له قومه بنيانا يحرقوه فيه؛ هذا التساؤل يحيلنا إلى أمرين: الأمر الأول: أن فعل إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن صغيرا بالنسبة إلى قومه، فتكسير الأصنام يعد أمرا عظيما وخرقا لعبادة الآباء والأجداد، إذ يقول تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٧٢٩].
الأمر الثاني: فهو بيان عظمة الله تعالى وسلامه الدائم لعباده المطيعين المتشبثين بدينه مع كل الصعوبات والمحن التي يتعرضون لها، قال تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}[٧٣٠] وصورة الحرق غير المتحققة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، والمتحققة في هيئتها لمن يرمى فيها، ترسم عظم الباري جل جلاله وحفظه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فضلا عن ذلك أن النجاة المتحققة هنا رسمت أبعادا معرفية للنص وخاصة في لفظة (سلاما) التي تعد المركز في عملية النجاة. وذِكر (سلاماً) بعد ذكر البرد كالاحتراس لأن البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد، فعُقب ذكره بذكر السلام لذلك. وعن ابن

٧٢٧ – التحرير والتنوير، ج ٧ ، ص ١٦٨
٧٢٨ – الأنبياء ٦٨ – ٧٢
٧٢٩ – الأنبياء ٥٢ – ٥٤
٧٣٠ – يونس ١٠٣

عباس: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببَردها. وإنما ذكر (برداً) ثمّ أتبع ب (سلاماً) ولم يقتصر على (برداً) لإظهار عجيب صنع القدرة إذ صيّر النار برداً[٧٣١].

أما قصة يونس عليه الصلاة والسلام، فهي صورة من صور السلام المتحقق، الدال على الحفظ الرباني في مكان يتسم بظروف غريبة غير متوقعة ولا تدرك حتى التفكير فيها مستبعد، يقول تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[٧٣٢] وهنا النص يرتكز على لفظة (الظلمات)، والظلام هنا متعدد، بطن الحوت ظلمه، والبحر ظلمه، والظلام في ذاته صورة مرعبة يرافقها صوت بطن الحوت، وصوت البحر بما فيه، تشكلات مختلفة، وكلها تحيل إلى هلاك متحقق إلا أن قدرة الله تعالى وعظمته تحيل الهلاك المتحقق إلى صورة تخيلية فقط عند ذكر بطن الحوت مع وجود إنسان بداخلها، وتحققت النجاة وخرج يونس عليه الصلاة والسلام من بطن الحوت، إلا أن وضعه بعد الخروج أختلف اختلافا جذريا نتيجة ما حصل له داخل بطن الحوت، فكان كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد ومع ذلك كان فضله عليه كبيرا، وصورته هذه يتبين منها التحول الموصل إلى الموت في حالة البقاء في بطن الحوت، إلا أن حفظ الله تعالى كان سباقا له، وتلك رحمة من الله تعالى يمن بها على عباده الصالحين المستخلفين في الأرض، يقول تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[٧٣٣].

يرتبط اسم الله تعالى (السلام) بأمر مهم تجلت فيه رحمة الله تعالى ألا وهو إرسال الرسل، وإرسال الرسل كان بحكمة من الله تعالى لما آل إليه الخلق من معاصي وذنوب وتجاوز على الله تعالى، ومهمة الرسل اقتضت تعريف الناس بمعبودهم الحق، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

---

[٧٣١] – التحرير والتنوير، ج ٩، ص ١٨٢

[٧٣٢] – الأنبياء ٨٧ ، ٨٨

[٧٣٣] – الأنبياء ٨٨

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[734] وقوله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[735] هنا كانت بداية الدعوة إلى الله تعالى مع نوح عليه الصلاة والسلام، لابد من التغيير، لابد من الوقوف على الخطأ كي يصحح، لابد من تغيير العقول وردم الهوة الفاصلة بينها وبين الحق، لابد من التحذير حتى لا يقع المحذور. ويتبع عبادة الله تعالى إقامة الدين والنهي عن التفرق فيه، يقول تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[736] ثم يتبعه التبشير والإنذار، يقول تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[737] وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، يقول تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[738]، ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي يقول تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[739]. وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها يقول تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[740]. وكل هذه الخطوات المتحققة غايتها السلامة للخلق أجمعين، للفوز بالجنة والنجاة من النار، يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ

---

[734] – الأعراف ٥٩

[735] – الأعراف ٦٥

[736] – الشورى ١٣

[737] – البقرة ٢١٣

[738] – النحل ٩٧

[739] – فصلت ١٣

[740] – النساء ١٣

أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٧٤١].

وعليه الفوز بالجنة والنجاة من النار سلام، وفي حفظ الله ورعايته السلام، وفي هيمنته ورزقه السلام، وفي ملكه ورحمته السلام، وفي عدله وحكمه وحكمته السلام، وفي إحيائه وإماتته وبعثه السلام.

اللهم يا السلام اجعلنا على السلام بالإسلام، وسلمنا من الأقوال والأفعال والأعمال التي لا ترضاها وارضي عنا وعن زوجاتنا وأولادنا وآبائنا وأخوتنا وصحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول الله وأمهاتنا زوجات الرسول اللهم صل وسلم عليه كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم إنك سميع مجيب.

اللهم يا السلام سلم عقولنا من بعض الظن فإن بعضه إثم، اللهم سلم أبصارنا من رؤية مالا ترضاه وسلم أسماعنا من الإنصات إلى ما لا ترضاه، وسلم أفكارنا من كل ضلالة وأبداننا سلمها يا سلام من عذاب جهنم إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا.

اللهم يا السلام عمنا بسلامك في الدنيا وفي الآخرة، وأملأ قلوبنا ونفوسنا بالسلام والطمأنينة، فأنت السلام الذي نحبه ونحتاجه ونرجوه، اللهم إنك جعلت تحيتك السلام فاجعلنا على الإسلام في سلام دائمين، اللهم سلّمنا من كل سوء ورذيلة وذنب، واجعلنا يا السلام من الذين إذا حيوا بتحية فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ يرُدُّوهَا.

اللهم يا السلام اجعلنا في حياتنا آمنين بالسلام وفي آخرتنا متنعمين بالسلام، اللهم اجعلنا من الذين دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللهم يا السلام أهدنا الصراط المستقيم واجعلنا عندك في دار السلام آمنين أنت ولينا يا نعم المولى ونعم الوكيل.

اللهم سلمنا من كل داء وكل بلاء وابتلاء، وسلمنا في حياتنا ومماتنا ويوم بعثنا وسلمنا من الحساب واجعلنا من الفائزين في جنة النعيم إنك السلام يا الله.

---

[٧٤١] – أل عمران ١٨٥

المؤمن

المؤمن: اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته، وقوة مطلقة من قوته الدائمة. ومنه كما يؤكد لسان العرب أستمد الأمن الذي هو ضد الخوف، والأمانة التي ضد الخيانة، والأيمان ضد الكفر، ويعني أيضا التصديق الذي ضده التكذيب[٧٤٢].

فالمؤمن هو الواثق الذي لا حيِّز للظن فيه، ولهذا فالوثوق فعل يقيني، {وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً} جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها. ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسلام، وببلوغهم إياها يوثِقون عهدهم طاعة وطواعية على الأيمان وهم آمنين. ولذلك قال تعالى: {إنَّ المتقين في مقام أمين}[٧٤٣]. أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف فيه.

قال تعالى: {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}[٧٤٤] روي عن ابن عباس وسعيد ابن جبير أنهما قالا: "الأمانة هي الفرائض التي أفترضها الله على عباده"[٧٤٥].

قال الزجاج: صفة المؤمن بالله أن يكون راجيا ثوابه، خاشيا عقابه. وعن ابن عمر قال أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من المهاجر؟ فقال من هجر السيئات. وقال من المؤمن؟ قال: من أتمنه الناس على أموالهم وأنفسهم[٧٤٦].

والأمانة التي عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حمْلها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحد أحد لا شريك له، ولذا فإن الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أمينا وحريصا عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

---

[٧٤٢] ابن منظور لسان العرب. بيروت، دار لسان العرب، المجلد الأول، ص ١٠٧.

[٧٤٣] الدخان ٥١.

[٧٤٤] الأحزاب ٧٢.

[٧٤٥] لسان العرب المحيط، ج١، ص ١٠٨.

[٧٤٦] المصدر السابق، ص ١٠٨.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربه تعالى بحمْلها لم يُوفِّق في حمْلها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكل أموال الناس بالباطل، وكان قول الزور متمشيا مع شهادة الزور، وكان الزنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أن الكل على هذه الشاكلة، بل هناك الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهناك الصالحون رضي الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدِّقون والمزكُّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان، وهؤلاء هم الذين إذا أقسموا بالله لأبرَّهم، فالحمد لله ربِّ العالمين. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت. {فأمَّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأمَّا من خفت موازينه فأمه هاوية}[٧٤٧].

ولأن الميزان هو أساس القسط، فكان الاستخلاف هو الأمانة التي بها ثقلت الموازين، قال تعالى: {وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّنَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}[٧٤٨]

تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الاستخلاف في الأرض هو للذين أمنوا، ولهذا قال تعالى: (وعد الله الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات) فالذين أمنوا منكم، لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم. ولذا كان الاستثناء في استخلاف الأرض يخص الذين أمنوا، ولا يعمَّ الذين كفروا ولا يخصَّ الذين لم يعملوا الصالحات. ولذلك فالاستخلاف خاصية ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين، فهؤلاء هم الذين أراد الله تعالى استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف

---

[٧٤٧] القارعة ٦ . ٨.

[٧٤٨] النور ٥٥.

الذين من قبلهم). وعليه فكلمة منكم، تعني بعضكم وليس عمومكم، ولأن الناس لم يؤمنوا بعد جميعا، فلن يكونوا بالعموم خلائف.

قال تعالى: {فلمَّا تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعق فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}[٧٤٩] فبعد أن رأى موسى عليه الصلاة والسلام آية دك الجبل صُعِقَ موسى صلى الله عليه وسلم، ولمَّا آفاق، (قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) فأول المؤمنين تعني أول المصدقين الذين نُزِعَ الشك والظن من صدورهم، تسليما بما يقوله الله تعالى، وإيمانا تاما بأنه هو الله، وقوله الحق سبحانه لا شريك له.

ولهذا فقول موسى صلى الله عليه وسلم (تبت إليك وأنا أول المؤمنين) تعني أنا أول خليفة بعد أولئك الذين سبقوني بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (كما استخلف الذين من قبلهم). وبما أنَّ الله قد استخلف سابقين، فهو بطبيعة الحال يستخلف حاضرين وسيستخلف من بعدهم لاحقين حتى النهاية، ولهذا جعل الله تعالى في الأرض الخلائف في حالة اتصال وتعاقب عبر الزمن، أي أنَّ أبواب الاستخلاف مفتوحة دائما لمن يهتدي، ولأن أبواب الاستخلاف مفتوحة عبر الزمن، لذا فإن عدد المؤمنين دائما في حالة ازدياد دائم حتى النهاية فالحمد لله ربِّ العالمين.

ومن عرف أن الله سبحانه وتعالى هو المؤمن لم يطلب الأمن والاستقرار للناس في حياتهم الدنيا إلا في شرع الله وعلم أن أهواء البشر ونظراتهم العاجلة القاصرة لا تنتج إلا فساداً وخللا واضطرابا قال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ}[٧٥٠] فلا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب تفرد الله تعالى بخلقها والهداية التي استظل بها قال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[٧٥١].

---

[٧٤٩] الأعراف ١٤٣.

[٧٥٠] المؤمنون ٧١.

[٧٥١] طه ٥٠.

وحظ العبد من اسم ربه (المؤمن جل جلاله) أن يكون أمينا على نفسه وماله وأن يتخلق بالأمانة والصدق فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزنى ولا يرتكب شيء من الفواحش بل يتقي الله ربه في كل شيء يقوله أو يفعله، ويهدي للتي هي أحسن، {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[٧٥٢].

واسم المؤمن جل جلاله في الشرع "فالعلماء قد عبَّروا عن هذا الاسم بعبارات مختلفة فمنهم من ذهب إلى أن المؤمن يعني الذي يؤمِّن خلقه من ظلمه، كابن جرير، بينما ذهب الزجاجي وابن كثير والشوكاني إلى الجمع بين معنيين:

أحدهما: أنه الذي يأمن عباده من بأسه وعذابه.

وثانيهما: أنه المصدق عباده المؤمنين"[٧٥٣].

قال تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدُّوس السلام المؤمن}[٧٥٤] تنص هذه الآية صراحة على أن المؤمن اسم من أسماء الله الحسنى، وجاء في هذه الآية اسمه مرتبا بعد صفة الملك والقدوس والسلام، وهذا الترتيب المنظم يدل على:

أولا: تأكيد صفة المؤمن على ما سبقها من صفات لله تعالى.

ثانيا: احتوى صفة المؤمن على ما سبقها من الصفات الحِسان.

ثالثا: تفتح صفة المؤمن آفاق واسعة أمام الصفات التي تليها.

ولهذا اسم الله تعالى لا يتعدد وصفاته متعددة.

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "لاسم المؤمن جل جلاله معنيين:

المعنى الأول: "أنه الذي آمن بنفسه وشهد بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وثنى بشهادة ملائكته فكانت شهادتهم عبادة له وتنزيها لذاته، وهي شهادة مبنية على شهادة الله تعالى، ثم

---

[٧٥٢] الإسراء ٥٣.

[٧٥٣] مشرف ألغامدي منهج الأمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض . دار أبن الجوزية الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص ٢٨٣.

[٧٥٤] الحشر ٢٣.

تلي ذلك بشهادة أولي العلم وهم المؤمنون بالوحدانية الإلهية يقينا"[755] وذلك مصداقا لقوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}[756].

والمعنى الثاني للمؤمن: "هو الذي يؤمن للمؤمنين. أعني: يستجيب لهم إذا استجابوا له"[757]. وفي ذلك قال الله تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة ألداع إذا دعانِ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}[758]. فليستجيبوا لي تعني: أن لا يعصوا أمري الذي هو من أجلهم، وليس من أجلي، فالله عز وجل لم يكن في حاجة لأحد، بل هو الذي كل أحدا في حاجة إليه، فكل قول من الله تعالى هو من أجل من قيل له القول. فالله تعالى لم يكن في حاجة، بل الذي في حاجة هو الذي يجوع ويظمى، ولأنه مالك كل شيء فهو الذي لم يكن في حاجة لأي شيء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه"[759].

وقال أبي حامد الغزالي: "أحق العباد باسم المؤمن من كان سببا لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة. وهذه حرفة الأنبياء والعلماء"[760].

بناء على ما تقدَّم علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث إنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلُ، وبما أنَّ للإيمان فعل، إذن فمن يعمل على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟!. ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

---

٧٥٥ محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها.القاهرة ، دار المنار الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ص ٣١.

٧٥٦ آل عمران ١٨.

٧٥٧ أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مصدر سابق، ص٣١.

٧٥٨ البقرة ١٨٦.

٧٥٩ أبي حامد الغزالي المقصد الأسنى ف أسماء الله الحسنى. بيروت . دار الكتب العلمية، ص ٤٩.

٧٦٠ المصدر السابق، ص٤٩.

وبما أنَّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمْله؟. الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمْله، أمَّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالخلائف.

المؤمن هو المصدق، قال تعالى: {قالوا يا أبانا إنَّ ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمنٍ لنا ولو كنا صادقين}[٧٦١] وما أنت بمؤمن لنا تعني: وما أنت بمصدق لنا، وجاءها التأكيد عليها بقولهم: (ولو كنا صادقين) التي تحمل في مضمونها الاعتراف من قبلهم بعدم صدقهم فيما يقولون. ولهذا قالوا ولو كنا صادقين ولم يقولوا ونحن صادقين.

وعليه، فالمؤمن هو الصادق، الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد. ولهذا (وما أنت بمؤمن لنا)، تدل أيضا على انعدام الثقة فيهم في أمر يوسف. وهذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق. ولذلك قلنا أنَّ المؤمن هو: الواثق. ولذا فهو الصادق فيما يقول، ولأنه كذلك فالمؤمن كلما استمع أو قراء قولا من قول الله تعالى قال: صدق الله العظيم، وهذا القول هو التصديق من المؤمن بالإضافة للمؤمن الحق جل جلاله. ولأن المؤمن هو الواثق، قال جلا جلاله: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[٧٦٢].

والمؤمن الحق هو المُسلَّم بأمره، والمؤمن بالإضافة هو المسلِّم بالمؤمن الحق. والإيمان هو التسليم، {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آَمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}[٧٦٣] فآمنَّا به تعني: سلمنا به وصدقناه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف في الحق أحدا. وبما أنَّ المؤمن لا يخاف في الحق أحدا، إذن أمر التسليم حق، ولأن أمر التسليم بالحق حق، لذا فالإيمان بالحق أمر تسليم، ولهذا جاء قوله تعالى: (وإنّا لمَّا سمعنا الهدى أمنَّا به) أي أصبح فعل الإيمان أمرا نافدا في زمن الاستماع للهدى دون انتظار أو طلب استشارة من أحدٍ. ولذلك لمَّا يدخل

---

[٧٦١] . يوسف ١٧.

[٧٦٢] الأنعام ٨٢.

[٧٦٣] الجن ١٣.

الإيمان في القلوب تصبح الحقيقة هي البينة، {قالت الأعراب أمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم}[٧٦٤]. يقول القرطبي: "نزلت هذه الآية الكريمة في أعراب بني أسد بن خُزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، في سنة جَدْبة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر، فكانوا يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان فأعطنا من الصدقة؛ وجعلوا يمنُّون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يتسمُّوا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين"[٧٦٥].

بناء على هذه الآراء فإن مكمن الحقيقة هو القلب، أمَّا اللسان يقول كل شيء فهو يقول الحق كما يقول الباطل، أمَّا القلب فهو المكين للحقيقة. والمكين هو الحافظ للحقيقة سواء كانت سالبةً أم موجبةً. ولكن إظهار الحقيقة ليس بالأمر الهين، فهو دائما في حاجة للتقصي الدقيق والمتابعة الواعية، ولذا يستند البحث العلمي على التقصي في إظهار الحقائق من الباطن إلى الظاهر، وهذا التقصي هو الذي يُمكِّن البُحَّاثة من بلوغ الحقيقة هي كما هي، لا هي كما ينبغي أن تكون من وجهة النظر الخاصة.

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسُولِهِ والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل}[٧٦٦] وقوله تعالى: {يا أيها الذين أمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان}[٧٦٧]. في الآيتين السابقتين كانت المخاطبة مباشرة للمؤمنين، إلا أن الآية الأولى حددت بمن يكون الإيمان، وهو: الإيمان بالله والرسُول محمد صلى الله عليه وسلم، والكتاب القرآن الكريم، والكتاب الذي أنزل من قبل، وهو الذي يستوجب التصديق بالكتب التي نزلت على الرُسُل الذين كان محمد ورسالته الخاتمين لكل رسول ولكل رسالة. ولهذا نحن لا

---

[٧٦٤] الحجرات ١٤.

[٧٦٥] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي ، ج١٦، ص ٣٤٨.

[٧٦٦] النساء ١٣٦.

[٧٦٧] البقرة ٢٠٨.

نفرق بين أحدٍ من رسله صلوات الله وسلامه عليهم، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وفي الآية الثانية جاء الأمر للمؤمنين كافة أن يدخلوا السلم، وجاء النهي أيضا لهم كافة أن لا يتبعوا خطوات الشيطان. ولذلك فالعلاقة قوية بين المؤمنين والسلم الذي كما سبق أن بينا هو المستمد من اسمه السلام جل جلاله. ولأن المؤمن هو الذي يؤمن بالسلام عزَّ وجل، فبطبيعة الحال أن يكون داخلا في السلم والسلم خير.

المؤمن جل جلاله هو: الموثوق فيه، أي أنه محل الثقة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو المُتَّبع التزاما لكل ما جاء به المؤمن الحق، تسليما بالقول، وتسليما بالفعل، حتى يتماثل الباطن مع الظاهر (السر مع العلانية). ولذلك تغرس الثقة في المؤمن بالإضافة بعد المعايشة والمرافقة والتجريب معه في القول والفعل اللذين بتطابقهما مع الصدق ينالان الثقة. ولذلك يعد المُجرَب هو الذي عُرِف عنه قول الحق وفعل الحق مما يجعله محل ثقة بين الناس.

وعليه فالمؤمن المطلق هو الذي جاء بالإيمان بدين الحق الذي آمن به المؤمن المضاف حتى اتصف به قولا وسلوكا.

آمن به تعني: وثق به وصدَّقه، حتى اعتقده حقيقة، ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم. وفي ذلك يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "من آمن بالله اعتقده حقيقة، فآمن بوجوده وبصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه الصلاة وأتم التسليم"[٧٦٨].

ويتساءل الشعراوي بقوله: "ما المقصود (بالمؤمن) حين يكون اسما ووصفا للحق تبارك وتعالى؟.

ويجيب: المؤمن كوصف من أوصاف الله عز وجل له معانٍ متعددة. منها أنه تبارك وتعالى مؤمن بكل ما دعانا إلى الإيمان به، فهو مؤمن بأنه موجود، ومؤمن بأنه موصوف بصفات

[٧٦٨] محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة ، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص ١٥٩.

الكمال المطلق، ومؤمن بأنه واحد أحد، ومؤمن أنه لا إله سواه"[٧٦٩]. وفي ذلك قال تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وألوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم}[٧٧٠].

الإيمان خير، والمؤمن هو الخيِّر، ولذا فمن يُريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا عفانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما في السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما}[٧٧١] فقوله تعالى (فآمنوا خيرا لكم) دليل إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته ولهذا ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

قال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون}[٧٧٢]. هذه الآية رسالة من الله تعالى إلى الناس جميعا، يُطلب فيها الإيمان به وبرسوله محمد النبي الأمي، الذي آمن بالله وكلماته وهو الذي له ملك السماوات والأرض وحده لا شريك له، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وقد يظن البعض متسائلا كيف يكون هو الرسول من عند الله تعالى ويقول آمنوا بالله ورسوله النبي الأمي، وفي هذا النص يشير مباشرة لنفسه (النبي الأمي)؟.

هذه الآية نصا تاما من عند الله تعالى، وما الرسول إلا مكلفا بتبليغها هي كما هيَّ دون زيادة ولا نقصان، فالله تعالى هو الذي قال النص التام لهذه الآية الكريمة، وهو الذي وصفه بالنبي الأمي ولم يصف نفسه بذلك، وبهذا الوصف الرباني يُبرئ الله سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أي اتهام أو ظن، مؤكدا أنَّ الرسالة التامة هي من عند الله وليس للرسول فيها

---

[٧٦٩] المرجع السابق، ص ١٦٠.

[٧٧٠] آل عمران ١٨.

[٧٧١] آل عمران ١٧٩.

[٧٧٢] الأعراف ١٥٨.

من شيء إلا البلاغ، وبهذا أكد الله تعالى على أن الرسول أمي أي لا علم له بأمر الرسالة لو لم يُعلِمه الله بها ويُ ُعلِّمه علمها ويُكلِّفه بالتبليغ.

ولذا فإن الرسول من بعد الرسالة لم يكن أميًا، فهو الذي يُبيِّن ويفسِّر ما علَّمه الله، فالرسول قبل الرسالة بحق كان أميا بأمرها، أمَّا من بعدها فقد علَّمه الله عز وجل بعلم الرسالة، فالرسول صلى الله عليه وسلم لو لم يعلم أنَّ الله على كل شيء قدير ما آمن به، ولو لم يعلم علم اليقين بأنه الحق ومنه الحق ما اصطفاه الله رسولا له، ولو لم يكن كذلك قادرا على حمْل ما كلَّفه بحمله ما حمِلَ الرسالة وبشَّر بها ودعا إليها وحرَّض على ما تأمر به، ولو لم يكن كذلك ما كان المرجعية التي يعود إليها جميع المسلمين {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله}[٧٧٣] وقوله تعالى: {لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا}[٧٧٤] فأنزله بعلمه الذي عَلِمهُ محمد أولا وبشر به ثانيا، ولأنه قادر على ذلك، صلى الله عليه وسلم، وطلب منَّا الصلاة والتسليم عليه فالحمد لك والشكر لك لا شريك لك والصلاة والسلام على من أمرتنا بالصلاة والسلام عليه سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة وأتم التسليم.

وورد في الآية الكريمة بلاغان: بلاغ عن الرسول، وبلاغ به: فالبلاغ عنه: أنه آمن بالله وكلماته. والبلاغ به: أنه المكلف بإبلاغ الناس أن يؤمنوا بالله وبرسوله النبي الأمي، وإتباعه مع أفضل التمنيات بالهداية.

وعليه، فالإيمان في هذه الآية جاء رباعي الأبعاد:

البعد الأول: إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم بالله تعالى.

والبعد الثاني: طلب في صيغة أمر بأن يتم الإيمان بمن آمن الرسول به وهو المؤمن جل جلاله.

---

[٧٧٣] الحشر ٧.

[٧٧٤] النساء ١٦٦.

البعد الثالث: أن يتم التسليم والإيمان بالرسول الأمي محمدا رسول الله عليه الصلاة وأتم التسليم.

البعد الرابع: إتباع الرسول أي الأخذ بسنته حتى تتم الهداية لِما يأمر الرسول به.

وعليه من يؤمن كان الخليفة، ومن يكفر فلن يكون من الخليفة في شيء.

قال أحمد عبد الجواد في كتابه ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها: "المؤمن جل جلاله هو الذي يفزع إليه الخائف فيؤمِّنه، فلا أمن ولا آمان إلا منه جل جلاله. وقال: من اسم المؤمن أشتق الأمن والأمانة، واشتق اسم العبد المؤمن"[٧٧٥].

ولذا فإن اسم المؤمن هو الأصل، وما يشتق منه تابع له، فالمؤمن بالإضافة مشتق من المؤمن الحق، وهو في هذه الحالة متماثل في اشتقاقه مع اشتقاق الأمانة والأمن والآمان من اسمه جل جلاله.

والآمان عهد على حق، ولذا فالحق هو الذي جعل عهد الله هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها. {اقبل ولا تخف إنك من الآمنين}[٧٧٦].

والمؤمن هو الذي لا تردد في أمره، فإذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

قال تعالى: {ولأمة مؤمنة خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشركٍ ولو أعجبكم}[٧٧٧] جاء الخير من الإيمان وهو عدم الخيانة، ولذا فبمقارنة خائن ولو أعجبك بمؤمن لا يخون حتى ولو كان عبدا، فإن الاختيار يقع في حالة الأمر الجد على من لا يخون. ولهذا فالخائن لا أمانة له، ولا ثقة فيه، ولا سكنا معه ولا طمأنينة.

قال تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[٧٧٨]. لمَّا سمع صحابة رسول الله هذه الآية الكريمة قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم: "أيُّنا لم يظلم نفسه؟

---

[٧٧٥] أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء ، دار الثقافة ص ٤٠.

[٧٧٦] القصص ٣١.

[٧٧٧] البقرة ٢٢١.

[٧٧٨] الأنعام ٨٢.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لأبنه: (يا بنيَّ لا تُشرك بالله إنَّ الشرك لظلم عظيم)"[٧٧٩].

فالذين أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، هم المؤمنون حقا الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهم الذين لم يصاحبهم ظنا بما أمنوا به، وهم الذين لا يقولون إلا ما يفعلون، ولذلك فهم المؤمنون، ولأن المؤمنين هم جمع مؤمن، لذا فهم القوة المجمَّعة بقوة الإيمان التي بها يضمنون الأمن وهم مطمئنون مهتدون بمعرفة تامة إلى ما يجب إتباعه، وإلى ما يجب اجتنابه، وهؤلاء هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وهذا الحال هو بالتمام حال أمر الخليفة، الذي آمن بالله ورُسُله وكُتبه وملائكته، أمَّا حال أولئك البعض من الذين لم يؤمنوا بالوحدانية الإلهية ولم يؤمنوا بجميع الرسل والكتب والملائكة، وخانوا الله والرسول وأماناتهم، فهم لم يكونوا من الخليفة في شيء، والأمر الذي جعلهم من المستثنين هو عدم إيمانهم، ولذا لو لم يؤمن الناس ما جعل الله في الأرض خليفة.

قال تعالى: {يا أيها الذين أمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم}[٧٨٠] قيل أنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح. قال أبو لُبابة: "والله ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت هذه الآية. فلما نزلت شدَّ نفسه إلى سارية من سوار المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليَّ، وبقي على هذا الحال سبعة أيام حتى خر مغشيا عليه، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحله بيده"[٧٨١].

في هذه الآية الكريمة نهى الله تعالى عن ثلاث خيانات: خيانة الله تعالى، وخيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخيانة الأمانات. والنهي عن الخيانة هو نهي عن ارتكاب الأفعال الفاقدة لمعاني الصدق، ولذلك فالقاعدة هي الصدق (قول الحق وفعل الحق)، والشذوذ الكذب (خيانة قول الحق وفعل الحق واستبداله بالقول الزور والفعل الزور).

---

[٧٧٩] القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم، الجزء السابع، ص ٣٠.

[٧٨٠] الأنفال ٢٧.

[٧٨١] مواهب الجليل من تفسير البيضاوي، ص٢٣٠.

الأمانات في هذه الآية جاءت غير محددة، مما يستوجب تعددها إلى النهاية، فالأبوة أمانة، والأمومة أمانة، والأخوة أمانة، والعمومة وذي القربى أمانة، والجيرة أمانة، وممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات أمانات، التعلم والتعليم أمانة، العمل والإخلاص فيه أمانة. العهد أمانة، الإيمان أمانة، الفرائض أمانة، قول الحق وفعل الحق أمانة، وغيرها من الأمانات كثير، وفي مقابلها الكثير من الخيانات، فالزنا خيانة، وشهادة الزور خيانة، الشك بالله خيانة، بيع الوطن خيانة، هتك العرض خيانة، أكل أموال الناس بالباطل خيانة، إتباع المنهي عنه خيانة، وهكذا تتعدد الأمانات والخيانات على كفتي العدل إلى النهاية.

ولذلك فإن اسم المؤمن جل جلاله اسم الوثوق، الذي لو لم يكن اسمه المؤمن ما كان لنا الدليل على صدق ما يُقال، فالمؤمن اسم عهد على الإيمان، ولذا فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله. فالإيمان عهد لا ينفصم، وقسم لا يحنث، إنه الرسوخ والثبوت على الحق بقوة الحُجَّة.

اسم المؤمن اسم يقيني، {وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك ثم أجعل على كل جبل منهنَّ جزءا ثم أدعوهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم}[٧٨٢]. هذه الآية الكريمة دليل إثبات أمام الأبصار والعقول، ولقد جاءت شاهدا على الإيمان، (قال بلى ولكن ليطمئن قلي) أي بلى آمنت ولكن لأرى الحقيقة، وليرى غيري ومن يتم استخلافه من بعدي أنَّ الإيمان حق. فالعلاقة قوية بين ما تراه الأبصار وبين ما يَستقرُّ في القلوب ليُعمَّر. ولذلك فمن يريد أن يرى الله فعليه بملاحظة امتداد قوته بين الحركة والسكون. فالطيور الأربعة التي تم أخذها هي في حالة حركة، وبعد أن قُطِّعت إلى أجزاء متفرقة أصبحت ساكنة لفقدانها الحياة التي بانعدامها تنعدم الحركة بالنسبة للميت، ولأن خالق الحياة والموت حيا لا يموت وبيده الأمر، أعيدت الطيور الأربعة إلى الحركة الحية آية بين أيدي الخليفة الذي عندما سُأل: أولم تؤمن قال:

---

[٧٨٢] البقرة ٢٦٠.

بلى. وبما أنه أجاب ببلى، فهو المؤمن بدون ظن. وبما أنه المؤمن بدون ظن، إذن فلماذا إبراهيم يسأل ربه تعالى؟.

تتلخص هذه الآية الكريمة في دعوة إبراهيم ربه تعالى، واستجابته له كانت القوة الماثلة أمامه وبين يديه، فاطمأن قلب إبراهيم صلى الله عليه وسلم باستجابة ربه تعالى حتى أزيل الشك عنه. وبهذه الاستجابة الشاهد عيان انقطع الشك من قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعرف أن ربه سيكون مجيبا دعاءه كلما دعاه. وفي الوقت ذاته كانت الاستجابة قوة حُجَّة وستظل شاهدا عبر الزمن لمن يُؤمن بالله والرُسُل والأنبياء.

ولأن المؤمن الحق هو الذي يُصدِّق عباده ووعده، جاء تصديقه بالاستجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حتى اطمأن قلبه بالإيمان.

أولم تؤمن جاءت استغرابية استفهامية. فالله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل الليل لباسا والنهار معاشا، هو الذي تساءل بقوله تعالى: (أولم تؤمن) أي أولم تؤمن وأنت تعرف أنك تجوع وأنا الذي أطعمك من الجوع، وأنت الذي تظمى وأنا الذي أروي ظمأك بالماء الذي جعلت منه كل شيء حيا، وأنت الذي في حاجة للجنس، وأنا الذي شرَّعت لك الحلال منه، وأنت الذي تخاف وأنا الذي آمنتك من الخوف، وأنت الذي تغضب وأنا الذي جعلت الفرحة تملأ صدرك، أنت الذي تظلم وأنا الذي جعلت العدل فيك حبٍ وغرست الكره في كل المظالم، وأنت الذي تقتل وأنا الذي حرَّمت قتل النفس بغير حق، وأنت الذي من بينك كفرة وأنا الذي جعلت الإيمان حق لمن يريد أن يكون الخليفة

وبناء على ما ورد في هذه الآية علينا أن نفرِّق بين الظن والشك: فالظن ضعف وذلك بمصاحبة الإثم له في بعض الأحيان، والشك قوة تفكير من أجل الإدراك الواعي. ولذا فبالشك يتم التفكُّر والتذكُّر وبه يتم تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصائبة. {يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواد فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك}[٧٨٣]. وقال تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن

[٧٨٣] الانفطار ٦ . ٨.

أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرَّ موسى صعقا فلما آفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين}[٧٨٤]. الله عزَّ وجل لم يكن له شكلا أو جسما ليُنظر إليه أو تراه الأبصار، فهذا الأمر في غير محله.

الله واحد أحد في ذاته، والإنسان صورة في جسد، ولهذا ليس لذات الله شكلا ولا صورة حتى يكون قابلا للمشاهدة أو الرؤية العينية، بل هو الكل الواحد الأحد الذي لا يمكن أن يتمكن أحد من رؤيته، مع انه يتمكن بكل يسر من إدراكه. ولذا عندما قال موسى صلى الله عليه وسلم ربِّ أرني أنظر إليك. قال: لن تراني. أي لن تراني كما يتهيئا للبعض بأني في صورة أو شكلٍ مما يعرفون، بل إذا أردت أن تراني قوة فأنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، ولأن ألجبل بقوة الله لم يستقر في مكانه، إذن فبطبيعة الحال لن يرى موسى عليه الصلاة والسلام ربه تعالى، ولكنه يدركه حقيقة. إنه هو الذي بيده القوة التي جعلت الجبل دكا، وجعلت موسى يخر صعقا. وهذه الآية القوة هي التي جعلت موسى بعد أن آفاق يقول: (سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين).

وعليه يقول الشيخ سعيد ابن على ابن وهف: "المؤمن هو الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين،. وصدَّق رسله بكل آية وبرهان"[٧٨٥].

المؤمن الحق هو مصدر القوة المطلقة، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من المؤمن الحق، وهو الذي يُسلِّم به تسليما تاما لا ظن فيه. ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي، يؤمن بما أنزل ولا يعصي لله أمرا.

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبدي، بعد أن يتم التسليم بالله ورُسُله وكتبه وبكل ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقا لقوله تعالى: {ولمَّا يدخل الأيمان في قلوبكم}[٧٨٦].

---

[٧٨٤] الأعراف ذ١٤٣.

[٧٨٥] سعيد ابن على ابن وهف شرح أسماء الله الحسنى.ف ضوء الكتاب والسنة. بيروت ، دار ابن حزم ٢٠٠٣. ص ٩٢.

[٧٨٦] الحجرات ١٤.

والأمن نقيض الخوف، فمتى ما حلَّ الأمن نُزِعَ الخوف، وهذا يعني أن الإيمان هو بيت الاستقرار والسكينة الذي به تطمئنَّ القلوب. وبما أنَّ الإيمان هو بيت السكينة والاطمئنان، إذن إذا أريد للأمن أن يستقر في القرية الصغيرة فلا مفر من المؤمن الحق إلا المفر إليه وحده لا شريك له بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وإن لم يتم ذلك لا يمكن للفتن أن تزول، ولا يمكن للحقد والمكائد أن تزول، وبما أن الأمر كذلك فستظل الفتن والمكائد والصدامات والحروب إلى أن تتم العودة إليه بدلا من المفر منه مصداقا لقوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}[٧٨٧].

وبما أنَّ الإيمان هو المشتق من اسم المؤمن جل جلاله، وهو بيت السكينة والاطمئنان، إذن فمن آمَنَ بالمؤمن آمِنَ نفسه من الجوع والخوف {فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوفٍ}[٧٨٨]. وعليه فمن أراد أن لا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان. {ألا بذكر الله تطمئنَّ القلوب}[٧٨٩].

وبما أنه لا آمان إلا منه. إذن فالإيمان به هو المُمكن من الإيمان منه. ولذا فمن أراد آمانه فعليه بالإيمان به واحد احد لا شريك له. والإيمان في هذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده مما يستوجب اللجوء إليه دون غيره، حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف. وإلا هل هناك من يضمن ذلك ويؤتمن جانبه إلى الأبد غيره؟. الإجابة تكمن في قوله تعالى: {أفأمن أهل القرى أن يأتهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون}[٧٩٠].

---

[٧٨٧] الكهف ٨٠.

[٧٨٨] قريش ٤.

[٧٨٩] الرعد ٢٨.

[٧٩٠] الأعراف ٩٧ . ١٠٠.

بالرغم من وضوح القوة والمقدرة الإلهية على الفعل المطلق، إلا أن المؤمن جل جلاله رءوف بالذين يرثون الأرض، فلم يصبهم بذنوبهم التي بها يفسدون في الأرض التي استخلفهم الله فيها ليصلحوا. والفرق كبير بين ورثة الأرض وبين الاستخلاف فيها: فورثة الأرض حق معيشة عام لا استثناء فيه. والاستخلاف في الأرض بابه مفتوح للجميع ولكن لا يدخله إلا مؤمن (مصلح). ولذا قال الله تعالى: {ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون}[٧٩١] دائما الفساد يؤدي إلى النهاية غير الحسنة، فأخذناهم بما كسبوا تعني بما عملوا من مفاسد في الأرض. فالأرض التي خلقها الله وجعلها كنز وافر في الحياة الدنيا، العيش فيها حق للجميع {المؤمن وغير المؤمن) وبالتالي لا يحق الإفساد فيها حتى لا يحرم أحد من ورثتها من العيش الآمن، ولذا فمن يُفسد فيها يكون العذاب جزاءه في الدار الآخرة. ولأن مَن يملك الكل يملك الجزء، فالله خلق الأرض ليرثها الجميع، ولكن إذا أراد أن يُملِّكها لعباده الصالحين فهو القادر متى ما يشاء وكيفما يشاء، مصداقا لقوله تعالى: {ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون}[٧٩٢].

فالعذاب والعقاب لا يأتيان إلا لملاحقة خيانة، ولهذا فالقاعدة: الإباحة هي الحلال، والاستثناء هو التحريم والنهي، ولذا فكل ما يقع من خيانة هو خروج من دائرة الإباحة الحلال ودخول إلى دائرة الاستثناء (الممنوع والحرام). فالفساد في الأرض منهي عنه وهذه قاعدة تستوجب الاتباع، فمن يُفسد فيها يُخِلَّ بالقاعدة ويدخل دائرة الاستثناء، وبناء على القاعدة والاستثناء فإن المصلحين فيها هم الخلفاء، والذين يعيشون عليها هم الورثة.

وعليه، قد يتساءل البعض: بما أنَّ الإباحة هي القاعدة، والتحريم هو الاستثناء من القاعدة، وأن الوجود مؤسس على القاعدة والاستثناء، فهل هذا دليل إثبات انعدام المطلقية؟. لا مطلق إلا من عند الله، وهذه قاعدة. ولا استثناء إلا من عند المخلوق وهذه قاعدة.

---

[٧٩١] الأعراف ٩٦.

[٧٩٢] الأنبياء ١٠٥.

وقد يتساءل آخر: بما أنَّ المخلوق هو في دائرة الاستثناء، فكيف لنا بالمطالبة أن يكون متمسكا بالقواعد؟.

الإنسان مع أنه خُلق في أحسن تقويم إذا ما قورنا بغيره من المخلوقات الأخرى، إلا أنه لم يُخلق على الكمال، فهو الذي يُفكِّر ويتذكر في وقتٍ واحد (يُفكر في مستقبله، ويتذكر ماضيه) ومع ذلك لن يستطيع أن يفكر في كل شيء مهما فكَّر، فأي شيء يقع في دائرة المطلق، ولن يستطيع أن يستدعي كل ماضيه مهما تذكَّر، فالماضي بالتمام مثل المستقبل يقع في دائرة المطلق وهذه لم تكن دائرته.

وبما أنَّ هذا حاله فكيف يكون الخليفة في الأرض؟.

بمقارنته بكل المخلوقات فهو الأقدر الذي خُلِقَ في أحسن تقويم، وبمقارنته بالخالق فهو الضعيف الذي في حاجة لقوة من خالقه تمده بإمكانات السيادة على الأرض التي يراد له الاستخلاف فيها. والقوة بإمكانه أن يستمدها بتمسكه بقواعد الإباحة الحلال، التي منها أن يعمل على الإصلاح في الأرض، واستثمار خيراتها، وأن يشرب حلال، ويأكل حلال، ويجامع حلال، ويقول الحق، ويفعل الحق، ويتعلم إلى النهاية حتى يتمكن من الغوص في كل آية من آياته العظام، وأن لا يشغل عقله بإله آخر غيره، فيكون انشغاله به على حساب إيمانه بالوحدانية، التي يتعلق أمرها بإحداث المطلق، وأن يمارس حقوقه بإرادة، ويؤدي واجباته بإرادة، وأن يحمْل مسؤولياته بكل حرية، وأن يُقدِّر بني جنسه أحسن تقدير وأن يعدل إذا طُلب منه أن يحكم بين الناس، وأن لا يكتم شهادته. وعليه فإن التزم بالقواعد وابتعد عن الاستثناءات قد آمن، وإن لم يفعل فقد كفر.

ولذا يكون الإنسان مؤمنا إذا التزم بالقواعد، ويكون منحرفا إذا حاد عنها، ولهذا السُكر استثناء، وأكل أموال الناس بالباطل استثناء، والزنى استثناء، والإفساد في الأرض استثناء، والظلم استثناء، وجميع هذه الاستثناءات وغيرها كثير وللأسف الشديد هي من عمل من يُرَاد له أن يكون الخليفة. ولأن أمر الإرادة بيد الإنسان، فإذا أراد أن يكون من بين الخلائف في

الأرض فبإمكانه أن يكون، وإذا لم يرد فالأمر أمر إرادة. ولهذا فنحن مثلما سلمنا بقاعدة لا مطلق إلا من عند الخالق تعالى، سلمانا أيضا بقاعدة أنَّه لا استثناء إلا من عند المخلوق.

فالمخلوق إن آمن اطمأنَّ، وتخلَّص من مسببات الضعف والوهن وامتلك مقاليد القوة، وساد في الأرض خليفة مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون}[٧٩٣] فنحن أوليائكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فالمؤمن جل جلاله هو ولي المؤمنين بأسباب إيمانهم الذي تم استخلافهم به في الأرض فكانوا نعم الوارثين {إنَّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله وليُّ المؤمنين}[٧٩٤]. إنَّ أولى الناس بإبراهيم تعني إنَّ أخصَّ الناس بخلافة إبراهيم هم الذين اتبعوه بالإيمان، والذين آمنوا بمحمد وأتبعوا رسالته هم الوارثون للاستخلاف في الأرض كما سبق وأن ورثها من قبلهم الذين آمنوا بالأنبياء والرسل السابقين.

وعليه فمن يُؤمن بمحمد يصلي عليه ويسلم تسليما تاما كما يصلي ويسلم على إبراهيم وكل الرسل مصداقا لقوله تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أتي موسى وعيسى وما أتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون}[٧٩٥] وقوله تعالى: {لا نفرق بين أحدٍ من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[٧٩٦].

تؤكد هذه الآيات الكريمة على الاستخلاف المتصل، ولا تؤكد على الاستخلاف المنفصل. فالاستخلاف المتصل هو استخلاف تماثل، فمثلما نصلي ونسلم على الأنبياء والرسل السابقين بالتمام نُصلي ونسلم على محمد. أمَّا الاستخلاف المنفصل أن يؤمن مسلما بنبي أو رسول من عند الله ولا يؤمن بنبي أو رسول آخر من عنده.

---

[٧٩٣] فصلت ٣٠، ٣١.

[٧٩٤] آل عمران ٦٨.

[٧٩٥] البقرة ١٣٦.

[٧٩٦] البقرة ٢٨٥.

وعليه فالمؤمن الحق: هو الذي بيده اليقين.

والمؤمن بالوراثة: هو الذي يؤمن بالمؤمن الحق وحده لا شريك له بيده الملك يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

أمَّا الأمانة: فهي المتداولة بين الطرفين ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملَّك، وهي إرث يُورَّث. {إنَّ عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبينا أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا}[٧٩٧]

والأمن: فعل استقراري من فاعل أعظم إلى فاعل بالإضافة {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن}[٧٩٨].

والآمان: عهد يُقطع مما يجعل آمان الله باقي ببقائه، وآمان العبد زائل بزواله.

والإيمان: اعتراف إرادي بفعل جل، {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آبائهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون}[٧٩٩].

المؤمن اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته، يوضع اسم الله تعالى (المؤمن) ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة العلم الواسع الكامل لله تعالى، وهي: (العليم، اللطيف، الخبير، الشهيد، الحسيب، المحصي، الواجد، السميع، البصير، الرقيب، المهيمن، الواسع، المؤمن). واسم الله تعالى المؤمن هو المؤمن عباده بما عرفهم من عدله ورحمته من أن يظلمهم ويجور عليهم وأصل الإيمان في اللغة التصديق، ويحتمل ذلك وجوها:

أحدها أنه يصدق عباده وعده ويفي بما ضمنه لهم من رزق في الدنيا، وثواب على أعمالهم الحسنة في الآخرة، والآخر أنه يصدق ظنون عباده المؤمنين ولا يخيب آمالهم كقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عن ربه عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما

[٧٩٧] الأحزاب ٧٢.

[٧٩٨] الأنعام ٨٢.

[٧٩٩] المجادلة ٢٢.

شاء وقيل: بل المؤمن الموحد نفسه لقوله: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط}[٨٠٠]، وقيل: بل المؤمن الذي آمن عباده المؤمنين من عذابه يوم القيامة وقيل: هو الذي آمن خلقه من ظلمه، وقد دخل أكثر هذه الوجوه[٨٠١].

واسم المؤمن من الأسماء الحسنى التي وردت مرة واحدة في القران الكريم، يقول تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٨٠٢] إلا أن هذا الورود يرسم تشكلا معرفيا كبيرا، ويحيل إلى دلالات عظيمة تكمن أهميتها في أنها ترتسم ضمن خصائص تتعلق بصلب التكوين البشري وتساعده في إدراك أبعاد مهمة تساهم في الاستقرار النفسي الذي سبقه تخبط مستمر بين القلق الدائم وعدم الإدراك لمعطيات الرؤى المتكررة التي تتكرر مرارا دون الوصول إلى حقيقة مطلقة يستشف من خلالها كنه ما هو متحقق، والوقوف على حقيقته للتبصر والتمعن والإدراك، فهو يعطي صورة مغايرة تماما لما يتردد في النفس الإنسانية، وهذا يحيلنا للحديث عن ثنائية الخوف – الأمن التي من خلالها نبين عظمة هذا الاسم (المؤمن)، فالخوف من المفردات التي صاحبت البشرية منذ ولادتها وتشكل معها ورسم صورة من الصور التي يتبين من خلالها خصلة من الخصال التي جبل عليها البشر عامة، والخوف تشكل مع الإنسان من البداية، وصار جزءا لا يتجزأ من شخصيته القلقة التي تنظر إلى كل شيء بقلق، كالنظر إلى البرق أو إلى المطر أو إلى الرياح، فهذه الصور وغيرها تشكل في داخله الخوف المتكرر، هذه البداية التي صاحبت الإنسان كان للخوف فيها نصيب كبير جعلته يتساءل كثيرا عن السر العجيب وراء كل هذه المظاهر التي شغلته وأخذت منه حيزا كبيرا، فهو دائم التفكر ينظر إلى هذا العالم الواسع وما فيه من صور مختلفة، وكل واحدة من هذه الصور تختلف عن الأخرى إلا أنها تصب في بوتقة واحدة وهي أن هناك من يقف وراء هذه المظاهر العظيمة التي يتشكل العجز حين التفكير بمن يقف وراء هذه المظاهر المختلفة، وسياق الكلام هنا تدرج بوتيرة

---

[٨٠٠] آل عمران ١٨.

[٨٠١] – الأسماء والصفات ، ج ١، ص ١٦٦

[٨٠٢] – الحشر ٢٣

زمنية تشكلت وفق معطيات الإدراك البشري وطبيعته الخلقية، فلم تتضح له الصورة التي يحلم بتحققها للوقوف على حقيقة ما يريد معرفته إلا بإرسال الرسل، وهنا بدا الاتصال الرباني مع بني البشر لتوضيح الرسالة التي يراد تبليغها للناس كافة، والتي تتضمن أجوبة لكل التساؤلات التي شغلت الفكر الإنساني ردحا طويلا من الزمن، فكان إرسال الرسل، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٨٠٣] وإرسال الرسل استمر بالتتابع فلم ينقطع إلا بالرسالة الخالدة التي جاءت على يد النبي محمد عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}[٨٠٤] هذا التشكل لإرسال الرسل يتشكل معرفيا مع الخوف الذي صاحب الفكر البشري طوال تحققه، فذهاب الخوف المتحقق للبشر بعد الإيضاح التام لكل الأسئلة التي شغلت الفكر، ومن الأسئلة التي ترددت مرارا السؤال عن البرق والرعد والسحاب وغيرها، إذ يقول تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[٨٠٥] أصبح الأمر ليس لغزا محيرا أو مدعاة للخوف الدائم الذي يتردد بين آونة وأخرى، انه حقيقية موجودة في الوجود وهي صورة من صور القدرة الإلهية المتحققة في الأرض. ولما كان الرعد صوتاً عظيماً جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن الله منزه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه الله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلاً على تنزيه الله تعالى، فإسناد التسبيح إلى الرعد مجاز عقلي. ولك أن

---

٨٠٣ – الحديد ٢٥

٨٠٤ – المؤمنون ٤٤

٨٠٥ – الرعد ١٢ – ١٣

تجعله استعارة مكنية بأن شبه الرعد بآدمي يُسبح الله تعالى، وأثبت شيء من علائق المشبّه به وهو التسبيح، أي قول سبحان الله[٨٠٦].

بعد إرسال الرسل وبيان شرع الله تعالى المراد تطبيقه يتشكل منعطفا جديدا في الفكر الإسلامي وهو الخوف والسؤال الذي يطرح:

- لماذا الخوف؟.
- ممن الخوف؟.
- هل الخوف مستمر أم منقطع؟.
- كيف معالجة الخوف؟.
- هل هناك معالجة للخوف؟.

هذه الأسئلة وغيرها تفتح ملفا مهما يتشكل ضمن سياق التفكير الجديد للإنسان بعد أن عرف الله وتجلت له الحقائق أمامه، فيدخل بابا جديدا يؤرقه ويدخله في صراع مع نفسه، إذ يقول تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[٨٠٧] هنا السياق يحيل إلى فترة زمنية مهمة جدا في حياة الإنسان المسلم وهذه الفترة تتمثل في الليل الذي يمثل جانبا مهما من جوانب العبادة التي تتحقق فيه، فالصلاة فيه صورة من صور التقرب إلى الله تعالى، يقول رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام "أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلاَمَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ"[٨٠٨]. فترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة اللّه تعالى. ولهذا قال: (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. (خَوْفًا وَطَمَعًا) جامعين بين الوصفين، خوفًا أن ترد أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب اللّه، وطمعًا في ثوابه[٨٠٩]. فهنا الخوف أخذ منحا جديدا إذ يسير وفق أطر جديدة

[٨٠٦] – التحرير والتنوير، ج ٧ ، ص ٣٤٨
[٨٠٧] – السجدة ١٦
[٨٠٨] – سنن الترمذي، ج ٩، ص ٣٨٠
[٨٠٩] – تفسير السعدي، ج ١ ص ٦٥٥

يحكمها الاعتقاد الراسخ بما جاء به الرسول محمد عليه الصلاة والسلام وهو القرآن الكريم ففيه كل التشريعات والأحكام التي رسمت المنهج الذي يتبع للوصول إلى مرضاة الله تبارك وتعالى، وهنا تتجلى لنا أحد معاني اسم الله تعالى (المؤمن) هو الذي أمن من آمن به من عذابه، ولذا فبعد الرسل والرسالات وخاصة الخاتمة لا خوف من المجهول، كل شيء معلن عنه في الكتاب الحكيم فمن آمن به اطمئن قلبه من كل خوف ومن لم يؤمن لابد له من مصاحبة الخوف، وذلك لجهله بالحقيقة التي هي في اللوح المحفوظ (القرآن الكريم)، وهنا تبرز لنا قضية مهمة جدا شغلت حيزا كبيرا في الخطاب القرآني ألا وهي قضية الإيمان، والإيمان أركانه ستة، وهي:

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

الأول: الإيمان بالله: أن تؤمن بربوبية الله تعالى، أي أنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، وتؤمن بإلوهية الله تعالى، أي أنه الإله الحق، وكل معبود سواه باطل، وتؤمن بأسمائه وصفاته، أي بأن له الأسماء الحسنى والصفات العلى الكاملة.

وتؤمن بوحدانية الله في ذلك، بأنه لا شريك له في ربوبيته، ولا في إلوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، قال الله تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}[٨١٠]

وتؤمن بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، وأنه عالم الغيب والشهادة، وأنه له ملك السماوات والأرض، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٨١١].

الثاني: الإيمان بالملائكة:

وأن الله خلقهم لطاعته، ووصفهم بأنهم: {عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[٨١٢]،

---

[٨١٠] – مريم ٦٥

[٨١١] – الأنعام ٩٥

[٨١٢] الأنبياء ٢٦ – ٢٨

ويقول تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}[٨١٣]، حجبهم الله عنا فلا نراهم، وربما كشف الله بعضهم لبعض أنبيائه ورسله.

وللملائكة أعمال كلفوا بها، فمنهم جبريل الموكل بالوحي، ينزل به من عند الله على من يشاء من عباده المرسلين، ومنهم الموكل بقبض الأرواح، ومنهم الملائكة الموكلون بالأجنة في الأرحام، ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم، ومنهم الذين يتنزلون في ليلة القدر، ومنهم الكثير الذي لا نعلم عنه شيء، ومنهم الموكلون بكتابة أعمالهم فلكل شخص ملكان، إذ يقول تعالى: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[٨١٤]

الثالث: الإيمان بالكتب: الإيمان بأن الله أنزل كتبا على أنبيائه ورسله، لبيان حقه والدعوة إليه، كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٨١٥]، وهذه الكتب كثيرة منها: صحف إبراهيم، والتوراة التي أوتيها موسى، والزبور الذي أرسل به داود، والإنجيل الذي جاء به المسيح والقرآن الكريم (الرسالة الخاتمة) على سيدنا محمد عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام.

فالإيمان بهذه الكتب السابقة يتحقق بأن تؤمن بأن الله أنزلها على رسله، وأنها تضمنت الشرع الذي أراد الله إبلاغه إلى الناس في ذلك الزمان.

وهذه الكتب التي أخبرنا الله عنها نسخت برسالة محمد عليه الصلاة والسلام للكافة، فلم يبق لصحف إبراهيم وجود في الدنيا، أما التوراة والإنجيل والزبور فإنها وإن كانت توجد بأسمائها عند اليهود والنصارى إلا أنها حرفت وبدلت وفقد الكثير منها، ودخل فيها ما ليس منها، بل نسبت إلى غير أصحابها، فالعهد القديم فيه أكثر من أربعين سفرا، وينسب إلى موسى خمسة فقط، والأناجيل الموجودة اليوم لا ينسب واحد منها إلى المسيح .

---

[٨١٣] – الأنبياء ١٩ ، ٢٠

[٨١٤] – ق، ١٧ ، ١٨

[٨١٥] – الحديد ٢٥

الرابع: الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم:

أن الله أرسل إلى خلقه رسلا يبشرونهم بالنعيم إذا آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وينذرونهم العذاب إذا عصوا، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[٨١٦] وقال جل ثناؤه: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[٨١٧].

الخامس: الإيمان باليوم الآخر: ذلك أن نهاية كل مخلوق في الدنيا الموت، فما مصير الإنسان بعد الموت؟ فما مآل الظلمة الذين سلموا من العذاب في الدنيا؟ هل يسلمون من طائلة ظلمهم؟ والمحسنون الذين فاتهم نصيبهم وجزاء إحسانهم في الدنيا هل تضيع أجورهم؟.

إن البشرية تتتابع إلى الموت، جيلا بعد جيل، حتى إذا أذن الله بانقضاء الدنيا، وهلك كل مخلوق على ظهرها، بعث الله جميع الخلائق في يوم مشهود، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ثم يحاسب العباد على أعمالهم من خير أو شر كسبوه في الدنيا، فالمؤمنون يساقون إلى الجنة، والكفار يقادون إلى النار.

والجنة هي النعيم الذي أعده الله لأوليائه المؤمنين، فيها من أصناف النعيم ما لا يقدر أحد على وصفه، فيها مائة درجة، لكل درجة سكان على قدر إيمانهم بالله وطاعتهم له، وأدنى أهل الجنة منزلة من يعطى من النعيم مثل ملك من ملوك الدنيا وعشرة أضعافه.

والنار هي العذاب الذي أعده الله لمن كفر به، فيها من ألوان العذاب ما يهول ذكره، ولو أذن الله بالموت لأحد في الآخرة لمات أهل النار بمجرد رؤيتها. قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}[٨١٨].

---

[٨١٦] – النحل ٣٦

[٨١٧] – النساء١٦٥

[٨١٨] العنكبوت ٣٦ . ٣٨.

السادس: الإيمان بالقدر:

أ- معنى الإيمان بالقدر:

هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر فهو بقضاء الله وقدره، وأنه الفعّال لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره، ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا مَحيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خُط في اللوح المسطور، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم، وجعلهم مختارين لأفعالهم، غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم، يهدي من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بحكمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

والإيمان بقدر الله تعالى أحد أركان الإيمان، كما في جواب الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان قال: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"[٨١٩].

ب- مراتب الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن الله تعالى عَلِم بكل بشيء جملةً وتفصيلًا، وأنه تعالى قد عَلِم جميع خلقه قبل أن يخلقهم وعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم، وجميع حركاتهم وسكناتهم، وأسرارهم وعلانيَّاتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار.

قال الله تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[٨٢٠] وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[٨٢١].

---

[٨١٩] – صحيح مسلم، ج ١ ، ص ٢٨

[٨٢٠] – الحشر ٢٢

[٨٢١] – الطلاق ١٢

الثاني: الإيمان بكتابة ذلك، وأنه تعالى قد كتب جميع ما سبق به عِلْمُه أنه كائن في اللوح المحفوظ. ودليلُه قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[٨٢٢].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة"[٨٢٣].

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة التي لا يردُّها شيء، وقدرته التي لا يعجزها شيء، فجميع الحوادث وقعت بمشيئة الله وقدرته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

هذا الإيمان المتشكل من هذه الأركان هو صورة الإيمان التي يريدها الله تبارك وتعالى من عباده، فان تحققت أمن العباد من عذاب الله تعالى.

واسم الله المؤمن فيه عدة أقوال، كلها يدل عليها الاسم ويشملها لأنها من معاني الكمال الذي اتصف به رب العزة والجلال:

القول الأول في معنى اسم الله المؤمن: أن المؤمن هو الذي أمن الناس أنه لا يظلم أحدا من خلقه وهو الواحد القهار لا شريك له سبحانه جل جلاله، وأمن من آمن به من عذابه، فالله عز وجل لا يظلم أحدا من خلقه، وكل سينال ما يستحق، ولا يبخسه الله شيئا مما له من الحق، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيما}[٨٢٤] وقال تعالى: {ضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}[٨٢٥].

والقول الثاني في معنى اسم الله المؤمن: أن المؤمن هو المجير الذي يجير المظلوم من الظالم، وذلك على اعتبار أن الله عز وجل هو الذي يجير المظلوم من الظالم بمعنى يؤمنه

---

[٨٢٢] – الحديد ٢٢

[٨٢٣] – صحيح مسلم، ج ٨، ص ٥١

[٨٢٤] – النساء ٤٠

[٨٢٥] – الكهف ٤٩

وينصره، إذ يقول تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٨٢٦]، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}[٨٢٧] لن يجدوا ملاذا ولا مأمنا من دون الله، {قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً}[٨٢٨]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الظلم، إذ يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ"[٨٢٩]، وورد أيضا في قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ ثُمَّ قَرَأَ: "[٨٣٠] {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِي ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[٨٣١].

القول الثالث في معنى اسم الله المؤمن: أنه الذي يصدق المؤمنين إذا وحدوه، لأنه الواحد الذي وحد نفسه بشهادته في قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ}[٨٣٢]، وهذه الآية تحمل أعظم المعاني في كشف حقيقة الحياة، وكيف أنها جعلت لتوحيد الله، فلما كانت شهادة التوحيد المبنية على توحيد العبادة لله، ونفي ألوهية ما سواه، هي أصل دعوة الرسل ومبني قضيتهم التي جاهدوا من أجلها، وكانت هذه القضية مثار إنكار المشركين وخلافهم مع رسلهم، وجب الفصل بين الجميع في هذه القضية بحكم عدل يصدق أهل الحق ويكذب أهل الباطل، فمن المعلوم أنه عند الاختلاف بين الناس ترفع الأمور إلى القضاء، والقضية تتطلب قاضيا وحكما يفصل في الخلاف، وكذلك إعلام المختلفين ودعوة المعنيين من سائر الأطراف، كما أنها تتطلب أيضا دفاعا عدلا، وحججا وجدلا، وشهودا وقسما وشهادة وبينة، وتتطلب في نهايتها الحكم وفق دستور ثابت أو منهج ونظام، هذا مع توفر القدرة على تنفيذ

---

٨٢٦ – المؤمنون ٨٨

٨٢٧ – الملك ٢٨

٨٢٨ – الجن ٢٢

٨٢٩ – سنن أبي داود، ج ٥ ، ص ٦٧

٨٣٠ – صحيح البخاري، ج ١٥، ص ٣٢٢

٨٣١ هود ١٠٢.

٨٣٢ – أل عمران ١٨

ما يستصدر في القضية من أحكام، ويزداد الأمر جلاء ووضوحا إذا أضفنا إلى ما تقدم أن قضية توحيد العبادة لله هي في حقيقتها ابتلاء وامتحان للإنسان، الإنسان الذي استخلفه الله في أرضه، واستأمنه على ملكة، وميزه على كثير من خلقه، وأنه سبحانه وتعالى حذر الإنس والجان من الشرك والكفر العصيان، وسوف يقضى بينهم بالحق وهو أحكم الحاكمين.

القول الرابع في معنى اسم الله المؤمن: أن المؤمن هو الذي يصدق مع عباده المؤمنين في وعده، ويصدق ظنون عباده الموحدين ولا يخيب آمالهم، قال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٨٣٣] ويقول تعالى: {ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ}[٨٣٤] ويقول تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَر فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ}[٨٣٥]، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلي الله عليه وسلم قال: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَي أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[٨٣٦]، ومن حديث ابْنِ عُمَرَ أنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَي دَرَجَةِ الْكَعْبَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَي عَلَيْهِ وَقَالَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ"[٨٣٧]، فالمؤمن في أسماء الله هو الذي يصدق في وعده، وهو عند ظن عبده لا يخيب أمله ولا يخذل رجاءه. والخليفة المؤمن الذي لا شك في قلبه في وحدانية الله وعلمه وحكمته وعظمته وقوته وقدرته المطلقة ولا يشك في انه الواحد القهار ولا يشك أنه على كل شيء قدير، ولا يشك أن صفاته الحسان تتعدد وهو واحد احد صمد لا يتعدد سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله.

---

٨٣٣ – أل عمران ٩٥

٨٣٤ – الأنبياء ٩

٨٣٥ – القمر ٥٥

٨٣٦ – صحيح مسلم، ج ٨ ص ٦٧

٨٣٧ – صحيح النسائي، ج ٤، ص ٢٣٣

واسم الله المؤمن يدل على ذات الله وعلى صفة من صفات الفعل، وهي صدق الوعد وتصديق الحق للحق بدلالة المطابقة.

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (المؤمن) أن يتشكل مع فكره فيكون يقينه في ربه أنه لا يظلم أحدا من خلقه، وأنه سينصر المظلوم، فيلجأ إلى الله أن يجيره من ظلم الظالمين، ويثق أن وعد الله لعباده المؤمنين كائن لا محالة. أما التشكل الدنيوي لدور الخليفة فهو أن يأمن الخلق كلهم إلى جانبه، بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دينه ودنياه. فضلا عن ذلك أن يكون الخليفة سببا للهداية لكل من خرج عن جادة الحق فبهداية الخلق يرسم لهم صورة الأمن المتحققة من نار جهنم فهو بذلك سلك مسلكا عظيما يتجلى فيه اسمى القيم والمبادئ التي أرداها الله تعالى،إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[٨٣٨] والخطاب في هذه الآية عبر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار على سبيل المجاز لأن الموعظة سبب في تجنب ما يفضي إلى عذاب النار أو على سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النار على وجه المبالغة في الموعظة. وتنكير (نار) للتعظيم وأجرى عليها وصف بجملة (وقودها الناس والحجارة) زيادة في التحذير لئلا يكونوا من وقود النار[٨٣٩].

اللهم يا المؤمن أمِّن لنا الحياة والممات والبعث وأمِّن لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم اجعلنا من المسلمين لك المخبتين لك، الأوابين الأواهين التوابين، وارزقنا ذكرك آناء الليل وأطراف النهار، اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح ذات بيننا، وتب علينا واجعلنا من المؤمنين الصالحين. اللهم نسألك أن تؤمِّننا يوم تفزع الخلائق، اللهم أمنا يوم البعث والنشور فلا ملجأ إلا إليك يا ارحم الراحمين واحشرنا مع الذين قلت عنهم وقولك الحق: {الَّذِينَ آَمَنُوا

---

٨٣٨ – التحريم ٦

٨٣٩ – التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ١٨٥

وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[٨٤٠] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المهيمن

المهيمن اسم من أسماء الله تعالى مصداقا لقوله: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن}[٨٤١].

---

٨٤٠ – الأنعام ٨٢

٨٤١ الحشر ٢٣.

واسم المهيمن اسم احتوائي يحمل في مضمونه دلالات القوة والسيطرة التامة، ولأنه المهيمن فهو القادر على أن يفعل كل شيء بالمهيمن عليه، فإن أراد به خيرا فعل، وإن أراد به غير ذلك فعل، ولكلٍ أسباب.

ولأن اسم المهيمن اسم احتوائي، فهو يحتوي أسماء الله فيدل على وحدانيته، ويحتوي اسم الملك في ملكه ويحتوي اسم القدوس في قداسته، ولذا فهو المهيمن الذي يحتوي في مفهومه ودلالاته الصفات الحسنى لله تعالى اللاحقة من بعده من حيث الترتيب والنزول. ولذلك فالمهمين هو العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، وهو الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى.

ولو لم يكن الله هو المهيمن لفسدت الأرضون والسماوات السبع وانعدمت الحياة، فبهيمنته والحمد لله نحيا ونموت ونُبعث من جديد لنبقى في سلام سرمدي. ولولا فضل الله علينا بهيمنته المباركة لاصطدمت الكواكب والنجوم والشمس ولاحترق كل شيء وعمَّ الدمار، سبحانه إنه المتحكم في الأمر فلا حركة ولا سكون إلا بأمره.

ولأنه المهيمن وكل شيء بأمره يعيش القوي والضعيف جنبا إلى جنب على كوكب واحدٍ دون أن يقضي قوي على ضعيف، وهذه عبرة لمن يعتبر {الم تر أنّ الله يُزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزِّل من السماء من جبالٍ فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلِّب الله الليل والنهار إنَّ في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}[٨٤٢].

يتضح من الآيتين السابقتين أنَّ المهيمن هو المتحكم في كل شيء، ولذا فهو الذي يزجي سحابا ثم يؤلِّف بينه، ثم يجعله ركاما، ثم يخرج البرق من بين السحب المتراكمة، ثم يُنزل المطر على من يشاء من عباده، ويصرفها عن من لا يشاء لهم مطرا، ولأنه المهيمن فهو الذي يُقلِّب الليل والنهار، ومع ذلك وكأن البعض لا تلفت انتباهه هذه الهيمنة، والتفت إليها

---

[٨٤٢] النور ٤٣، ٤٤.

أولو الأبصار فآمنوا واتقوا الله حق تقاته، حتى وصفهم الله تعالى بالخلائف الذين يرثون الأرض بإصلاحها.

فالخليفة مهيمن على أمره وما يتعلق به من أمر، ولأن الله هو المهيمن جل جلاله ويريد للإنسان أن يكون الخليفة في الأرض، لذا فلن يكون خليفة ما لم يكن مهيمنا على نفسه وطمعه وضعفه، ومتحكما في غرائزه، ومشاعره وأحاسيسه وإلا وقع في الرذيلة، فإن وقع فيها وقع في الذل الذي لا يُمكِّنه من أن يكون خليفةً.

المهيمن بالإضافة هو المقتدي بالمهيمن الحق الذي جعل له القوة الممكِّنة له من أن يكون مهيمنا بالإضافة، ولذلك فالمهيمن بالإضافة هو الذي لا مكان للذل والظلم في قاموس معتقداته الإيمانية {إنَّ ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين فلا تُطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين همَّازٍ مشاء بنميم مناع للخير معتدٍ أثيم عُتلٍ بعد ذلك زنيم أن كان ذا مالٍ وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين}[٨٤٣] هؤلاء الذين لهم الصفات الدنيا بما يقولون ويظنون ويكفرون فهؤلاء هم غير المعنيين بأمر الخلافة. وذلك لانعدام صفات الله المهيمن جل جلاله فيهم. ولذا فإن الأمر لا يتمشى مع القاعدة التي تقول: (الخليفة يستمد صفاته من صفات من استخلفه)، ولأنهم لم يستمدوا شيئا منها فقد فقدوا معطيات الخلافة. ولذا فمن أراد أن يكون خليفةً فعليه أن يستمد صفاته من صفات من استخلفه.

المهيمن هو الذي بيده الأمر ولا شريك له سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهار {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}[٨٤٤]. بدون شك بما أنه المُهيمن فإن الأمر بيده، ولأن الأمر بيده فهو المتصرف في كل أمر، وكما يشاء يفعل ما يريد {إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور

---

[٨٤٣] القلم ٧ . ١٥.

[٨٤٤] ياسين ٨٢.

الودود ذو العرش المجيد فعَّال لما يريد}[٨٤٥]. ولأنه فعَّال لما يريد فهو الغالب على أمره {والله غالب على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون}[٨٤٦].

المهيمن الحق جل جلاله هو الذي يُدرك البداية والنهاية، ولأنه كذلك فهو الذي لا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة، وهو الذي يعلم بأمر وحال كل شيء، أمَّا المهيمن بالإضافة فهو الذي يدرك أن الله هو المهيمن الحق ويدرك ما أمر به ويتبعه وما نهى عنه وينتهي، ولذا فالعلاقة مع المهيمن الحق عز وجل علاقة تبعية إيمانية واقتداء بالأمر وتسليما به {ليقضي الله أمرا كان مفعولا وإلى الله تُرجع الأمور}[٨٤٧].

ولأنه المهيمن جل جلاله فهو العالم بحال كل أمر، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٨٤٨] ولأنه المهيمن فإنه لا يغفل ولا ينام ولا تأخذه سِنَة، وإلا كيف يمكن له أن يكون مهيمنا ولا يعلم بحال من هم تحت هيمنته؟!.

المهيمن هو المُدرك لنفسه والمدرك لغيره، وهذه الصفة تمتد من المهيمن الحق سبحانه وتعالى إلى المهيمن بالإضافة مع عدم المساواة والمقارنة، فالإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم خلقه مدركا، ولذا يدرك المخلوق خالقه، ويدرك نفسه، ويدرك غيره، ولكنه لا يدرك حال كل أمر حتى ولو كان حاله، ولهذا لا تجوز له المقارنة إلا مع بني جنسه.

الهيمنة هي الحفظ، والمهيمن هو الحافظ لما هو مهيمن عليه، فلو لم يهيمن الله تعالى على ما خلق لفسدت العلاقات أو انعدمت، ولذا لولا هيمنته ما حُفظنا من المخاوف والكوارث ونحن نعيش على الأرض التي باطنها نار وبراكين ولولا هيمنته لأختلط أمر الثقلين دون ضوابط فالحمد لله المهيمن جل جلاله {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما

---

٨٤٥ البروج ١٣ . ١٦.

٨٤٦ يوسف ٢١.

٨٤٧ الأنفال ٤٤.

٨٤٨ الأنعام ٥٩.

خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم}[٨٤٩] ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم، أي لا يكيده ولا يثقله حفظ السماوات والأرض، وهو المهيمن بعلو ذاته وقوته وسلطانه على حفظهما من أي خلل، والكرسي وسع السماوات والأرض ولم يضق بهما.

ووسعت تعني استوعبت، والاستيعاب من أجل الحفظ، والحفظ لا يتم إلا بهيمنة تامة، والهيمنة لا تتم إلا بقوة، والقوة لا تكون إلا من القوي، وهذه جميعها مستمدة من صفات الله الحسان فالحمد لله ربِّ العالمين إنَّا من الذين آمنوا وإنَّا من الذين أولوا أمرهم إليك يا ذا الجلال والإكرام.

ووسع تعني هيمنَ وسيطرّ، ولهذا فالهيمنة سعة عُظمى، وليست ضيق خانقاً، وفي هذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي، في تفسيره لآية الكرسي: "إنها تشير إلى حفظ الحق جل وعلا لملكه سواء أريد بهذا الحفظ .. الحفظ من الخلل والأعطاب والفناء، أو أريد به الحفظ من حيث العدد والصفات وما إلى ذلك، فالحفظ بمعنييه متحقق بالنسبة لله عز وجل"[٨٥٠].

وعليه فإن المهيمن هو المُوسع للحركة والسكون والمُمكِّن منهما في الزمن لمن يشاء، ولذا فإن المهيمن هو الموسع الرزق، والباسط الرزق، والحافظ من كل شر فمن آمن به حُفظ، ومن لم يؤمن به فقد هلك، لا إله إلا هو المهيمن العزيز الجبار له المُلك وله الحمد ربُّ العالمين.

قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}[٨٥١]. وإنَّا لموسعون: تدل على السعة الكبرى أي أننا لم نضيقها بل كان الازدياد في السعة هو الفعل المراد بالسماوات، وفي مقابل ذلك كان الانبساط هو الذي عليه خلقت الأرض، ومن هذين المعنيين يستنبط معنى المهيمن بأنه الموسع. ولذلك جاء قوله تعالى (وسع كرسيه السماوات والأرض). أي بهيمنته وسع كل شيء وحفظه ليبقى كل شيء هو كما هو.

---

[٨٤٩] البقرة ٢٥٥.

[٨٥٠] محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة ، دار أخبار اليوم ص ١٦٦ . ١٦٧.

[٨٥١] الذاريات ٤٧.

وعليه من يريد أن يكون خليفة لله في الأرض فبإمكانه أن يكون، ولن يكون إلا إذا هيمن على ذاته وصفاته، ليبقى هو كما هو في أحسن تقويم، ولا يهيمن على غيره بغير حق، فإن هيمن على غيره بغير حق، دخل في دائرة المشاركة لمن لا شريك له في الملك، حيث أن المهيمن المطلق هو واحد أحد لا إله إلا هو. أما المهيمن بالإضافة فلا حق له أن يمتد على حساب الآخرين ليهيمن عليهم، فإن فعل فقد فعل إثما كبيرا.

الهيمنة واجبة على النفس الأمارة بالسوء، وواجبة بالرعاية للقُصَّر، ولمن لهم الحق بالرعاية والعناية حتى بلوغ الرشد، ورعاية الوالدين، ورعاية الأمانة، ورعاية الحقوق، والواجبات بكل مسؤولية، ورعاية الشرف والكرامة، ورعاية المحتاجين ورعاية الأرض والعِرض، ورعاية الدين الذي ارتضاه الله هداية للعالمين.

لو لم يكن الله هو المهيمن جل جلاله ما أمسك السماء والأرض من أن تزولا {إنَّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحدٍ من بعده إنَّه كان حليما غفور}[٨٥٢] بالتأكيد لو لم يمسكهما مَن رفعهما عن بعضٍ بغير عمدٍ، ما مسكهما من الزوال آخر، وإلا هل هناك من يستطيع؟. بالتأكيد لا. وبما أنه لن يستطيع غيره، فبماذا هما باقيتان منفصلتان وفي ذات الوقت بينهما علاقة، إنهما باقيتان منفصلتان بالهيمنة. والهيمنة هي القوة التي يُحَسُ بها إدراكا، ولا تخضع للمشاهدة والنظر، فيدركها من له بصيرة ولا ينظرها من له بصر. ولذا فإن الهيمنة هي القوة الفاعلة للبقاء بسلام لكل من السماوات والأرض.

المهيمن هو الكفيل الضامن للبقاء بسلام، الذي بيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير، ولأن الخليفة يؤمن بالمهيمن المطلق، فهو يثق في هيمنته ويعتبرها ضمانا له من كل سوء، وحفظا وأمنا له من كل خوف، وبما أنَّ الخليفة يؤمن بهيمنة الله تعالى على كل شيء فلماذا أصلا الخوف؟. فمن يتوكل على المهيمن جل جلاله لا يخاف مصداقا لقوله تعالى {يكيدون كيدا وأكيد كيدا}[٨٥٣] وإلا {الم تر كيف فعل ربَّك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل

---

[٨٥٢] فاطر ٤١.

[٨٥٣] الطارق ١٥ ، ١٦.

وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجيل فجعلهم كعصف مأكول}[٨٥٤] هذه السورة دليل إثبات على أنَّ من يتوكل على الله لا يكيده كيد الكائدين.

لذا فإن المهيمن المطلق هو وحده الضامن والحافظ من المكائد، ومن هنا ترسَّخت الثقة قوة إيمانٍ في نفس المؤمن ، ولو لم يؤمن الخليفة بالمُهيمن جل جلاله ما غُرست الثقة في نفسه واطمأنت. ولو لم يؤمن الإنسان بالمهيمن ما آمن بأن النار عقاب لمن يكفر، وأن الجنة ثواب لمن يؤمن، فالحمد لله تعالى أن من صفاته وأسمائه الحسنى المهيمن عز وجل، ولأن الهيمنة من أفعاله المستمدة من صفاته الحسان فهي التي بها يطمئن قلب المؤمن من أنه سيدخل الجنة وإنَّ الكافر في مقابله سيدخل النار. قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ}[٨٥٥] . إذن المهيمن الحق هو صادق الوعد، ومن يريد أن يكون خليفة للمهيمن الحق فعليه بالصدق، وإلا فقد ثقة الآخرين فيه. وفي هذا الأمر يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "ينبغي أن لا ننسى أن هيمنة الحق جل وعلا تمتد لتشمل قلوب عباده، ويوم القيامة خير دليل على ذلك فالناس في هذا اليوم قسمان: قسم تبلغ قلوبهم الحناجر من شدة الخوف والرعب. وقسم من الفزع يومئذٍ أمنون. والقلوب بين أصابع الرحمن يُقبلها كيف يشاء"[٨٥٦].

ويقول الدكتور الصلابي: "المهيمن هو المطَّلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور الذي أحاط بكل شيء علما"[٨٥٧].

بدون شك فإن المهيمن هو المحيط، الذي يعلم أمر ما يحتويه بالإحاطة، وهو الذي يحيط كل شيء أجساداً وأشكالا وأقوالا وأعمالا، ولذا فإن الإحاطة إلمام تام بكل شيء خُلق مع سيطرة

---

[٨٥٤] الفيل ١ . ٥.

[٨٥٥] الأعراف ٤٤، ٤٥.

[٨٥٦] محمد متولي شعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة ، دار أخبار اليوم ١٧١.

[٨٥٧] على محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين. بيروت ، دار المعرفة الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١٨٩.

وحفظ {والله محيط بالكافرين}[٨٥٨] وقوله تعالى: {إنَّ الله بما يعملون محيط}[٨٥٩] وقوله عز وجل بالمطلق {وكان الله بكل شيء محيطا}[٨٦٠]. اللهم يا محيط حطنا برضاك وغناك ورعايتك وحفظك وسلمنا من شر ما خلقت، ومن شر الغاسق إذا وقب، ومن شر الحاسد إذا حسد، ومن شر النفاثات في العقد، وكد من يريد بنا كيدا، وأصلح حالنا، وتوفنا وأنت راض عنَّا، أنت مولنا فنعم المولى ونعم الوكيل.

قال تعالى: {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه}[٨٦١] قال ابن عباس: (ومهيمنا عليه) أي مؤتمنا عليه. وفي ذلك قال سعيد ابن جبير: القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب. وعن ابن عباس والحسن: المهيمن الأمين[٨٦٢]. (ومهيمنا عليه) تعني: وشاهدا عليه[٨٦٣].

كل ما قيل عن المهيمن من حُسنٍ هو صواب وذلك لأنه المحتوي لكل صفات الله تعالى ولأنه كذلك فإن هيمنته احتوائية، أي أنها تحتوي السابق عليها من الكتب السماوية، ولهذا جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم احتوائية فهي تحتوي ما سبقها من كتب وهي الخاتمة التي لن تأتي من بعدها رسالة، والمؤمنون بها هم الذين بصلاتهم وسلامهم على محمد هم يصلون ويسلمون على جميع الأنبياء والرسل.

ولأن المؤمن تعالى هو الحق فلا هيمنة إلا بالحق، ولهذا ورد في القرآن الكريم (المؤمن المهيمن) وفي هذه بركة ونعمة وهي أن صفة الإيمان جاءت سابقة على صفة الهيمنة، أي أن التنزيه والوحدانية وعدم إيجاد الشريك هي الصفات التي جعلت المؤمن بالإضافة مدركا للهيمنة وآمنا مطمئنا بها.

---

[٨٥٨] البقرة ١٩.

[٨٥٩] آل عمران ١٢٠.

[٨٦٠] النساء ١٢٦ .

[٨٦١] المائدة ٤٨.

[٨٦٢] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. الجزء السادس، ص ٢١٠.

[٨٦٣] مجدي منصور القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة، مكتبة العلم ١٩٩٩، ص ٤٢٠.

يقول الله تعالى: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}[٨٦٤] في هذه الآية جاء الاهتداء مترتبا على وجود الأمن أي لو لم يكن الأمن سابقا ما كانت الهداية لاحقة له، ولهذا لا يهتد الخليفة إلا بالإيمان، ولذلك فمن أراد أن يكون خليفة لله تعالى في الأرض فعليه بالإيمان بالمهيمن جل جلاله. ولأن الإيمان اعتراف بوجود ووحدانية، لذا فمن يؤمن بالوجود والوحدانية يُستخلف، ومن ينكر أو يجحد ويكفر بذلك فلن يكون من الخليفة في شيء، وإلا هل يُعتقد أن يستخلف شيء دون أن تكون له صلة بمن استخلفه؟. بالتأكيد الاستخلاف نتاج صلة ورابطة لا تنفصم، فإن انفصمت فقدت الصلة دلالتها ومعناها، وحل محلها الانفصال والبعد كل البعد الذي لا يجعل للخليفة صلة وعلاقة بمن استخلفه.

ولذلك فإن الاستخلاف مشروط بالصلة والإيمان المطلق بالهيمنة المطلقة، والاعتراف بالسلطان المهيمن، والمستخلفون هم المورَّثون في الأرض بإصلاحها، أمَّا من لا يؤمن بذلك فلا يستخلف فيها، مع أن له حق العيش عليها وريثا، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}[٨٦٥]. ولذا فالاستخلاف مترتب على الإيمان ومترتب عليه مسؤولية الالتزام بالطاعة وعدم المعصية بإرادة.

ولأن المهيمن هو الشاهد، لذا فهو الرقيب على كل ما يشهده وهو المجيب لكل من يؤمن به ويدعوه واحدا أحد لا شريك له، ولذا فهو مجيب الدعاء {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة ألداع إذا دعان}[٨٦٦] وقوله تعالى: {ادعوني أستجب لكم}[٨٦٧] اللهم يا الله يا المهيمن اشفنا واغننا واكرمنا وارحمنا وزدنا علما وحكمة وإيمانا بك وحدك لا شريك لك وفرِّج كربنا واسترنا وأحفظنا من الوهن والحاجة واجعلنا من المتصدِّقين والمتزكِّين والعابدين الطائعين واجعل لنا سلطان حق في حياتنا ومماتنا ويوم بعثنا سبحانك لا إله إلا أنت.

---

[٨٦٤] الأنعام ٨٢.

[٨٦٥] الأنبياء ١٠٥.

[٨٦٦] البقرة ١٨٦.

[٨٦٧] غافر ٦٠.

المهيمن هو القائم على الشيء بالمطلق والمالك زمام أمره والمتصرف فيه، {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع وربُّ العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يُجيرُ ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تُسحرون}[٨٦٨].

المهيمن هو الذي يُدرك الأبصار والأبصار لا تدركه، وهذه بطبيعة الحال قاعدة، حيث لا يمكن أن ترى أبصار من هم تحت قبضة الهيمنة القوة التي تهيمن عليهم، فعلى سبيل المثال: لو قبضت يداك على مجموعة من الفراشات هل تعتقد أن الفراشات ستراك أو حتى ترى اليدين القابضتين عليها؟. مع أنَّ الفراشات سَتحِسُ باليدين المهيمنتين عليها إلا أنها لا يمكن أن تراهما، ولا أعني بذلك أن الفراشات تحت ضغط لا يطاق، بل أن الفراشات بإمكانها أن تتحرك وهي محاطة باليدين. فاليدان هما المحيط بالإرادة، والفراشات هي المحاطة بالقوة الحافظة لها. وعليه فالفراشات بإمكانها أن تنتظر داخل اليدين، مثلما ننظر نحن بني الإنسان ونحن محاطون بالسماوات السبع، فنحن ننظر داخل المحيط، ولا ننظر خارجه، فحالنا نحن بالتمام مثل حال الفراشات ليس بإمكاننا أن ننظر المحيط ولا ننظر خارجه. وحال الفراشات أيضا مثل حالنا تحس باليدين المهيمنتين التي تحيطها وتدركها دون أن تميزهما يدان، وهكذا نحن ندرك محيطنا مثلما هي تدرك، إلا أننا نتجاوزها بالتمييز المتيقن حيث معرفتنا التامة بأنها السماوات السبع. وعليه الخليفة يدرك نفسه بأنه تحت الهيمنة، ويدرك محيطه المهيمن عليه دون أن يراه وفقا لقاعدة المُحاط لا يمكنه رؤية من يحيطه ويهيمن عليه.

ولتوضيح ذلك: أقتبس من كتابنا المعنون بـ(البستان الحلم) قصة الدجاجة التي احتضنت بيضها بالدفء لتغرس في أفراخها حنان الأمومة الذي يملأها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأن غدا ينتظرهم بخيرات كثيرة وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار

---

[٨٦٨] المؤمنون ٨٤ . ٨٩.

نهارا وينامون على أغصانها ليلا، فسأل أحد الكتاكيت أمه: هل هناك عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه؟

فأجابته بنعم.

وما هو يا أمي؟.

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى وفي وسط الحظائر والبساتين تُقدَّم لكم الخدمة من أيادي البشر المفضلين عليكم في الخلق.

إنه من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضلين علينا هم الذين سيقدِّمون لنا الخدمة.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفرون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء.

ولكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم.

إنكم سترون غدا بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشمس والقمر والنجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويا ومن يمشي مُكِبّا على وجهه، وستميزون بين الطائر والزاحف كما تميزون بين اليابسة والماء، بعدها تعرفون أن ما قلته لكم هو الحق.

نحن لا نُصدِّق ما تقولين ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدّعين بأنه أوسع من عالمنا الذي يملأنا بالاستقرار كما تملأنا الراحة والطمأنينة فيه.

أنتم وعالمكم الذي تدَّعون باتساعه كلكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لا أشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا الثعلب؟

عدوي وعدوكم.

بما أن الأمر هكذا، إذن يبدو أنكِ مُصرة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي ولكن عليكم أن تعرفوا أن لكل بداية نهاية، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكل أسباب، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا نحن لن نخرج حتى لا نكون تحت رحمة الثعالب وتكون لنا النهاية، ونحن على يقين أنه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه.

غدا سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت لن.

وما هو سر لن هذا؟

أن تموتوا داخل البيض أو أن غدا لن يأتي عليّ وعليكم أو يحدث عالم الغيب أمرا.

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلى صوته فتساءلت: وما هذا الصوت المدوي يا أماه؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلى الحياة الاجتماعية العامة ليراكم بأم عينيه تأكلون الحب وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو، وسأفرح أنا مثله.

إنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بالقوة لا بالإرادة.

سنصرخ ونبكي.

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل وصراخكم هذا هو سبب تكسير البيض الذي يخرجكم إليه (إلى المستقبل).

صُراخ . . . صُراخ . . . يُكسَّر البيض من شدة الصراخ، ما هذا النور؟ وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذا الليل الطويل؟ ومن ذا الذي يُقدِّم لنا الخدمة ويسهر على راحتنا؟ .

بكاء . . . بكاء وفرحة . . . فرحة . . . صدقتِ يا أمنا صدقت، ولكن أين الغذاء ؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن كيف يؤخذ؟

افعلوا مثل ما أفعل، اضربوا مناقيركم في الأرض فأنا لا أرضع.

الحال بالنسبة لنا كحال الفراشات بين اليدين وكحال الفراخ في البيض ليس منا من يرى محيطه مع أنه يدركه. والفرق أننا نؤمن بما ندرك معرفة تامة وغيرنا مع أنه يدرك محيطه إلا أنه لا يتمكن من التمييز المجرد، ولذا فإن الذين لا يؤمنون بالمهيمن المجرد لا يؤمنون بالجنة ولا يصدقون أنَّ عرضها كعرض السماء والأرض مصداقا لقوله تعالى: {سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض}[٨٦٩] ومثل هؤلاء كمثل الفراخ في القصة السابقة لم يؤمنوا بما سمعوا حتى فات الأوان، ولذا لن يكون أمرهم من الخليفة في شيء. فالمؤمن لا يدرك بعينيه، المؤمن يدرك بعقله ويؤمن بقلبه، ولذا أدرك خالقة وآمن به وفقا لقاعدة وراء كل مخلوق خالق، وقاعدة الأفضلية التي تقول: الخالق أفضل من المخلوق، في الكمال والصفات والأقوال الأفعال، والخالق يعلم علم الغيب والمخلوق لا يعلمه ولذا فهو يُسلِّم بعلم خالقه تسليما، ويؤمن بأن قوله حق وفعله حق وطاعته حق. وتقول قاعدة الأفضلية أيضا: المدرك بعقله وقلبه هو المفضل على الذين لا يدركون بهما. فالذين لا يدركون بهما حالهم كحال الأسماك التي تنظر إلى شباك الصيادين وتقع في فخِّها. ولذلك قال الله تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون}[٨٧٠]. في أحسن تقويم تعني تفضيله على ما خلق من حيث الصورة والمضمون مصداقا لقوله تعالى: {وصوركم فأحسن صوركم}[٨٧١] والتقويم يعني الخلق باهتمام وعناية مع الدقة والجودة والرقي في الخَلق، ولولا ذلك ما كان الإنسان في أفضل تقويم {ولقد خلقناكم ثمَّ صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم} في هذه الآية الكريمة جاء أمر الخلق سابق على أمر الصورة، مصداقا لقوله تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين}[٨٧٢] الخلق تكوين جزئي

---

[٨٦٩] الحديد ٢١.

[٨٧٠] التين ٤ . ٦.

[٨٧١] غافر ٦٤.

[٨٧٢] المؤمنون ١٢ . ١٤.

واكتمال مرحلي لمسببات القوة العقلية والحسية والذوقية والإدراكية، والصورة عرض كلي لنشأة أخرى، وهي الهيئة التي عليها صورة بني آدم من حيث القامة والجمال والتمام بالحركة والسكون والفاعلية والاستجابة لقول الحق وفعل الحق.

وقد يتساءل البعض: لماذا المهيمن جل جلاله خصَّ الإنسان بأحسن التقويم؟. خصَّه بذلك لكي يكون له خليفة في الأرض. ومع ذلك فالبعض ممن خلق لم يستجب لِما خُلق من أجله فهؤلاء هم الذين ردَّهم الله تعالى إلى أسفل سافلين، أما أولئك الذين استجابوا له فهم الذين آمنوا فاستثناهم الخالق تعالى بالأجر غير الممنون كما نزل في سورة التين: {إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[٨٧٣].

وبناء على ما تقدَّم فإن التقويم هو أساس الخلق، أمَّا الإعوجاج فهو الانحراف عنه، ولذا فالتقويم يتم عن وعي ومتابعة دقيقة للمخلوق كفكرة، ثم له كمتجزئ، ثم له كجزء وبعد ذلك تقويمه ككل وحدة واحدة. وهذا لا يعني أن التقويم يتوقَّف، إنه عملية مستمرة ما استمرت حياة المخلوق. ولذا فالتقويم أولا: للخلق من حيث التكوين والتركيب والوحدة. وثانيا: للأخلاق والأعمال من أجل وراثة الجنة والاستخلاف فيها، {فأمَّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأمَّا من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هي نار حامية}[٨٧٤]. وقوله تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة}[٨٧٥] فالذين ثقلت موازينهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين استخلفوا في الأرض ويستخلفون في الجنة. أمَّا الذين خفَّت موازينهم فهم الذين لم يُستخلفوا في الأرض وهم أصحاب النار الذين ليس لهم مكان في الجنة مصداقا لقوله تعالى: {ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط}[٨٧٦]. أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات {أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون}[٨٧٧]

[٨٧٣] الانشقاق، ٢٥.
[٨٧٤] القارعة ٦ . ١١.
[٨٧٥] البقرة ٨٢.
[٨٧٦] الأعراف ٤٠.
[٨٧٧] الأعراف ٤٢.

وعليه كل من يتمكن من مراجعة خلقه يتمكن من معرفة الأسباب التي من أجلها خُلق، فإن تمكَّن منها ليس له بد إلا أن يؤمن، وبإيمانه يُدرك أنه في أحسن تقويم، ويدرك أنه بحق هو المُفضَّل في استخلافه للأرض؛ وبإيمانه هذا يعرف أنه تحت هيمنة القوة التي لها الفضل في خلقه في أحسن تقويم، وبإدراكه هذا ليس له إلا أن يوحِّد الله تعالى ربُّ العالمين، ويعلم أن الذين لم يعلموا لو يعلمون. يعلمون علم اليقين، الذي به يتمكنون من المعرفة الحقة.

ولأن المهيمن بالإضافة يعلم أنه تحت رعاية المهيمن الحق، فهو يرفض ولا يقبل بهيمنة غيره، ويعلم أن القبول بهيمنة غيره هو قبول بتعدد المهيمنين، ولأنه يعلم أن المهيمن جل جلاله لم يلد ولم يولد، ولم يكن له شريك ولا مثيل، فهو سيظل رافضا لكل من يحاول الهيمنة. ورفضه هذا يُعد إيمانا تاما بالواحد الأحد.

الاستخلاف في الأرض هو استخلاف في الدار الدنيا، ولذلك قال تعالى: {ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسِن كما أحسن الله إليك ولا تبغِ الفساد في الأرض إنَّ الله لا يحب المفسدين}[٨٧٨].

وقد يتساءل البعض: لماذا الاستخلاف في الدار الدنيا؟.

الاستخلاف في الأرض (الدار الدنيا) من أجل إعمارها وإصلاحها والفوز بالدار الآخرة، ولهذا قال تعالى: {وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين}[٨٧٩] هذا الخليفة هو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي يصلي المسلمون ويسلمون عليه في كل صلاة يُصلونها كما يصلون ويسلمون على سيدهم ونبيهم محمد عليه الصلاة والسلام. وفي مقابل ذلك من يرد الحياة الدنيا دون الآخرة يؤت منها ولكن ما له في الآخرة من نصيب {ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له من الآخرة من نصيب}[٨٨٠]. بطبيعة الحال من تكون الدنيا غاية له في ذاتها، لم تكن له في الآخرة غاية، حيث قصر نصيبه على الدار الدنيا، ولذا لن يكون

[٨٧٨] القصص ٧٧.

[٨٧٩] العنكبوت ٢٧.

[٨٨٠] الشورى ٢٠.

له نصيب من غيرها إلا العذاب. {تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم}[٨٨١] وقوله تعالى: {أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل}[٨٨٢] ولذلك قال تعالى: {من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب}[٨٨٣]. يُفهم من الآيات السابقة ضرورة أن يعمل الإنسان خيرا في الدار الدنيا التي يراد له الاستخلاف فيها بالعمل الصالح حتى يكسب الدار الآخرة بالفوز بالجنة. أمَّا أولئك الذين هم في أسفل سافلين حالهم كحال الكتكوت في البيضة قَبْلَ خروجه منها حيث كان يظن أنها العالم بأسره، ولم يخطر بباله ما رآه بأم عينيه بعد خروجه للدار الدنيا التي يعتقد البعض فيها دون الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض. هؤلاء ومن على غرارهم يخسرون الدارين، الدار الدنيا باعتبارها زائلة، والدار الآخرة التي لم يحرثوا لها في دنياهم. أمَّا المستخلفون فيها فهم العاملون عليها، بحرثهم لها في الدار الدنيا مثلما حَرَثَ سيدنا إبراهيم فيها عليه الصلاة والسلام ونال أجره فكان في الآخرة من الصالحين.

قال رجل من كبار الصالحين: "عجبت لمن خرج من الدنيا ولم يستمتع من نعيمها!! قالوا: أو في الدنيا نعيم يا رجل؟!.

قال: نعم، إنَّ فيها نعيما يعدل نعيم الجنة.

قالوا: وما هو!.

قال: ذكر الله"[٨٨٤].

أتفقُ تماما مع هذا القول الصالح حيث قال تعالى: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب}[٨٨٥].

---

[٨٨١] الأنفال ٦٧.

[٨٨٢] التوبة ٣٨.

[٨٨٣] الشورى ٢٠.

[٨٨٤] محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة ، دار المنار الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ص ٣٣. ٣٤.

[٨٨٥] الرعد ٢٨.

إنَّ الدارين (الدنيا والآخرة) هما تحت هيمنته مصداقا لقوله تعالى: {والأرضُ جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عمَّا يُشركون}[٨٨٦].

فالمهيمن هو الله بصفاته ووحدانيته عز وجل، ولأنه الواحد القهَّار، لذا لا يُعقل أن لا يكون مهيمنا، أي بما أنه لا شريك له، وهو مالك الملك، وهو يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، إذن فهو المهيمن جل جلاله.

المهيمن هو الذي يُلمُّ بحال من هو مهيمن عليهم، ويدرك أمرهم وكنههم، وهو المُمَكِّن لهم من بلوغِ الأشياء إن شاء، ومتى ما شاء وكيفما يشاء، والمهيمن يحيط بكل شيء علما، ولذا فهو يحيط بالأمر وبمن يتعلق الأمر بهم.

وعليه فالمهيمن المطلق هو الحافظ الباقي المطلق، أمَّا المهيمن بالإضافة فهو الحافظ الذي في حاجة لمن يحفظه من الكيد والحسد والضعف والحاجة، وهو الذي تنقصه صفة البقاء وخاصيته. وبالرغم من ذلك يستمد صفته في الحياة من المهيمن عز وجل بما يجعله مؤتمن الجانب، ويشهد ويحكم بالعدل، ولا يعتدي على من هم تحت هيمنته بظلم، ويستمد قوته من القوي الحق تعالى حتى يسيطر على كل ما من شأنه أن يُضعفه أو يهز إيمانه، أو يجعله مُفسِدا في الأرض التي يُراد له الاستخلاف فيها. فبهيمنته على نفسه وأقواله وأفعاله يوصف بالخليفة المهيمن. والمهيمنون هم الذين قال فيهم الله تعالى: {التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين}[٨٨٧] والله تعالى في أساس خلقه للناس يريدهم جميعا خليفة له في الأرض، ولم يستثنِ أحدا منهم إلا الذي ظلم نفسه فاستثناها، مصداقا لقوله تعالى: {وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم}[٨٨٨].

ولأن الله تعالى هو المهيمن، فهو المسيطر والقابض والباسط والحافظ والموسع والمُكيد، والمقيت والحسيب والرقيب، فهذه الصفات وغيرها هي صفات المهيمن الحق الذي بيده الثواب

---

[٨٨٦] الزمر ٦٧.

[٨٨٧] التوبة ١١٢.

[٨٨٨] . هود ١٠١.

والعقاب. وهكذا من يستمد خصائصا من صفاته يكون مهيمنا على نفسه وعلى الذين تربطه بهم علاقات كالزوجة والأبناء، وكذلك عندما يكون مسؤولا يجب أن يكون بمسؤوليته أمينا عادلا مسيطرا وباسطا مع من ينبغي أن يُميَّز عن غيره بما يتفوَّق به من عطاء وإبداع وإخلاص ووفاء للمهنة والعمل واحترامٍ للمسؤولية الملقاة على عاتقه. ويكون قابضا على من لا يُقدِّر المسؤولية والعمل المكلف بأدائه، وعلى من يُفسد ولا يُصلح، ولهذا العقاب فيما يجب ضرورة وفقا للتشريعات التي يرتضيها المجتمع وتقرها أخلاقياته المستمدة من الدين والعرف، وهكذا تكون الزوجة مهيمنة على زوجها، حافظة له في نفسها وماله وولده وسره وعرضه فهي سترته مثلما هو سترتها {هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهنَّ}[٨٨٩]

وقد يتساءل البعض: لماذا الهيمنة؟.

الهيمنة ضرورة للآتي:

. للحفظ من السوء.

. للعدل بين المحتكمين.

. للمساواة بين الشركاء.

. للرحمة والتراحم مع صلة الرحم.

. لفك المظالم وكيد الكائدين والمكائد.

. لاتزان الحركة والسكون.

. للاستواء على المُلك.

. لإدراك الأمر وإدراك الاستجابة.

. لفعل ما يجب والابتعاد عما لا يجب.

ولأن الله تعالى هو القادر وهو الباسط والقابض والمهيمن، لذا فإن التوكل عليه واجب من قبل المهيمن بالإضافة. ولذلك فإن التوكل عليه يُعد استجابة من قبل الذي يراد له أن يكون خليفة

---

[٨٨٩] البقرة ١٨٧.

في الأرض (أي استجابة للأمر) وعليه لا يستجيب للمهيمن إلا مهيمن، وفي مثل هذا الأمر لا يستجيب للمؤمن تعالى إلا الخليفة المؤمن الذي يحمُدَ ربُّه ويشكره ويسبِّحه في كل حين.

إنَّ التوكل على المهيمن الحق توكل له استجابة حيث كل شيء بيد المتوكل عليه، أمَّا التوكل على غير المهيمن فلا استجابة له حيث لا شيء بيده. أي أنه لا هيمنة إلا على شيء، ولا هيمنة من غير شيء. ولذا فالتوكل على المهيمن توكل له استجابة، والتوكل على غيره لا استجابة له.

يقول أحمد عبد الجواد في كتابه ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها: "المهيمن جل جلاله الرقيب والشاهد على خلقه والمؤتمن والمستولي عليهم بالرعاية والقدرة والقائم بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم"[٨٩٠].

المهيمن هو الذي يشمل كل شيء، ويجازي على الأعمال بالثواب أو العقاب، وهو الفعَّال لما يُريد، وهو الذي يعلم بكل شيء ولا يغفل عن شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآَنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٨٩١]. إنه العالم بكل سر، ولذا قال تعالى: {ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد}[٨٩٢].

إذن المهيمن هو الباسط نفوذه على الكل بلا استثناء، ببسطه قوته وتحكُّمه في الأمر، {أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر}[٨٩٣].

وهو: القادر على القول قبل الفعل، والقادر على تزامن القول والفعل في الزمن الآن. والقادر على تقديم الفعل على القول ليأتي من بعده الناس يتساءلون.

---

[٨٩٠] أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء ، دار الثقافة ص ٤٢.

[٨٩١] يونس ٦١ ، ٦٢.

[٨٩٢] إبراهيم ٣٨.

[٨٩٣] الزمر ٥٣.

فقبل الفعل قال تعالى: {فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}[٨٩٤]. أي أن المَهلُ هو الفترة التي قبل فعل العقاب الذي سيواجهونه الممهلون وسيكون المؤمنون عليهم شهودا. وقوله تعالى: {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود}[٨٩٥] أي أُذكِرَكُم وأُبلِغكم قبل أن يفوت الأوان كما كما حدث مع الأقوام السابقة لكم، فإن لم تستجيبوا فبعدها لن ينفعكم الندم، ولذا اعملوا صالحا ولا تغفلوا وتخسروا الدارين كما خسرتها بعض الأقوام مثل قوم نوح وعاد وثمود.

وأثناء الفعل قال تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}[٨٩٦] تزامن القول مع الفعل في صدور الأمر مع كينونة الفعل في الزمن الآن.

أمَّا بعد الفعل فقال تعالى: {إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذٍ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذٍ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم}[٨٩٧]. الزلزلة تحدث أولا حتى تخرج أثقالها، ثم يأتي من بعدها الناس يتساءلون عن الأمر، بقولهم ما أصاب الأرض! أي مالها وما بها؟. بعدها تأتيهم الأخبار المجيبة على التساؤل، وفي هذا الأمر المهيمن بالإضافة لا يعلم ولا يعرف ما حصل، أما المهيمن الحق فوحده العالم بالأمر، ولهذا جاء التساؤل لاحقا للفعل وليس سابقا عليه. وفي هذا الخصوص تُعد الزلزلة إجابة على السؤال: مالها؟. الذي ترتب على وقوع الفعل أولا، ليأتي المتسائلون بسؤالهم ثانيا.

ومع أن البعض يظن أو يعتقد بأن السؤال يأتي سابق على الإجابة إلا أن هذا الظن أو الاعتقاد ليس في محله، فالأمر الطبيعي الإجابة دائما تسبق السؤال، وإلا هل يعتقد أن يحاسبنا الله تعالى ويسألنا لو لم يتم إبلاغنا أولا بما يجب وبما لا يجب! ولنأخذ ساعة التفضيل التي أنبأ فيها آدم أسماء من يتعلق أمرهم بها؟ فالملائكة التي ليس لها علم مسبق بذلك لم تستطع الإجابة. ووفقا لقاعدة المعلومة: تعمم المعلومة أولا ثمَّ تلاحق ثانيا بالمراجعة والسؤال عن حالها وتقويمها أو تقويم الفعل الذي ترتب عليها.

---

[٨٩٤] الطارق ١٧.

[٨٩٥] إبراهيم ٩.

[٨٩٦] ياسين ٨٢.

[٨٩٧] الزلزلة ١ . ٦.

فإذا عُدنا للمقررات التي تُعلَّم في مراحل التعليم المتنوعة، نجد أن المعلومة تُعطى أو تُدرَّس أولا ثم ثانيا تلاحق بالأسئلة، ولذا لا يسأل أحد عن شيء لم يعلمه أو يقوم به ويعرفه. حتى في المسابقات العامة لا يسأل أحد عن شيء لم يُنشر أو يُسوَّق أو يُعلن عنه، ولذا من يتمكن من الاطلاع والمعرفة ويتذكَّر ويتفكَّر يُجيب ويفوز، ومن لم يتمكن فالأمر يعود لتقصيره بعدم البحث والاطلاع على المنشور أو المبثوث والمنقول عبر شبكات المعلومات ووسائل الاتصال المتطورة. ولهذا لو لم تقضِ من عمرك أعواما ما سألك سائلا عما قضيت منه، ولو لم تدخل المدرسة وتعطى لك المعلومات والمقررات ما سألك المدرس عنها، ولو لم تكفر ما سألك وحاسبك الله على كفرك، ولو لم تؤمن ما جازاك الله خيرا على إيمانك.

وعليه فعل الإجابة يأتي لا حقا لفعل إعطاء المعلومة، وفعل دخول الجنة يأتي لا حقا لفعل الاستخلاف في الأرض.

والمهيمن هو المجيب، {أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض}[٨٩٨] وقوله تعالى: {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة ألداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}[٨٩٩] المضطر لا يدعو إلا من يعرف مسبقا أنَّه يستجيب له في حالة ما إذا دعاه، أي أنه لا يسأل إلا مجيبا، أما أولئك الذين يسألون من لا إجابة عندهم فهؤلاء لن يستمعوا لأي إجابة وهم في حالتهم هذه كمن يسأل أصحاب القبور {والله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور}[٩٠٠].

ولأن المهيمن المُطلق هو المجيب فهو يهيمن على كل شيء ويُجيب على كل شيء، ولذا فالمهيمن بالإضافة هو المجيب بالإضافة، أي أنه لم يكن مهيمنا بالمطلق، ولأنه كذلك فهو لا يمتلك إجابة المطلق.

إنَّ المهيمن الكل هو الذي يحتوي على كل جزء، أمَّا المهيمن الجزء فهو الذي يحتوي على المتجزئ ولا تتسع دائرة امتداده لتشمل الكل. ووفقا لقاعدة النسبية، فإذا نظرنا للإنسان ككل

---

[٨٩٨] النمل ٦٢.

[٨٩٩] البقرة ١٨٦.

[٩٠٠] فاطر ٢٢.

في ذاته، نجده يتكون من أجزاء تتجزأ، وإذا ما أصاب الألم أحد أجزائه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وهذا يدل على إحساس الكل بالجزء والمتجزئ منه. ولهذا يحس الكل بالجزء ويستجيب له، وهذا الأمر على مستوى المهيمن الجزء وهو الإنسان إذا ما نُظِرَ إليه ككل في ذاته، أمَّا إذا نُظِرَ إليه في وسط ما خلق المهيمن الحق، فنجده جزءا منفردا ومنه تتجزأ الأعضاء والأجهزة التي منها تتكون وحدته ككل مستقل بذاته. ولهذا مع أنَّ الإنسان إذا ما نظرنا إليه كمفردة مستقلة بذاتها، فهو أيضا المترابط مع بني جنسه بعلاقات على مستويات متعددة في مجالات متعددة وفقا لأدوار متنوعة.

فالفرد الواحد يلعب دور الأب بعاطفة الأبوة، ودور الأم بعاطفة الأمومة، ودور الأخ أو الأخت بعاطفة الأخوة، ودور العم بعاطفة العمومة، ودور الجار بعاطفة الجيرة، ودور المسؤول والمربي والقائد والمعلم والمساعد والمُحسن والسائق والراكب والزارع والجاني وإلى النهاية يلعب أدوارا متنوعة وفقا لمسؤوليات وصلاحيات واختصاصات في ضوء حقوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات تم حمِلها. ولذا كل مُهيمن مهما تعددت أدواره فهو يحس ويستجيب لكل دورٍ ويستجيب لكل من تُلعب الأدوار من أجلهم.

وفي مقابل ذلك ومن غير مقارنة، فالمهيمن الكل يستجيب لكل من يهيمن عليهم وهو يحس بآلامهم ويستجيب لهم كلما دعوه دون أن يتألم، وذلك لأن الألم متلازم في خلقه مع الكائن المخلوق، وليس متساويا مع الخالق جل جلاله، ولهذا فإن حاله كحال المخلوقات الأخرى التي تخضع لهيمنة المهيمن عز وجل.

ويقول الإمام الغزالي: "المهيمن هو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم وقيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه. وكل مشرف على كنه الأمر مسؤول عليه حافظ له فهو مهيمن عليه. والإشراف يرجع إلى العلم، والاستيلاء إلى كمال القدرة، والحفظ إلى العقل"[٩٠١].

إذن المهيمن هو الذي يحتوي بعلمه على كل ما بيده، بسلطانه وملكوته وكيده فهو يُمهل ولا يُهمل ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة يهيمن عليها هيمنة كاملة.

---

[٩٠١] أبو حامد الغزالي المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.بيروت ، دار الكتب العلمية ص ٥٠.

ويقول البغوي: "المهيمن هو الشهيد على عباده بأعمالهم. وقال ابن عباس ومجاهد: هيمن يهيمن فهو المهيمن إذا كان رقيبا على الشيء"[٩٠٢].

ولذا فإن المهيمن هو المسيطر على كل أمر والقادر على كل فعل، والفاتح لكل خير والمغلق لكل شر.

وعليه المهيمن هو الذي بيده كل شيء وله كل شيء ويستطيع فعل كل شيء، قال تعالى: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}[٩٠٣]، فلا يمكن للعبد الاستعانة إلا به ولا يمكنه اللجوء إلا إليه، وهيمنته تؤكد وحدانيته فهو الواحد الأحد الصمد، قال سبحانه وتعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}[٩٠٤]، فهذه الوحدانية التي تفرض هيمنته علينا تُشعرنا بالعبودية تجاهه، مما يجعل من العبد المؤمن حراً من أي خضوع لغير الواحد الأحد، إذ يدرك المؤمن أن أي إنسان غيره هو بحاجة للمهيمن المطلق إذ أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً فكيف يملكون لغيرهم؟.

وهذا من شأنه أن يجعل المؤمن معتزاً بنفسه لا يرضى بالعيش إلا كريماً، ويجعله محباً طائعاً متعلقاً بمن هو مهيمن عليه برحمته ورعايته ومراقبته، فمن شأن ذلك أن يجعله شاكراً لمن يعطيه الشعور بالأمان والحماية والرعاية الدائمة، فلا يكون للمؤمن أي معين سواه عز وجل في حل ما يلاقيه من متاعب وهموم ومشاكل في حياته معتمداً بذلك على المسيطر والقادر على كل شيء، فيستغني المرء بذلك عن سؤال البشر.

وبإيمان العبد بأنه المهيمن والقادر على أمر حياتنا ومماتنا فإنه يجعل من حياته سلسلة متواصلة للطاعة والعبادة والخضوع له، فهو خالق كل شيء، قال تعالى: {تبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[٩٠٥].

---

[٩٠٢] تفسير البغوي ، ج ٥، ص ٦٢٤.

[٩٠٣] البروج ، ١٥ ، ١٦.

[٩٠٤] الإخلاص ١ ٢.

[٩٠٥] الملك ١، ٢.

ولأنه المهيمن فهو القادر ولذا فلا يمكن أن تتوافر الهيمنة المطلقة دون توافر القدرة المطلقة على كل شيء، لأن الهيمنة في حقه عز وجل تعني أن الخالق هو الرقيب الذي لا تخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: {ا لْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آَيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}[٩٠٦]، وتكمن سر هيمنته المطلقة في رقابته المطلقة التي لا يمكن لأي مخلوق أن يشاركه فيها، ولأنه الرحيم المطلق استوجب في حقه هذه الهيمنة الكاملة التي تمكّنه من معرفة وإدراك كل شيء مهما صغر أو كبر، مهما ظهر أو خفيَ.

والمهيمن في حق الله تعالى تعني أنه الشهيد على كل شيء بالرعاية والقدرة والرحمة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٩٠٧]، وقال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[٩٠٨]، فالله بهيمنته هو القائم بأعمال العباد جميعاً وأرزاقهم وما يتعلق بهم من أقدار، وهذا دليل وحدانيته التي تجعله مهيمناً بهذه الوحدانية على كل شيء قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ

---

[٩٠٦] سبأ ١ . ٥.

[٩٠٧] الحج ١٧.

[٩٠٨] الحاقة ١٣ . ١٨.

عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٩٠٩]، فالهيمنة هي أساس عدله عز وجل ورحمته وخبرته وقدرته. فالقدرة الحق إذن لا تأتي إلا بكامل الهيمنة ومطلقها، لأنه إذا نقصت هذه الهيمنة ولو مقداراً ضئيلاً بنسيان أو غفلة فقد فقدت العدل والقوة والرحمة في الحكم، والخالق جل جلاله هو العدل المطلق في حكمه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه جل جلاله.

والخليفة بالإضافة هو من اتصف بصفات الله تعالى فكان قادراً على الإلمام بالأمور من حوله، فلا يكون غافلاً عما يدور خارج محيطه النفسي أو العائلي، إذ أن الإنسان هو جزء من المجتمع أولاً ومن العالم بأسره ثانياً فلا يجب أن يعيش معزولا أو محدود العلم والمعرفة والقدرة، بل لابد أن يهمن على ما حوله من تغيرات ومجريات أمور لكي يستطيع التغلب عليها ويكون متفاعلا مع الحق بالحق وفقا لقاعدة إتباع ما يجب والابتعاد عما لا يجب إتباعه.

وعليه فالمهيمن هو مالك الملك بالمطلق، ولذا فهو الملك المهيمن على عباده بذاته، فهو فوقهم جميعاً لا يعلو عليه شيء، وكيف ذلك وهو الملك المطلق! هو الملك المتعال يأتمر العباد بأمره عز وجل وكذا جميع الخلق، يعلم كل ما يحدث ويدر في مملكته التي تمتد إلى ما لا نهاية والتي لا يعلمها إلا هو جل جلاله، بحكمته المطلقة وبعلمه المسبق بكل شيء وبتفاصيل الأمور ودقائقها، لا يعزب عن علمه وإدراكه أي شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٩١٠].

وإذا رأينا أن بعض الظالمين والعصاة يسرحون في هذه الدنيا دون أن يردعهم أحد فليس معنى ذلك أن الملك غافلٌ عنهم أو متناسي لأمرهم، بل لأنه يتركهم يفسدون في الأرض فيزداد عقابهم ومصيرهم السيئ يوم يقوم الحساب، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا

---

[٩٠٩] الحشر ٢٢ . ٢٤.

[٩١٠] الأنبياء ٤٧.

يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[911]، فهو الملك الذي بيده أمر تقديم وتأخير العقاب والثواب لمن يستحق من العباد، وهو الملك المهيمن على الطائعين والعصاة والمؤمنين والكفار، والإنسان مهما ارتفعت مكانته في الدنيا وعلا شأنه في الحياة الدنيا يبقى فقير إلى الملك الغني القوي المهيمن العزيز جل جلاله، قال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ}[912]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[913]، إذ أن هيمنته تظهر لنا من استغنائه عن جميع الخلق، فلا يحتاج الملك لأي مخلوق آخر في تدبير أمور ملكه، فهو الواحد الذي لا شريك له في حكمه وهيمنته وسيطرته على كل شيء.

وهو الملك الذي يعطي لكل ذي حقٍ حقه، فلا يزيد ولا ينقص من حق العباد شيئاً، فهو الملك الذي يعلم ما تخفي الصدور والأنفس، وبهيمنته عليها فهو المحاسب العادل لها، قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[914].

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون ملكاً على ذاته وعلى شهواتها، وأن لا يسمح لنفسه بأن يكون عبداً لها، أو عبداً لغيره من البشر فيكون حراً يصدع بالحق الذي أمرنا الله بالدعوة إليه والسعي لتحقيقه على الأرض، فالروح بأمر خالقها وليست بأمر أحد من الخلائق، فبمجرد تفكير الخليفة وإدراكه لذلك فإنه يصبح مالكاً لزمام نفسه ومهيمناً عليها ومسيطراً عليها بالتمام.

ولأن المهيمن هو الحي القيوم، فإن الهيمنة المطلقة تتطلب الحياة الأزلية والقيومية، فلا يمكن أن تكمل هيمنته إلا إذا كان حياً لا يموت قائماً على أمور خلقه، قال تعالى، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

---

[911] إبراهيم ٤٢.

[912] الأنعام ١٣٣.

[913] فاطر ١٥ . ١٧.

[914] آل عمران ٢٩.

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٩١٥]، وهذه الحياة الأزلية في حقه عز وجل تتضمن السمع والبصر المطلقين والمحيطين بالخلق جميعاً، كذلك تتضمن هذه الحياة الكبرياء والعظمة والصمدية في حق الله جل جلاله، فبهذه الصفات جميعها تكمن الهيمنة المطلقة للحي القيوم الذي هو قائم وحده على أمر الخلائق جميعاً، بمراقبته لهم وتدبيره أمورهم بعلمه وحكمته بالعباد وهو الشهيد على خلقه كما جاء في قوله تعالى: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[٩١٦]، فالشهادة على الخلق تتطلب مراقبة لا تنقطع، وتكون نتيجة هذه المراقبة الدائمة هو الحساب العادل للبشر ولا يمكن للهيمنة والسيطرة والقدرة على القيام بكل ذلك إلا إذا كان الخالق حياً لا يموت واحداً لا شريك له سبحانه جل جلاله.

وعلى خليقة الله أن يكون مستحقاً للحياة، فلا يكون حياً بمأكله ومشربه وملبسه فقط، بل يجب أن يكون حياً بقيمته وعطائه في هذه الحياة، لا يغفل عما يدور حوله من أمور وأحداث، فالحياة تستحق أن نكون قائمين على أسرارها وجوهرها لا على ظاهرها، فبهذا الشكل نكون مهيمنين على كل جوانب حياتنا فلا نسمح لأحد بسلب هذه الهيمنة منا.

وعليه فالمهيمن هو القوي، ولذا فالهيمنة تتطلب القوة المطلقة والسلطة الكاملة، فالخالق عز وجل هو القوي بهيمنته المطلقة على كل شيء، ولأنه يهمن على كل شيء والبشر هم من مجموع الشيء المهيمن عليه بالمطلق، لهذا تتجلى هيمنته على البشر في أمور عديدة منها:

أ- أخذ الكفار بالعقاب الشديد:

فالعقاب يتطلب قوة كبيرة، والقدرة على الظالمين والأقوياء يستوجب من هو أقوى منهم، فيهمن عليهم ويسيطر على أمورهم جميعاً فلا يستطيعون معه شيئاً، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى

---

[٩١٥] البقرة ٢٥٥.

[٩١٦] النساء ١٦٦.

الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٩١٧]، فمن المعروف مدي جبروت فرعون وقوته وظلمه ولكن القوي المطلق فرض سيطرته عليه وعاقبه بقوة يستحيل معها أن يملك الإنسان رداً لها، فعقابه عز وجل للكفار والمفسدين أكبر دليل على هيمنته القوية عليهم، وكذلك عقاب القوي الجبار لقارون حين تجبَّر وتكبَّر في الأرض، قال تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[٩١٨]، فمن شأن هذه القصص أن تكون عبرة لكل قوي جبار لا يرى في الدنيا مثيلاً لقوته وسلطانه، متناسياً أمر المهيمن عليه والقادر على سلبه هذه القوة في أية لحظة، وبأبسط الأسباب فمثلاً إذا سيطر مرضٌ ما على الإنسان القوي المعافى فإنه يسيطر على صحته ويسلب قوته وعافيته، ويصبح هذا الإنسان ضعيفاً لا حول له ولا قوة، ولو كان قوياً بماله وسلطانه فالقوي قادر على سلب هذا المال أو السلطان، فيظل بلا قوة ولا معونة تساعده في الحياة بدون توكله على المهيمن المطلق، فلا قوي إلا الله ولا مهيمن إلا هو عز وجل سبحانه جل جلاله.

ب- تغيير أحوال العباد:

---

[٩١٧] الأنفال ٥٠ . ٥٢.

[٩١٨] القصص ٧٩

لا يتغير حال الإنسان إلى حال آخر إلا بقدرة القوي المالك، فقد تجد إنساناً كان فقيراً ثم أصبح ثرياً، وهناك من كان ضعيفاً فيصبح قوياً، فسبحان الذي يغير ولا يتغير، ولكن هذا التغيير يتطلب من القوي العزيز الهيمنة الكاملة على الخلق والقدرة على التغيير والتبديل، فالضعيف لا يملك أن يغير لنفسه حتى يغير للآخرين، ولكنّ الله هو القادر على كل شيء بقوته وهيمنته.

فعلى خليفة الله في الأرض أن يكون قوياً في الحق فلا يخشى أحداً في إحقاقه، ولا يضعف أمام مال أو أولاد أو جاه أو أي نزوة، بل عليه أن يقوى على كل شيء فيكون بذلك مالكاً لنفسه مهيمناً عليها لا يسمح لأحد من الخلق أن يستولي على حقه فيها، فالخلافة تحتاج إلى أشخاص أحرار أقوياء مالكين لأنفسهم ومهيمنين عليها، فلا يضيعوا في متاهات الدنيا ولا تأخذهم الحياة بعيداً عن تحقيق الهدف من خلقهم.

إذن المهيمن هو الرحيم بعباده وذلك بأنه سبحانه وتعالى كانت رحمته من هيمنته على كل شيء، وكانت هيمنته رحمة بالعباد، فهي رحمة في عدم لجوئهم لغيره عز وجل، وفي هذا تقدير لهذا المخلوق ورحمةً به، فيتغلب المرء بذلك على التشتت والتعب وتناقض التفكير في كل من يمكن أن يلجأ إليه هذا الشخص ممن حوله، ولأنه الرحيم المطلق فهو المهيمن على أمور العباد رحمةً بهم فلا يتحكم بهم أي مخلوق آخر من شأنه أن يتجبر ويظلم، بل جعل من ذاته العظيمة هي المهيمنة على كل شيء، وهذا في حد ذاته رحمةً بالعبد الذي لا يملك إلا قدرات محدودة وقوة محدودة وتفكير محدود في دائرة النسبية المتوقعة وغير المتوقعة، ويأتي دور الإنسان في استخدام عقله للجوء والوصول إلى فهم هذه الهيمنة، إذ أن الفتَّاح عز وجل هو الذي يفتح أمام تفكير العبد هذه الحقائق ويجعله مدركاً لرحمة المهيمن وقدرته، فيسعى لخالقه بالدعاء والعمل ليكرمه ويفتح عليه أبواب الرزق والرحمة وهي مطلب كل عبدٍ.

فالرحيم المطلق هو الذي تظهر رحمته وتتجسد في هيمنته على الخلق، فالشعور بحد ذاته من المؤمن تجاه الخالق بهذه الهيمنة تجعله يعدّل من سلوكه ويصحح مساره في الحياة وهذه رحمة من الرحيم في عباده، وكذلك في شعور الإنسان المتكبر حين يستشعر وجود مهيمن

عليه بقوته وقدرته وعظمته، فإنه سوف يرجع لحقيقته وإدراك قدرته التي وهبها الرحيم له القادر على سلبه إياها، وهذه رحمة من الخالق بعبده المتكبر في هذه الدنيا، وكذلك بالنسبة للكافر فالخالق هو المانع له عن التمادي إذا أراد في كفره وعناده، وهو المعطي له النعم والعطايا لعله يرجع للحق والهداية وهذه الرحمة متجسدة وواضحة في حق الرحيم بعباده، كذلك هيمنته على الكون الظاهرة لنا من خلال تسييره وفق نظام معين لا يتخطاه ولا يتعداه، فبدون وجود مسيطر ومهيمن عليه لكانت الفوضى سادت وعمت هذا الكون، ولكانت حياتنا عليه غير منظمة، فالخالق بوحدانيته هو المهيمن عليه فيجعله سائراً حسب قوانين كونية هو واضعها، قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الماء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آَيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٩١٩]، وكذلك قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٩٢٠]، فرحمة الخالق بهيمنته على الكون هي رحمة بعباده أجمعين، فلو تصورنا أن الإنسان هو المسيطر على نظام الكون لكان سيّره على هواه، وهواه في اختلاف والاختلاف فساد، فيصبح كل إنسان يريد أن يفرض ما يريد على سيره فيغيّر ويبدل كل حين حسب هواه، ولكان في ذلك اختلال كل هذا النظام ملايين المرات، ولكانت حياتنا مهددة بالخطر والعبث والفساد، ولكنه جعل من ذاته الجليلة هي المهيمنة على هذا النظام الكوني العجيب، وهذه رحمة من الرحيم المطلق بخلقه.

وعلى خليفة الله بالإضافة أن يكون رحيماً بذاته أولاً فيجنبها المعاصي والمفاسد، ولا يُهلكها في الرذائل والشرور فهي مكرّمة من خالقها ومفضلة على باقي الخلق، وعليه أن يكون رحيماً بمن هم أضعف منه ويحتاجون لمعونته سواء كانت فكرية أو مادية هذه المعونة، فلابد أن

---

[٩١٩] الأنبياء ٣٠ . ٣٣.

[٩٢٠] الأنبياء ٢٢.

يكون مهيمناً على قسوته وشره وكل ما هو سيء في ذاته فيحصر كل هذه الشرور ويقضي عليها بحبه لله تعالى وقربه منه وتذكير نفسه بالمهيمن المطلق عليه وهو اللطيف الخبير.

وعليه على الخليفة أن يكون مهيمناً على الآتي:

أولاً: نفسه:

فالنفس البشرية تتفاوت من إنسان لآخر، وسبب هذا التفاوت هو اختلاف هيمنة الإنسان على مشاعره ونفسه بشكل عام، فلا يمكن أن تسير النفس في طريق الصلاح والخير بدون قائم عليها يقوّم من اعوجاجها وزلاتها، فإذا ترك الإنسان نفسه تهيمن عليه وتسير به كيفما تشاء فإنها سوف تؤدي به إلى الهلاك والخسارة، قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٩٢١]، فالنفس أمارة بالسوء أحياناً لذلك كان لابد لها من ضابط ومقوّم لها، من شأن ذلك أن تصحّح من سيرها في الحياة، فلا يكون الإنسان فريسة للشهوات والأهواء المضلة التي يدعمها الشيطان الرجيم الذي توعد الإنسان بالضلال والضياع، بسبب حقده على بني آدم فأراد أن يحتكر أغلب البشر في جهنم بفرض سيطرته عليهم، ومن هنا كان اختلاف الأنفس البشرية في اتباع طريق الشيطان والضلال، أو في الابتعاد عنه واتباع طريق الرحمن، كما جاء في قوله جل جلاله: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا

---

[٩٢١] القصص ٤٩ ، ٥٠.

مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[٩٢٢]، فلابد للخليفة أن يكون مهيمناً على خبايا نفسه فلا يسمح لوسوسات الشيطان بإغوائها والتلاعب بها والاستهزاء بقدراتها التي كرّمها الله بها، وطالما كان الإنسان رقيباً ومسيطراً على ذاته فإنها لن تضِل ولن تفسد.

ثانياً: أن يكون مهيمناً على من هم تحت رعايته:

أحياناً يكون الإنسان في مكانة اجتماعية تجعله مسؤولاً عن غيره ومُراقِباً لهم، هنا لابد أن تكون له هيمنة معينة عليهم تكون رادعاً لهم عند الحاجة لذلك، فمثلاً لابد أن يكون الأب مسيطراً ومهيمناً على كل أنحاء وجوانب أمور أبنائه دون مظلمة، إذ أنه بدون ذلك فإن من شأن هذه العائلة أن تفقد روح الاحترام لهذا الأب والخوف من مراقبته وعلمه بكل تفاصيل حياتهم التي بهيمنته عليها يستطيع أن يدرك كل ما هو جيد وفاسد فيها لأجل تقويمه وإصلاحه وهديهم بالتي هي أحسن للتي هي أحسن.

فالطفل منذ تعرفه يحتاج لمن يأخذ بيده ويَشْعره بأن هناك من يراقبه ويقف له عند نهاية كل مسلك من الممكن أن يسير فيه، فلا يتهور ولا يسير في دروب الضياع والفساد، فكيف يسير فيها طالما هناك رادع ومراقب له بالحق من اجل الحق؟. ومع ذلك من يقف في نهاية الطريق مربيا عليه أن يعلم أن من مهامه فتح المسالك والدروب أمام الأجيال لأجل أن تطوي الهوة بينها وبين محققات طموحاتها وآمالها التي فيها الأفضل والأجود والأحسن؛ ولهذا قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ

[٩٢٢] ص ٧١ . ٨٣.

لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[٩٢٣].

وفي أحيان أخرى يكون الإنسان في مرتبة عملية تخوّله لأن يكون مسؤولاً عن عدد من الموظفين والعاملين تحت يده، فإذا أراد هذا الشخص أن يكون عمله سائراً بالشكل الصحيح فإنه لابد أن يكون ممسكاً بزمام الأمور جميعاً، ولا يمكنه ذلك إلا بامتلاكه القدرة على المراقبة الشاملة والهيمنة على جوانب العمل بكل حق، فإذا استشعر العامل أو الموظف بهيمنة صاحب العمل ومراقبته له بالحق فإنه يسعى لتحسين عمله والإبداع فيه محافظةً عليه وخوفاً من ضياع هذا العمل، فيصبح بذلك الإنتاج أفضل وأكثر وأجود، على عكس صاحب العمل الغافل المهمل عن سير عمله فنجد أن العاملين والموظفين يتخبطون في عملهم ولا يحركون ساكناً لأي مجهود من شأنه أن يحسّن العمل فيصبح بذلك الإنتاج أقل جودة ونوعية فتكون الخسارة واردة لعدم وجود من يفرض وجوده ويهيمن على سير العمل كما يجب أن يكون.

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[٩٢٤]، إذن فالمهيمن جل جلاله هو الرقيب على أعمالنا وأقوالنا جميعها، فمن الآيات الكريمة السابقة نستطيع أن نربط بين عملية خلق الله تعالى للبشر (ولقد خلقنا الإنسان) وبين علمه المطلق بخفايا أموره عن طريق مراقبته وهيمنته على هذا المخلوق، فالهيمنة المطلقة لله على البشر ضعيفهم وقويهم، غنيهم وفقيرهم، المؤمن فيهم والكافر هي حق الخالق على الخلق، فمن الممكن أن يُخفي الإنسان ما يريد عن أقرب الأشخاص إليه ولكنه لن يستطيع ذلك مع الخالق جل جلاله، فكل من حوله يفتقدون القدرة على فرض هذه الهيمنة أما المولى عز وجل فإنه يملك القدرة والحق في ذلك، وهناك فرق بين الخلق في فهم هذه الهيمنة، فالمؤمن

---

[٩٢٣] الإسراء ٢٣ ـ ٢٧.

[٩٢٤] ق ١٦ . ١٨.

يستطيع أن يستشعر في هذه المراقبة حباً ووداً ورحمةً وهدايةً له، قال تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[٩٢٥]، فهذا العلم بخفايا النفوس هو بحد ذاته رحمة وحب، لأن نفوسنا مليئة بالاحتياجات والرغبات التي لا تنتهي، وهو العالم المطلق بما فيه صالح أنفسنا وخيرها، فهذا الشعور إذا تملّك صاحبه فإنه يجعل منه متوكلاً على المهيمن القادر العليم الرحيم، وكم من السعادة توجد في التوكل عليه عز وجل، فلا يحزن ولا ييأس هذا المؤمن من ضياع ما يسعى خلفه أو عدم حدوث ما هو منتَظَر، فيقينه بأن ذلك خير فيه رضا وسعادة للنفس وطمأنينة يفتقدها أي إنسان كافر أو عاصي، كذلك فالمذنب والخاطئ في حق نفسه وحق الله تعالى تجده عائداً للحق ويكون لهذا الاسم نصيباً في ذلك، فبمجرد يقين المذنب بأن هناك من يراقبه ويهيمن على حياته كلها فإنه يراجع نفسه ويعاتبها ويقع الخوف في نفسه موقعاً عظيماً يكون من شأنه أن يجعل من هذا المذنب تائباً راجعاً لله تعالى، قال عز وجل: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٩٢٦]، وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٩٢٧]، فاسم المهيمن إذن من شأنه أن يجعل من المذنب تائباً مستغفراً طامعاً في رحمته جل جلاله ساعياً لمغفرته ورحمته ووده عز وجل، فلا يمكن أن يغفل أي إنسان عاقل عن هذا الاسم لتغلغله في تفاصيل حياتنا والذي يجب أن تكون أعمالنا وأقوالنا مستمدة من شعورنا بهذه الهيمنة المحببة والمعلِمة لنا والموضحة لكل البشر طريق الضلال من الهدى، أما بالنسبة للإنسان الكافر فإن من شأن جهله بأسماء الله تعالى وصفاته أن يجعل منه كالدواب فلا ينتصح لنصيحة ولا يجعل من عقله نعمة يهتدي بها لطريق الخير والفلاح، قال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَاسمعَهُمْ وَلَوْ اسمعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[٩٢٨]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ

---

[٩٢٥] إبراهيم ٣٨.

[٩٢٦] التوبة ٢٧.

[٩٢٧] التوبة ١٠٤.

[٩٢٨] الأنفال ٢٢.

اللَّـهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[٩٢٩]، فلا بد للعقل البشري أن يعمل فيتدبر ويدرك لكي يستوعب مدى أهمية هذه الهيمنة على حياتنا البشرية، فهي بحد ذاتها قانوناً يكون بموجبه كل إنسان مسؤولاً عن عمله، لا يمكن لأي كان أن يفرض على أي شخص ما هو ضد تفكيره واعتقاده الصحيح في الحياة، لأنه بالإيمان بالمهيمن المطلق لا يمكن أن يعيش الإنسان عبداً لمخلوق آخر، بل من شأن هذا الاسم أن يحرر المؤمن به من كافة أنواع العبودية والخضوع لغير الله تعالى، فالعقل البشري حين يتحرر من فكرة سيطرة الأوهام والخرافات والأباطيل التي قد يمتلئ بها هذا العقل فإنه ينأى بصاحبه عن الاستسلام والذل لأي مخلوقٍ كان ومهما ارتفعت درجته في الدنيا، بل يجعل منه إنساناً مسيطراً على ذاته وعلى حياته له من بعد النظر ما يعينه على تصحيح خطاه بالاستعانة والتوكل على المهيمن المطلق.

وعليه فإن الله تعالى هو المهيمن على الكتب السماوية، فهو من أنزل جميع الكتب لهداية البشر للصراط المستقيم، قال تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٩٣٠]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[٩٣١]، فالكتب السماوية جميعها منزلة من عند الله لهدفٍ واحد وهو هداية البشر ورفع الحُجَّة، فلا يكون لأي إنسان حُجَّة على الله يوم القيامة بعدم معرفته لطريق الحق والصلاح من الباطل والفساد، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ

---

[٩٢٩] الأنفال ٥٥.

[٩٣٠] البقرة٢٨٥ .

[٩٣١] النساء ١٣٦.

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٩٣٢]، فمن الآية الكريمة السابقة نستطيع أن ندرك مدى ربط إرسال الرسل جميعاً بالكتب السماوية وبين شهادة الخالق عليهم، فشهادة الله هي الحق إذ لا مبرر للكفر يوم القيامة ولا للعصيان والجحود، فطريق الجنة واضحاً وطريق جهنم واضحاً أيضاً فمن هيمن عليه الحق واليقين فاز في الدنيا والآخرة ومن هيمن عليه الباطل خسر الدنيا والآخرة.

والمهيمن جعل من آخر الكتب السماوية وهي القرآن الكريم محتويا على باقي الكتب السماوية السابقة له ومهيمنا عليها، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}[٩٣٣]، فمن الآية الكريمة السابقة نستنبط ما يلي:

أ- إن القرآن الكريم كتابٌ جامع وشامل لكل الشرائع والقوانين التي بهيمنتها وتطبيقها نحمي أنفسنا ونقيها عذاب الجحيم.

ب- بما أن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وهو كتاب الكافة فإنه الشاهد على كل ما سبق، وهو الباقي مع البشرية إلى قيام الساعة، وبذلك فهيمنته صالحة لكل زمان ومكان، وهكذا سيظل الحق في الدارين باقيا كما انزل.

ج . في هيمنة القرآن الكريم رادع لعدم إتباع طريق الباطل الذي تقود إليه الأهواء، قال تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ}[٩٣٤].

---

[٩٣٢] النساء ١٦٥ . ١٧٠.

[٩٣٣] المائدة ٤٨، ٤٩.

[٩٣٤] المؤمنون ٧١.

وبما أن الكتب السماوية هي من عند الله فهو العالم بموعد نزولها وعلى من تُنّزل بحكمته وهيمنته عليها وعلى الخلق جميعاً، مع معرفته المسبقة بنتيجة إنزالها ومن سيؤمن بها ومن سيعاديها ويحرّفها لكي تتناسب مع أهوائه إن استطاع إلى ذلك سبيلا، وبقدرته عز وجل شهد على كل الأمم السابقة لنا وسجل أعمالهم ليحاسبهم عليها يوم يقوم الحساب، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٩٣٥].

إنه المهيمن على الحياة الدنيا والآخرة، الحياة الدنيا والآخرة هما الدارين اللذين يعيش فيهما الإنسان، فالمرء يُخْلق في الحياة الدنيا فيعيش حياته ويعمل فيها ويجتهد، ولكل إنسان ما عمل يُحَاسَب عليه في الدار الآخرة، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٩٣٦]، وقال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[٩٣٧]، فالخالق عز وجل هو المهيمن على الدارين، فهو المهيمن على الحياة بالتالي:

١- بعملية خلق الكون جميعه بما يحويه من كائنات ومخلوقات ومكونات مختلفة، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[٩٣٨]، وقال تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

---

[٩٣٥] يونس ٤٤ . ٤٧.

[٩٣٦] الأنبياء ٤٧.

[٩٣٧] الزلزلة ١ . ٨.

[٩٣٨] يونس ٥، ٦.

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[٩٣٩]، فلا يكون إلا ما أراد هو عز وجل، ولا يمكن أن يخلق من غيره أي شيء، فهو مهيمن بعملية الخلق وبقدرته وقوته على كل شيء، وهو المهيمن على حياة الخلق بعلمه وتقديره وحكمته، فيؤخر ويقدّم ويسخّر الأشياء في الحياة لصالح الإنسان متى شاء وكيفما يشاء.

٢ – بخلق الأرزاق والآجال والأقدار، فالمهيمن المطلق هو الذي يقدّر رزق كل إنسان وعمره وقدره مسجلاً ذلك في كتابٍ محفوظ، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[٩٤٠]، وقال تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}[٩٤١]، ولأنه هو خالق الرزق والأجل والقدر فهو القادر على التحكم فيها كيفما يشاء، وبسيطرته عليها فهو المهيمن الكامل عليها، الذي لا حدود لهيمنته، فلا يمكن أن يغيّر أي مخلوق قدره أو يؤخر أجله مثلاً أو يتحكم في رزقه، قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٩٤٢]، فبتحكمه في كل هذه الأمور دليل على حكمته ورحمته وعلمه بكل جوانب حياتنا ما ظهر منها وما بطن، فكل هذه الأمور من شأنها أن تُخلق مع الإنسان فتسير معه مدى حياته إلى أن يموت فينتهي رزقه المادي في الدنيا وكذلك أجله ويدرك ما قد قدّر الخالق له.

إنه المهيمن على الآخرة، فهو الذي يقوم بإعادة الحياة إلى الخلق وبث الروح فيهم من جديد لتتجدد هيمنته عليهم، ولذا فهو المهيمن الدائم بالمطلق سبحانه جل جلاله، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ}[٩٤٣]، وقال سبحانه وتعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور}[٩٤٤]، فلا ترجع الروح إلى صاحبها

---

[٩٣٩] الأنعام ١٠٢.

[٩٤٠] فاطر ١١.

[٩٤١] الذاريات ٢٢.

[٩٤٢] الأعراف ٣٤.

[٩٤٣] الحج ٦٦.

[٩٤٤] الملك ٢.

إلا بأمره عز وجل، فهو المالك بخلقه لها وبثها في الجسد الآدمي متى يشاء، فبذلك فإن الخالق جل جلاله هو المهيمن المطلق على أمر إعادة الروح يوم القيامة.

إنه سبحانه وتعالى هو المهيمن على حساب العباد، فمن البديهي أن الإنسان لم يُخْلق سدى على هذه الأرض دون حساب، قال تعالى في كتابه الكريم: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}[٩٤٥]، بل إن عملية خلقه كانت لهدفٍ نبيل، ولما كان الغرض عظيم خلقه فقد استوجب ذلك حساباً على الأقوال والأفعال لتفاوت البشر في تحقيق الهدف من الخلق، فمنهم من كان مستحقاً لهذه العملية ومنهم من كان غير مستحقٍ لها، فخلق الله الثواب والعقاب في الآخرة كل إنسان حسب عمله في الدنيا، قال تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}[٩٤٦]، فهو المهيمن يومئذ على أمر الحساب العادل للخلق، فيتوافق هيمنته مع رحمته وعدله بالبشر، فبفضل هذه الهيمنة المطلقة فهو المدرك لمن يستحق رحمته ومغفرته، وبعلمه بظواهر الأمور وخفاياها فهو المدرك لمن يستحق الثواب ومن يستحق العقاب، وبحكمته المطلقة فهو الفيصل يوم القيامة بين الحق والباطل الذي كان الخلق يختصمون عليه في الدنيا.

إذن فالمهيمن عز وجل هو المسيطر بالمطلق على أمر الحساب يوم القيامة، فلا يغفل عن صغيرة أو كبيرة بما أنه الشاهد الحكم العدل على ما قدّمنا في الحياة الدنيا، التي كان البعض ينظر إليها وكأنها دار لهو ولعب، ولم يحسبوا للآخرة حساب فأضاعوا حياتهم وأخراهم، قال

---

[٩٤٥] القيامة ٣٦ . ٤٠.

[٩٤٦] الانشقاق ١ . ١٥.

تعالى: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٩٤٧]، وقال: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[٩٤٨].

إنه جل جلاله هو المهيمن على الجنة والنار، الله هو خالق الجنة وخالق النار، وبخلقه لهما فهو المتحكم فيهما، قال تعالى: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ}[٩٤٩]، فأمر الجنة والنار بيده وحده يُدخل من يشاء جنته ويُدخل من يشاء الجحيم كلٌ حسب عمله في الحياة الدنيا ولا يظلم ربك أحدا، فالدار الدنيا دار ابتلاء لا دار لهو وعبث، ومن عبث فيها ونسي نفسه باللهو سيكون حسابه عسيرا، وبهيمنته على هذين المكانين فلا يمكن للمرء أن يختار أو أن يتدخل في أمر حسابه الذي سجله الخالق في كتاب أعماله، إنه علام الغيوب الذي لا يغفل عن صغيرة ولا كبيرة، قال تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[٩٥٠]، فبهيمنته عز وجل على أمر خلقنا وتسجيل أعمالنا فهو المهيمن على أمر حسابنا واختيار أي المكانين سيكون مصيرنا بالذي جنيناه بأيدينا، إذ أن الشهود والدلائل والقرائن موجودة ولا مبرر ولا حُجَّة لكافر ولا مشرك وعاصي يومئذ بل هو الندم والتحسر على ضياع حياته سدى، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ

---

[٩٤٧] غافر ٣٩، ٤٠.

[٩٤٨] المؤمنون ١١٥، ١١٦.

[٩٤٩] التكوير ١ . ١٤.

[٩٥٠] الكهف ٤٨ ، ٤٩.

الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآَبًا إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}[٩٥١].

وعلى الخليفة أن يكون مستعيناً بالمهيمن جل جلاله على صلاح حاله ونفسه في الدنيا، فلا يسعى وراء الملاهي والدنيا فلديه مراقب وشاهد عليه يهيمن على حياته ويحفظه إذا طلب ذلك وسعى إليه، ويرحمه إذا التجأ إليه، وأن يكون على يقين بأنه معه في الدنيا وفي الآخرة يرحمه هنا وهناك ويستر عليه في الدارين، فهو بهيمنته عز وجل للإنسان فإنه يرعاه ويحفظه حتى من نفسه، فبذلك يتحقق الأمن في قلب الخليفة فلا تستعبده شهوة ولا يخضع لإنسان بغير حق، ولا يكون أمله إلا أن يكون الله معيناً له، فبذلك يصل الخليفة في الأرض أن يكون شاهداً حقاً لا ظالماً ولا متحيزاً فيتحقق العدل والمساواة في الأرض، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا المهيمن على الروح اجعل أرواحنا طاهرة، ويا المهيمن على العقول اجعل عقولنا مستنيرة بذكرك ويا المهيمن على النفس اجعل أنفسنا برحمتك مطمأنة، ويا المهيمن على الأبدان اجعل أبداننا مبرئة من العذاب، ويا المهيمن على الحياة اجعل حياتنا في طاعتك، ومماتنا في طاعتك وبعثنا في طاعتك، إنك أنت المهيمن على الكون وعلى الخلق وعلى ما نعلم وما لا نعلم بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، اللهم إنك أنت المهيمن ولا مهيمن سواك فلا تجعلنا تحت المسيطرين، اللهم يا مهيمن اجعل الخير والصلاح والفلاح والعمار مهيمناً علينا، واجعل ديننا مهيمناً على دنيانا فلا نضل سبيلك يا المهيمن يا الله.

اللهم يا المهيمن اجعل الحق مهيمناً على الباطل، والعلم مهيمناً على الجهل والخير على الشر والعدل على الظلم والحب على البغض، حتى نكون خير أمة أخرجت للناس كما أردت لنا.

العزيز

---

[٩٥١] النبأ ٣٨ . ٤٠.

العزيز هو الله عزَّ وجل مصدر كل عزة.

العزة رفعة لا تُستمد إلا من رفيع يمتلك القوة الساندة والداعمة، والقوة مدد تمتد من مصدر انبعاثها إلى حيث تكون وتترك أثرا موجبا على من يستغيث بمالكها بتقويته ومناصرته فيما هو حق، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته.

العزة لله في ذاته وصفاته وملكوته وملكه، ولمن استمد القوة منه مصداقا لقوله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون}[٩٥٢] فلله العزة يقول ابن منظور في لسان العرب: "له القوة والغلبة"[٩٥٣]، وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: "نزلت هذه الآية بعد أن صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّرَ الخواطر؛ ظهر حينئذٍ نفاق المنافقين وتبيَّن ما في قلوبهم، وقال كبيرهم عبد الله بنُ أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء . يعني: المهاجرين إلا كما قال القائل سمِّن كلبك يأكلك. وقال: لأن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ بزعمه أنه هو ومن معه من المنافقين الأعزُّون، وأنَّ رسول الله ومن تبعه هم الأذلُّون"[٩٥٤].

وأخرج البخاري عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: سمعت عبد الله ابن أُبي بنُ سلول المنافق يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر ذلك عمي للنبي صلى الله عليه وسلم، فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته، فأرسل رسول الله إلى عبد الله ابن أُبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني وصدقه، فأصابني شيء من الحزن لم يصبنِ مثله، فجلست في البيت، فقال عمي: ما أردتَ إلا أن كذَّبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومقتك؟

---

٩٥٢ المنافقون ٨.

٩٥٣ لسان العرب المحيط. ج ٢، ص ٧٦٤.

٩٥٤ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان. الرياض . دار ابن الجوزية الطبعة الأولى ١٤٣٥ هجري ١٠٢٧.

فأنزل الله تعالى قوله: (إذ جاءك المنافقون) فبعث إليَّ رسول الله وقال: {إنَّ الله قد صدَّقك) بقوله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون) "[٩٥٥].

العزة مناصرة، بها يُعزَّز الحق ويمحق الباطل، وفي الآية السابقة يُضرب المثل لذلك حيث عززت وظهرت الحقيقة بصدق زيد بن أرقم، وكذب من حلفوا على صدقٍ وهم كاذبون، فزيد الذي كان على حقٍ جاءته العزة من الله تعالى تناصره، وعبد الله بن، أبي بنُ سلول جاءته الهزيمة نِتَاجَ كذبه ضعفا.

ف(لله العزة ولرسوله وللمؤمنين) عُرِضت مرتَّبة على ثلاثة أبعاد:

البعد الأول: أنَّ العزة لله، فهي تُستمد منه جل جلاله، فلو لم يكن هو العزيز ما كانت العزة، {من كان يريد العزة فلله العزة جميعا}[٩٥٦] من كان يريد الشرف والمكانة العالية فعليه أن يتوجه إلى مصدرها عزَّ وجل، مثل ما قال أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}[٩٥٧] كل المطالبة الإبراهيمية هي لنيل العزة والإمداد بالقوة ليكون عزيزا غير مهان في الدنيا والآخرة. اللهم يا عزيز مدَّنا بعزتك وقوتك ورحمتك سبحانك لا إله إلا أنت.

البعد الثاني: العزة للرسول عليه الصلاة والسلام، الذي اصطفاه الله وأعزه بالكتاب مصدقا لما بين يديه {نزَّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه}[٩٥٨]. فعزة الرسول صلى الله عليه وسلم من عزة الله تعالى، ولذا فهو يمتلك القوة من القوي عز وجل. والقوة حُجَّة، فكان الكتاب الرسالة الخاتمة وهو مجمع الحُجَج الذي يهدي للتي هي أقوم.

والبعد الثالث: العزة للمؤمنين الذين آمنوا بالله وكتبه ورُسله عليهم الصلاة والسلام. والمؤمنون هم الذين آمنوا، وبإيمانهم أعزو الإسلام والرسول فأعزهم الله بالإسلام وبالرسول. إنها العزة

---

[٩٥٥] تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص ٧٤٤.

[٩٥٦] فاطر ١٠.

[٩٥٧] الشعراء ٧٨ . ٨٣.

[٩٥٨] آل عمران ٣.

المتبادلة فمن ينصر الله ينصره {ولينصُرنَّ اللهُ من ينصره إنَّ الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر ولله عاقبة الأمور}[959] ولينصرن الله من ينصره: ليعزن الله من يعزه أي لا نصر بدون عزة، ومن يعزه الله تعالى ينتصر، ومن يذله يُهزم. فالذين يراد لهم أن يُستخلفوا في الأرض يُمكّنهم الله فيها، مما يجعلهم يعزون من الله بالصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليرثوا الجنة من بعد أن ورثوا الأرض.

قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}[960] فسوف يأتي الله بقوم يستخلفهم في الأرض محبة لهم على محبتهم له، وبهذا الحب المتبادل يتعزَّز الإيمان في الأرض بعطف المؤمنين على بعضهم وبشدتهم على الكافرين بكل قوة.

وفي مقابل الأبعاد الثلاثة جاء الاستثناء للمنافقين بقوله تعالى: (ولكنَّ المنافقين لا يعلمون) لا يعلمون العزة لله وللرسول وللمؤمنين، ذلك باعتقادهم أن العزة لهم بما يمتلكون، ولو تفكروا لعرفوا أن المُلك لله تعالى. وهؤلاء ومن هم في حكمهم ليس بالمستخلفين في الأرض، حتى وإن توارثوا فيها وامتلكوا نصيبهم منها، فليس لهم في الآخرة من نصيب. فهم لم يرثوا الأرض ولن يرثوا الجنة.

العزيز، هو الذي لا يُغلب ولا يُقهر فالغلبة له لا عليه، {ذق إنك أنت العزيز الكريم}[961] قال الزجاج: "نزلت في أبي جهل حيث كان يقول: أنا أعز أهل الوادي وأمنعهم، فذق هذا العذاب إنك أنت القائل أنا العزيز الكريم"[962]. وفي هذا المعنى لو لم تكن يا أبا جهل ذليلا ما ذُقتَ العذاب، ولو كنت عزيزا لكنت من المؤمنين الذين لهم العزة. الذين ورثوا الأرض واستخلفوا فيها وسيرثون الجنة مع الوارثين.

يقول الإمام ابن القيم الجوزية: العزة يراد بها ثلاثة معانٍ:

---

[959] الحج ٤٠، ٤١.

[960] المائدة، ٥٤.

[961] الدخان ٤٩.

[962] لسان العرب المحيط، الجزء الثاني، ص ٧٦٥.

"عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر، والرب تبارك وتعالى له العزة التامة بالاعتبارات الثلاثة، ويقال من الأول: عزَّ يعَزُّ . بفتح العين . في المستقبل. ومن الثاني: عزَّ يعِزُّ . بكسرها . ومن الثالث: عزَّ يعُزُّ . بضمها . أعطوا أقوى الحركات لأقوى المعاني، وأخفها لأخفها، وأوسطها لأوسطها. وهذه العزة مستلزمة للوحدانية إذ الشركة تنقص العزة، ومستلزمة لصفات الكمال، لأن الشركة تنافي كمال العزة، ومستلزمة لنفي أضدادها، ومستلزمة لنفي مماثلة غيرها له في شيء منها"[٩٦٣] بدون شك فإن العزة الكاملة لله تعالى، ولذا فهو مصدر لكل عزة، منه تُستمد، ومنه تُعطى، مصداقا لقوله تعالى: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

"وقد جمع الشيخ ابن القيم معان هذا الاسم الكريم في النونية وأشار إلى المراد منه في ثلاثة أمور فالأول: عزة الامتناع، وذلك بمفهوم قوله: {فلن يرام جنابه) والثاني: عزة القهر والغلبة، والثالث: عزة القوة والقدرة على الأشياء، وجمعها في النونية فقال:

وهو العزيزُ فلن يُرام جنابه ... أنَّى يُرام جنابُ ذي السلطانِ

وهو العزيزُ القاهر الغلابُ لم ... يغلبه شيءُ هذه صفتانِ

وهو العزيزُ بقوةٍ هي وصفهُ ... فالعزُّ حينئذٍ ثلاثُ معانِ

وهي التي كمُلت له سبحانُه ... من كل وجهٍ عادم النقصانِ"[٩٦٤]

وفي اسم العزيز تعالى يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "العزيز اسم من أسماء الله الحسنى، ويعني الغالب الذي لا يُهزم، وهو اسم يضم في ثناياه العديد من الصفات"[٩٦٥] فهو الذي يحتوي صفات الكمال والجمال مصداقا لقوله تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون}[٩٦٦].

---

[٩٦٣] مدارج السالكين. ج ٣، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

[٩٦٤] مشرف بن على الغامدي، منهج الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ، ص ٢٩٠.

[٩٦٥] محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة ، مكتبة الشعراوي الإسلامية، ص ١٧٣.

[٩٦٦] الحشر ٢٣.

كل صفة تسبق أختها تحتويها وتمدها بصفات منها، ولذا فصفة العزيز متضمنة في صفة المهيمن التي تمد صفة العزيز بصفة الهيمنة مما يجعل صفة العزيز محتوية لكل الصفات الآتية من بعدها، وفاتحة أمامها أبواب المدد بالصفات الحسان التي تحتويها من اسم الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وهي الأسماء الحاملة للصفات السابقة عليها، وهذا الأمر هو الذي يجعل كل صفة من صفات الله تعالى تحتوي جميع صفاته الأخرى. ولذا فإن العزيز الأعظم هو الله جل جلاله.

وخاطب الله الناس بقوَّتِهِ وعزَّتِهِ ليُبيِّنَ لهم أنه القوي العزيز، ولا قوي وعزيز بالمطلق غيره فقال تعالى: {يا أيها الناس ضُرِب مثلُ فاستمعوا له إنَّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذُبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضَعُفَ الطَّالِب والمطلُوب ما قدَّروا الله حق قدره إنَّ الله لقوي عزيز}[٩٦٧] فالقوي العزيز هو الذي لم يكن ضعيفا وهو القادر على كل فعل، فإذا أراد أمرا يقول له كن فيكون فالأمر عليه يسير، إنَّه المالك للقوة والعزة، والمؤمن هو المُدرك الذي لا يعبد ضعيفا، فالأصنام لا تسمع ولا تجيب الدعاء إن داعٍ دعاها، وهي ضعيفة معرضة للزوال، ولهذا لا يعتقد في الضعيف إلا ضعيفا، ولا يعتقد في القوي إلا قويا.

فالأصنام والأزلام وكذلك البشر هم بدون عزة من الله لا يستطيعون فعل شيء حتى وإن اجتمعوا، ومن يقل غير ذلك فليجمع همته بهممهم وعزته بعزتهم ليصنعوا لنا ذبابة واحدة فقط، ضعف الطالب والمطلوب. وحتى وإن اجتمعوا لذلك فلا يستطيعون فهم لن يصنعوا إلا بسلطان من عند القوي العزيز. إنهم الأحياء الذين لم ولن يصنعوا حيا واحدا ولو اجتمعوا، إنَّ هذا الأمر بيد الله وحده لا شريك له، ولذا فإن صنعوا شاركوا، ولأن الله واحد أحد لا شريك له، إذن لن يصنعوا كائنا حيا ولوا اجتمعوا له.

---

[٩٦٧] الحج ٧٤.

وبما أن الله هو القوي العزيز الذي قال: {إني جاعل في الأرض خليفة}[٩٦٨]. إذن الخليفة قوي عزيز بالإضافة، ولذا فالمستخلف من الشيء يستمد صفاته من صفات مستخلفه. والصفات قوة تربط الصفة بالموصوف كما تربط الخليفة بمستخلفه. فالله القوي العزيز استخلف الإنسان في الأرض لا ليقوم مقامه، بل ليقوم بدوره من أجل نفسه، وأجل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات دم ومصاهرة ومحبة وألفة وعلاقات جيرة ووطن وعقيدة وعلاقات ضمير، ليكون خليفة مُصلحا في الأرض. ومن يفسد فيها من بني الإنسان يعد مخلا بشروط استخلافه فيها، مصداقا لقوله تعالى: {يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق}[٩٦٩] لقد خلف داود من سبقه من الأنبياء والصالحين وملَّكهُ الله من مُلكه ليحكم بالحق. والحكم بالحق، هو: الحكم بالبينة، أي بالدليل الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه، ولا ميل وانحياز، والحكم بالحق الحكم بما أمر الله تعالى، لا بالمزاج والعاطفة الشخصانية، بل بالعدل الحق. ومن يحكم بما أنزل الله لا يمكن أن يكون مثل أولئك المفسدين في الأرض، فأولئك لن يكونوا الخلائف فيها مصداقا لقوله تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار}[٩٧٠] لا يمكن المساواة فالمصلحون في الأرض لا يتساوون مع الذين يفسدون فيها، وهكذا لا يمكن مساواة المتقين الذين آمنوا بالله ورسوله مع أولئك الكفرة الفجرة. المساواة في هذه الحالة ظلم كبير، لا يرتضيه الله ولا يرتضيه العباد، {تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم}[٩٧١] وقوله تعالى: {ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون}[٩٧٢] وقوله تعالى: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك

---

[٩٦٨] البقرة ٣٠.

[٩٦٩] ص ٢٦.

[٩٧٠] ص ٢٩.

[٩٧١] البقرة ١٣٤.

[٩٧٢] آل عمران ٢٥.

بظلام للعبيد}[973] وقوله عز وجل: {من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون}[974].

إذن الحكم بالعدل لا يعني المساواة، فالحكم بالعدل هو إحقاق الحق هوَّ كما هوَّ دون ميل، ولهذا لا للمساواة بالمطلق {ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدرُ على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو يُنفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون وضرب الله مثلا رجلين أحداهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأتي بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم}[975] العدل يستوجب معرفة سابقة على إصدار الحكم، ولذلك فمن يحكم بما لم ينزل الله فقد ضلَّ، وفي ذلك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}[976] وقوله تعالى: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون}[977] وقال عز وجل: {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون}[978] ولأن العدل يستوجب معرفة قبل إصدار الأحكام، لذا فقد بعث الله الرسل والأنبياء برسالات منه، فمن يتبعها لن يضل ولا يكفر ولا يظلم ولا يفسق، إنها الرسالات المنزَّلة (المنزَّهة) التي لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد}[979] فالذي لا يأتيه الباطل هو الحق، كلام الله عز وجل الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الكتاب المحفوظ الذي احتوى في مضامينه ومعانيه ونصوصه ما سبقه من كتب ورسالات ونبوءات.

إنَّ الملوك والسلاطين والحكام بجميع نُظمهم المتعددة هم ضُعفاء إن لم يحكموا بما أنزل الله تعالى، فالحكم القوي يستمد قوته من القوي إذا أراد أن يحكم بالعدل، والحكم الضعيف لا

---

[973] فصلت ٤٦.

[974] . الروم ٤٤.

[975] النحل ٧٥، ٧٦.

[976] المائدة ٤٤.

[977] المائدة ٤٥.

[978] المائدة ٤٧.

[979] فصلت ٤٢.

يُستمد إلا من ضعيفٍ، ولذا فمن يستعن بالله لا يُغلب ولا يُهزم. قال تعالى: {لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورَسُلَهُ بالغيب إنَّ الله قوي عزيز}[٩٨٠].

وفي ذلك قال الشيخ محمد متولي الشعراوي: "وإذا كانت العزة تعني القوة والغلبة فإن ذلك لا يعني أن عزة قوته تبارك وتعالى مبنية على الظلم، أو أن عزة غلبته مبنية على القهر؛ لأنه جل وعلا منزه عن الظلم ومنزه عن القهر ولذلك أشار عز وجل إلى أن عزته موصوفة بالعلم"[٩٨١] فقال تعالى: {إنَّ ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم}[٩٨٢].

هكذا من يريد أن يكون حاكما عادلا فليخف الله، فبمخافته لله لا يخاف ولا يخشى أحداً في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإذا كان كذلك ينال العزة من الله ومن العباد، ولذا فالناس لا تخاف ممن يخاف الله، الناس تخاف من الذين لا يخافون الله، فالذي يخاف الله يُخافَ منه لا يُخافَ عليه. الذي يخاف الله لا يوجد في قاموسه السياسي مفردات القهر والظلم وأكل أموال الناس بالباطل، ولهذا يخاف عليه من الظالمين والمنافقين والمزورين للحقائق. أمَّا المؤمنون فهم الذين بالعدل يسعدون وهم الذين لا تستوي عندهم الحسنة والسيئة، وهم الذين لا يفسدون في الأرض التي ارتضاها لهم الله ليكونوا فيها خلائف ويرثوها ليصلحوها ويعيشوا أعزاء حتى يرثوا الجنة من بعدها بما يعملون من إصلاح في القول والفعل.

قال الصلابي في اسم الله العزيز: "العزيز الذي له العزة كلها، عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته"[٩٨٣]. في هذا التعريف ربط الدكتور الصلابي العزة بالقوة والغلبة والامتناع،

---

[٩٨٠] الحديد ٢٥.

[٩٨١] محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى، مرجع سابق، ص ١٧٥.

[٩٨٢] النمل ٧٨.

[٩٨٣] محمد على الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين. بيروت ، دار المعرفة الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص ١٨٨.

وهذا التعريف يدلُّ على أن أسماء الله الحسنى صفات جامعه مانعة، جامعة لكل المحاسن، ومانعة لغيرها من الصفات غير الحسان.

وقال الزجاج: "العزيز الممتنع فلا يغلبه شيء"[٩٨٤]

نعم إن العزة لله وللرسول وللمؤمنين، ونعم إن العزة قوة بها يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}[٩٨٥].

إنَّ الذي يطب العزة من الذليل لن يجدها، فإن أرادها فعليه بالمُذل الذي بيده العزة والقوة وبيده الخير وهو القادر على كل شيء.

وعليه فالذليل ضعيف يَخاف ولا يُخيف، يحتاج ولا يحتاج إليه، يأخذ ولا يعطي، يؤمر ولا يأمر، يجوع ويتألم مثلما يفرح يغضب، فهذا ومن يكون على شاكلته إن أُستحكمَ ليحكم بين الناس لن يحكم بالعدل، وذلك لفقدانه لصفات العزة والقوة والهيمنة والعلم والمُلك والإيمان والبقاء. إنه الزائل والزائل دائما يخاف من الزوال، ولذا فالفرق بينه وبين المؤمن: إن المؤمن يؤمن بأنه زائل باقٍ، زائل من الدار الدنيا، وباقٍ في الدار الحيوان، ولهذا يعد زواله من الدار الدنيا إيذانا بالبقاء الدائم الذي كان طوال حياته في انتظاره، أمَّا غير المؤمن فهو لا يرى بعد الممات بقاء هانئا.

ومن يؤمن بأن الموت إيذانا بالبقاء الدائم يؤمن بأن الحياة حياة عبور، ولهذا لا يَقدِم على الأفعال والأعمال التي قد تحرمه من دخول الحياة الباقية بأوصاف الجنة. أي أنه يخاف، والخوف هنا نتاج قوة لا نتاج ضعف، إنه يخاف الله فيتقيه فيزداد إيمانا وعزة وقوة، ولذا فمثل هذا الخوف هو الخوف المُمكِّن من إزالة الضعف والمُمكِّن من امتلاك القوة. إنه خوف الخشية، الخشية مما يترتب على الضعف والطمع، كما حدث مع أبينا آدم {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين

[٩٨٤] . مجدي منصور الشورى القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى.القاهرة ، مكتبة العلم ١٩٩٩ ، ص ٤٠٤.

[٩٨٥] آل عمران ٢٦.

فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدُّو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين}[٩٨٦] من يضعف يطمع ومن يطمع لا ينتهي عما يُنهى عنه، ومن يفعل ذلك يقع في الخطيئة.

إنَّ الطامعين في غير وجه الله تعالى هم الذين لا عزة لهم، ولذا فمن يطمع في حاكمٍ تحكمه الغرائز فليقبل بقانون البيع والشراء والمساومة حتى يرضى أو يُغضب عليه فيضطر إلى التنازل الذي لا يحمد عقباه في معظم الأحيان.

كن قويا باستمدادك القوة من القوي الحق، قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير"[٩٨٧] وكن عزيزا باستمدادك العزة منه، وكن عادلا باستمدادك العدل منه، فإن كنت هكذا كنت من المستخلفين في الأرض، وإن لم تكن فليس لك من الاستخلاف من نصيب.

العزيز هو الذي يود أن يكون عباده أعزاء، ولن يكونوا أعزاء ما لم يستمدوا العزة منه، ولأنه العزيز الحكيم فهو لن يستخلف في الأرض إلا الأعزاء، الذين بعزته يُستخلفون، وبعزته يرثون الأرض ويصلحون فيها القول والعمل.

ولذا فإن العزيز يُطاع والذليل لا يُطاع، فمن يَتَّبع عزيزا يُعز، ومن يَتَّبع ذليلا يُذل، ولأن العزيز هو الله تعالى، فالذين أمنوا هم الأعزاء، والذين كفروا هم الأذلاء، والأعزاء هم الذين يعتصمون بالله حتى يهتدون إلى الحق {ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم}[٩٨٨] ولا يهتدي إلى صراط مستقيم إلا حكيم. ولهذا فإن الله هو العزيز الحكيم الذي بعزته وحكمته جعل المؤمنين أعزاء في الأرض وحكماء فيها. فالعزيز الحكيم هو القوي المتين الذي بيده الأسرار جميعا، أسرار الخلق وأسرار الحياة والممات وأسرار استخلاف البعض في الأرض وعدم استخلاف البعض الأخر فيها، وأسرا الجنة والنار ولأننا من المؤمنين فإننا نعلم بعضاً

---

[٩٨٦] البقرة ٣٥ ،٣٦.

[٩٨٧] مجدي منصور القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص٤٠٦.

[٩٨٨] آل عمران ١٠١.

منها علما من عند الله تعالى ولهذا قال عز وجل {وما أتيتم من العلم إلا قليلا}[٩٨٩] وهذه حكمة من عند العزيز الحكيم وإلا لماذا لم نؤت من العلم كثيرا؟ وقال تعالى لنبيه الأعز صلى الله عليه وسلم: {وقل ربِّ زدني علما}[٩٩٠] وهذه حكمة أخرى فالله يمدنا بعلم من علمه على قدر عقولنا، فعقولنا والحالة التي هي عليها لا تسع علمه الواسع فقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا متناهية (لها بداية ونهاية) وعلم الله ليس كذلك فهو العلم التام الأزلي، ولهذا لا نعلم إلا بمقدار وفي هذه حكمة.

العزيز الحكيم المتصرف فينا وفي أمرنا وفيما يتعلق بنا من أمور وعلاقات مع الآخرين، ولذا فالحكمة من العزيز توهب وتؤخذ، توهب منه فهو الذي يؤتي الحكم بحكمته لمن يشاء وينزعها متى ما يشاء ممن يشاء، وتؤخذ بالإيمان والتقرب منه وإليه. ولذا فمن الحكمة الحُسن في التصرف، والأخذ بزمام الأمور وإدارتها بمعرفة وعلم ويقين، وإدراكها وإدراك عواقبها وفقا لقاعدة ما يجب والإقدام عليه، وما لا يجب والإحجام عنه.

العزيز الحكيم هو الله الواحد الأحد، ولذا لم يكن العزيز الحكيم اثنين بل أنه الواحد الأحد فالعزيز هو الحكيم لا آخر غيره، ولهذا فإن الله تعالى واحد وصفاته تتعدد سبحانه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

إن ارتباط اسم العزيز بالحكيم هو ارتبط الذات العلية بالصفات العلية، ولذا فإن العزة في ذاته والحكمة في أفعاله وهو الواحد الأحد الذي ليس له شريك ولا والد ولا ولد، هو الأول والأخر وهو على كل شيء قدير.

والحكيم: "الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسنًا في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان المنهي عنه قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقا، وإذا فعل فعلا كان صوابا، وإذا أراد شيئا كان أولى بالإرادة من غيره"[٩٩١].

---

[٩٨٩] الإسراء ٨٥.

[٩٩٠] طه ١١٤.

[٩٩١] مجدي منصور الشورى القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة ، مكتبة العلم ١٩٩٩، ص ٤٠٨.

ولذا فالعزيز هو الرحيم الذي بيده أمر البداية والنهاية وما بينهما وما فيهما من حكمة، وهو الذي بعزته ينجي من يشاء كما نجَّى نوح ويونس وموسى ومن معهم من المؤمنين، وبعزته يذل أو يغرق من يشاء كما أغرق الكفرة الذين نصبوا العداء لموسى عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إنَّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإنَّ ربك لهو العزيز الرحيم}[٩٩٢].

فالرحيم هو الذي برحمته نجَّى موسى ومن معه من المؤمنين وبها أغرق الآخرين جند فرعون الكفرة فجاءت الرحمة مرتين: الأولى بنجاة موسى ومن معه من المؤمنين. والثانية غرق الكافرين في البحر هو الآخر كان رحمة من الرحمن الرحيم، أي أن إغراقهم في البحر أطمأنت به قلوب المؤمنين. وقوله تعالى: (إن في ذلك لآية) تعني أن في ذلك حكمة يعلمها العزيز الرحيم، والآية هي دليل إثبات وشاهد على الفعل والقدرة، ولأنها آية فهي باقية وستظل هكذا باقية بين أيدي المؤمنين حكمة إلى النهاية.

ومع أن العزة واحدة إلا أنها ثنائية المعنى كما ورد في الآيات السابقة:

المعنى الأول: نجاة موسى والمؤمنين الذين معه من الغرق عزَّزت مواقفهم الإيمانية وزادتهم قوة، وفي هذا الأمر العزة بالنجاة قوة.

المعنى الثاني: غرق من كان مع فرعون أضعف موقف فرعون وجنده وهذا عزُ لموسى عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين، أي أن العزة بالغرق ضعف لمن كفر وقوة لمن آمن.

وهذه الآيات بهذه القوة تُرسِّخُ قول الحق تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) بدون شك فالعزة بهذا المعني ترسّخت ثلاث مرات في وقت واحد:

في الأولى: إنَّ العزة لله فلا تُستمد إلا من العزيز جل جلاله، فلو لم يكن هو العزيز ما كانت العزة.

---

[٩٩٢] الشعراء ٦٣ . ٦٨.

في الثانية: عزة الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}[٩٩٣] فقوله (إن معي ربي سيهدين) إنَّ معي العزيز سيعزنا بتعزيز مواقفي، من خلال إرشادي إلى سبل النجاة، وهذه العزة هي التي غرست الثقة في نفس موسى حيث قال وهو واثقا لما يقول: (إنَّ معي ربي سيهدين) ولذا لم يصاحبه شك في ذلك. {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}[٩٩٤] عصا موسى فيها العزة والقوة، ولذا فهي الآية التي بها فلق موسى البحر ونُجى من فرعون وجنوده ومن الغرق.

وفي الثالثة: كانت العزة للمؤمنين دون غيرهم فهم الذين نجوا والكافرون هم الذين غرقوا وهم في هذا الحال (المؤمنين والكافرين) كحال الذين نجوا مع نوح عليه الصلاة والسلام والذين لم ينجوا معه {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}[٩٩٥].

وبما أن العزة لله وللرسول وللمؤمنين إذن المؤمنون هم المستمدون للعزة، وهم الذين يراد لهم العيش بها، ولذا فمن يعز نفسه يعزه الله، ومن يذلها يذله الله، ومن يضعفها يضعفه الله ومن يقوّها يقوّه الله، ولهذا فالعلاقة مباشر بين الله العزيز وبين المؤمن بالعزيز الحق.

العزيز بالإضافة هو الذي يستمد صفاته من العزيز الحق، ولذا فمن يعش عزيزا يصبح قوله الحق، وأفعاله وأعماله الحق، يقوله ويشهده، ويشهد عليه ويؤمن به، وفقا للقاعدة: لا يخلف الحق إلا الحق ولا يقول الحق إلا مُحق. ولأن الله تعالى جاعل في الأرض خليفة والله هو

---

[٩٩٣] الشعراء ٦١ . ٦٧.

[٩٩٤] الشعراء ٦٣.

[٩٩٥] هود ٤١ . ٤٣.

العزيز الحق، إذن لا يستخلف الله أحدا لم يكن عزيزا مؤمنا بالحق وشاهدا به، وعامل عليه. أما أولئك الذين ظلموا أنفسهم خسروا الخلافة بخسرانهم للعزة في الدارين فلم يكونوا من المستخلفين في الأرض، ولن يستخلفوا في الدار الآخرة. إنهم أصحاب النار.

العزيز هو الذي يحتوي في مضمونه صفات الكمال، فهو بالوحدانية عزيز، وبِمُلكه وقداسته عزيز، وبسلامه وإيمانه عزيز، وبهيمنته وكيده للكائدين عزيز، وبانتقامه من المشركين عزيزا، وبجميع صفاته عزيزا. ولأن الله العزيز هو مصدر كل عزة قال: {من يريد العزة فلله العزة جميعا}[٩٩٦] فمن يلتجئ إلى الله لن يخيب له مطلبا.

العزيز هو الله تعالى، وصفته العزة التي بها يناصر من يلتجئ إليه، فمن يمده العزيز بالعزة مده بالنصر، ولذا فمن يعتز بغير الله ذل (فلله العزة جميعا) ولأن جميع العزة له إذن لا عزة لغيره من غيره.

فالذين كفروا هم الذين يشركوا مع الله إله آخر، وهم المشركون في مقابل الذين آمنوا ولا يشركون به أبدا حتى خصَّهم بعزته كما خصَّ بها ذاته وأخصَّ رسوله بها. ولهذا فبالإرادة يتم نيل العزة لا بالمغالبة، بالإيمان والهداية وحسن التدبُّر لا بالإكراه والإذلال والإجبار.

وبناء على ذلك فإن للعزيز بالإضافة صفات عديدة تتعدد مع صفات العزيز المطلق ولا تساويها، تتعدد بتعددها لأنها المستمدة منها، ولا تساويها لأن المستمد من الشيء لم يكن ولن يكون بالتمام هو الشيء ذاته، وكلما تصدَّرت صفة من صفات الله تعالى بالظهور كانت محاطة ببقية الصفات الأخرى التي تحتويها. فظهور صفة العزيز أو إظهارها يدل على وجود قوة دافعة من الصفات الأخرى الكائنة وراءها.

والعبد المؤمن هو العبد العزيز الذي استخلفه الله تعالى في الأرض ليمارس حقوقه فيها بإرادة ويؤدي واجباته بإرادة ويحمّل مسؤولياته بكل حرية، يخاف الله ولا يخاف غيره في قول الحق والشهادة به، وعمل الخير والاعتزاز به. ولأنه خليفة الله في الأرض فهو المطيع لأمر من استخلفه بالعزة فيها، والاستخلاف بالعزة يتعلق بأمرين:

---

[٩٩٦] فاطر ١٠.

الأمر الأول: أن يعيش عزيزا في نفسه ومع الآخرين، والعزة هنا ليس التكبّر الذي في كثير من الأحيان يتجسد في سلوك بعض المنقوصين الذين يتظاهرون به تعويضا عما ألم بهم من نقص. بل العزة في التواضع الذي به ينال الخليفة الهيبة دون الغرور، وينال التقدير دون التقليل.

الأمر الثاني: أن تكون علاقاته مبنية على غرس قيمة العزة مع من يتولى أمرهم بالرعاية والعناية سواء أفراد أسرته أو الذين يتعلَّم معهم أو يُعلِّمهم أو يشرف على تعليمهم أو أنه المسؤول عليهم وظيفيا أو أخلاقيا في ميادين العمل والحياة الاجتماعية والإنسانية. ومن يعيش الحياة عزيزة لا يغتر، فإن أغتر فقد العزة بغروره. وذلك لسببين:

السبب الأول: يفقد رضاء الله عليه حتى تنقطع صلته به.

السبب الثاني: يفقد احترام الآخرين له وقد يفقد كثيرا من علاقاته الاجتماعية والإنسانية، حتى يصبح منعوتا بصفات تقليل الشأن قال تعالى: {بل الذين كفروا في عزة وشقاق}[٩٩٧]

وفي مقابل ذلك من يعتز بالعزيز جل جلاله يجد العزة فيه، في نفسه وفي دينه الذي ارتضى، وفي كَلِمه وأعماله، وفي رضاء الآخرين عنه، حتى يصبح قدوة حسنة يقتدي بها من يريد أو يراد له أن يكون خليفة في الأرض. قال تعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يُحب الفساد وإذا قيل له أتقِ الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد}[٩٩٨].

يقال إن هذه الآية الكريمة نزلت في الأخنس بن شريق، واسمه أبي، والأخنس لقب لقِّب به، "لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة من حلفاءه من بني زُهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء بعد ذلك إلى النبي فأظهر الإسلام، وبعدها مر بزرع لقوم من المسلمين وبحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر"[٩٩٩]. فالأخنس ومن هم على شاكلته أكثر الناس عداوة للرسول

---

[٩٩٧] ص ٢.

[٩٩٨] البقرة ٢٠٤ . ٢٠٦.

[٩٩٩] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث، ص ١٤.

والمؤمنين، وهذا يدل إثباتا على أنهم أعداء لمن تجسدت فيهم صفة العزيز جلا جلاله، {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين). ولأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولذا فإن العزيز لا يستخلف إلا عزيزا، ولفقدان الأخنس ومن كان معه ومن يتبع خطاه لصفة العزيز، فإنهم فقدوا صفات الاستخلاف التي يجب أن يكونوا عليها في الأرض. ولأن الله تعالى هو العزيز قال: (إني جاعل في الأرض خليفة) والخلفاء هم الذين يستمدون صفاتهم من صفات خالقهم جل جلاله. ولأن في الآخرة جنة ونار، والدخول إليهما بالأعمال، فإن الدار الدنيا بطبيعة الحال هي الدار التي فيها تكون الأعمال خيِّرةً أو شريرةً، حتى تتاظر معطيات الدخول للجنة أو الدخول إلى النار عفانا الله وإياكم من دخولها وأعطانا الله الفوز بالجنة.

فالذين إذا قيل لهم اتقوا الله أخذتهم العزة بالإثم تكبرا بما يظنون أنهم لن يكونوا في حاجة لأحد لما يمتلكونه من ثروة أو مال، فهم الواهمون حقا، فالله هو الغني وهم الفقراء. فـ(أخذته العزة بالإثم) تعني أخذته حمية الجاهلية، وشدة النفس التي أوقعته في الخطيئة، حين قيل له اتقي الله فلم يقف عند اتقائه ومخافته، فعصى، ولذا فالعزة على المعصية إصرار على التمادي فيها، ولأن المعصية في مقابل الطاعة، فهل يُعتقد أو يُعقل أن يجعل الله خليفة له في الأرض عاصيا لأمره وغير مؤمن به، ولا يعتز إلا بما يعصي أمر الطاعة له سبحانه وتعالى العزيز الحكيم.

ارتبط مفهوم العزيز بصفات أخرى منها:

الحكيم: {يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم}[١٠٠٠].

الرحيم: {وإنَّ ربَّك لهو العزيز الرحيم}[١٠٠١].

العليم: {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم}[١٠٠٢].

الغفَّار: {ربُّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفَّار}[١٠٠٣].

[١٠٠٠] النمل ٩.

[١٠٠١] الشعراء ٩.

[١٠٠٢] غافر ١ ٢.

[١٠٠٣] ص ٦٦.

الكريم: {ذق إنك أنت العزيز الكريم}[1004]

الحميد: {لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد}[1005].

الغفور: {إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور}[1006].

الوهاب: {أم عندهم خزائن ربك العزيز الوهاب}[1007].

القوي: {الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز}[1008].

المقتدر: {كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر}[1009].

كما ربط اسمه تعالى العزيز بكل من الأسماء الآتية: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عمَّا يشركون}[1010].

ويقول أ حمد عبد الجواد: حظ العبد من اسم ربه العزيز جل جلاله: "أنَّ ذاكره يُعزه الله بعزته وقوته وسلطانه ويكون مهابا عند الناس"[1011].

وعليه فالعزة قوة تستمد من القوي العزيز، حتى تتجسد في القول الحق والعمل الحق، وفي العزة الحكمة والاقتدار على أفعال الخير، وبها يُحمد الله على كل خير وبها ينال العبد المغفرة من العزيز الغفور، فمن يعيش عزيزا بين الناس يعيش كريما بينهم.

قال ابن الأثير: "العزة، في الأصل القوة والشدة والغلبة. وقال الصديقي: العزيز الغالب الذي لا يُغلب"[1012].

[1004] الدخان ٤٩.

[1005] إبراهيم ١.

[1006] فاطر ٣٥.

[1007] ص ٣٨.

[1008] الشورى ١٩.

[1009] القمر ٤٢.

[1010] الحشر ٢٣.

[1011] أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ص ٤٥.

[1012] محمد حسين شرح أسماء الله الحسنى. الإسكندرية ، المدائن للنشر والتوزيع ١٩٩٦ ، ص ٢٨.

العزيز هو من تستمد منه الشدة والصلابة والصرامة التي تحقق الغلبة والفوز بما يُمكِّن من الاستخلاف في الأرض بثبات على الإصلاح والعمار والإحسان ومد يد العون لمن هم في حاجة.

وللعزة ثلاثة أبعاد مصداقا لقوله تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

أولا: البعد الإلهي (لله العزة) أي أنَّ الوحدانية هي مكمن العزة.

ثانيا: البعد الاصطفائي (للرسول العزة) إصطِفاء الله للرسول عزة له، والرسالة تعزيز بما يُمكِّن من الاستخلاف وفقا لأفعال ما يجب. {من يطيع الرسول فقد أطاع الله}[١٠١٣] طاعة الرسول فيما يقول وبما أتي به من رسالة فيه عزة للرسالة وللرسول وعزة لله تعالى، وعزة لمن أعزَّ الرسول بإيمانه. ومن أعز رسول الله قد أعزَّ الإسلام، ومن أعزَّ الإسلام فقد أعزَّ الله تعالى.

ثالثا: البعد الإيماني. (للمؤمنين العزة) إيمان الخليفة بالواحد الأحد وإيمانه بما يجب والعمل به أو العمل عليه هو المحقق للخليفة العزة. {أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[١٠١٤]. الطاعة تأخذ الأوجه الثلاثة التالية:

أولا: طاعة الله وحده لا شريك له.

ثانيا: طاعة الرسول الذي من يطيعه يطيع الله تعالى.

ثالثا: طاعة أولي الأمر منكم، قال تعالى: (أولي الأمر منكم) ولم يقل (أولي أمركم) فأولي أمركم هم: الوالدين والأخوة والأقارب ومن يتولى أمر الرعاية والتربية الصالحة. أمَّا أولي الأمر منكم، فهم: الذين يتم اختيارهم طواعية بعد معرفة تامة، ويكلفون بإدارة شؤون الأفراد والجماعات أو المجتمع بكامله، وفي هذه الدائرة يدخل الحكَّام المنتخبون أو المختارون أو المصعدون لفترة معينة لتنفيذ ما يتعلق بالأمر. أمر المواطنين سواء فيما يتعلق بالسياسة الداخلية أو الخارجية أو في أمر السلم أو الحرب، أو في أمر الأمن والعدل والإنتاج وميادين

[١٠١٣] النساء ٨٠.

[١٠١٤] النساء ٥٩.

العمل المتعددة. وهذه ضرورة مما يجعل الطاعة لهم طاعة للأمر الذي هو من عند الناس. ولهذا تصبح الطاعة لهم عندما يقوموا بتنفيذ الأمر ولا طاعة لهم إذا تخاذلوا أو ولُّوا عن تنفيذه. وطاعة أولي الأمر ليس غاية في ذاتها، بل الغاية طاعة للأمر الذي هوَّ منهم. وبالمنطق من ولاَّك على أمره بإرادة يطيعك فيه حرصا منه على التزامك بالأمر وحفاظك عليه وعدم حيادك عنه.

وعليه فإن البعد الأول بعد الوحدانية بالعزة المطلقة، والبعدين الثاني والثالث هما بُعدا الاستخلاف بالعزة.

العزيز هو رفيع المقام المُبصر لكل شيء العالم بالأحوال والأقوال والأفعال لا باطن مخفي عليه، ولا ظاهر إلا بإذنه، انه العليم الحكيم الذي ليس في حاجة لشيء وكل شيء في حاجة إليه. ومن علامات عزته:

١ . إنه لا يضعف بالمطلق.

٢ . إذا قصدته بالدعاء أتتك منه الاستجابة.

٣ . يُدرَك هوَّ كما هوَّ في ثبات ذاته العلية.

٤ . أنه يرانا ولا نراه.

٥ . أنه لا يماثله شيء.

٦ . يعطي ولا يَطلب ولا يَأخذ.

٧ . يأمر ولا يُؤمر.

٨ . يُحيي ويُميت وهو الحي الذي لا يموت.

٩ . علمه بالغيب والشهادة.

١٠ . واحد احد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

١١ . يُعبد ولا يُستعبد.

١٢ . مصدر مُطلق لكل الصفات الحسان.

١٣ . يَخلِق ولا يُخلَق.

١٤ . حي قيوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم.

١٥ . سعة كرسيه للسماوات والأرض.

١٦ . يرزق من يشاء بغير حساب.

١٧ . يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير.

١٨ . واحد أحد لا يتعدد وصفاته تتعدد.

١٩ . يحاسب ويجازي كل أحدٍ وهو ليس في حاجة لأحد، ولا يحاسبه أحد.

٢٠ . يعزُ من يشاء ويذل من يشاء متى ما يشاء وكيفما يشاء.

٢١ . لم يكن له شريك في المُلك ولا ولي من الذل.

٢٢ . كل شيء يسبح بحمده.

٢٣ . إنه جعل في الأرض خليفة.

٢٤ . إنه على كل شيء قدير.

قال تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون) المنافقون لا يعلمون تعني: لو يعلمون أنَّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين لآمنوا، أي أنهم لا يعلموا أن العزة في الإيمان، فالذين آمنوا هم الذين تيقَّنوا عن معرفة تامة أن العزة في الإيمان فآمنوا فنالوا العزة حتى أصبحوا هم الأعزاء.

وكلمة يعلمون لا تعني البلاغ بالعزة ومصدرها أو الإبلاغ عنها، بل تعني التبيُّن عن وعي والتيقُّن الذي لا يشوبه ظن وعلم يُعرف وأدرك بإرادة حرة. والمنافقون هم الذين يقولون مالا يفعلون، فإن صُدِّقوا كذبوا، وإن عاهدوا خانوا وولوا أو أدبروا.

ولأن العزة بيد العزيز الحق، فمن اعتز بغيره ذل. وحال السحرة الذين آجرهم فرعون ليس بالبعيد فكل شيء في الكتاب محفوظ، {وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون}[١٠١٥]. ولأنهم اقسموا بما لم يكن هو الحق، فخسروا الرهان فإذا بعصا موسى عليه الصلاة والسلام تلقف ما يأفكون بقوة العزيز ربُّ موسى وهارون ربُّ العالمين. لو كانت العزة بما قسموا لكانت الغلبة

[١٠١٥] الشعراء ٤٤.

لهم، ولأنهم يعرفوا أنفسهم أنهم سحرة، وأن ما كانوا يعتقدون فيه لم يعد في مستوى الاعتقاد به، مصداقا لقوله تعالى: {ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون}[١٠١٦] فالذي بيده العزة هو الذي أعز موسى بقوته التي بها بطل عمل المفسدين، وبها حق الحق وزُهِق الباطل والحمد لله ربِّ العالمين الذي حوَّل اعتزاز السحرة من الاعتزاز بفرعون إلى الاعتزاز بالله تعالى، فعندما قال لهم فرعون كما جاء في الكتاب الحكيم: {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}[١٠١٧]. فقالوا بإيمانهم: {لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}[١٠١٨].

العزة مناصرة تحقق الغلبة وإزهاق الباطل، فمن يؤمن بالله تعالى يناصره في دينه، ومن يناصر الله ينصره، ومن يعز الله في دينه الذي أرتضى يعزه خليفة له في الأرض وخليفة له في الجنة {ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لقوي عزيز}[١٠١٩].

ربُّ العزة هو الذي لا يوصف إلا بها ومن يصفه بغيرها فلن يصف الله العزيز في شيء، مما يجعل الأمر لا علاقة له به. فالله هو الذي (لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون).

قال تعالى: {سبحان ربُّك ربُّ العزة عمَّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين}[١٠٢٠] الصفة المطلقة لله تعالى هي العزة، ولذا لا ينبغي أن يوصف إلا بها، والرُسُل صلوات الله وسلامه عليهم جميعا يعرفون هذه الحقيقة والخاصية الإلهية، حتى خصَّهم الله بها ومن بعدهم المؤمنين الذين استجابوا لدعواتهم الإيمانية بتوحيد الله تعالى. فالحمد لله ربِّ العالمين الذي خصَّ الحامدين والشاكرين له بالاستخلاف والعزة.

[١٠١٦] يونس ٨١ ، ٨٢.

[١٠١٧] الشعراء ٤٩.

[١٠١٨] الشعراء ٥١، ٥٢.

[١٠١٩] الحج ٤٠.

[١٠٢٠] الصافات ١٨٠ . ١٨٢.

العزيز هو العزيز بالمطلق، وكل ما غيره ذليل، وهذه معادلة عقلية لا يختلف عليها أي عقل ولو كان بسيطا في منهجه ومستوى فكره، فكل محتاج هو ذليل وكل غني بالمطلق أي من انتفت عنده الحاجة بالمطلق هو عزيز، فمن ذا يكون غنياً بالمطلق؟ ومن ذا يكون محتاجاً بالمطلق ولو استغنى؟.

الخالق سبحانه غني بالمطلق، فالحاجة عنده منتفية إلى ما سواه فهو الله ولصفاته الكمال المطلق، فلا حاجة له بمخلوق، وغناه سبحانه مُفسر بآياته وعلى النحو الآتي:

١ . لأنه الخالق، قال تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[١٠٢١] .

٢ . لأنه المالك، قال تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١٠٢٢].

٣ . لأنه الفرد الصمد، قال تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[١٠٢٣].

٤ . لأنه الغني، قال تعالى: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١٠٢٤] .

٥ . لأنه كريم، قال تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[١٠٢٥].

[١٠٢١] الزمر ٦–٧.

[١٠٢٢] الحج ٦٤.

[١٠٢٣] يونس ٦٨.

[١٠٢٤] الحديد ٢٤.

وآيات غناه كثيرة أوسع من القدرة على إحصائها ومن كان غنيا بمثل ذلك كان عزيزا، أما غيره فهو ذليل بالمطلق، فكل المخلوقات ذليلة لأنها محتاجة وكل محتاج ذليل حاجته، وحاجة المخلوقات بادية في خلقها، ويمكن تمييز هذه الحاجات على نوعين هما:

أولاً: حاجات روحية؛ وهي تلك التي تتعلق بالروح ومنها:

١ . الهُدى، وهو الرشادُ والدلالةُ[١٠٢٦]، والهدى بيان طريق الرشد ليُسلك دون طريق الغي هذا إذا أطلق، فإذا قيد استعمل في غيره[١٠٢٧]. والعزيز سبحانه وتعالى أطلق لفظة الهدى لتعم جميع المخلوقات فقال تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[١٠٢٨]، فالهدى هنا مطلقاً، أي أرشد ودل سبحانه بذلك على وجوده، ومحصل الآية ربنا الذي خلق كل شيء حسب استعداده أو على الوجه اللائق به وجعله دليلاً عليه جل جلاله، فقال (ثُمَّ هدى) إلى طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله إما اختياراً كما في الحيوانات أو طبعاً كما في الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية، وكل شيء سواء كان عموم الأفراد أو عموم الأنواع[١٠٢٩] .

ويلاحظ أن إطلاق الهدى دلالة على عموم حاجة الخلق (المطلق أيضاً) إليه، فقد قال العزيز سبحانه وتعالى في سورة الضحى: {سَبِّحِ اسم رَبّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى}[١٠٣٠] .

ثم خص الإنسان بالهدى المحدد له، هدى يختلف عن بقية مخلوقات الله سبحانه، فقد هداه السبيل، {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[١٠٣١]، المراد بالسبيل ههنا سبيل الخير والشر والنجاة والهلاك، ويكون معنى

[١٠٢٥] النحل ٤٠.

[١٠٢٦] الصحاح في اللغة الجوهري، ج ٢ ، ص ٢٤٧.

[١٠٢٧] الفروق اللغوية، ج ١ ، ص ١٠٩ .

[١٠٢٨] طه ٥٠.

[١٠٢٩] تفسير الالوسي، ج ١٢ ، ص ١٧١.

[١٠٣٠] الأعلى ٣١.

[١٠٣١] الإنسان ٢-٣.

هديناه، أي عرفناه وبينا كيفية كل واحد منهما له[١٠٣٢]، ثم جعل له هدى الاختيار بين هذين الطريقين، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[١٠٣٣]، فقد ترك العزيز الاختيار بيد العبد وهو قادر على أن يجعل أي عبد من عباده على الطريق الذي يشاء له أن يكون.

قال تعالى: {ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها}[١٠٣٤]، لكن ذلك مناقض لإرادة الاختبار التي أراد الله لعباده الذين استخلفهم في الأرض، {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}[١٠٣٥]، فكان هدى الاختيار.

٢ . المودة، من حاجات العبد التي يوصل الافتقار إليها مرحلة الذل، لما فيها من تلبية لصفات جُبل عليها العبد من رغبة في التواصل مع الآخر، {وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١٠٣٦] .

٣ . السكينة، وتشتمل على راحة الروح والمؤدية لراحة البدن، فهي ما يجده القلب من الطمأنينة[١٠٣٧]، وهي هيئة بدنية تنشأ من اطمئنان الأعضاء[١٠٣٨].

وتشتد الحاجة إلى السكينة في مواطن الشد الروحي والترجيح العقلي وذلك لحدوث تعدد الاختيارات مع خوف من النتائج، وقد مر المسلمون بها في موضعين:

الأول: في يوم البيعة: وما صاحبه من اضطراب في اتخاذ القرار المهم والمصيري في حياة الأقوام التي ترغب بمبايعة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فأنزل الله العزيز السكينة تلبية للحاجة الروحية إليها ليعز الرسول والمؤمنين معه ويذل الكافرين والمشركين، قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [١٠٣٩].

[١٠٣٢] تفسير الرازي، ج ١٦ ، ص ٢١٦.

[١٠٣٣] البلد ١٠.

[١٠٣٤] السجدة ١٣.

[١٠٣٥] الكهف ٧.

[١٠٣٦] الروم ٢١.

[١٠٣٧] التعريفات، ج ١ ، ص ٣٩.

[١٠٣٨] الفروق اللغوية، ج ١ ، ص ٢٨٠.

[١٠٣٩] الفتح ١٨.

والثاني: في يوم فتح مكة: حيث كانت بعض النفوس حائرة وخائفة من المجهول الذي ينتظرها ذلك اليوم، فهو يوم حاسم في تاريخ الإسلام والمسلمين احتاج المسلمون فيه إلى السكينة لإكمال تحقيق رسالة الإسلام، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[١٠٤٠].

وفي الموضعين السابقين نزلت السكينة من الله سبحانه وتعالى مخصوصة ومستقلة في نفوس المؤمنين، وقد يكون نزول السكينة بغير الطريق المباشر، فقد تحصل السكينة بالآيات كما حدث مع اليهود، {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[١٠٤١].

أي تسكنون عند مجيئه وتقرون له بالملك، وتزول نفرتكم عنه، لأنه متى جاءهم التابوت من السماء وشاهدوا تلك الحالة فلا بد وأن تسكن قلوبهم إليه وتزول نفرتهم بالكلية[١٠٤٢].

وقد تكون السكينة نتيجة حاصلة في الأشياء، فهي في الزوجة حاصلة، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}[١٠٤٣].

كما تحصل في أمور أخرى كالبيوت، قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}[١٠٤٤]، وفي الليل، قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[١٠٤٥].

ثانيا: حاجات مادية: وهي تلك المتعلقة بحاجات البدن، ومنها:

[١٠٤٠] الفتح ٤.

[١٠٤١] البقرة ٢٤٨.

[١٠٤٢] تفسير الرازي، ج ٣ ، ص ٤١٠.

[١٠٤٣] الروم ٢١.

[١٠٤٤] النحل ٣٠.

[١٠٤٥] الأنعام ٩٦.

١ . الأكل والشرب، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[١٠٤٦].

٢ . اللذة، قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[١٠٤٧].

٣ . الملك، قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٠٤٨].

٤ . الأولاد، قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[١٠٤٩].

فمن كانت هذه حاجاته فهو ذليل لمن يملكها وما من مالك لكل هذه الحاجات إلا الله العزيز جل شأنه تبارك وتعالى الذي يعز من يشاء بجعل خلقة أغنياء عن الحاجة إلى الغير، ويذل من يشاء بجعل الحاجة دائمة في النفوس، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

[١٠٤٦] الأنعام ١٤١.

[١٠٤٧] البقرة ١٨٧.

[١٠٤٨] البقرة ٢٤٧.

[١٠٤٩] النحل ٧٢.

قَدِيرٌ}[١٠٥٠]، فهو عزيز لأن العزة لله سبحانه، وشعار العبد الذلة والاستكانة [١٠٥١]، والله سبحانه يقول: عندما يُقرِّعُ بعض أعدائه: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}[١٠٥٢] .

ومهما ظن العبد أنه عزيز بسلطان أو بمال أو ببنين فليعلم أن عزه مؤقت لان العزيز هو الغالب كل شيء فهو العزيز الذي ذل لعزته كل عزيز[١٠٥٣].

العزيز هو الذي له مثيل له لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، ويقال عَزَّ الشيء يَعِزُّ عِزًّا وعِزَّةً وعَزازَةً، إذا قلَّ لا يكاد يوجد، فهو عزيزٌ[١٠٥٤].

والعزيز هو الغالب، فالعز يتضمن معنى الغلبة والامتناع[١٠٥٥]. وقد مر الحديث عن غلبة القوة والحجة، وما نريد إضافته هنا مبدأ الغلبة المطلق، فالعزيز سبحانه وتعالى غالب بالمطلق، {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[١٠٥٦]، بمعنى القدرة على الإتيان بما يريد وقت يريد، فهو لا يمنع عما يشاء ولا ينازع فيما يريد بل إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون سبحانه وتعالى عما يشركون، إضافة إلى القدرة على سلب ما يريد وممن يريد تأكيداً للقدرة المطلقة، فالمسلوب فاقد القدرة على فعل الأشياء وإن أراد، أتُرى هل يمكن للأعمى الإبصار وهو يريد ذلك؟ لذلك فإن جنود العزيز يسلبون ما يشاء هو وممن يشاء دون أن تكون لنا قدرة رد ذلك، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[١٠٥٧]، ومن أهون من الذباب على الإنسان لكنه فاقد القدرة على رد ما سلب الذباب منه ومن حاجاته، فهو ذليل لفقده العزة المطلقة.

[١٠٥٠] آل عمران ٢٦.

[١٠٥١] معجم المناهي اللفظية بكر بن زيد، ج ١٩ ، ص ٢١.

[١٠٥٢] الدخان ٤٩.

[١٠٥٣] تفسير أسماء الله الحسنى الزجاج، ج ١ ، ص ٣٤.

[١٠٥٤] الصحاح، ج ١ ، ص ٤٦٧.

[١٠٥٥] الفروق اللغوية، ج ١ ، ص ٣٥٥.

[١٠٥٦] يوسف ٢١.

[١٠٥٧] الحج ٧٣-٧٤.

والعزيز غالب بأمره، وقد كتب الغلبة لو ولرسله فقال عز من قائل: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[١٠٥٨]، وغلبة العزيز ورسله مطلقة لم يحدد طبيعة الغلبة، فقد تكون الغلبة بالقوة التي حثنا العزيز على الإتيان بها وبالبحث عن أسبابها للوصول إلى السلام وتحقيقه وإن كره المشركون فقال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[١٠٥٩]، وقد تكون بالحجة وهي مطلقة فما من حجة من حجج الأنبياء إلا وكانت غالبة لان العزيز أراد العزة لأنبيائه وأراد الذلة لأعدائه، وهي أولاً حجة الإدراك التي ترسخ في عقول الأنبياء الذين يصطفيهم الله سبحانه كما تؤكد الآية الكريمة التي يقول فيها العزيز سبحانه: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}[١٠٦٠]، قوله: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ) يدل على أن تلك الحجة إنما حصلت في عقل إبراهيم عليه السلام بإيتاء الله وبإظهاره تلك الحجة في عقله، وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى[١٠٦١].

ثم حجة الإعجاز التي حاج بها الأنبياء أقوام أرسلوا إليهم، فحجة موسى عليه الصلاة والسلام المعجزة لسحرة فرعون، قال تعالى: {وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}[١٠٦٢]، وطب عيسى عليه الصلاة والسلام

[١٠٥٨] المجادلة ٢١.

[١٠٥٩] الأنفال ٦٠-٦١.

[١٠٦٠] الأنعام ٨٣.

[١٠٦١] تفسير الالوسي، ج ٥ ، ص ٤١١.

[١٠٦٢] الأعراف ١١٣-١٢٠.

المعجز لطب بني إسرائيل، {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[١٠٦٣]، وكتب محمد صلوات الله وسلامه عليه المعجز لبلاغة العرب، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[١٠٦٤]، فهو كتب مَنيعٌ لا يُغلَب ولا يُقهَر وقَوْلهُ تَعالى: (وإنّه لكِتابٌ عَزيزٌ لا يأتيهِ الباطِلُ من بيْنِ يدَيْه ولا مِن خَلْفِه) أي حُفِظَ وعَزَّ من أن يَلْحَقَه شيءٌ من الباطل[١٠٦٥].

والعزيز هو الشديد[١٠٦٦]، فتقول عَزَّزْتُ القَوم: قَوَّيْتُهم. والأَعِزَّاء: الأَشِدَّاء وليس من عِزَّةِ النَّفْس[١٠٦٧]. والله شديد وشدته عز وجل تتجلى في صور كثيرة يرتهب منها الذين آمنوا، ويغفل عنها الغافلون، فهو:

أ- شديد القُوَّة فلا يَلْحقُه في أفعاله مَشَقَّة ولا كُلْفَة ولا تَعَب[١٠٦٨]، والتشديد في القوة يرد في موضع الحاجة إليه، وهو تشديد أما مادي ويتجلى في عقاب الذين كفروا وأصروا على ذلك، {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}[١٠٦٩]، وقد يكون تشديد القوة معنوي، لاسيما في مجال الجدل فعندما أُنزل القران على العرب واجهوه بالجدل الرافض فقابل المتين عز وجل فعلهم هذا بعلم شديد القوى، {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[١٠٧٠].

ب – عذابه شديد، المتين سبحانه أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس، وأمهلهم ليؤمنوا وكتب على نفسه الرحمة، {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

[١٠٦٣] آل عمران ٤٩.

[١٠٦٤] فصلت ٤١-٤٢.

[١٠٦٥] تاج العروس ١،٣٧٦٥.

[١٠٦٦] تهذيب اللغة، ج ١ ، ص ٢٤٥.

[١٠٦٧] تاج العروس، ج ١، ص ٣٧٦٥.

[١٠٦٨] النهاية في غريب الأثر، ج ٤ ، ص ٦١٣.

[١٠٦٩] آل عمران ١٢.

[١٠٧٠] النجم ٤-٥.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[١٠٧١]، لكي يكون ذلك حجة على الناس، {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[١٠٧٢]، فإذا انتفع الإنسان بالهدى فاز، وإذا أنكر خسر وكان العذاب الشديد عقابه كالكافرين، {قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}[١٠٧٣]، والمشركين، {الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}[١٠٧٤]، والكاذبين، {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١٠٧٥].

ج – بأسه، يقول العزيز عن شدة بأسه: {قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}[١٠٧٦].

د – امتحانه، قال تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}[١٠٧٧]، أي عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق، والامتحان من الله ليس لاستبانه الأمر له بل لحكمة أخرى وهي أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لأحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله: (وَزُلْزِلُواْ) أي أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وبذكر الله تطمئن مرة أخرى، وهم المؤمنون حقاً[١٠٧٨].

[١٠٧١] الأنعام ١٢.

[١٠٧٢] النساء ١٦٥ .

[١٠٧٣] يونس ٦٩–٧٠.

[١٠٧٤] – ق ٢٦.

[١٠٧٥] المجادلة ١٤ –١٥.

[١٠٧٦] الكهف ٢.

[١٠٧٧] الأحزاب ١١.

[١٠٧٨] تفسير الرازي، ج ١٢ ، ص ٣٣٤.

هـ – حسابه، {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا}[١٠٧٩].

و – حرسه، {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا}[١٠٨٠]، والحرس: اسم مفرد في معنى الحرّاس، كالخدم في معنى الخدّام؛ ولذلك وصف بشديد، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب، ويمنعونهم من الاستماع[١٠٨١].

ع – عقابه، قال تعالى: {سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آَتَيْنَاهُمْ مِنْ آَيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[١٠٨٢].

غ – أخذه، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[١٠٨٣]، والأَخْذ خلاف العطاء وهو أَيضاً التناول أَخذت الشيء آخُذُه أَخْذاً تناولته[١٠٨٤]، أنه تعالى لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه أتبعه بما يزيده تأكيداً وتقوية فقال: (إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدة، ولا منغصة في الدنيا إلا الألم، ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة، وفي الوهم والعقل إلا تشديد الألم[١٠٨٥].

ف – محاله، قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[١٠٨٦]، أي المماحلة وهي المكايدة من محل بفلان بالتخفيف إذا كاده وعرضه للهلاك، ومنه تمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه[١٠٨٧].

[١٠٧٩] الطلاق ٨.

[١٠٨٠] الجن ٨.

[١٠٨١] تفسير الزمخشري، ج ٧ ، ص ١٥٣.

[١٠٨٢] البقرة ٢١١.

[١٠٨٣] هود ١٠٢.

[١٠٨٤] لسان العرب، ج ٣ ، ص ٤٧٠.

[١٠٨٥] تفسير الرازي، ج ٨ ، ص ٤٦٨.

[١٠٨٦] الرعد ١٣.

[١٠٨٧] تفسير الالوسي، ج ٩ ، ص ٢٢٧.

ق – عونه، قال تعالى: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآَيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}[١٠٨٨].

وعلى الخليفة أن يفهم معنى الشدة من ذلك ويعي الحاجة إليها في مواضعها، وان يعمل بها موقناً بجدواها في موضع الحاجة إليها لتستقيم أمور الرعية.

والمخلصون من عباده أشداء، فالرسول كان يتصف بهذه الصفة، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[١٠٨٩]، عزيز هنا معناه: شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم[١٠٩٠]، والأتقياء من عباد الله، وقوله تعالى يدل على ذلك: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٠٩١].

فالعزيز الذي لا يعجزه شيء، والشديد في انتقامه من أعدائه، والذي عز كل شيء فقهره وغلبه، والمنيع الذي لا ينال ولا يغالب، ذلت لعزته الصعاب، ولانت لقوته الشدائد الصلاب، وهب العزة لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فمن أراد العزة فليطلبها بطاعة الله سبحانه، والتمسك بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم[١٠٩٢].

وارتبط اسم العزيز بأسماء حسنى أخرى ولذلك دلالة إعجازية، فإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتماً بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام حتى كأنها ذكرت دليلاً عليه وموجبة له وهذا كقوله تعالى: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}[١٠٩٣]، أي: فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز

[١٠٨٨] القصص ٣٥

[١٠٨٩] التوبة ١٢٨.

[١٠٩٠] تفسير الرازي، ج ٨ ، ص ١٩٢.

[١٠٩١] المائدة ٥٤.

[١٠٩٢] الوجيز في أسماء الله، ج ١ ، ص ٩.

[١٠٩٣] المائدة ١١٨.

وجهل، وقوله: {ذلك تقدير العزيز العليم}[١٠٩٤]، وقد وردت في عدة مواضع من القرآن ويذكر ذلك عقب ذكره الأجرام العلوية وما تضمنه من فلق الإصباح وجعل الليل سكناً وإجراء الشمس والقمر بحساب وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية، ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقب كل قصة قال تعالى: {وإن ربك لهو العزيز الرحيم}[١٠٩٥]، فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة فوضع الرحمة في محلها وانتقم من أعدائه بعزته ونجى رسله وأتباعهم برحمته والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود وهي غاية الفعل لا أنها أمر اتفاقي[١٠٩٦].

والعزيز من العباد من يحتاج إليه عباد الله في أهم أمورهم وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية وذلك مما يقل لا محالة وجوده ويصعب إدراكه وهذه رتبة الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ويشاركهم في العز من ينفرد بالقرب من درجتهم في عصره كالخلفاء وورثتهم من العلماء وعزة كل واحد منهم بقدر علو رتبته عن سهولة النيل والمشاركة وبقدر عنائه في إرشاد الخلق[١٠٩٧].

اللهم يا العزيز نشهد أن لك العزة، ولرسولك العزة، وللمؤمنين العزة، اللهم يا العزيز عزَّنا بقوتك وقدرتك وغناؤك وكرمك وعلمك وحكمتك وحفظك وسلامك، اللهم إن العزة بالحق فلا تجعلنا يا العزيز من الذين أَخَذَتْهُم الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ واجعلنا يا الله للحق مُحقِين، وإذا حكمنا بين الناس نحكم عادلين، ولا تجعلنا من المطففين الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

[١٠٩٤] يس ٣٨.

[١٠٩٥] الشعراء ٩.

[١٠٩٦] المجلي شرح القواعد المثلي،من شرح القواعد المثلي في الأسماء والصفات الحسنى،لابن عثيمين، ٤ ، ص ١٣.

[١٠٩٧] المقصد الأسنى – الغزالي، ج ١ ، ص ٧٤.

اللهم يا العزيز عز الإسلام بزيادة عدد المؤمنين الذين إذا عاهدوا أو نذروا أوفوا والذين يَقِيمُون الصَّلَاةَ وَيأتُون الزَّكَاةَ ويقْرِضُون اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ويَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

اللهم يا العزيز يا من له العزة وبه العزة ومنه العزة أعزنا ولا تجعلنا أذلاء، اللهم يا العزيز يا رافع الشأن ارفع شأننا وقدرنا واجعلنا من حملة راية دينك عزيزة واجعلنا أعزاء بنصرك يا العَزِيزُ يا الرَّحِيم، اللهم اجعلنا أعزاء في أنفسنا قبل أن نكون في غيرنا، اللهم يا العزيز اجعلنا وبنونا وأهلونا في حماك ورعايتك، فلا نكون ممن قلت عنهم: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[١٠٩٨] فلا نطلب سواك ولا نلجأ لغيرك يا العزيز ولا تجعلنا أذلاء خائفين.

[١٠٩٨] النساء١٣٩.

الجبَّار

الجبار اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته الحسان مصداقا لقوله تعالى: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار}[١٠٩٩].

وفي لسان العرب المحيط، الجبار: "الله عز اسمه القاهر خلقه على ما أراد من أمر ونهي، وهو المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقا"[١١٠٠].

الجبار صفة مطلقة لله تعالى، الذي بجبروته فعَّال لما يُريد. وصفة نسبية للعباد، والصفة النسبية تنقسم إلى قسمين:

الأول: صفة إيمانية: حيث اتصاف المؤمن بصفات من يؤمن به وهو الجبار الحق جلا جلاله. وهؤلاء هم الذين يستمدون جبروتهم من الجبار العظيم، ولا يظلمون أحدا. وهم الخلفاء في الأرض الذين سيجازون الجزاء الأوفى.

والثاني: صفة إنكار وجحود وكفر، وهي من نصيب الذين يظنون أنهم مصدر للقوة والجبروت، وكأنه لا خالق من ورائهم، أي وكأنهم وُجِدوا هكذا ضربة عشواء، وهؤلاء هم الخاسرون الذين لو اجتمعوا لن يخلقوا ذبابة واحدة، وهؤلاء هم الظالمون، الذين ظلموا أنفسهم ويظلمون الآخرين، وبأعمالهم هذه هم الذين سيجازون العذاب العظيم من الجبار الحق جل جلاله.

الجبار كما ورد في لسان العرب المحيط هو: "العالي فوق خلقه"[١١٠١].

والجبَّار بغير حق، هو العاتي المتكبر الذي لا يلتفت لمن يجب الالتفات إليه، وهو كما يظن لا أحد من قبله ولا من بعده، وهذا ما نهى الله تعالى عنه بقوله: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}[١١٠٢].

وفي ذلك يقول الشاعر:

[١٠٩٩] الحشر ٢٣.

[١١٠٠] لسان العرب المحيط المجلد الأول ٣٩٤.

[١١٠١] المصدر السابق. المجلد الأول ص ٣٩٥.

[١١٠٢] الإسراء ٣٧.

ولا تمشي فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفعُ
وإن كنت في عزٍّ وحِرز ومَنعة فكم مات قوم همو منك أمنعُ

والجبار من غير حق هو الذي يملئ قلبه التجبُّر والقسوة ولا تدخله الرحمة ولا يقبل موعظة، وهو ما نهى الله عنه، بقوله تعالى: {نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبَّار}[١١٠٣] الآية موجهة لتأييد الرسول عليه الصلاة والسلام وتوجيهه إلى عمل الخير دون إجبار أو إكراه، فالله يعلم بما يقولونه عن الرسول والدين الذي ارتضى، فالله لا يود لرسوله أن يستعجل، إنه يمهل ولا يهمل، فيريده أن يقول لهم قولا لينا، حيث لا إكراه في الدين قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم}[١١٠٤]. فباللين والتسامح تسود العزة والمناصرة للدين، وبالتجبُّر والتكبُّر يسود الإكراه له. وحتى لا يسود التجبر والتكبر قال عز وجل: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

والجبر خلاف الكسر، وهو الربط والاتصال والتماسك والمتانة، والجبر يُستمد من الجبَّار تعالى، الذي يجبر المكسور بقوته، ويجبر الخواطر بعد خوفٍ أو شقاق ونزاع أو تباين واختلاف أو صراع وصدام مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما}[١١٠٥].

ولأن الجبر خلاف الكسر، فإن الجبار تعالى يجبر المستقل مع المستقل عنه في علاقة اتصال وفقا للقواعد الآتية:

قاعدة جبر الروح مع الكائن:

الروح مخلوق مستقل حاله من حيث الخلق كحال أي مخلوق، إلا أن الروح لا يشاهد بالرغم من الإحساس به ولا يُسمى الكائن حيا إلا إذا دخلته الروح، والروح لا تدخل الأجساد ولا تخرج منها أو تفارقها إلا جبرا، والجبر لا يتم إلا بقوة من الجبار الأعظم جل جلاله، فالروح

[١١٠٣] ق، ٤٥.
[١١٠٤] البقرة ٢٥٦.
[١١٠٥] الفتح ٤.

والجسد شيئان غير متشابهين ولا متماثلين بقوة الجبار الحكيم يصبحان شيئا واحدا لا يمكن الفصل بينهما حتى النهاية. إنه الجبر العظيم الذي لا تفصله إلا الموت.

قاعدة جبر النفس:

مع أن الأنفس تتنوع وتتعدد بالشح والاطمئنان واللوم والأمر بالسوء والأمر بالمعروف، إلا أن منها ما يتآلف بعضه مع البعض، ومنها ما يرفض بعضه بعضا، وبالإجبار تتم الموائمة طوعا وكرها، قال تعالى: {وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها}[١١٠٦] وفي كلتا الحالتين (الطوع والكره) هناك إجبار:

الإجبار الإرادي بالقبول والاستحسان والتآلف وهو القبول الطوعي الذي تترتب عليه صلة وعلاقة برغبة، وهذا الأمر يجعل العلاقة بين الأنفس تمتد وتُربط بقبول مع فائق التقدير والاحترام المتبادل.

الإجبار بالقوة المسيطرة التي تجعل الليل يأتي في مواعيده والنهار كذلك مع انعدام الاستطاعة والتدخل في التقديم أو التأخير أو التعديل.

وقاعدة جبر النفس، تعني أن النفس كمفردة لا تُجبر إلا مع نفس الآخر قال تعالى: {وإذا النفوس زوجت}[١١٠٧]، وزواج الأنفس يتم أولا بدخولها البناء البدني للإنسان والاندماج فيه والاصطباغ بخصوصيته. وثانيا بقبول الآخر والاستئناس له. فهناك من يقبل البعض ولا يقبل البعض الآخر، أي كما يقولون هناك من يوصف بثقل ملائكته، وهناك من يوصف بخفتها، بمرحها وانبساطها بالبشاشة والمحبة، وهذه تؤدي إلى القبول والميل إلى المشاركة والتحاب للأنفس الأخرى وتؤدي إلى جذبها والتعلق بها. وبالتعلق يحدث إجبار النفس مع النفس، الذي لولاه لكانت كل نفس هائمة في بعدها واستقلاليتها عن الأخرى.

قاعدة جبر العقيدة:

[١١٠٦] آل عمران ٨٣.

[١١٠٧] التكوير ٧.

مع أن الدين مصدر للعقيدة، إلا أن الدين من عند الله تعالى، أمَّا العقيدة فهي رابطة قيمية وأخلاقية توثق بين الناس وبين ما يعتقدون فيه أو يؤمنون به. ولذا لولا الإجبار ما كانت العلاقة بين الدين وبين البشر، فالبشر مادة لهم من العواطف والمشاعر والأحاسيس. أمَّا الدين فكَلِمْ وحُجَّة ومواعظ تُنظِم حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية، وارتباط البشر إيمانا بالكلم الحق لا يتم إلا بقوة الجبَّار الحكيم، وإلا كيف يمكن لها أن تتم لولا مشيئة من يريد لها أن تتم بيسر ومحبة وشوق. وهذا الأمر لا يجعل الإكراه فعلا قاسيا، بل أنه الفعل المتمشي مع طبيعة الخلق. وفي مقابل ذلك عندما يظهر فعل الرفض للدين أو المعتقد يظل في فعل أمره غير متمشي مع الطبيعة الخلقية.

ودائرة الدين أو العقيدة تمتد لتتجاوز دائرة الأبوة والأخوة وذي القربى وبني الوطن أو العرق لتحتوي جبرا من يؤمن بالمعتقد الواحد حتى يندمج أصحابها في إحساس ومشاعر مشتركة تستوجب التقدير والاعتراف بالمساندة والمؤازرة والفداء المتبادل بحاسة الدين والمشاعر التي أنتجتها وجعلتها في حالة مدد بين الذين يدينون بالدين الواحد أو المعتقد الواحد.

قاعدة جبر الخواطر:

الناس بطبعهم يحبون ويكرهون، يغضبون وينبسطون، وبهذا تكون عليهم ولهم مآخذ، مما يجعل الأخوة وذوي الحقوق يحتجُّون على بعضهم في كل تقصير أو ارتكاب خطأ، ويجعل الكبير يأخذ بيد الصغير، ويجعل الصغير في حالة أدب يعتذر لمن هو أكبر منه سناً، ويجعل المؤمن يستغفر من كل ذنب ويتسامح، فبهذه المواعظ والعبارات الإصلاحية تُجبر الخواطر، وبها تكون اللُحمة، وتعود المياه كما يقولون لمجاريها، {قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين}[١١٠٨] وقوله تعالى: {وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ويعلم ما تفعلون}[١١٠٩]. الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات هو الجبار جل جلاله الذي يأمر بالتسامح في كتابه العزيز بين الناس المستخلفين في الأرض.

[١١٠٨] يوسف ٩٧.

[١١٠٩] الشورى ٢٥.

ومن يريد أن يكون خليفة عليه بالتسامح الذي به تُجبر الخواطر بين الناس وخاصة ذوي العلاقة، ولهذا فالاعتراف بالخطيئة فضيلة بين الناس في كثير من الأحيان يترتب عليها أفعال التسامح لا أفعال الإدانة التي تصدر في دوائر المحاكم التي تُجرِّم كل من يعترف بذنب أو عملٍ يقترفه، ومع ذلك بالتسامح يتم الإعفاء وبالاستغفار تزداد التوبة.

وعليه ينبغي أن تكون الأحكام قيمية تستمد قوتها وحُجَّتها من مصادر التشريع، لتؤيد عقابا، أو لتنصف مظلوما، أو لتبرئ متهما، أو لتعفوا عن سيئة. ولهذا فإن جبر الخواطر لا يتم إلا بجبَّار ماهرٍ في معرفة تناول المواضيع والقضايا بين الناس، وفي هذا المقام يُعد الجبر مصدر للإصلاح وعودة للعلاقات إلى ما يجب أن تكون عليه، وهو ما يرضي الله تعالى.

إنَّ جبر الخواطر يعيد الاتصال بالآخر والتواصل معه ويفتح آفاق التعايش والسلام من أجل علاقات مشتركة ومستقبل أفضل.

قاعدة جبر الزوجين:

في أساس خَلقِنا خُلِقنا فرادى، وفي أساس وجودنا وتكاثرنا جُبرنا أزواجاً مصداقا لقوله تعالى: {ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرة}[1110] هذا من حيث الخلق كل فرد لا يُمكن أن يتطابق مع الآخر، والدليل الشاهد على ذلك البصمة التي بها يتميز كل فرد عن غيره، ولهذا لا يشتبه اثنان في البصمة الواحدة مما جعل الفروق بين الخَلقِ من حيث الخَلقْ لكل مفردة خصوصية تتميز بها عن غيرها من الخصوصيات الأخرى التي هي الأخرى تتميز بما تمتاز به من خلق الرحمن. وإلى جانب التميُّز الخَلقي كذلك يتميز الأفراد خُلقا بما يقولون وبما يعملون من أعمال تدخل بعضهم الجنة وتدخل غيرهم النار. قال تعالى: {وكل إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزرُ وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً}[1111].

[1110] الأنعام ٩٤.

[1111] الإسراء ١٣ . ١٥.

ومع أن أساس الخلق فرادى، إلا أن أساس البقاء والاستمرارية هو الزوجية، مصداقا لقوله تعالى: {ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون}[١١١٢]. وقوله عز وجل: {والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا}[١١١٣]، فالجعل في الأرض هو الاستخلاف فيها، والاستخلاف لا يتم إلا بالإجبار الزوجي، ولأجل ذلك خلق الله تعالى الكائنات أزواجا أي من كل نوع خلق الذكر والأنثى، فتضاعفت الأنواع جميعها جبرا حتى أصبحت على ما هي عليه طوعا وكرها.

ومع أن الأنثى نوع مستقل بذاته والذكر كذلك، إلا أن التقائهما لا يتم إلا جبرا، سواء كان غريزة أو وفق شِرعة ومنهاج، ولهذا يعد الزواج جبراً لعلاقة تستوجب الاستمرار والاتصال والتواصل، والجبر هنا يعني وجود رابطة تُوحِّد علاقة طيبة بين اثنين كان كل منهما منفصل أو مستقل عن الآخر، والحاجة تتطلب التقائهما بمودة، والشريعة والسنن تؤسس لها القواعد التي تُرضي الخالق والمخلوق دون أن تترك ذنبا وإثما.

قاعدة جبر الأبوة والأمومة:

الأبوة عاطفة يستمدها الأبناء من الآباء، والأمومة عاطفة يستمدها الأبناء من الأمهات، أي بالالتقاء الشرعي بين الزوجين جبرا، يكون الجنين نتاج الاثنين المشترك هو الثالث جبرا، أي لولا جبر الزوجين ما كان الثالث مولدا يجمع خاصيتين في واحد عدد. حيث يرث صفات من أمه وأجداده الذين هم من دمها وفقا لقانون مندل للوراثة، ووفقا للقانون ذاته يرث صفات من أبيه وأجداده الذين هم من دمه، فيكون هو نتاج مشترك منهما ولم يكون نسخة لواحد منهما أبدا، بل يكون ثالثا بالإضافة الجبرية. وبهذه الوراثة والتربية يستمد عاطفة الأبوة من أبيه وعاطفة الأمومة من أمه، مما يجعله يفرح لفرحتهما ويتألم لآلامهما، ويحزن بفراق أي منهما، مع الاحتفاظ لهما بالإحسان والطاعة في غير معصية الله تعالى. {وقضى ربُّكَ ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه وبالوالدين إحسان إما يبلغنَّ عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا

[١١١٢] الذاريات ٤٩.

[١١١٣] فاطر ١١.

تنهرهما وقل لهما قولا كريما وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربيان صغيراً}[١١١٤]. وهكذا بالجبر تكون العلاقة بين الأبناء والآباء والأجداد والأحفاد، وكل منهم يستمد عواطفه بالحب والحنان والاشتياق من الجيل الذي يسبقه في الوجود.

الأبوة والأمومة عاطفتان قويتان تنتجان مشاعر متبادلة تربط علاقات الحب بين الآباء والأبناء، وتجعل الصلة بينهم قيمة أخلاقية ووجدانية متفاعلة في ذات الإنسان، وفي هذا الأمر مع أنَّ الأبوة والأمومة واحدة، إلا أن النظام الأخلاقي والسلوكي يختلف من فردٍ لآخر ومن جماعة لأخرى ومن مجتمع لمجتمع آخر. ففي المجتمعات المسلمة تتعدد أساليب العناية والرعاية كما تتعدد هي الأخرى في المجتمعات غير المسلمة، ففي المجتمع الإسلامي الدين واحد ولكن الإيمان ليس واحدا، فمن يؤمن لا يضل ولا يشقى، ومن لم يؤمن إيمانا حقيقيا سيقع في أخطاء تؤدي به إلى المحاسبة الشديدة وقد تقع أعماله تحت المغفرة الواسعة، أمَّا غير المسلم فسيكون حسابه عسيراً وتكون جهنم رحمة بما قدمت أيديهم.

الأب الخليفة والأم الخليفة هما اللذان يعملان على غرس قيم العقيدة وأصول الدين وتعليم الكتاب والحكمة لأبنائهما أولا ثم ثانيا إلى من يستطيعون إلى النهاية، وهؤلاء هم الذين قال فيهم الله تعالى: {وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون}[١١١٥]، وهم أيضا الذين قال فيهم الجبار جل جلاله: {إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقتُلُونَ ويُقتَلُونَ وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين}[١١١٦]. أمَّا أولئك المنافقون والكافرون فإن الله تعالى قال فيهم: {بشر المنافقين بأنَّ لهم عذابا أليما الذين

[١١١٤] الإسراء ٢٣ ، ٢٤.

[١١١٥] البقرة ٢٥.

[١١١٦] التوبة ١١٢.

يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا وقد نزل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أنكم إذا مثلهم إنَّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا}[١١١٧].

قاعدة جبر العمومة وذي القربى:

تقول هذه القاعدة: (كلما كان الأصل واحداً تشعبت منه الفروع). والأصل في الخلق التكاثر الذي تأسس في النوع البشري على ثلاثة أبعاد جبرية:

البعد الأول: خلق الشيء من الشيء. وفقا لهذه القاعدة خلق الله التراب الذي منه خلق آدم عليه الصلاة والسلام، وخلق حواء، وكلاهما بدون أب ولا أم (كن فيكون).

البعد الثاني: خلق الشيء في الشيء (الخلق الروحي). مثلما خلق عيسى عليه الصلاة والسلام في رحم مريم بنت عمران بنفخة من الروح التي لم نعلم أمرها هيَّ كما هيَّ، ولكننا نعلم أن أمر الكينونة قد صدر من الجبار الأعظم وقد تحقق بميلاد عيسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: {والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين}[١١١٨]. وقوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}[١١١٩]، فمثلما جاء خلق آدم من تراب بدون أب وأم، كذلك كان خلق عيسى عليه الصلاة والسلام في رحم أمه رضي الله عنها من غير أبٍ.

البعد الثالث: جبر الالتقاء العلائقي، لقاء آدم بحواء الذي بعث فيهما ومنهما غريزة التجاذب العاطفي حيث كل منهما في حاجة لعاطفة الآخر وأحاسيسه وأشواقه، ومؤانسته، فكان الالتقاء بينهما فطرة والمؤانسة بينهما كثرة، وكانت بداية الكثرة ليس بالخلق من التراب بل كانت البداية من النطفة التي أنجبت قابيل وهابيل وأختيهما الكريمتين. وبالرغم من الخلاف

[١١١٧] النساء ١٣٨.
[١١١٨] الأنبياء ٩١.
[١١١٩] التحريم ١٢.

والاقتتال الذي راح ضحيته هابيل استمر التكاثر من أبناء قابيل الذي تجاوز اليوم السبعة مليار ابنا، ولو كان هابيل حيا في زمنه وتزوج أخته كما تزوج قابيل لكان سكان الأرض هم على ضعف ما هم عليه، وفي عدم بلوغ ذلك بنهاية هابيل إن لله شؤون لا نعلمها سبحانه جل جلاله.

وبهذا التكاثر لم يكن الشقاق بين الأخوة هو القاعدة بل كان الاستثناء، القاعدة تقول (الأبناء يرثون المحبة من أبائهم، وإذا اختلف الآباء ضعفت العلاقة بين الأبناء)، وبالرغم من ذلك تضل العمومة عاطفة بين ذوي القربى، بها يتم التآزر، وبها يستمد أبناء العمومة الطمأنينة من أجدادهم، وبها تتسع دائرة الأصول مهما تفرَّعت، مما يجعل الأعمام والأخوال والعمات وفروعهم مهما تعددت هم في حالة نسب وعاطفة تشغل حيزا من التقدير والاعتبار والاحترام. ومع أن العمومة قاعدة إلا أن في بلاد الصين لا يُعمل بها، حيث لا تنجب الأسرة وفقا للقانون إلا طفلا أو طفلة واحدة فقط وذلك حدا للنسل بأسباب الكثرة المؤثرة على المستوى المعيشي للأفراد. وهذا الحد ألغى من القاموس العاطفي جميع المفردات التي تحمل في مضامينها مشاعر الأخوة والعمومة والإحساس بها مع ذوي القربى. {لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة}[١١٢٠].

من يريد أن يكون من المستخلفين في الأرض فعليه بعبادة الله الذي بعبادته يتم الجبر معه في علاقة توحيد، وعليه بأن يؤمن بالأنبياء والرُسُل الذين اصطفاهم الله تعالى، حيث الإيمان بهم إيمان بالله تعالى، وفي هذا جبر مع رُسُل وعقيدة ومع ربٍّ العقدية الملك المتعال. والجبر لا يقتصر على الله تعالى والرسل والعقائد بل يمتد الجبر لشمل علاقات التوحد مع الإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين ثم الجبر مع القول الحسن وهذا لا يتم إلا بالإيمان الذي يستوجب الجبر مع أفعال الخير مثل إيتاء الزكاة.

[١١٢٠] البقرة ٨٣.

قاعدة جبر العمومة وذي القربى مثلما تمتد لتجبر علاقة الفرد مع الجماعة وعلاقة الجماعة مع المجتمع، فهي تمتد لتجبر المشاعر والأحاسيس بينهم في عاطفة الأبوة والأخوة والعمومة والجيرة جنبا وبعدا.

قاعدة جبر الحاجة مع مشبعاتها:

لو سألك أحد عن العلاقة الغريزية بين العطش والماء، والعلاقة بين الجوع والأكل، والعلاقة بين الجنس والسكينة، والعلاقة بين الخوف والاطمئنان، والعلاقة بين الظلم والعدل. لن تكون لك إجابة إلا أن تقول لا علاقات بينها إلا بالإجبار، ولن يستطيع القيام بهذه العلاقات على الكمال والتمام إلا عظيم جبَّار. فمع أن العطش والجوع والجنس والخوف إحساسات تجول بداخل الإنسان ونفسه، إلا أنها لا تشبع إلا من خارجها إشباعا ماديا، ولذا لن يتحقق الرضا النفسي للإنسان إلا بما يشبع الحاجة. ولهذا فالقاعدة: (يتحقق الرضا بما يشبع الحاجة ولا تجبر الحاجة إلا بمشبعاتها).

قاعدة جبر الكسر:

بما أن الجبَّار هو القادر وحده على جبر العظم المكسور إلى حيثما كان عليه، إذن ما يقوم به الطبيب أو الجبار بالإضافة هو جعل العظام المكسورة في حالة ملامسة لبعضها، مع تثبيتها بموضوعية في الاتجاه السليم لإعادة جبرها على الحالة التي كانت عليها قبل أن تتعرض للكسر. وقد يظن البعض أن الطبيب يستطيع أن يجبر العظام بما يقوم به من جهد فني وإنساني، إلا أن ما يقوم به الطبيب هو جعل أطراف العظام في حالة ملامسة وعلى حالة من الثبات، أما عملية الجبر فلا تتم إلا بنمو العظام في اتجاهها الذي بَذل الطبيب جهد التثبيت بشأنه. فالعظام لا تُجبر إلا بقوة تجعلها في حالة امتداد يتمكن من خلاله كل متجزئ من ملامسة المتجزئ الأخر والالتفاف حوله حتى تتم عمليات الجبر مع المتجزئات الأخرى، ومن ثم مع الأجزاء التي نمت بترابط المتجزئات في اتجاه جبر الكتلة الواحدة التي تجعل العظام في حالة تماسك وقوة كما هي كانت عليه.

إنَّ ما يقوم به الجبار بالإضافة لا يزيد عن كونه عملية توكُّل على الجبار الأعظم، حتى يعود العظم مجبورا على ما كان عليه قبل الكسر. ولذا فإن القاعدة تقول: (اتصال مؤقت من الجبار بالإضافة يؤدي إلى اتصال دائم من الجبار الدائم). إن ما يقوم به الطبيب من جهد مؤقت في سبيل توصيل العظام المتباعدة بالكسر إلى بعضها هو الجهد المؤقت. أما الاتصال الدائم هو الذي يتم بأفعال الجبار الدائم حيث تنمو أمشاج العظام وتمتد إلى أن تتصل وتتماسك في وحدة واحدة بقوة الواحد الجبار.

العظام لا تجبر إلا بطينتها المنبعثة الحياة فيها، وهذه الطينة وإن وجدت بين يدي الطبيب إلا أن الحياة لن توجد فيها، الحياة ديمومة منبعثة لا توجد إلا بيد الحي الدائم، أما الحي بالإضافة كل ما بيده مؤقت، ولهذا ما يقوم به من جهد في سبيل تجبير العظام هو جهد مؤقت. ولأن العظام لا تلتئم إلا بجهد دائم، لذا فإن التآمها لن يكون إلا بقوة الجبار الدائم. فالعظم بعدما يكسر تنفصل الحياة عن جزئه المنفصل عنه، ولأن انبعاث الحياة بيد الحي الذي لا يموت؛ إذن إذا انكسر العظم وفقد انبعاث الحياة فيه فمن هو القادر على إعادتها إليه؟ إنه الجبار الذي بيده أمر الحياة والموت. ولهذا فدور الطبيب هو فقط أن يجعل العظام المكسورة في حالة تلامس وثبات؛ أما الجبر فليس من مهام الطبيب بل هي من الجبار الدائم جل جلاله. قال تعالى: {وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آَيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١١٢١] ننشزها نجبرها وحدة واحدة بانبعاث الحياة فيها، حتى تصبح قواما تاما للهيئة المناسبة لها ثم نكسوها لحما.

كل شيء على الله يسير فهو الذي أنشاء العظام أول مرة من تراب، وهو الأصعب على مستوى التفكير الإنساني فما بالك بأن يجبرها بعد أن تكسر وهو الأيسر، وفي هذا قال تعالى: {أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قُل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق

[١١٢١] البقرة ٢٥٩.

عليم}[١١٢٢]. يقال جاء رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الرجل غير محدد بالتمام فالعباس قال إنه عبد الله ابن أبيّ. وقال سعيد بن جبير: هو العاصي بن وائل السّهمي. وقال الحسن هو أبي ابن خلف الجمحي. "أنه أتى الرسول صلى الله عليه وسلم بعظم حائل فقال: يا محمد أترى أن الله يحي هذا بعد ما رَمَّ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم ويبعثك الله ويدخلك النار"[١١٢٣] بهذه الأسباب نزلت هذه الآيات المباركة فالحمد لله ربِّ العالمين.

وفي سورة القيامة قال تعالى: {لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّي بنانه}[١١٢٤]. قَسَمينِ بتأكيدين من (لا) النافية مع التعجب في الآية الثالثة (أيحسب الإنسان ألَّن نجمع عظامه) التي تلتها الإجابة بـ(بلى قادرين على أن نسوِّي بنانه) أي بدون شك القادر المطلق سيظل قادراً، ونسوِّي تعني: نجمع ونضم بعضها إلى بعض كما كانت مهما كانت صغيرة، فما بالك بأن تكون كبيرة.

إنه من العجب أن يسأل السائل عن جبر عظم، ولا يسأل عن الكيفية التي بها وعليها خُلق. فالعظام لن تحي إلا بمحييها، ولذا فإن محيي العظام هو الجبار العظيم وليس الطبيب البارع. ولأن فضل الله واسع والله غني عن العباد فالأجر يعود على من وضع العظام وربطها في الاتجاه السليم لتعود إليها الحياة وتنمو من جديد. ومن يحمد الله ويشكره على نعمه يُعد من خلفائه في الأرض، ومن الوارثين في الجنة. ومن يجحد فلن يكون له في الجنة من نصيب.

قاعدة جبر الأعداد:

تقول هذه القاعدة: (عندما يكون الخالق واحد يكون المخلوق بأسمائه وصفاته كثرة).

في أساس الخلق الواحد يخلق الآحاد ويجبرها أزواجا ويعددها جموعا، فالله تعالى خلق أبونا آدم وأمنا حواء فرادى، وبتزاوجهما جعل من تزاوجهما فروعا وأعدادا. ولولا الجبر ما تعارفنا وتآنسنا، وفاض الود من صدرٍ لصدرٍ بأشواق الحنين، وجبرنا العمر عدا بالشهور والسنين.

[١١٢٢] ياسين ٧٧ . ٧٩.

[١١٢٣] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. الجزء الخامس عشر ص٥٨.

[١١٢٤] القيامة ١ . ٣.

العد إحصاء لمتاح في حيز الزمان والمكان ولو لم يُجبر المحصي يظل في حالة انفراد بذاته، كالزمن والحركة اللذين بهما نَعدُّ، فالزمان متصل مثلما الحركة متصلة، فمنذ أن قال الله تعالى للزمان والحركة كونا فكانا على حالة مستمرة لا انقطاع فيها، ولولا الاستمرارية المتصلة لكانت النهاية، ولذا فإن أمر النهاية سيكون مفاجئا لنا بقوله لهما (للزمان والحركة): (قِفَا) حينها يكون الجمود وتكون زلزلة الساعة. {يا أيها الناس اتقوا ربكم إنَّ زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمَّا أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد}[١١٢٥]. بطبيعة الحال زلزلة الساعة شيء عظيم، ومهما توقعناها ستكون المفاجئة والمخافة والعظمة أكبر لولا الإٌيمان الذي به يُزاح الشك، وتطمئن قلوب المستخلفين في الأرض بأن ساعة الزلزلة هي ساعة الحق العظيم فالحمد لله ربِّ العالمين، أما الكافرون فسيكونون في فزعٍ ورُعبٍ إلى يوم يبعثون، ولو فكرنا قليلا ألا يكون الزمان والحركة هما اللذان سيؤديان بنا إلى ذلك اليوم العظيم، اليوم الذي مهما بلغنا من العلم لن نحصيه ولا نعده عدا، أي هو اليوم الذي لن نستطيع جبره مع ما عرفنا من الأعوام والسنين. إنه اليوم الذي يعلمه العليم الحكيم جل جلاله.

قال تعالى: {أن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا}[١١٢٦]، أحصاهم تعني حصرهم وجبرهم وأحاط بهم وهيمن عليهم بقوته وسلطانه فهو الذي يعلم بأمرهم الظاهر والباطن إنه علاَّم الغيوب سبحانه جل جلاله.

الجبر العددي يتجزأ من الكل إلى المتجزئ منه، فلو أخذنا الوحدات القياسية المتر أو الكيلو متر أو الكيلو جرام أو أي واحدة من الوحدات القياسية نجد أنها كوحدة واحدة كل تتجزأ، فالمتر كوحدة واحدة يتجزأ إلى السنتمترات ثم تتجزأ السنتمتر إلى المليمترات، وهكذا يتجزأ وزن الإنسان كمفردة من المجموع المتكون منه إلى جرامات وأجزاء تتجزءا منها، كما يتجزأ جسمه

[١١٢٥] الحج ١ ٢.

[١١٢٦] مريم ٩٣ . ٩٥.

إلى ملايين الخلايا الدقيقة التي بجبرها تتكون الوحدة البشرية، قال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[١١٢٧].

ولأن كل شيء نسبي ولا مطلق إلا من عند الله عز وجل، فما نعده بوحداتنا القياسية التي عرفناها لا تَعِدُّ ما يَعدَّهُ الجبار العظيم مصداقا لقوله تعالى: {وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون}[١١٢٨]. أي أن ما مجموعه ألف سنة بمقاييسنا التي عرفناها على الكوكب الأرضي، يساوي جبرا يوما واحدا فقط مما يعده الله العليم الحكيم. وجميع الكواكب لا يتساوى فيها طول اليوم إذا اعتمدنا الشروق والغروب مقياسا لذلك. فالسنة على زحل لا تساوي السنة على عطارد ولا على الزهراء ولا على المريخ ولا على الأرض وذلك لأن طول اليوم زمناً لم يكن واحدا أربعة وعشرون ساعة كما هو الحال على الأرض.

في اللغة أجبر: أكثر. ولذا لا يمكن أن يُجمِعَ الاثنين إلا جبرا، ولا تتكون الأسرة والجماعات إلا جبرا وهكذا تزداد الجموع حتى تكوِّن المجتمعات جبرا.

الجبار الحق: المتعالي والمتكبر، متعالي لأنه فوق كل شيء، وهو لا يساويه شيء، وهو الذي في علوه الرفعة والمكانة العالية التي يستظل تحتها المؤمنون، وهو المتكبر الذي لا يضعف ولا يجوع ولا يظمأ ولم يكن في حاجة للمؤانسة كما هو حال البشر. فالمتكبر هو الذي لا يمكن أن ينزل منازل المحتاجين والضعفاء والذين تسيطر عليهم الغرائز، إنه المسيطر على كل شيء ولا شيء يسيطر عليه.

والجبار بالإضافة هو المؤمن الذي لا يقبل بأن يكون وضيعا، فيتعالى بإيمانه وكبريائه عن كل ما من شأنه أن يجعله عبدا لعبدٍ، أو يجعله سائلا يتضرع من لا يستوجب تضرعه، أو طامعا في غير وجه الرحمن الرحيم، أو منعوتا بالوشاية والنفاق وقول الزور وأكل السحت، أو مفرِّقا بين المرء وزوجه، فالجبار بالإضافة هو الذي يعمل على جبر الخواطر ورفع المعاناة عن المعانين، ويقول الحق ويشهد به وإذا حكم بين الناس يحكم بالعدل، وإذا تصدق حُفِظ من

[١١٢٧] التين ٤.

[١١٢٨] الحج ٤٧.

كل شر، وإذا تاجر زكى حتى يجبر ماله بالمزيد الطاهر؛ وإذا صلى دخل أبواب الرحمة، وإذا صام يتذكر حتى تأتيه الصدقة من الصدقة، وإذا حجَّ نال البراءة من ذنبه والذنوب، وإذا استشهد في جهاده دخل الجنة.

وفي مقابل ذلك يكون التجبُّر تكبُّرا على الآخرين بالظلم والاضطهاد والاستعباد، وهؤلاء ومن هم على مثلهم هم الذين يعيشون في الأرض ولا يستخلفون فيها، وذلك لفقدانهم صفة التجبر من الجبار الأعظم جل جلاله الذي بتجبره يعلوا وتلين له القلوب ولا يلين للوضاعة.

قال تعالى: {يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتينه الحكم صبيا وحنان من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرًّا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا}[١١٢٩]. إنه المثل في الاستخلاف فهو لم يكن عاقا أو عاصياً ربه، ولهذا لم يكن جبارا بمعصية، بل كان جبارا بالطاعة فأتاه الله الحكم صبيا، (وخذ الكتاب بقوة) تدل على قوة الإيمان فالكتاب وهو التوراة قوة، والقوة لا تؤخذ إلا بالقوة. الكتاب قوة، والإيمان قوة، والحكم قوة، والنبوة قوة، وبامتلاك يحيى لمصادر القوة الأربعة كان تقيا عطوفا على والديه ببرهما وطاعتهما في غير معصية الله تعالى، ولم يكن عاقا أو عاصيا لربَّه، ولذا كان له السلام من الله تعالى يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا.

ومن أراد أن يقتدي من ملوكنا فليقتدي بما فعل يحيى عليه الصلاة والسلام لا أن يكونوا جبابرة طغاة وكأنهم يملكون الأرض ومن عليها، فالملك دائما للواحد القهار، وقلوب الجبابرة في الأرض قاسية إلا من آمن واتقى. فالذي يمتلك السلطة أو يتفرَّد بها من أجل أن يُفسد في الأرض لن يكون كمن يريد الإصلاح فيها، فالذي يريد الإصلاح يستخلف مرتين (في الدنيا والآخرة) والذي يريد الفساد ليس له من الاستخلاف من شيء حتى وإن عاش ملكا في حياته، ولهذا لن يكون مثله كمثل الذي قال فيه تعالى: (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا). فالخليفة بإيمانه وإصلاحه الأرض ينال السلام فيها، وكذلك من ربه تعالى يناله في يوم موته ويوم بعثه من جديد.

[١١٢٩] مريم ١٢ . ١٥.

يقول الإمام الغزالي: "الجبار هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار على كل أحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، والذي لا يخرج أحد عن قبضته"[1130].

قال تعالى: {نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد}[1131]. يقول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم نحن أعلم بما يقوله الكفرة، فأنت لا يحق لك أن تجبرهم ولا تكرهم وترغمهم على الإسلام، حيث لا إكراه في الدين مصداقا لقوله تعالى: {أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}[1132] وقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[1133]. الدين ينشره التبشير والتحريض على إتباعه، والإنذار به والتذكير، ولأن الله تعالى نهى عن الإكراه في الدين والرُسُل هم خير خلائف الله في الأرض والمؤمنون الذين ود لهم الاستخلاف فيها بالحكمة والموعظة الحسنة مصداقا لقوله تعالى: {أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنَّ ربك هو أعلم بمن ظل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين}[1134]، فادعوا الذين بُعِثَّ إليهم إلى الإسلام، بالحكمة: بالدليل والبرهان الحق، وجادلهم باللِّين وبالتي هي أحسن ولا تغلظ عليهم، فأنت يا محمد صلى الله عليه والسلام عليك البلاغ أمَّا الهداية، ليس من مهمتك فالله يهدي من يشاء من عباده ويضل من يشاء، فهو أعلم بالضالين والمهتدين وهو المجازي لهم بالثواب أو العقاب.

الجبار تعالى هو الذي جعل الهداية بين الناس رحمة، ولذا لا إكراه في الدين، ومن يحاول الإكراه في الدين لن ينجح بالإكراه سواء بالدخول إليه أو بالخروج منه، وبناء على قوله تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) يكون الجبار هو:

١ . جبار لأنه قال الحق وأمر به.

٢ . جبار لأنه يمتلك القوة وهو الرحمن الرحيم.

[1130] أبي حامد الغزالي المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت . دار الكتب العلمية ص ٧١.

[1131] ق ٤٥.

[1132] يونس ٩٩.

[1133] البقرة ٢٥٦.

[1134] النحل ١٢٥.

٣ . جبار لأنه أتى بالحق وقال لا إكراه في الدين.

٤ . جبار لأنه أجبر المؤمن مع الإيمان واجبر الكافر مع الكفر.

٥ . جبار لأنه خلق الدنيا والآخرة.

٦ . جبار لأنه جعل الجنة وجعل النار.

٧ . جبار لأنه جعل الثواب والعقاب.

٨ . جبار لأنه جعل الذنوب وجعل المغفرة لها.

٩ . جبار لأنه جعل الحسنات يُذهبن السيئات.

١٠ . جبار لأنه أوجد للداء الدواء.

١١ . جبار لأنه خلق الفرادى وجعل منهم الجموع.

١٢ . جبار لأنه يهب لمن يشاء ذكورا ويهب لمن يشاء إناث ويجعل من يشاء عقيما.

١٣ . جبار لأنه جعل الشمس مصدرا للنور ومصدرا للنار.

١٤ . جبار لأنه جعل الخوف والطمأنينة في النفس الواحدة.

١٥ . جبار لأنه حفظ البقاء للقوي والضعيف على الأرض الواحدة.

١٦ . جبار لأنه علام الغيوب وهو الذي يُمهل ولا يُهمل.

١٧ . جبار لأنه يملك كل شيء ولا يحتاج لشيء.

وعليه: لو لم يكن اسمه الجبَّار ما خُلقنا، وما نطقنا بعد صمت، وما صرخنا بعد ألم وما غضبنا من عيوب، وما حزنا من مآسي وفراق. ولو لم تكن من صفاته الجبر ما تلاقينا وتحاببنا وتزاوجنا وتفارقنا وتسامحنا بعد شِقاق وخصام. فالجبار هو الذي بقوته تلين القلوب وتخشع وتخضع لقول الحق، وتعمل من اجل إحقاقه، فلولاه ما آمنَّا وما كفر غيرنا. فنحن آمنا به طوعا وغيرنا كفر به طوعا. والذين آمنوا هم الخلفاء الجبارين بالإضافة، الذين يصلحون فيما استخلفهم فيه.

يقول أبو حامد الغزالي: "الجبار من العباد من ارتفع عن الأتباع، ونال درجة الاستتباع، وتفرد بعلو رتبته، بحيث يجبر الخلق بهيئاته وصورته على الاقتداء به ومتابعته في سمته وسيرته،

فيفيد الخلق ولا يستفيد، ويؤثر ولا يتأثر، ويستتبع ولا يتبع، ولا يشاهده أحد إلا ويفنى عن ملاحظة نفسه، ويصير متشوقا إليه، غير ملتفت إلى ذاته. ولا يطمع أحد في استدراجه واستتباعه"[١١٣٥].

الجبار كما يقول الدكتور الصلابي: "بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى الرؤوف، الجبار للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لاذ به ولجأ إليه"[١١٣٦].

وفي اسم الجبار يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "هذا الاسم له في اللغة ثلاث معانٍ كلها مرادة لله تعالى وهي:

المعنى الأول: هو العظيم الذي تحار في كنه جلاله وجماله وكماله العقول، ولا تحيط بمعاني صفاته البصائر، ولا ترتقي إلى معرفة ذاته الأفهام.

والمعنى الثاني: هو المصلح لأمور الخلق، والمظهر للدين الحق، والميسر لكل عسير، والجبار لكل كسير.

والمعنى الثالث: هو الذي أجبر الخلق على ما أراد، وحملهم عليه طوعا وكرها، فلا يقع في ملكه إلا ما يريد، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه"[١١٣٧].

والإجبار في دائرة الممكن يأخذ الصفات الآتية:

أولا في دائرة الممكن المتوقع:

١ . الإجبار على قول أو فعل ما يجب.

٢ . الإجبار على الامتناع عن قول ما لا يجب أو فعل ما لا يجب.

ثانيا في دائرة الممكن غير المتوقع:

١ . الإجبار على قول أو فعل ما لا يجب.

٢ . الإجبار على الامتناع عن قول أو فعل ما يجب.

[١١٣٥] أبي حامد الغزالي المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت . دار الكتب العلمية ٥١.

[١١٣٦] على محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين. بيروت . دار المعرفة الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ١٨٨.

[١١٣٧] محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة. دار المنار الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ص ٤٥.

وعلى العبد أن يتخذ من ربه العزيز صفة الجبار ليرقَّ قلبه على من هو في حاجة إليه، دون أن يستغله فيما لا يرضي الله، وأن يتصف بالجبار في قول الحق وفعل الحق، والتمسك به، ومناصرة أصحابة، وأن يتعالى عن النزول إلى الرذائل وأن يتعفف ويتكبر عن الصغائر، وأن يخشى الله في نفسه وعياله وفيما يؤتمن عليه، وأن يعمل صالحا يرضاه الله تعالى، وأن لا يُفسد في الأرض، وأن يمارس حقوقه بكل قوة، وأن يؤدي واجباته بكل قوة، وأن يحمل مسؤولياته بإرادة، وأن يكون جبارا في حرصه على النجاح وأن لا يؤمن بالفشل، وأن يرفض الخيانة للدين والوطن والعِرض، وأن يشتد ويتجبَّر على من يخون الدين والوطن والعرض والأمانة، وأن يعتز بإيمانه بالواحد الجبار الذي اسلم له كل شيء طوعا وكرها، وأن لا يتجبر ويتكبر على من نهى الله عن التكبر عليهم، وأن يحترم الأرض التي منها خلق وفيها يُستخلف وأن يتواضع ويتقي الله ربه، {وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما والذين لا يدعون مع الله إله آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغوي مروا كراما والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما}[١١٣٨].

ولذا فإن الجبار بالإضافة هو القوي الذي لا تضعفه غريزة على حساب إيمانه وقيمه وأخلاقه التي استمدها من دينه وأعرافه الخيرة، فالجبار عندما يكون في مستوى الخلافة في الأرض يتكبر عن المظالم ولا يقبل بظلم للآخرين ولا بظلم منهم فهو الذي يسمع ويرى ولا يحكم إلا

[١١٣٨] الفرقان ٦٣ . ٧٥.

بالبينة. ولذلك فمن عرف الجبار تواضع في قوله وفعله وتعالى عن الصغائر والرذائل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: يا رسول الله إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا، ودابته حسنة، أذلك من الكبر؟. قال الكبر بطر الحق وغمط الناس"[١١٣٩].

وبطر الحق تعني: إنكاره وطمسه. وغمط الناس تعني: احتقارهم والاستهزاء بهم.

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: "على المسلم إذا ذكر الله باسمه الجبار أن يتصاغر أمام عظمته وعزته وقهره وجبروته، فلا يرى لنفسه شيئا معه جل شأنه مهما كان ذا جاه وملك وسلطان، فالجاه جاهه والسلطان سلطانه، وهو وحده ذو العزة والجبروت، فتبارك الله في ملكه، وتعالى على عرشه، وعز في سلطانه، خضعت الجن والإنس لجبروته، وسبَّح كل شيء بحمده، وهو القاهر فوق عباده"[١١٤٠].

الجبار الحق هو الذي باسمه تُسبِح جميع الخلائق طوعا وكرها، والجبار بالإضافة هو من بين المسبحين له بالحمد وهو الذي لا يركع ولا يسجد لسواه. أما أولئك الذين لم يربطوا مصيرهم به تعالى فأولئك هم الضالون الذين لن تقبل توبتهم بعد موتهم وهم كافرون قال تعالى: {إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفَّار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدوا به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين}[١١٤١] وقوله تعلى: {وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رُسُله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إنَّ عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود}[١١٤٢]. فعاد هم الذين عصوا الرسل الذين يدعونهم للإيمان واتبعوا أمر كبراءهم الطاغين الذين يدعونهم إلى الكفر بالواحد الجبار، وهذا الأمر جعل اللعنة تلاحقهم في الدارين، كما تلاحق غيرهم من الأقوام الكافرة. والفرق كبير بين الجبار المطلق، والجبار بالإضافة، والجبار العنيد:

[١١٣٩] محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرجع سابق ص ٤٨.

[١١٤٠] المرجع السابق ص ٤٧.

[١١٤١] آل عمران ٩١.

[١١٤٢] هود ٥٩، ٦٠ .

فالجبار المطلق هو الله تعالى. والجبار بالإضافة هو المؤمن الحق. والجبار العنيد هو الذي يعرف الحق ويحيد عنه ولا يتبعه ويكفر به.

الجبار: هو القوي المطلق الذي يغفر ولا يظلم، ويمهل ولا يهمل، ويضاعف الحسنة كما يضاعف العقاب، وينهى كما يأمر، ويحلل كما يحرِّم، ويعلم ولا يجهل، ويعطي ولا يأخذ، ويَقهَر ولا يُقهِر، ويُصلح ولا يُفسد، ويعلو ولا يدنو، ويعدل ولا يظلم، وهو الذي يرانا ولا نراه، ويُطاع ولا يَطيع، ويكيد ولا يُكاد، ويؤثر ولا يتأثر، ويستتبع ولا يتبع، ويُقتدى به ولا يَقتدي، وهو الذي قال الحق وجاء به في الكتاب المحفوظ، وهو الذي يتحكم في كل شيء ولا شيء يتحكم فيه سبحانه جل جلاله.

وفي ذلك قال الإمام الغزالي: "الجبار هو الذي تنفذ مشيئته على سبيل الإجبار في كل أحد، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، والذي لا يخرج أحد عن قبضته، وتقصر الأيدي دون حمى حضرته، فالجبار المطلق هو الله تعالى، فإنه جبر كل واحد ولا يجبره أحد.

الجبار المطلق: هو الذي خلق كل شيء كما شاء، والجبار بالإضافة هو الذي يؤمن بأنه مخلوق على مشيئة الجبار المطلق وليس على مشيئته، فنحن وكذلك بقية المخلوقات لا نعلم لماذا خلقنا هكذا، أي لماذا البعض يمشي مكبا على وجهه والبعض يمشي سويا، والبعض يعلم ويؤمن، والبعض يعلم ولا يؤمن، والبعض لا يعلم أنّ لله في خلقه شؤون. {أفمن يمشي مُكِبّاً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم}[١١٤٣] وقوله تعالى: {والله خلق كلَّ دابة من ماءٍ فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إنَّ الله على كل شيء قدير}[١١٤٤].

ولأن القاعدة تقول: (وراء كل مخلوق خالق، والخالق خير من المخلوق) فالجبار بالإضافة يؤمن بأنه خيرا من الله والله خير منه. خيرا من الله تعني: إنه من عند الله الخالق له والباعث له، ومع أنه خير من الله تعالى، إلا أن خالق الخير خير من الخير أي أفضل منه. أي أن

[١١٤٣] الملك ٢٢.

[١١٤٤] النور ٤٥.

الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم كان المُفضَّل على بقية المخلوقات الأخرى، وفي هذا خير كثير، والإنسان المؤمن هو الخير من ذاته أي من ذات الله تعالى التي هي أفضل من الخير، ولذا فالخليفة خيرا من الله والله خير منه هي مؤسسة على القاعدة (ورأي كل مخلوق خالق، والخالق خيرُ من المخلوق).

فالجبار هو الذي خلق كل شيء بالقوة، وهذا الخلق ليس فيه شيء من مشيئة المخلوق، بل كل شيء من مشيئة الخالق عز وجل وفقا لقاعدة (كن فيكون) التي بها خُلق الخلق كله. ولأنه الجبار كان الخلق ولا مفر من أن يكون كما شاءه الخالق تعالى، ولذا لا يوجد مقام للاستشارة حتى تتم الموافقة أو لا تتم، والجبار لا ينتظر أحد ليستشيره فهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده. {إنَّه يبدأ الخلق ثم يعيده}[1145] وقوله تعالى: {قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قُل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يُتَّبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إنَّ الظنَّ لا يغني من الحق شيئا إنَّ الله عليم بما يفعلون}[1146]. سبحانه أنه الجبار العالم بكل شيء وهو على كل شيء قدير.

قال سعد بن على القحطاني: للجبار أربعة معانٍ هي:

المعنى الأول: يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير، ويغني الفقير، ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر.

المعنى الثاني: إنه القهار لكل شيء، الذي دان له وخضع كل شيء.

والمعنى الثالث: إنه العلي على كل شيء.

والمعنى الرابع: إنه المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفؤ أو ضد أو سمى أو شريك في ذاته[1147].

[1145] يونس ٤.

[1146] يونس ٣٤ . ٣٦.

[1147] سعد بن على بن وهف القحطاني شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة. بيروت . دار ابن حزم ٢٠٠٣ ص ٧٢.

قال تعالى: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يُرجعون}[١١٤٨]، جاء قوله تعالى بالمطلق حيث قال: (وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها) أي لم يستثنِ أحدا من أمر التسليم له، فطوعا: بالاعتراف أنه الحق وبالإيمان به لا شريك له في الخلق والمُلك. وكرها: حيث لا يستطيعون أن يغيروا من أمره شيء، الشمس تشرق وتغرب والحياة والممات والمرض والمعافاة وهم لا يستطيعون إلغاء شيء منه فأسلموا بذلك الاعتراف دون أن يؤمنوا.

وقد قال ابن القيم في نونيته:

وكذلك الجبر من أوصافه والجبر في أوصافه قسمان

جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ذا كسرة فالجبر منه دان

والثاني جبر القهر بالعز الذي لا ينبغي لسواه من إنسان

وله مسمى ثالث وهو العلو فليس يدنوا منه من إنسان

من قولهم جبارة للنخلة الـ ـعليا التي ارتفعت عن كل بنان[١١٤٩]

وقد قال ابن القيم الجبر في اللغة يرجع إلى ثلاثة أصول:

الأول: أن يغني من الفقر، أو يجبر عظمة من كسر، وهذا من الإصلاح.

الثاني: الإكراه والقهر، يقال: أجبرته على كذا إذا أكرهته عليه.

الثالث: من العز والامتناع.

وفي الشرع يقول ابن القيم:

أولا: أنه الذي يجبر ضعف الضعفاء من عباده، ويجبر كسر القلوب المنكسرة، من أجله الخاضعة لعظمته وجلاله.

ثانيا: أنه القهَّار دان كل شيء لعظمته، وخضع كل مخلوق لجبروته وعزته فهو يجبر عباده على ما أراد مما اقتضته حكمته ومشيئته فلا يستطيعون الفكاك منه.

١١٤٨ آل عمران ٨٣.

١١٤٩ مشرف بن على ألغامدي منهج ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة . دار ابن الجوزية الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص ٢٩٣.

ثالثا: أنه العلي بذاته فوق جميع خلقه فلا يستطيع أحد أن يدنو منه[١١٥٠].

الجبار بالإضافة هو الذي استخلفه الجبار الحق ليُصلح في الأرض بما يرضيه تعالى، ولذا فعلى الخليفة أن يعمل على الآتي:

١ . جبر الخواطر المنكسرة بأفعال الخير. {قول معرف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم}[١١٥١].

٢ . جبر خواطر المرضى من اليأس بالأمل مصداقا لقوله تعالى: {ولا تقنطوا من رحمة الله}[١١٥٢]. وقوله تعالى: {قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}[١١٥٣].

٣ . جبر الفساد يجبر المُصلح مع الجنة {تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين}[١١٥٤]. وقوله عز وجل: {من قتل نفسا بغير حق أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا}[١١٥٥].

٤ . فك المظالم أي جبرها بالفصل حتى لا تستمر ويكثر الشقاق والخصام، والجبر هنا من أجل الإصلاح. {فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}[١١٥٦].

٥ . العدل مُرضٍ لجبر الاختلافات بين الأنا والآخر، ويطوي هوة التباعد والفراق ويعيد الوحدة والألفة ويحقق الوفاق والاتفاق على ما يجب {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}[١١٥٧]. وقوله تعالى: {إنا أنزلنا أليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله}[١١٥٨].

٦ . طاعة الرسول تجبر العبد مع خالقه {من يطيع الرسول فقد أطاع الله}[١١٥٩]، وقوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله}[١١٦٠]، وقوله تعالى: {وقال الله إني معكم لئن أقمتم

[١١٥٠] المرجع السابق ص ٢٩٢ . ٢٩٣.

[١١٥١] البقرة ٢٦٣.

[١١٥٢] الزمر ٥٣.

[١١٥٣] الحجر ٥٦.

[١١٥٤] القصص ٨٣.

[١١٥٥] المائدة ٣٢.

[١١٥٦] فصلت ٤٦.

[١١٥٧] النساء ٥٨.

[١١٥٨] النساء ١٠٥.

الصلاة واتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار}[١١٦١].

٧. طاعة أولي الأمر وتتجزأ إلى جزأين:

الجزء الأول: طاعة أولي الأمر في غير معصية الله تجبر العلاقة مع الوالدين {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[١١٦٢]

الجزء الثاني: طاعة من يُزكى بأمرٍ، وهم الذين يكلِّفون ممن يتعلق الأمر بهم بتولي الأشراف والرعاية والتنفيذ مع القبول الإرادي من قبل أصحاب الأمر، ومن قبل الذي يتم اختياره حتى يتحمَّل المسؤولية تجاه أي تقصير أو خلل في الأمر الذي من أجله يستوجب الطاعة {وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[١١٦٣] طاعة الرسول هي طاعة لله تعالى، وطاعة أولي الأمر: هي طاعة للأمر الذي هو من الذين تستوجب منهم الطاعة. ولذا قال تعالى (أولي الأمر منكم) ولم يقل أولي أمركم، فأولي أمركم تعني الذين يتولون أمركم كالوالدين أو الأخوة أو من له علاقة والأحقية في الطاعة من غير معصية الله تعالى. أمَّا أولي الأمر منكم فهم الذين يتولوا تنفيذ ما يقرره أصحاب الأمر، وهنا تكون الطاعة لمن يعمل بأمانة على تنفيذ ما تم تكليفه به دون زيادة ولا نقصان، فإن حاد عن الأمر فلا طاعة له في شيء. وهذا الأمر يتعلق بمن يتم اختيارهم لرئاسة البلاد أو لعضوية في المجالس التنفيذية أو الرقابية أو المؤتمرات واللجان الشعبية أو البرلمانات في الأنظمة النيابية، وكذلك كل من يُكلَّف ويقبل التكليف وفقا للدساتير والقوانين المُسنة والمعتمدة من قبل من يتعلق الأمر بهم.

[١١٥٩] النساء ٨٠.

[١١٦٠] النساء ٦٤.

[١١٦١] المائدة ١٢٣.

[١١٦٢] الإسراء ٢٣، ٢٤.

[١١٦٣] النساء ٥٩.

٨ . الإحسان يجبر علاقة مع الله تعالى ومع الذين هم في حاجة لمن يحسن إليهم مصداقا لقوله تعالى: {ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين}[١١٦٤]. وقوله جل جلاله: {وأحسن كما أحسن الله إليك}[١١٦٥].

٩ . التسامح والعفو عند المقدرة {والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس}[١١٦٦] وقوله عز وجل: {وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم}[١١٦٧].

١٠. إزهاق الباطل وإحقاق الحق {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}[١١٦٨].

الجبار بالإضافة هو من آمن بالجبار المطلق الذي لا يتجبَّر إلا في الحق، ولذا فهو الجبار الحق، أي أنه لا يجبر ظلمٍ مع ظلمٍ، ولا ذُلٍ مع ذلٍ، ولا قهرٍ مع قهرٍ، ولا إفسادٍ مع إفساد، بل يجبر عاطفة وكسرٍ وعلاقة وفرقة حتى تتم اللحمة، ولهذا فهو الجبار من أجل الإصلاح؛ والصلح خير. قال تعالى: {ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المصلح من المفسد}[١١٦٩] وقال تعالى: {وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون}[١١٧٠].

إذن الخليفة هو المُصلح في الأرض وليس المفسد فيها، وبهذا إن أفسد فلن يكون من الخلفاء فيها، والإصلاح يستوجب الآتي:

١ . نية صادقة حيث لا غاية ولا مآرب إلا الإصلاح من أجل الخير.

٢ . جهدا يُبذل وعملاً يُخلص فيه.

٣ . معرفة الأسباب التي تكمن وراء الإفساد.

٤ . تنقية الالتباسات وتوضيحها مع التصويب.

[١١٦٤] المائدة ٩٣.

[١١٦٥] القصص ٧٧.

[١١٦٦] آل عمران ١٣٤.

[١١٦٧] النور ٢٢.

[١١٦٨] الأنبياء ١٨.

[١١٦٩] البقرة ٢٢٠.

[١١٧٠] هود ١١٧.

٥ . تصحيح المعلومة الخاطئة بمعلومة صائبة.

٦ . إيجاد البديل الذي به تحدث اللحمة.

٧ . جبر الكسر لتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

٨ . التوكل على الله تعالى والتطلُّع إلى صناعة المستقبل الأفضل حتى لا تحدث الانتكاسة.

الجبار الحق هو الذي ينحاز للحق، والجبار بالإضافة كذلك، أما المتجبر بغير الحق فهو الذي لا ينحاز إلا لظلمٍ. والفرق كبير بين الجبار الحق الذي يجبر ولا يكسر، وبين المتجبر الذي يكسر ولا يجبر. إن الاشتقاق الأول غايته اللحمة والإصلاح، والاشتقاق الثاني غايته التباعد والانفصال والإفساد، ولذا فالجبار المطلق يناصر الحق حتى النصر طوعا وكرها، والجبار بالإضافة يناصر الحق حتى النصر أو الاستشهاد دونه. ولهذا يحق الله الحق ويبطل الباطل {وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أنَّ غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون}[١١٧١].

إنَّ الجبابرة هم الطغاة الذين يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه، وبأعمالهم غير الإنسانية يفسدون في الأرض، وفي مقابل ذلك الله يريد الإصلاح فيها، ويريد إحقاق الحق ولو كرها المجرمون، لذا فالذي يكون جبارا بالإضافة يكون الله معه نصيرا. وفي هذا الأمر يصبح الجبر واجب وحق على كل مؤمن. {ولينصرن الله من ينصره إنَّ الله لقوي عزيز}[١١٧٢] وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم}[١١٧٣]. وقوله عز وجل: {واستفتحوا وخاب كلُّ جبار عنيد}[١١٧٤] أي أبشروا فالنصر من عند الله آتي لا محالة، مصداقا لقوله تعالى: {إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا}[١١٧٥].

[١١٧١] الأنفال ٨.

[١١٧٢] الحج ٤٠.

[١١٧٣] محمد ٧.

[١١٧٤] إبراهيم ١٥.

[١١٧٥] الطارق ١٥ ، ١٦.

الجبار الحق: لإحقاق الحق، والجبار الظالم: لنشر المظالم، ولأنه لا مقارنة بين الجبار الحق والجبار الظالم، فإن الجبار الحق هو: الذي يُحق الحق ويزهق الباطل مصداقا لقوله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}[١١٧٦]. ومن الناس من يتجبَّر عليهم بظلمٍ من أجله فقط وأجل مصالحه وآرائه القاصرة، فيجبرهم قهرا على ما لا يرغبون ومالا يحبون أو يفضلون، والجبار الحق هو الذي يجبر الناس مع ما ينفعهم هم، أي أنه الجبار من أجلهم هم، وليس الجبار من أجله هوَّ.

يقول الشيخ الشعراوي: "إنَّ الجبر الإلهي بكل معانيه صفة من صفات الكمال الإلهي المطلق، ولا يستعمل الحق جل وعلا جبروته في مواضع إلا تحقيقا لخير أو دفعا لشر، وهو سبحانه مستحق للحمد على جبروته كما هو مستحق للحمد على رحمته ومغفرته وكرمه"[١١٧٧].

وصدق الله العظيم في قوله: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون}[١١٧٨].

لما كان الجَبَّارُ هو الله عز اسمه القاهر خلقه على ما أَراد من أَمر ونهي؛ ولأن الجبار في صفة الله عز وجل الذي لا يُنالُ منه، جعل جَبَّاراً في صفة الله تعالى أَو في صفة العباد من الإِجْبار وهو القهر والإِكراه لا من جَبَرَ[١١٧٩].

فالجَبَّار العالي فوق خلقه. وفي الحديث سبحان ذي الجَبَرُوت والمَلَكُوت هو فَعَلُوتٌ من الجَبْر والقَهْر[١١٨٠]. ولما كان ذلك من أفعاله تعالى فكيف يقبل من عبده أن يكون كذلك، فالجَبَّار هو المتكبر عن عبادة الله تعالى، فالخلفاء يدعون ربهم ليل نهار ألا يكونون كذلك، ومن ذلك قوله تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا}[١١٨١]، وكذلك قول الله تعالى على لسان عيسى عليه الصلاة

[١١٧٦] الأنبياء ١٨.

[١١٧٧] محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى.القاهرة . دار أخبار اليوم ص ١٨١.

[١١٧٨] الحشر ٢٣.

[١١٧٩] لسان العرب ، ج٤ ، ص١١٣.

[١١٨٠] لسان العرب ، ج٤ ، ص ١١٣.

[١١٨١] مريم١٢-١٤.

والسلام: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}[١١٨٢]، أَي متكبراً عن عبادة الله تعالى، فلا تدخله الرحمة؛ الرحمة لا توجد في قلب ذي كبر، ويرجع ذلك لعدم قبوله الموعظة، فيصير رجلا جَبَّارا متُسَلِطًا قاهرا، وقد نهى الجبار جل جلاله عن ذلك رسوله، فقال الله عز وجل: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[١١٨٣]، فقوله تعالى: (وما أَنتَ عليهم بِجَبَّارٍ)، أَي بِمُسَلَّطٍ فَتَقْهَرَهم على الإِسلام.

من صور تجبر خلقه على خلقه:

والتجبر نوعان: تجبر محمود، وتجبر مذموم، ومن صوره:

- جَبَّارُ يَقْتُلُ على الغَضَبِ: وذلك ما فعله جبابرة العالم، ولأقل سبب تراهم يقتلون والدماء يسفكون، وأحيانا بغير سبب، فقد ورد في كتب التاريخ أن جبابرة حكموا العالم بقسوة وعنف، وعمروا دهرا طويلا مع قدرته تعالى على إهلاكهم في طرفة عين، ولكن هنالك حكم ومصالح لا يمكن أن يحيط بها بشر، "قال مجاهد وغيره: فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان، وكافران"[١١٨٤].

فالمؤمنان:

١ . ذو القرنين: كان ذو القرنين ملك بعد النمرود، وكان من قصته أنه كان رجلا مسلما صالحا أتى المشرق والمغرب، ومد الله له في الأجل، ونصره حتى قهر البلاد، واحتوى على الأموال، وفتح المدائن، وقاتل الرجال، وجال في البلاد والقلاع فسار حتى أتى المشرق والمغرب، فذلك قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا}[١١٨٥]، أي خبرا، وقال تعالى: {إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ

[١١٨٢] مريم٣٢-٣٤.

[١١٨٣] ق، ٤٥.

[١١٨٤] البداية والنهاية، ج١ ص ١٧١.

[١١٨٥] الكهف٨٣.

تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا}[١١٨٦]، وقوله تعالى: (أَتْبَعَ سَبَبًا)، أي علما بطلب أسباب المنازل؛ ليجبر به الناس على عبادة الواحد الجبار، وقال قتادة: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني: تعليم الألسنة كان لا يغزو قوما إلا حدثهم بلغتهم، والجبر الصحيح أنه يعلم كل سبب يتوصل به إلى نيل مقصوده من جبر الممالك في المملكة وغيرها، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة والمطاعم والزاد ما يكفيه ويعينه على أهل الإقليم الآخر، ومكث طويلا يجوب الأرض ويدعو أهلها إلى عبادة الله وحده لا شريك له[١١٨٧]. وقوله: (فاتبع (فاتبع سببا) أي طريقا من طرق الجبر التي مده الجبار المطلق بها، قال تعالى: (حتى إذا بلغ مغرب الشمس)، يعني من الأرض، انتهى إلى حيث لا يمكن أحدا أن يجاوزه ووقف على الحافة فشاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلى مشاهدته (تغرب في عين حمئة)، والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو على ساحله، يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه؛ ولهذا قال: (وجدها) أي في نظره، ولم يقل: فإذا هي تغرب في عين حمئة، أي ذات حمأة، وهذا هو الجبار بالإضافة الذي استطاع أن يجبر أهل الأرض على طاعة الله تعالى.

٢. سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام: لما توفي داود ملّك بعده ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام على بني إسرائيل، وكان ابن ثلاث عشرة سنة، وسأل الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فاستجاب له وسخّر له الإنس والجنّ والشياطين والطير والريح، فكان إذا خرج من بيته إلى مجلسه عكفت عليه الطير وقام له الإنس والجنّ حتى يجلس، هكذا بقوة الجبَّار المطلق كان سليمان عليه الصلاة والسلام خليفة جبارا لأجل الإصلاح والفلاح لا لأجل الفساد والخراب والدمار، فسبحان من جبر القلوب على طاعة أوامر عباده الصالحين، فقد

[١١٨٦] الكهف٨٤-٨٩.

[١١٨٧] البداية والنهاية، ج ٢ ، ص ١٢٦.

سخّر له الريح والجنّ والشياطين والطير وغير ذلك، ومن جبره بالإضافة فإنه كان يحكم في القضايا ويحلها بشكل مُرضٍ فقد كان أبوه يستشيره في حياته ويرجع إلى قوله، فمن ذلك ما قصّه الله في كتابه العزيز في قوله: {وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ}[١١٨٨]، وكان خبره: أنّ غنماً دخلت زرعا فأكلت منه وأفسدته، فقضى داود بالغنم لصاحب الزرع، فقال سليمان: أن تسلّم الزرع إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الزرع فيصيب منها إلى أن يعود زرعه إلى حاله ثمّ يأخذ زرعه ويدفع الغنم إلى صاحبها، فأمضى داود قوله، وقال الله تعالى: (ففهّمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلما)، وفي هذا دليل على أنّ كلّ جبار بالإضافة مجتهد في الأحكام الفرعيّة مصيب، فإن داود أخطأ الحكم الصحيح عند الله تعالى وأصابه سليمان، فقال الله تعالى: (وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً)، وكان سليمان يأكل من كسب يده، وكان كثير الغزو، وكان إذا أراد الغزو أمر بعمل بساط من خشب يسع عسكره ويركبون عليه هم ودوابهم وما يحتاجون إليه، ثمّ زمر الريح فحملته فسارت في غدوته مسيرة شهر وفي روحته كذلك[١١٨٩]، قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}[١١٩٠].

والجباران الكافران هما:

١ – النمرود بن كنعان: فأبوه أول من ملك الأرض من ولد نوح وهو كنعان بن كوش بن حام فسار من أرض كنعان بالشام إلى أرض بابل فبنا مدينة بابل، وورث ملكه ابنه النمرود الجبار الطاغية، وعظم سلطانه في الأرض وطال عمره، وغلب على أكثر المعمورة، وأخذ بدين الصابئة، وفي زمانه بنا النمرود الصرح ببابل[١١٩١]، وكان من أمره ما نصه القرآن

[١١٨٨] الأنبياء٧٨ ، ٧٩.

[١١٨٩] الكامل في التاريخ، ج١ص٧٥.

[١١٩٠] الأنبياء٨١.

[١١٩١] تاريخ الطبري، ج١، ص ٢٨٧-٢٨٨، وتاريخ ابن خلدون، ج٢ ، ص ٣٤.

الكريم، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ}[١١٩٢]. ذكر أن نمرود آثر الحياة الدنيا، فلما دعاه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع فحاجَّ إبراهيم الخليل في ذلك، وادَّعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل: ربي الذي يُحي ويميت، قال: أنا أحي وأميت، يعني أنه إذا أُتِيَ بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[١١٩٣]، فقول هذا الملك الجاهل أنا أحي وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد تجبَّر و كابر وعاند. ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم؛ ذَكَرَ دليلا

[١١٩٢] الأنبياء٥١-٧٢.

[١١٩٣] البقرة٢٨٥.

آخر بَيَّنَ وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود، قال تعالى: (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ)، أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما جبرها وسخرها خالقها ومسيرها وقاهرها، وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب، فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء وجبره، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها، فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت؛ ولهذا قال: {فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). وقد ذكر أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به يومئذ فكانت بينهما هذه المناظرة، وروى أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب، فملا منه عدليه، وقال أشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين، فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا، فعملت منه طعاما، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل. وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى عليه، ثم الثالثة فأبى عليه، وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابا بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم وتركتهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منها في منخر الملك، فمكثت في منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها، فكان يضرب رأسه بالمزارب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها. وكان نتيجة صبر سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام

أن آمن به سيدنا لوط، وجعل في ذريته النبوة، فهكذا تجبر القلوب بالمكافأة التي قد لا تكون ردودها آنية، قال تعالى: {فَآَمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[١١٩٤]، وقال الله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسماعيل وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِنْ آَبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ}[١١٩٥].

٢ – شداد بن عامر بن عاد: وهو الذي بنا إرم ذات العماد، وكان جباراً من الجبابرة، وهو الذي أراد أن يبني صفة الجنة، فمكث في بنائها خمسمائة عام، قال الله تعالى فيوصف ما بنوه: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}[١١٩٦]، ولكنهم طغوا وعتوا وتجبروا؛ فبعث الله سيدنا هود عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الله، فزادوا في الكفر والطغيان، وكان شداد قد تم سبعمائة سنة، فأنذره هود بعذاب الله، فلم يرتدع، فأخذته الصيحة، ومن معه[١١٩٧]. قال تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ

[١١٩٤] العنكبوت، ٢٦–٢٧.

[١١٩٥] الأنعام٨٣–٩٠.

[١١٩٦] الفجر٦–٨.

[١١٩٧] النور المسافر، ج ١، ص ٧٠.

بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}[١١٩٨].

جَبَّارٌ يقتل بغير حق: ففي التنزيل العزيز تظهر صورة التجبر بغير الحق واضحة جلية وبشكلها الممقوت فيما كان يفعله قوم عاد، قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آَيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ}[١١٩٩]، فقوله تعالى: (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ) فيه دلالة واضحة على عظم ما كانوا يفعلون من تجبر وتكبر والذي دون شك يكون نتاجه الهلاك والفساد لهم ولمن يقع عليه ذلك التجبر الممقوت عند الله والناس. وكذلك قول الرجل لموسى في التنزيل العزيز: {فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}[١٢٠٠]، أي قتَّالاً في غير الحق وكله راجع إلى معنى التكبر والتجبر بغير الحق.

من مظاهر الجبار:

- جبر الخليفة للمؤلفة قلوبهم بالصدقات:

[١١٩٨] هود٥٠-٥٩.

[١١٩٩] الشعراء١٢٤-١٣٦.

[١٢٠٠] القصص١٩.

على الجبار بالإضافة أن يجبر بالفقير فيسد مفاقره؛ ولأن ذلك يجبر القلوب فيقيمها ويثبتها على الدين الحنيف، فتقترب من معرفة الجبار، والإقرار به، فالجبار جل جلاله ما أمر بأن يحسب المؤلفة قلوبهم من الأصناف التي يجب عليهم الزكاة إلا لجبر قلوبهم ليدخلوا في الإسلام، ولو كانوا أغنياء، قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[١٢٠١].

- جبر النبات:

ويجبر النبتُ والشجر الأخْضر أَوْرَقَه ويظهر فيه المَشْرَةُ ويعود نابتاً مخضرّاً بعدما كان رعي وأُكِل، ومن تَجبُّر الجبار بالنبت والشجر ينبت في يابسه الرَّطْبُ فيصلح بعد أَكله، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[١٢٠٢]، وقال تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[١٢٠٣].

- جَبَرَ الدين:

وذلك بالإيمان؛ ولذلك سميت المدينة المنورة (يثرب) بالجابِرَة، كأَنها جَبَرَتِ الإيمانَ، وسماها النبي صلى الله عليه وسلم المدينة بذلك؛ لما رأى منها من جبر للقلوب بالإيمان، وإخراجها من الظلمات إلى النور، قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٢٠٤]، وقال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

[١٢٠١] التوبة٦٠.

[١٢٠٢] الزمر٢١.

[١٢٠٣] الحديد٢٠.

[١٢٠٤] البقرة٢٥٧.

مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[١٢٠٥]، وقال تعالى: {الر {الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}[١٢٠٦].

- جبر السموات والأرض:

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٢٠٧].

- جبر الكون:

وبما حواه من سموات وأرضين وما في السماء من كواكب ونجوم وقمر وشمس، وما ينتج عن حركتها من ليل ونهار، و ما في الأرض من بحار وأنهار، وما تخرج الأرض من نبات وأشجار، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}[١٢٠٨].

- جبر القلوب بالإحسان:

ولما كان من تأثير للإحسان على القلوب فكان هذا الميزان الذي خلقه في الإنسان أداة لجذب القلوب وجبرها لتتوحد، وتكون سببا في عمار هذا الكون، وفي توحدها نصرة على هذا الكون الواسع وما يتطلبه من معطيات لا يمكن أن تتوفر إلا بالاتحاد، فجعل الجبَّار المطلق جبر القلوب بالإحسان لا بكره وهو قادر على فعل ذلك؛ ولكن يريد من الإنسان أن يكون أداة إعمار لهذا الكون الواسع، وليكون جوابا للملائكة الكرام في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى

[١٢٠٥] البقرة٢٢.

[١٢٠٦] إبراهيم١.

[١٢٠٧] البقرة٢٩.

[١٢٠٨] إبراهيم٣٢ ، ٣٣.

الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[١٢٠٩].

– جَبْرُ القضاء والقدر بالتثبيت والوقوع: والذي يلزمه، الصبر: والصَّبْرُ أَنواع منه:

١ – الصبر على طاعة الجَبَّار: والتي تتمثل في:

أ– مجاهدة الأعداء: وهذا ما صبر عليه الرسل والأنبياء، وهم الذين مجَّدهم القرآن الكريم في قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[١٢١٠].

ب– مجاهدة النفس والشيطان: والتي يجب على الخليفة الجبَّار بالإضافة أن يحذر غضب الجبَّار المطلق، وليحذر أعداءه، وعلى رأسهم الملعون الشيطان الرجيم الذي إن لم تتعوذ منه قد يحول بينك وبين علاقتك بالجبار المطلق جل جلاله حتى يفسدها، وهكذا النفس الأمارة بالسوء إن لم تتطهر هي الأخرى تقود إلى الضلال، ولذا فالجبار بالإضافة هو الذي ارتقت نفسه حتى أطمئنت بذكر الله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[١٢١١].

٢ . الصَّبْرُ على معاصِي: ويكون الخليفة الجبار كذلك بالآتي:

أ – بالتقوى: بامتثال قوله تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[١٢١٢]، وقوله تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى

[١٢٠٩] البقرة٣٠–٣٣.

[١٢١٠] آل عمران١٤٦–١٤٨.

[١٢١١] البقرة ١٦٨ ، ١٦٩.

[١٢١٢] البقرة ١٩٧.

رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[١٢١٣].

ب – الرضا والقناعة: وذلك بالرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل، ليوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من جاء بقلب سليم، قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[١٢١٤].

اللهم يا الجبَّار اجبر أنفسنا على الطاعة التامة والطمأنينة التامة، ولا تجعلها مع الأهواء والضالين، اللهم أجبرنا على طاعة الوالدين في غير معصيتك، اللهم أجبرنا على الصلاة والصوم والزكاة والحج إننا نلبيك واحدا أحدا لا شريك لك ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الرسول الخاتم بالرسالة الكافة كما نصلي ونسلم على جميع أنبيائك ورسلك، اللهم أجبر خواطرنا وخواطر أبنائنا برضاك ولا تجعلنا في حاجة لسواك، اللهم إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك. اللهم أجبرنا مع العدل على العدل الحق، واجعلنا من المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها فنعم المولى ونعم النصير.

[١٢١٣] الفتح ٢٦ .

[١٢١٤] التوبة ١٠٠.